الجامع في أخبار القرامطة

في

الأحساء - الشام - العراق - اليمن



الأستاذ الدكتور

سهيل زكار

التكوين

الجامع في أخبار القرامطة

في

الأحساء - الشام - العراق - اليمن

الجامع في أخبار القرامطة

في الأحساء - الشام - العراق - اليمن

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

التكوين
للتأليف والترجمة والنشر
دمشق - حلبوني

تلفاكس 0112236468 جوال 0944330989
ص . ب : 11418
taakwen@yahoo.com

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

الجامع في أخبار القرامطة

في

الأحساء - الشام - العراق - اليمن

الجزء الأول

الإهداء

إلى ولدي مصطفى

هذه أخبار سلف ثاروا فأخفقوا

لأنهم رفضوا التراث فلكن ثوريا تراثيا

سهيل

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

لاقى تاريخ القرامطة في العصر الحديث ـ وما زال يلاقي عناية كبيرة من قبل عدد كبير من الباحثين،كثر عدد العرب بينهم في الآونة الأخيرة،وتفاوتت ـ وماتزال ـ دوافع الباحثين فبعض المستشرقين قد بحث تفتيشا عن التناقضات في تاريخ العرب والاسلام ، وبعض آخر استهدف التعرف الى حقائق تاريخية وقعت ، أما بالنسبة للعرب فبعضهم بحث انطلاقا من قاعدة الأوائل في الملل والنحل ، ولم يخرج عن نطاق الكفر والايمان والحلال والحرام إلا قليلا ، وبعضهم الآخر آمن بالاشتراكية فأخذ يبحث في التراث عن السوابق .

وشدة الاهتمام هذه تبعث على الارتياح ، لكنها تثير شيئا من القلق والارتياب خشية الانحراف والابتعاد عن الحقائق الموضوعية ، فقد أراد بعض الكتاب العرب « عصرنة حركة القرامطة » بجعلها تشبه بعض ما شهده عصرنا من حركات ، يضاف الى هذا أن جل الباحثين ركز جهوده على قرامطة العراق والاحساء ، وأهمل قرامطة الشام وقرامطة اليمن ، واكتفى بالاعتماد أثناء البحث على المشهور المتيسر من المواد الإخبارية .

لا شك أن في هذا تقصير ، حيث ينبغي على الباحث في مثل هذا الموضوع طرقه بشكل شامل، والالتزام بالتعليل التاريخي حسب معطيات عصر الحادثة، وليس حسب متطلبات العصر الحاضر ، فصرخة احتجاج ونداء بالمساواة في عصر كان الانسان يباع فيه ويشرى تعدل،إن لم تفق ، كل أصوات ثوار الحركات الاجتماعية في أيامنا هذه، أضف الى هذا: إن قواعد البحث التاريخي توجب على الباحث التقصي في عمله والتفتيش عن مصادر جديدة ، مع محاولة تقديم رؤى تحليلية محدثة للنصوص المتوفرة ، ومن المفيد أن نتذكر أن خزائن الكتب العربية الخاصة والعامة عبر العالم ما تزال تحوي عددا غير معروف من كتب التاريخ ومصادر الماضي ، فيها ما يزيل الحجاب عن كثير من القضايا المبهمة والمعلقة ، ويساعد على رسم صورة للماضي العربي أكثر وضوحا وشمولية واشراقا ، ولا شك أن معرفة الماضي بشكل أصح وأشمل ، تساعد كثيرا على فهم الحاضر ، ومن ثم التخطيط للمستقبل .

والبحث في تاريخ العرب والاسلام بشكل عام ليس بالامر السهل ، يعرّض

الباحث لكثير من المشاكل والمزالق ، يهمني أن أشير هنا الى واحـدة منها ، لشدة وضوحها أثناء البحث في تاريخ القرامطة :

قام الفكر الاسلامي والعقيدة على المزج بين المفاهيم الدينية والدنيويـة ، وهكذا يجد الباحث في أية قضية من قضايا الماضي الاسلامي نفسه وسط لجة من المسائل الدينية ، حتى ولو أنه كان يبحث في صناعة من الصناعات أو ما يشبه ذلك ، ومهما حاول الباحث تجنب الخوض في المسائل الدينية يجد ذلك متعذرا ، وهكذا يجد عمله له صفة دنيوية وسمة دينية شاء ذلك أم أبى •

وتلقي هذه المسألة بكلكلها وبكل ثقلها وذاتها على الباحث في تاريخ القرامطة، آخذين بعين الاعتبار أن هذه الحركة نشأت وترعرعت وانتهت وسط حركات كانت من أكثر حركات التاريخ انشغالا بالقضايا الدينية والتأويلات اللاهوتية والفلسفية المعقدة للغاية •

إن ما يهم الباحث والمؤرخ أيامنا هذه من أخبار القرامطة هو السمات الثورية والحلول الاقتصادية والاجتماعية لديهم، لكن أنى له أن يتفرغ لهذا وينفرد، ويكتب وهو متحرر من كابوس الحلال والحرام والكفر والايمان ، ذلك أن الفرق شاسع بين الباحث في التاريخ وبين رجل الدين وعلم الكلام ، فالاول يبحث عما وقع في التاريخ والثاني يفتش عما يتماشى مع قانونه وعقيدته أولا يتماشى •

قديما واجه الامام الغزالي مسائل الخلافات بين المذاهب والفرق مع مسألـة الكفر والايمان فتصدى لها في كتبه وكان من أوضح ما كتبه قد جاء في كتابـه « فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة » حيث قال : [ص ١٩٥ ــ ١٩٦] •

« اعلم أن شرح مايكفر به ولايكفر به يستدعي تفصيلا طويلا يفتقر الى ذكر كل المقالات والمذاهب ، وذكر شبهة كل واحد ودليله ، ووجه بعده عن الظاهر ووجه تأويله ، وذلك لايحويه مجلدات ، ولاتتسع لشرح ذلك أوقاتي ، فاقنع الآن بوصية وقانون •

اما الوصية فـأن تكف لسانك عن أهـل القبلة ما أمكنك ما داموا قائلـين لا إله إلا الله محمد رسول الله غير مناقضين لها ، والمناقضة تجويزهم الكذب علـى رسول الله ﷺ بعذر أو غير عذر ، فإن التكفير فيه خطر ، والسكوت لاخطر فيه •

اما القانون فهو أن تعلم أن النظريات قسمان : قسم يتعلق بأصول العقائد ، وقسم يتعلق بالفروع ، وأصول الايمان ثلاثة : الايمان بالله، وبرسوله، واليوم الاخر، وما عداه فروع ، واعلم أنه لا تكفير في الفروع أصلا ، إلا في مسألة واحدة ، وهي أن ينكر أصلا دينيا علم من الرسول صلى الله عليه وسلم بالتواتر ، ولكن في بعضها

تخطئة كما في الفقهيات،وفي بعضها تبديع كالخطأ المتعلق بالامامة وأحوال الصحابة.

واعلم أن الخطأ في أصل الإمامة وتعيينها وشروطها ، وما يتعلق به ، لا يوجب شيء منه تكفيرا ، فقد أنكر ابن كيسان أصل وجوب الامامة ، ولا يلزم تكفيره ، ولا يلتفت الى قوم يعظمون أمر الامامة ، ويجعلون الايمان بالامام مقرونا بالايمان بالله وبرسوله ، ولا الى خصومهم المكفرين لهم بمجرد مذهبهم في الإمامة ، فكل ذلك اسراف،إذ ليس في واحد من القولين تكذيب للرسول ﷺ أصلا » .

في ظل هذه المنطلقات الغزّالية حاولت أن أعمل أثناء دراستي وتحقيقي لمواد كتابي « الجامع في أخبار القرامطة » وغالباً ما كنت خلال ذلك كله أردد مع أبي العلاء المعري قوله :

إذا رجع الحليم الى حجاه ... تهاون بالمذاهب وازدراها

وقوله :

في كل أمرك تقليد تدين به ... حتى مقالك ربي واحد أحد

وقوله :

في كل جيل أباطيل يدان بها ... فهل تفرد يوما بالهدى جيل

لقد ألححت في الدراسة على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية وسعيت الى تحليل جذور القضايا من هذا المنطق وعلى أساسه ، فعلت ذلك وأنا لا أومن بآحادية السبب والعلة في التاريخ ، وانما ايقانا بأهمية العامل الاقتصادي والاجتماعي وخطورته، وادراكا لما يعيشه المسلمون الآن، ولما أظلهم من خلافات وحروب طائفية، فنحن نحتاج الآن الى ما يجمع لا الى ما يفرق ، تجمعنا الاصول فما بالنا تتعلق بالفروع ، وأي فروع هذه ؟! إنها فروع مضى على نشوئها قرون وقرون حتى بليت وما عاد لها من مكان الا في الاوهام ، ولا مكان للاوهام في عصر سيطرت فيه مقاييس العلوم البحتة والرياضيات .

لقد أعدت العمل بكتابي أخبار القرامطة ، لأن ضرورات البحث اقتضت ذلك، ويشكل عملي فيه اليوم مرحلة ثالثة ، كانت أولاها عندما أخرجت أولا كتاب تاريخ أخبار القرامطة ، وثانيها عندما خرج كتاب أخبار القرامطة ، وحاولت في هذه المرحلة الثالثة أن لا أطيل الدراسة إلا بقدر مايكفي لمساعدة القارىء ولتوجيهه بعض التوجيه، وقد عدت الى سلسة عريضة من المصادر والمراجع ، سأضع ثبتا لها في آخر الكتاب .

كما وأضفت في هذه المرحلة عددا كبيرا جديدا من النصوص التي لم يسبق نشرها أو الاستفادة منها .

ويحوي كتابي هذا مع الدراسة جل ما كتبه العرب حول تاريخ القرامطة ، ولم يحدث قط أن حوى كتاب آخر ما حواه ، حتى بات أشبه بالموسوعة ، ولهذا اقتضى الحال ادخال تعديل على عنوانه حيث أصبح « الجامع في أخبار القرامطة » ، على أنه بانصاف ينبغي القول : انه ما زال هناك العديد من الكتب فيها مواد خطيرة حول تاريخ القرامطة بعضها ما زال محجوبا عني لم أستطع الوصول اليه وبعضها قد طبع من بينها تاريخ الطبري والحدائق والعيون لمؤلف مجهول، وتجارب الامم لمسكويه، والكامل لابن الاثير ، وتاريخ سني ملوك الارض والانبياء عليهم السلام لحمزة الاصفهاني وبعض كتب الملل والنحل والفرق .

لقد أفدت في الدراسة مما ورد في هذه الكتب ، ولم أجد ضرورة لادخال موادها في كتابي ، لتيسر هذه المواد للقارىء ولعدم امتلاكي نسخاً خطية عنها تسوغ اعادة التحقيق ، ومهما يكن من أمر إن نصوص كتابنا هذا تقدم صورة متكاملة شاملة لتاريخ القرامطة ، تزدادا تدعيما بما أوردته المصادر المشار اليها ، انما دون زيادة تفاصيل هامة تبدل الصورة أو حتى تعدلها، مع التأكيد ـ على ما سيأتي ذكره ـ أنه لم يسبق من قبل طرح موضوع تاريخ قرامطة اليمن والشام في كتاب قبل كتابنا هذا .

ولقد رتبت نصوص هذا الكتاب حسب سابقة المؤلف بالوفاة ، وليس حسب الموضوع الاول فيها، لأن هذا أمر لم يلتزم به أي واحد من المصنفين وبذلت في تحقيق هذا الكتاب غاية الجهد ، وأفرغت فيه محصلة أعمال بحث استمرت أكثر من خمس عشرة سنة ، لكن على الرغم من كل هذا فان جهدي هو جهد انسان طاقاته لها حدود ، بعيد عن العصمة قريب من مواقع الخطل والوهم ، وكما حدث معي في كتابي هذا حين قمت أثناء التحقيق بتقويم بعض أغاليط جيل مضى من الباحثين . أتوقع أن يأتي من يقوّم لي أغاليطي واجتهاداتي ، إن وجدت .

هذه دعوة الى القارىء والباحث للنقد البناء المفيد بالمراسلة الخاصة أو عبر المجلات والصحف والابحاث ، راجيا ممن يقوم بذلك اخباري أو ارسال نسخة من نقده ، ولا شك أنني سأكون عظيم الحظ اذا ما أغنيت تجربتي بتجارب غيري .

والله تعالى من وراء القصد وله الحمد والمنة ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وامام المرسلين وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

سهيل زكار

الباب الاول

مدخل الى تاريخ القرامطة

الفصل الاول

الدعوة الاسماعيلية وقيام الخلافة الفاطمية

نشوء الحزبيـــة في الاسلام :

واجهت الامة الاسلامية الناشئة أولى أزماتها السياسية الصعبة داخليا يـوم مرض النبي ﷺ مرضه الاخير ، وساعة وفاته ، ونشأت أصول الازمة حول مسألـة زعامة المسلمين بعد النبي ، فالنبي لم يترك ــ كما ترى غالبية الجماعة الاسلامية ــ وصية خاصة محددة يوضح بها شكل الحكم من بعده ، ففي أثناء مرضه ﷺ الاخير، الذي جعله يلزم الفراش ، شعر غالبية المسلمين بالقلق الشديد ، ودنو المخاطر ، وبدأ الناس يتساءلون عن المستقبل ، ويطرحون الاستيضاحات حـول مشكلة الحكـم والزعامة بعد غياب النبي ﷺ ويبدو أن صدى هذه التساؤلات قد وصل الى النبي حيث روي عن ابن عباس قوله : « لما احتضر رسول الله ﷺ ، وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال النبي ﷺ : هلموا أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده ، فقال عمر : إن رسول الله ﷺ قد غلب عليه الوجـع[1] ، وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله ، فاختلف أهل البيت واختصموا ، فمنهم من يقول : قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ كتابا لا تضلوا بعده ، ومنهم من يقول ما قال عمر فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند رسول الله ﷺ قال : قوموا ••• فكان ابن عباس يقول : إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب ، مـن اختلافهم ولغطهم »[2] .

لقد ورد هذا الحديث في كتب الصحاح وسبب إرباكا عظيما لكل من تعرض له من الفقهاء بشكل مباشر أو غير مباشر ، وقد عرض الحافظ ابن حجر في كتابـه فتح الباري[3] صورة ملخصة لمختلف الآراء جـاء فيها : « والهجر ــ بالضم ثـم

---

(١) في رواية البخاري ــ فتح الباري : ١٣٢/٨ « فقالوا : ما شانه اهجر » اي هذي .

(٢) مغازي الزهري : ١٣٦ . فتح الباري : ١٣٢/٨ . طبقات ابن سعد : ٢٤٢/٢ ــ ٢٤٥ .

(٣) فتح الباري : ١٣٣/٨ .

السكون ـ الهذيان ، والمراد هنا ما يقع من كلام المريض الذي لا ينتظم ولا يعتد به لعدم فائدته، ووقوع ذلك من النبي ﷺ مستحيل، لأنه معصوم في صحته ومرضه، لقوله تعالى : « وما ينطق عن الهوى » ولقوله ﷺ:« إني لا أقول في الغضب والرضا إلا حقا » ، واذا عرف ذلك فانما قاله من قاله منكرا على من توقف في امتثال أمره باحضار الكتف والدواة ، فكأنه قال : كيف تتوقف ، أتظن أنه كغيره يقول الهذيان في مرضه ؟ امتثل أمره ، وأحضر ما طلب ، فانه لا يقول إلا الحق .

قال : هذا أحسن الاجوبة ، قال : ويحتمل أن بعضهم قال ذلك عن شك عرض له ، ولكن يبعده أن لا ينكره الباقون عليه مع كونهم من كبار الصحابة ، ولو أنكروه عليه لنقل ، ويحتمل أن يكون قائل ذلك أراد أنه اشتد وجعه ، فأطلق اللازم وأراد الملزوم ، لأن الهذيان الذي يقع للمريض ينشأ عن وجعه . وقيل قال ذلك لإرادة سكوت الذين لغطوا ورفعوا أصواتهم عنده ، فكأنه قال : إن ذلك يؤذيه ويفضي في العادة الى ماذكر ... قال المازري : إنما جاز للصحابة الاختلاف في هذا الكتاب مع صريح أمره لهم بذلك ، لأن الاوامر قد يقارنها ما ينقلها من الوجوب ، فكأنه ظهرت منه قرينة دلت على أن الامر ليس على التحتم بل على الاختيار ، فاختلف اجتهادهم ، وصمم عمر على الامتناع لما قام عنده من القرائن بأنه ﷺ قال ذلك عن غير قصد جازم ، وعزمه كان اما بالوحي واما بالاجتهاد ، وكذلك تركه ، ان كان بالوحي فبالوحي ، والا فبالاجتهاد أيضا ... وقال النووي : « اتفق قول العلماء على أن قول عمر : (حسبنا كتاب الله) من قوة فقهه ودقيق نظره ، لأنه خشي أن يكتب أمورا ربما عجزوا عنها ، فاستحقوا العقوبة لكونها منصوصة ... ويحتمل أن يكون قصد التخفيف عن رسول الله ﷺ لما رأى فيه من شدة الكرب ... »

ولدى السؤال : ماذا أراد النبي ﷺ أن يكتب ؟ نجد ابن حجر وغيره يجيب « تعيين الخليفة بعده » ونزيد على هذا بيانا أن الشيعة قالت : حيل بين النبي وبين الكتابة أمر هو أن عمر كان يعرف مسبقا بأنه ﷺ سيعين علي بن أبي طالب صراحة بعدما عينه يوم غدير خم اشارة وتلميحا ، وقد ذكر هذا القاضي النعمان ، قاضي قضاة المعز لدين الله الفاطمي ، وداعي دعاته في الارجوزة المختارة بقوله :

وأنه قال على الاجماع للناس بعد حجة الوداع
وقد دعاهم بغدير خم فاجتمعوا اليه كي يسمي

لهم ولي أمرهم من بعده — فحمد الله بحق حمده
وقال اني أزمع الذهابا — فليبلغ الشاهد من غابا
أن عليا حل مني فافهموا — محل هارون على ما يعلم
من صاحب التوراة موسى فاسمعوا — ما قلته وما أقوله وعوا
ثم دعاه بينهم اليه — وقال وهو رافع يديه
يا رب وال اليوم من والاه — وعاد يا ذا العرش من عاداه[1]

هكذا تمت عملية تأويل ما حدث في غدير خم ، لكن من المرجح أن علي بن أبي طالب ، صاحب القضية لم يفهم ما جرى بهذه الصورة . جاء في كتب الصحاح : « خرج العباس وعلي من عند رسول الله ﷺ في مرضه ، فلقيهما رجل ، فقال : كيف أصبح رسول الله ﷺ يا أبا الحسن ؟ فقال : أصبح رسول الله ﷺ بارئا ، فقال العباس لعلي بن أبي طالب : أنت بعد ثلاث لعبد العصا[2]، ثم خلا به ، فقال : انه يخيل الي ، اني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت ، واني خائف ألا يقوم رسول الله ﷺ من وجعه هذا ، فاذهب بنا اليه فنسله ، فان يك هذا الامر الينا علمنا ذلك ، وان لا يك الينا ، أمرناه أن يستوصي بنا خيرا ، فقال له علي : أرأيت اذا جئناه فلم يعطناها أترى أن الناس يعطوها ، والله لا أسأله اياها أبدا »[3] .

هذا ومن المرجح أن ما روي حول قضية الكتابة لم يحدث حسب الشكل المروي ويثبت هذا اثارة المسائل التالية وتبيانها :

انه مع تحقيق الاسلام لنجاحاته الكبرى بعد فتح مكة ، ومع اتساع رقعة الدولة الاسلامية الناشئة ، ازداد تقدم النبي ﷺ بالسن ، وأخذت آثار المرض مع ما عاناه خلال حياته تظهر عليه بشكل جلي ، وهنا لابد أن عددا من المسلمين أخذ يفكر ويتساءل عن مستقبل الامة والعقيدة ، والى من ستؤول مقاليد الزعامة بعد

(١) الارجوزة المختارة : ٣٤ ـ ١١٨ .
(٢) كناية عمن يصير تابعا لغيره ، اي ان النبي سيموت بعد حين ، وتصير انت مامورا عليك .
(٣) مغازي الزهري : ١٣٣ ـ ١٣٤ . طبقات ابن سعد : ٢/٢٤٥ ـ ٢٤٧ . فتح الباري : ٨/١٤٢ .

النبي ، ومع مرض النبي الاخير أصبحت هذه المسألة بالنسبة لبعض الصحابة هاجسا جثم على صدورهم ، ولا بد أن المسلمين أثاروا هذه المسألة في نواديهم ومجالسهم ، وأن أصداء ذلك وصلت الى مسامع النبي ، ومن هنا جاء أصل الروايات حول طرح القضية على النبي صراحة وحول محاولة وضع حل مكتوب .

هذا ويرى بعض الباحثين في التاريخ الاسلامي أن النبي بعدما وضع قاعدة الشورى العريضة ما كان بامكانه أن يوصي بالحكم من بعده لشخص محدود ، أو حتى أن يبين شكل الحكومة المقبلة بصورة مفصلة ، لأن مرضه وظروف العرب السياسية ــ سيما في شمال شبه الجزيرة ــ ومفاهيمهم مع تركيبهم الاجتماعي ماكان ليسهل تنفيذ أية وصية سياسية ، ذلك « أن مكة حي لقاح لا تدين للملك »[1] .

ان في الوصية تحديدا تأباه الايام ، وتقييدا يعارضه تطور العصور ، كما أن في تسمية ولي للعهد اسباغ للشرعية والقدسية الابدية واقامة لاسرة مالكة ذات حق إلهي ، وهذا يتنافى بصورة قاطعة مع مبادىء الاسلام وعقائد النبي ، كما يرفضه تطور التاريخ ، والمستعرض لتاريخ العرب والاسلام يرى المدى الذي استغلت فيه بعض الاشارات العرضية ، مثل : استخلاف النبي لأبي بكر على الصلاة ، وحادثة غدير خم .

لقد بعث الله تعالى نبيه محمدا لهداية البشر ولسعادتهم في الدارين العاجلة والآجلة ، ولم يبعثه ليملكه على العرب أو سواهم ، والنبي حين نظم نواة أمته الجديدة جعل من العقيدة رابطا يجمع جميع أفراد الامة ويساوي بينهم ، فالمسلمون ارتبطوا بالاسلام وتعلقوا به ، فهم كانوا مسلمين ولم يكونوا محمديين ، والنبي نفسه كان مسلما ولم ينتم لغير الاسلام كما لم يسمح للمؤمنين برسالته بالانتماء لغير الاسلام ، وهذا أمر فريد متميز في تاريخ الديانات والعقائد قديمها وحديثها ، ذلك أن الموسويه هي نسبة الى موسى عليه السلام ، والمسيحية نسبة الى المسيح عليه السلام ، والبوذية الى بوذا ، والزرادشتيه الى زرادشت ، والمانوية الى ماني ، والماركسية الى ماركس وهكذا ...

في تاريخ الشرق القديم قامت المدن الاولى حول المعبد أو قصر الملك لتأمين

---

(1) انظر سيرة ابن هشام : ١/٢٢٤ (خبر عثمان بن الحويرث وتوليته من قبل بيزنطة على مكة) .

الخدمات للمعبد أو القصر ، وعلى هذا كان سكان كل مدينة رعية وخدما ، وجودهم مسوغ برفاه الملك وتلبية حاجاته ورغباته والملك يملك كل شيء من أرض ومـاء ونبات ومعدن[1] ...

عندما جاء الاسلام ألغى هذا بشكل حاسم، لكن عندما قامت حركات المعارضة في العصر الاموي ، تأثرت هذه الحركات بشكل أو آخر بالعقائد التي تجعل الناس يرتبطون بشخص أو أسرة ، وأن عليهم الثورة لايصال هذا الشخص أو الاسرة الى السلطة ، لا الثورة لتصحيح ما اعوج والغاء الظلم والحيف بشكل مباشر ، بل من خلال فرد أطلقت عليه لقب الامام أو المهدي المنتظر ، وشكل هذا انتكاسة خطيرة ، لنا عودة اليها ثانية .

لقد اختار الله تعالى محمد بن عبد الله رسولا له ، وظل النبي محمـد طوال حياته هكذا ، يبلغ أوامر ربه [فذكر إنما أنت مذكّر لست عليهم بمسيطر] ويرعى تنفيذها ، ويشرف عليه ، وهو لذلك كان « لا ينطق عن الهوى » .

لكن كيف فهم صحابة النبي ﷺ مسألة عدم النطق عن الهوى ؟ روى ابن اسحق أن النبي ﷺ اتخذ موقعا له ولاصحابه يوم بدر قبل نشوب القتال ، فجاءه الحباب بن المنذر بن الجموح فقال : « يا رسول الله ، أرأيت هـذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ، ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة ، فقال : يا رسول الله ، فان هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم ، فننزله ، ثم نغور ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله ﷺ : لقد أشرت بالرأي ، فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس ، فسار حتى اذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ... »[2]

وروى الامام الزهري في مغازيه أن النبي ﷺ أرسل يوم الخندق أثناء حصار المشركين للمدينة « الى عيينة بن حصن بن بدر الفزاري ، وهو يومئذ رأس المشركين

---

(١) انظر كتاب الغرب والعالم تأليف كافين رايلي ــ ترجمة عربية ــ سلسلة عالم المعرفة : ٧١ ــ ٩٥ .

(٢) سيرة ابن هشام : ١/٦٢٠ .

من غطفان ، وهو مع أبي سفيان : أرأيت إن جعلت لك ثلث ثمر الانصار ، أترجع بمن معك من غطفان وتخذّل بين الاحزاب ؟ فأرسل اليه عيينة ان جعلت لي الشطر فعلت ، فأرسل الى سعد بن معاذ ، وهو سيد الاوس ، والى سعد بن عبادة ، وهو سيد الخزرج، فقال لهما : ان عيينة بن حصن قد سألني نصف ثمركما على أن ينصرف بمن معه من غطفان ويخذل بين الاحزاب ، واني قد أعطيته الثلث ، فأبى الا الشطر ، فماذا تريان ؟ قالا : يا رسول الله ان كنت أمرت بشيء لم أستأمركما ، ولكن هذا رأي أعرضه عليكما ، قالا : فانا لا نرى أن نعطيه الا السيف ، قال : فنعم اذا [1]».

العقيدة في الاسلام مصدرها الله تعالى وحده ، والنبي محمد ﷺ كان رسول الله ومبلغ كلماته ، وصحيح أن النبي كان ــ خاصة بعد الهجرة الى المدينة ــ زعيم الامة الجديدة وقائدها وحاكمها ، ولكن في ذات الله لا في ذاته البشرية ، وهو وان كان لا ينطق عن الهوى كان يميز دائما بين آرائه البشرية الخاصة ، وبين ما يأتيه عن طريق الوحي، ومن هنا كان يقدم على التشاور مع أصحابه ويأخذ بآرائهم، وأصحاب النبي آمنوا به رسولا لله ، لكنهم كانوا يرونه أنه كان وظل بشرا ، ولهـذا أعلن الصديق ساعة وفاته ﷺ : « من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله فان الله حي لا يموت »، ثم تلا الآية : (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل)[2] [آل عمران : ١٤٤] .

والله تعالى اختار محمدا لنبوته ، وحمله مسؤوليات ابلاغ رسالته ارادة منه تعالى ، وليس بعد أخذ مشورة أحد ، أو حتى رأي صاحب العلاقة ، وعليه فالنبي لم يرث النبوة ميراثا ، ثم انه بالنظر للمزج بين المفاهيم الدينية والدنيوية في الاسلام لم يكن من صلاحيات النبي توريث بعض مناصبه أو جزء منها ، فالنبوة كل لايتجزأ، والانبياء لا يورثون .

لهذا رفض علي بن أبي طالب سؤال النبي ، على الرغم من طلب عمه العباس ، لانه كان أعرف بالاسلام من عمه وأكثر فقها ، فالقرآن والسنة قد حويا كل ماتحتاجه البشرية من نواظم في مجالات العقيدة والاخلاق وشؤون الحياة العملية التطبيقيـة المادية ، وذلك مع مراعاة تامة لتمتع الانسان بحريته وبحوافزه الخاصة .

---

(١) مغازي الزهري : ٧٩ .

(٢) مغازي الزهري : ١٣٤ ـ ١٣٥ .

ويوم مرض النبي ﷺ مرضه الاخير، اجتهدت كل فئة من فئات المسلمين في سبيل ايجاد حل لقضية الزعامة والادارة ، فكان هناك آراء أنصارية برزت في سقيفة بني ساعدة ، وآراء قرشية انتصر منها رأي الصديق والفاروق والامين ــ أمين أمــة محمد ــ ونتج عن هذا الاجتهاد ولادة مؤسسة الخلافة التاريخية ، وبعد سقيفة بني ساعدة لم يتوقف الاجتهاد حيث وجدت امرة المؤمنين دائما بسلام كما حدث يوم السقيفة ، بل نجم عن كل اجتهاد اجتهاد مضاد وهكذا تطورت الامور الى معارضة خفية فمعارضة علنية(١) .

ولنقف قليلا مع ما حدث يوم توفي النبي ﷺ ، ونستعرض مختلف الروايات حول الموضوع :

عندما أعلن عن وفاة النبي تسارع أقربوه وآله الى بيته ، وفيما هم كذلك بلغ الخبر الى أبي بكر الصديق باجتماع الانصار في سقيفة بني ساعدة خارج المدينة ، ويحدثنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بما حدث اثر ذلك بقوله : «واجتمع المهاجرون الى أبي بكر رحمه الله ، فقلت يا أبا بكر انطلق بنا الى اخواننا من الانصار ، فانطلقنا نؤمهم ، فلقينا رجلين صالحين من الانصار قــد شهــدا بدرا ، فقالا : أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ قلنا نريد اخواننا هؤلاء من الانصار ، قالا : فارجعوا فاقضوا أمركم بينكم ، قال : قلت : فامضوا لنأتيهم ، فأتيناهم فاذا هم مجتمعون في سقيفة بني ساعدة بين أظهرهم رجل مزمل ، فقلت من هذا ؟ فقالوا : هذا سعد بن عبادة ، قلت : وما شأنه ؟ قالوا : هو وجع .

قال : فقام خطيب الانصار ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قــال : أما بعد فنحن الانصار ، وكتيبة الاسلام ، وأنتم يا معشر قريش رهط منا ، وقد دفت(٢) الينا دافة(٣) منكم ، فاذا يريدون أن يختزلونا من أصلنا ، ويخصونا من الامر .

وكنت قد رويت في نفسي خطبة ، وكنت أريد أن أقوم بها بين يدي أبي بكر ، وكنت أداري من أبي بكر بعض الحد ، وكان هو أوقر مني وأجــل ، فلما أردت

---

(١) مغازي الزهري : ١٣٨ ــ ١٤٤ . سيرة ابن هشام : ٤٦٧/٢ حتى نهاية الكتاب. ابن سعد : ٢٢٥/١ ــ ٥٠٣ . تاريخ خليفة : ١٣/١ ــ ٧٦ . الطبري : ٣٩٥/٢ ــ ٦٥٧ ، ٨/٣ ــ ٢٢٣ .

(٢) جاءت .

(٣) جماعــة قليلة .

الكلام ، قال : على رسلك ، فكرهت أن أعصيه ، فحمد الله أبو بكر رضي الله عنه ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : ... أما بعد ، فما ذكرتم فيكم من خير يا معشر الانصار ، فأنتم له أهل ، ولن تعرف العرب هذا الامر الا لهذا الحي من قريش ، فهم أوسط العرب دارا ونسبا » .

وأثارت خطبة أبو بكر ردة فعل بين المجتمعين ، وقام أحد الانصار فتهدد المهاجرين بقبول ما يقرره الانصار طوعا أو كرها ، فرد عليه عمر رداً عنيفا ، وفي ذروة الجدل تخلى بعض أقرباء سعد بن عبادة عنه لأمور في نفوسهم ، وكان سعد بن عبادة زعيما لقبيلة الخزرج ، لهذا تهامس زعماء قبيلة الاوس ، قبيلة الانصار الثانية ، بين بعضهم بعضا فقالوا : « والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبا أبدا » ، وهنا قام أبو بكر فقال : « هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا » .

وفي هذا اللحظة « كثر اللغط ، وارتفعت الاصوات » وفقد النظام فانهار مؤتمر الانصار ، وأخفقت خططهم ، وعندما حصل هذا ، وقبل أن يتفرق المجتمعون وقف عمر بقامته المديدة وصرخ بالقوم ، ثم تقدم من أبي بكر قائلا « ابسط يدك يا أبا بكر فبسط يده » فبايعه قائدا جديدا للامة ، وتقدم بعض الحضور فقلدوا عمر بما فعله ، وانسحب سعد بن عبادة ، وارفض الاجتماع وتفرق الناس ، ولربما لم يأخذ معظمهم ما حدث من بيعة لأبي بكر مأخذ الجد ، لكن تلاحق الاحداث حقق النجاح ، مع أن ما حدث كاد أن يكون فلتة كفلتات الجاهلية[1] .

بعد ارفضاض اجتماع السقيفة عاد أبو بكر وصحبه الى مسجد النبي حيث تم الاعلان عما حدث وحيث بايع بقية الناس ، ونحن وان كنا لسنا بحاجة للحديث عما شهدته أيام حكم أبي بكر من أحداث مثل حروب الردة وحروب الفتح ، نرى من الضروري الاشارة الى أن اختيار أبي بكر لم يواجه أية معارضة معلنة من قبل المهاجرين من أهل المدينة ، وأنه حمل لقب خليفة رسول الله ، وتبعا لهذا عرفت المؤسسة التي قامت اثر ذلك بمؤسسة الخلافة .

ولا بد من سؤال : من أين جاءت هذه التسمية ؟ انها لم تذكر أثناء مناقشات السقيفة ، حيث أن الالفاظ التي استخدمت كانت لفظتا : أمير ووزير ، هذا ولم تحدد أثناء الانتخاب صلاحيات الخليفة ومكانته .

---

(١) مصادر الحاشية (١) في الصفحة السابقة .

كانت الحكومة التي أسسها النبي ﷺ في المدينة هي الاولى من نوعها في تاريخ شبه جزيرة العرب ، فقد ملك النبي وحده جميع فروع السلطة ، من تشريع وقضاء وادارة وجباية وأعمال حربية ، وذلك بالاضافة الى صفته الاساسية وهي النبوة ، وهكذا امتزجت مفاهيم السلطات الزمنية بمفاهيم السلطات الدينية في الاسلام ، وصار كل أمر في الدولة العربية الناشئة مزدوج الصفات زمنيا ودينيا(*) ، ولم تعرف دولة النبي التوظيف والموظفين الدائمين ، بل كان النبي ينتدب أحيانا بعض أصحابه، فيكلفهم ببعض الوظائف حين يبتعد عن المدينة ، أو يرسلهم لتنفيذ بعض المهام مثل جباية الصدقات أو تفقيه الناس بالاسلام وامامتهم بالصلوات أو تنفيذ مهمات عسكرية ، وكان الذي ينوب عن النبي في امامة الصلوات في المدينة يدعى خليفة النبي ، وكان قائد الحملة العسكرية يسمى أميرا ، ولما كانت القوات التي يقودها هذا الاخير قواتا مؤمنة تقوم بتنفيذ مهمة ضد غير المؤمنين ، فقد كان القادة من العسكريين المسلمين يميزون عن قادة الاعداء بلفظة أمير المؤمنين(١) ، فهذا ما حمله أسامة بن زيد قائد آخر بعوث النبي ﷺ حتى وفاته .

(*) تفرد تاريخ الاسلام بجذوره العربية والشرقية القديمة بمسيرة خاصة في المزج بين المفاهيم الدينية والسياسية ، ففي الشرق القديم تحول الكاهن الى ملك ومشرع ، وفي تاريخ مكة القريب من ظهور الاسلام بدأ قصي بن كلاب حياته في مكة سادنا للكعبة أولا ، ثم ما لبث أن أصبح سيد مكة ، حيث طرد خزاعة منها وجلب قريش اليها وأسكنها فيها وفق نظام ابتدعه ، وبعد هذا نظم حياة المدينة من جميع الجوانب بما عرف باسم الحجابة والرفادة والسقاية ودار الندوة وغير ذلك ، وهذا ما نشهده في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو بدأ حياته في مكة نبيا يدعو الى دين جديد ، وبعد هجرته الى المدينة أسس نواة الدولة الاسلامية الاولى فكسب صفة رجل الدولة ، وأخذ بعد هذا يضع نظم دولته ويشرع لها دنيويا ، وعلى هذا مرت حياته صلى الله عليه وسلم بثلاث مراحل أولها الدينية ثم تلاها السياسية وكانت المرحلة الثالثة هي التشريعية ؛ وطبعا لم توقف أي من المرحلتان الجديدتان ما سبقها ، بل كان هنالك استمرار ، وبما ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ينطق عن الهوى ، فان الدين الاسلامي تبنى دمج المفاهيم ، وبات لكل عمل دنيوي لونه الديني والتشريعي في الوقت نفسه ؛ وظل هذا الحال قائما طوال التاريخ الاسلامي ، وهو يعني أن المنصب الديني يقود الى المنصب السياسي ثم الى الوضع التشريعي وليس العكس كما في الحضارات الاخرى مثل روما، ففي تاريخ روما نجد انه بعدما كان الحظ يحالف احد الساسة أو العسكريين في الوصول الى عرش الامبراطورية كان هذا الامبراطور يتم اضفاء صفة الالوهية عليه ، وكان وهو على عرش الامبراطورية قد يحدث بعض الاصلاحات او التنظيمات الادارية ، ويعني ذلك ان طريق السياسة يقود الى الدين ومن ثم الى التشريع .

(١) التراتيب الادارية : ٢/١ ــ ٨ . (٢) كتابي المدفعية عند العرب : ٣٠١ ــ ٣٣٠ .

وكان الخليفة على الصلوات يؤدي الصلاة كما يؤديها النبي تماما دونما زيادة أو نقصان ، ذلك أن الخليفة هو النائب عن الاصيل الملتزم كليا بما عهد اليه من أوامر وتعاليم ، وكانت صلاحيات أمير الجيش أوسع من صلاحيات الخليفة ، ذلك أن قيادة العساكر تستوجب الطاعة المبرمة ، وتعطي الامير فرص التصرف وابداع الحلول واصدار ما يراه ضروريا من أوامر وتعليمات ، انما ضمن اطار المهمة المكلف بها ، وعليه فانه في الوقت الذي حرم فيه الخليفة من أي نوع من صلاحيات التشريع منح ذلك للامير وتمتع به •

كان أبو بكر آخر من تولى خلافة النبي على الصلوات في مسجد المدينة ، وعليه كان لقبه يوم لزم النبي الفراش ، بسبب مرضه ﷺ « خليفة رسول الله على الصلوات » ، أو اختصارا « خليفة رسول الله » لانه كان الخليفة الوحيد ، وكان عندما توفي النبي ، وبعد ما تسلم البيعة يوم السقيفة يحمل هذا اللقب ، ويعرف به ، واذا صح هذا ففيه تبيان لاصل لقب الخلافة ، وجواب للتساؤل •

هـذا ويلاحظ في الوقت نفسه أن الله تعالى ذكر الخلافـة في القرآن الكريم لخمسة نفر ، من الانبياء : لآدم ، ولداود ، ولهارون ، وللصحابة وللمؤمنين :

قال الله تعالى بشأن آدم : «واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة» [سورة البقرة ــ الاية : ٣] •

وقال مخاطبا داود : « يا داود انا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق » [سورة ص ــ الاية : ٢٦] •

وقال تعالى بصدد هارون : « اخلفني في قومي واصلح » [سورة الاعراف ــ الاية : ١٤٢] •

وقال بصدد الصحابة : « وعـد الله الذين آمنوا منكـم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض » [سورة النور ــ الاية : ٥٥] •

وقال تعالى في المؤمنـين «ويجعلكم خلفاء الارض» [سورة النمل ــ الاية:٦٢]•

ويستفاد من مجمل هذه الايات أن الاستخلاف هنا هو اسناد الحكم أو السلطة، والخليفة من يخلف غيره ويقوم مقامه ، ولا يستبعد أن يكون أبو بكر قد أطلق على

نفسه اثر بيعته لقب خليفة رسول الله ، فقد روى ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب أن أبا بكر كان يقول : « أنا خليفة رسول الله ﷺ » ، وروى أيضا أن رجلا قـال لابي بكر : « يا خليفة الله ، قال : لست بخليفة الله ، ولكنني خليفة رسول الله وأنا راض بذلك »[1] .

ومهما يكن الامر ، انه بتسلم أبي بكر لمقاليد الحكم أصبح منصب الخلافة منذ ذلك الحين رسميا وأساسيا في الحياة السياسية للامة الاسلامية ، بينما لم تكن له في البداية أي هوية واضحة المعالم والاسس .

وحاول أبو بكر في أول خطبة له بعد بيعته تحديد معالـم منصـبه الجديد ، منطلقا من مفهوم « الخلافة » اللغوي ، ومن قاعدة الاستخلاف على الصلاة ، أي أن الخليفة نائب ملتزم كل الالتزام بأوامر المنيب وأفعاله وشكل تصرفاته ، وظهر هذا في قوله : « انما أنا متبع ولست بمبتدع ، فان استقمت فتابعوني ، وان زغت فقوموني »[2] وظل أبو بكر يعرف طيلة حكمه بخليفة رسول الله ، لم يشعر بأدنى فارق بينه وبين أي واحد من المسلمين : أعطيته أعطية عادية ، ليس له قصر ولا حرس ولا مراسم ولا زي خاص ، يحكم من خلال قاعدة للشورى عريضة ، ومات أبو بكر والحالة على ما هي عليه من حيث الجوهر ، مع أن رقعة الدولة اتسعت اتساعا كبيرا فشملت أراضي كبيرة خارج شبه الجزيرة ، وتجمع للمسلمين جيوش جرارة علـى عدة جبهات ، وقام أبو بكر قبيل وفاته باستخلاف عمر بن الخطاب ، بعدما استشار معظم الصحابة ، وقبل الناس اثر وفاة أبي بكر بولاية عمر .

وكان عمر قد غدا منذ يوم اسلامه ثالث ثلاثة في سلم الزعامة لدى المسلمين وقد جاء في الاثر أن النبي ﷺ قال له : « أنت معي في الجنة ثالث ثلاثة من هـذه الامة[3] » ، وقام الفاروق بأعباء الخلافة خير قيام ، وفي عصره تمت انجازات رائعة في جميع المجالات ، وكانت علاقته بجميع الصحابة سيما بعلي بن أبي طالب ممتازة ،

---

(١) الاستيعاب : ٢/٢٤٦ . المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق : ٩٤ ـ ٩٦ .
(٢) تخريج الدلالات السمعية للخزاعي : ٢٨ . الطبري : ٢/٢٢٤ .
(٣) الكامل في الضعفاء لابن عدي ـ مخطوطة الظاهرية : ص ٢٩٤ .

لعل أفضل شاهد عليها زواجه من أم كلثوم الكبرى ، احدى بنات علي من فاطمة الزهراء[1] .

لقد واجه عمر عددا من القضايا الجديدة والخطيرة في الوقت نفسه ، مما اضطره الى معالجتها في ضوء المصالح المرسلة للمسلمين وعلى أساس لا ضرر ولا ضرار وطبعا ضمن اطار الشريعة الاسلامية وبناء على استشارة الصحابة ، ومعالجته لهذه القضايا مثل : مسألة سواد العراق ، ونصارى تغلب[2] ، والمؤلفة قلوبهم ، يعني ممارسته لشيء من الصلاحيات التشريعية ، فهو على هذا تصرف تصرف أمير الجيش ، هذا ويلاحظ أن الامة الاسلامية كانت أيام عمر مستنفرة بشكل كامل[3]

ولعله لهذا تخلى عمر عن لقب خليفة واتخذ بدلا عنه لقب « أمير المؤمنين » وفي هذا التغيير مؤشرات تدل على تبدل جوهري في المفاهيم السياسية للدولة الاسلامية ، سيما وأن العرب المسلمين كانوا قد اختلطوا بشعوب كانت خاضعة لفارس وبيزنطة قبل خضوعها للعرب ، وتأثروا بها ، مع الاخذ بعين الاعتبار أن مركز الثقل السياسي والعسكري بدأ منذ أيام عمر بالتحول الى الامصار الجديدة خارج شبه الجزيرة،وأن هذه الامصار هي التي ستتولى القيادة الاسلامية ان عاجلا أو آجلا .

ومع امتداد الايام واتساع رقعة الدولة وبروز مشاكل جديدة أصبح الناس أكثر تقبلا لاعطاء الخليفة صلاحيات أوسع في التشريع ، ولا ريب أن أمير المؤمنين عمر كان متنبها لذلك سلبا وايجابا ، لذلك بحث عن قواعد تنظيمية جديدة للدولة[4] وعن حل له صفة الديمومة لمسألة الخلافة .

لقد رأى عمر أن الخلافة حق محصور في قريش ولا يجوز لغير قريش ، ويبدو أنه أيضا رأى ــ حسب قاعدة قديمة ــ أن عشرة بيوت من قريش[5] هي التي يجوز

(١) انساب الاشراف : ٢/١٨٩ ــ ١٩١ .
(٢) انظر خراج ابي يوسف : ٢٨ ــ ٤٧ .
(٣) انظر تاريخ الدولة العربية لفلهوزن : ٢٤ ــ ٢٦ .
(٤) انظر تاريخ المدينة لابن شبه : ٣/٨٠٥ ــ ٨٤١ .
(٥) انظر العقد الفريد لابن عبد ربه (كتاب اليتيمة في النسب وفضائل العرب) : ٢/٢٨٢ ــ ٢٠٤ .

اختيار الخلفاء منها ، ومثّل هذه البيوت أبرز الصحابة الذي عرفوا بالعشرة المبشرين بالجنة ، ثم انه رأى أن الخلافة لا يجوز تناوبها في البيت القرشي الواحد ، فاذا مات الخليفة لا يجوز أن يكون الخليفة الجديد من أهله وبيته ، حتى وان كان المرشح هو الافضل[1] ، وهنا يقتضي الحال اختيار المفضول مع وجود الافضل .

ويمكن أن نرى ملامح هذه الخطة وأسسها العامة في وصيته يوم طعن وفي قيام ما يعرف باسم « شورى الستة » فبعد ما توفي عمر اجتمع الباقون من الصحابة المبشرين بالجنة ، وكان أبرز المرشحين بينهم كل من : علي بن أبي طالب ، وعثمان ابن عفان ، وبعد جدل طويل تم اختيار عثمان بن عفان لمنصب الخلافة ، وأبعد علي عن زعامة الامة مع أنه كما وصفه عمر كان أحرى الصحابة « ان وليها أن يحملهم على كتاب الله وسنة نبيهم[2] » والامر المثير للانتباه هنا أن جل قوى المهاجرين والانصار من أهل المدينة أيدت اختيار عثمان ، وذلك على الرغم من أن عمر بن الخطاب قال : « والله لئن كان الامر اليه ليحملن بني أبي معيط على رقاب الناس ، والله لئن فعل لينهضن اليه فليقتلنه ، والله لئن فعل ليفعلن ، والله لئن فعل ليفعلن[3] » .

ولوحظ يوم انتخاب عثمان أن عددا من الرجال ، تجمعوا منذ أيام النبي ﷺ حول علي ، مما يوحي أن هذا التجمع شرع منذ ذلك الحين بالتحول الى شكل حزب للمعارضة ، وازداد أيام عثمان عدد أفراد هذا الحزب ، وعظم دورهم المعارض .

وتسلم عثمان الخلافة ، وكان آنئذ شيخا تقدمت به السن ، فيه طيبة نفس وكرم ، وثبات الى حد التشبث ، وحب وايثار لآله من بني أمية ، ويمكن أن نقسم عهده الى قسمين : الاول كان حكمه فيه استمرارا طبيعيا لعصر عمر بن الخطاب ، والثاني هو عصره هو ، وكان هذا العصر من حيث الواقع نهاية للعصر الراشدي ، وبداية لعودة بني أمية مع الارستقراطية المكية الى زعامة العرب والدولة الجديدة ، كل ذلك على الرغم من الهزيمة التي حلت بهذه الارستقراطية يوم فتح مكة ، وشكلت عودة الارستقراطية الاموية بعد هزيمتها نكسة كبرى ، وضربة عظمى وطعنة نجلاء لثورة الاسلام ، ومن المثير للانتباه أن الامويين عندما فقدوا — في

(١) تاريخ المدينة : ٣/٨٧٩ — ٨٧، ٨٠.
(٢) تاريخ المدينة : ٣/٨٨٣ .
(٣) تاريخ المدينة : ٣/٨٨١ — ٨٨٣ .

مستقبل الايام ــ الحكم ، فقدوه لصالح الاسرة العباسية ، الذين كان جدهم ينتمي الى الارستقراطية المكية ورجال المال والتجارة ، فقد أسلم العباس مع أبي سفيان في يوم واحد ومناسبة واحدة .

بدأ القسم الثاني من عصر عثمان حين واجهت الدولة بعض المشاكل الجديدة ؛ فأقدم عثمان على عزل ولاة عمر وعماله ، وعين بدلا عنهم جماعة من أقربائه من بني أمية على أمل التمكن من خلالهم من مواجهة القضايا الجديدة ومن ثم حلها بنجاعة. لكن الذي حدث هو أن الامويين تسلطوا بشكل صريح على مقاليد الامور في الدولة الجديدة المترامية الاطراف ، وقاموا تبعا لذلك بتجاوزات كبيرة ، لكن ــ والحق يقال ــ التجاوزات لم تقتصر عليهم ، فقد انطلق الصحابة كبارا وصغارا نحو البلاد المفتوحة، وبدأت الفتوحات تعطي ثمارها، وتكونت الثروات عن طريق الاستثمارات التجارية والزراعية والعقارية وغير ذلك[١] .

وقبل الحديث عن ردات الفعل لما وقع ، وقاد نحو أحداث ما يعرف باسم الفتنة الكبرى لا بد من الاشارة الى أن ما حدث لم يكن وليد عصر عثمان وهو لم يكن مسؤولا عن تفجيره ، بل والحق يقال : إنه حاول منع الانفجار وايجاد الحلول، لكن ذلك لم يكن ممكنا ، ويقتضي منا تبيان الحال العودة الى تاريخ مكة فيما قبل الاسلام ومسايرة الاحداث حتى خلافة عثمان :

حين تسرد مصادرنا أخبار مكة قديما ، تعتبر حادثة استيلاء قصي بن كلاب عليها ، واسكانه قبيلته من قريش فيها نقطة تحول عظمى في تاريخها وتاريخ العرب ، ويبدو أن قصي قد استولى عليها في النصف الثاني من القرن الخامس للميلاد[٢] ، ونظم قصي شؤون مكة فأوجد فيها نوعا من الجمهوريات التي تحكم من قبل التجار، ومنذ أيام قصي أخذ القرشيون يمارسون التجارة بشكل نشط جدا،وكانت تجارتهم محلية وعالمية ، فقد كانت الاسواق تعقد منذ أول شوال من كل عام وتنتهي مع أول أيام الحج ، ورغبت هذه الأسواق الناس بزيارة مكة ، واستغلت عمليات الحج بشكل تجاري ، وكانت الاسواق مواسم للبيع والشراء والتبشير والدعاية وحل الخصومات واقامة التحالفات ، وانشاد القصائد ، ومكنت الاسواق مكة وسكانها

(١) ينصح القارىء بالعودة الى تاريخ المدينة لابن شبة ، وتاريخ صنعاء للرازي .
(٢) الروض الانف : ١/١٣٦ ــ ١٤٢ .

من قريش من السيطرة الاقتصادية على شمال شبه الجزيرة العربية ، وعقد رجال المال من قريش تحالفات مع زعماء قبائل ومناطق شبه الجزيرة ، وهو ما عرف باسم «الايلاف» وكان للمكيين رحلتان رئيستان كل عام واحدة من مكة الى اليمن والاخرى من مكة الى الشام ، وكانت القوافل المكية ضخمة جدا ، وغالبا ما مثلت المكيين جميعا ، وكان يقودها أكثر المكيين ثروة وبضاعة ، وبالتالي مكانة[1] ، ذلك أن من ملك المال ملك السلطة .

ويحكى بأن قصي بن كلاب أسكن عشائر قريش وسواهم في مكة بشكل كان يتماشى مع الثروة ، فقد اعتبر الكعبة قلب (بطحاء) المدينة ، وهنا أسكن آله ، ثم أسكن خلفهم بقية عشائر قريش ، وسكن في أطراف المدينة الاجراء والفقراء الذين تجمعوا من كل مكان وعرفوا بالأحابيش ، وعلى هذا فان مكة وان لم تعرف الطبقات الاجتماعية ، قد عرفت الطوائف الاجتماعية والعشائر التي ارتبطت مكانه كل منها بثروتها ، وعدد رجالها .

ويستخلص من كتب الاخبار أن ثلاثة من الذكور من أولاد قصي قد عاشوا وهم : عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزى ، وكان عبد الدار أسنهم ، وعبد مناف أبرزهم وأكثرهم ثروة ، وقام قصي بتوريث وظائفه في مكة لولده عبد الدار ، وبعد وفاة قصي بفترة نازع آل عبد مناف آل عبد الدار السيادة على مكة ، وانشقت قريش الى قسمين واحد أيد آل عبد مناف ودعي باسم حلف المطيبين ، وقسم ثان أيد آل عبد الدار وعرف باسم حلف لعقة الدم أو حلف الاحلاف ، وكادت الحرب تقع بين الحلفين لولا توسط بعض الزعامات بينهما ، وتمت تسوية تقاسم بها زعماء الحلفين وظائف السيادة في مكة وهي : السقاية والرفادة ، والحجابة واللواء .

لكن هذه التسوية لم تنه الصراع الداخلي في مكة ، فلقد ازدادت مع الايام ثروة آل عبد شمس بن عبد مناف وازداد شرههم وطغيانهم مما سبب انشقاقا في حلف المطيبين حيث طرد منه آل عبد شمس وأصحاب الاموال من قريش ، وصنع حلف جديد دعي باسم حلف الفضول قوامه : بنو هاشم بن عبد مناف وعشيرة تيم بزعامة عبد الله بن جدعان ، وكان النبي ﷺ ممن شهد عقد هذا الحلف ، وكان لمناقشاته

---

(١) الاصنام : ٢٨ ـ ٣٠ . المحبر : ١٦٢ ، ١٦٤ ، ٢٦٣ ـ ٢٦٨ ، ٣١٥ ـ ٣١٨ . الازرقي : ١/١١٢ ـ ١١٣ . ابن هشام : ١/٧٦ ـ ٨٨ .

أن يعز الاسلام بأحد العمرين : عمر بن الخطاب العدوي ، وعمر بن هشام المخزومي، لقيام ثورة الاسلام الاصلاحية ، وقال النبي محمد يذكر هذا الحلف : « لقد شهدت وقراراته أبعد الاثر على نفسه ، ويعتبر قيام هذا الحلف احدى المقدمات المباشرة لقيام ثورة الاسلام الاصلاحية، وقال النبي محمد ﷺ يذكر هذا الحلف :((لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي بـه حمْر النعم ، ولو ادعى بـه في الاسلام لأجبت » وهكذا استمر هذا الحلف سببا ونتيجة مؤثرا الى أبعد الحدود في صنع التاريخ الاسلامي ، وقد رد آل عبد شمس على هذا الحلف بانشاء حلف ضمهم مع بني مخزوم وبني عدي[1] .

وعندما قام الاسلام كان أول المؤمنين به أبو بكر الصديق ، وكان من تيم ، وهكذا تمتع بالمكانة الثانية في سلم الزعامة الاسلامية ، وكان دائما « ثاني اثنين » وفي أثناء الدعوة الى الاسلام في مكة ركز النبي جهوده على تدمير حلف بني أمية ، ودعا ربه أن يعز الاسلام بأحد العمرين : عمر بن الخطاب العدوي،وعمرو بن هشام المخزومي، وأعزه الله بعمر بن الخطاب ، الذي عدّ اسلامه فتحا من الفتوح ، وغدا عمر منذ ساعة ايمانه ثالث ثلاثة في سلم الزعامة الاسلامية ، لهذا كان من المنطقي أن يلي الصديق زعامة الامة بعد النبي ثم أن يخلفه عمر بن الخطاب ، وأن تعود الامور سيرتها الاولى بعد ابن الخطاب .

وتتابع عرضنا للاوضاع في مكة والدعوة الاسلامية فيها فنلاحظ أنه عندما كانت الدعوة في البداية دينية محضة لم تلاق معارضة منظمة من قريش ، لعدم وجود كهنة ورجال دين في مجتمع مكة ، لكن عندما شرع النبي ﷺ ينادي باصلاحاته الاجتماعية ، وهاجم أصحاب المال والمرابين ، ثارت ثائرة زعامة قريش ، وأخذت تضطهده وتعذب كل من آمن به ، وبقدر المعارضة وشدتها كانت حملات النبي وردات فعله ، فهذا عمه أبو لهب المرابي الكبير الذي أوقف نفسه وزوجته على تأليب الناس عليه ، وافساد عمله ، نزلت اللعنة الربانية عليهما بقوله تعالى : « تبت يدا أبي لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد » [المسد : ١ ـ ٥] وعندما تعرض للنبي زعيم آخر من الاثرياء هو الوليد بن المغيرة المخزومي واتهمه بالسحر نزل بـه : « ذرني ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا

---

(١) المحبر : ١٦٦ ـ ١٦٧ . ابن هشام : ١/٦٥ ـ ٦٨ .

ثم يطمع أن أزيد • كلا انه كان لآياتنا عنيدا • سأرهقه صعودا • انه فكر وقدر • فقتل كيف قدر • ثم قتل كيف قدر • ثم نظر • ثم عبس وبسر • سأصليه سقر • وما أدراك ما سقر • لا تبقي ولا تذر • لواحة للبشر » [المدثر : ١١ ــ ٢٩] ، ونزل به :« ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدده • يحسب أن ماله أخلده • كلا لينبذن في الحطمة • وما أدراك ما الحطمة • نار الله الموقدة » [الهمزة : ١ ــ ٦]، وأعلن النبي ﷺ حربا لا هوادة فيها على الذين ألهاهم التكاثر ، فتهافتوا على حطام الدنيا ، وتكالبوا على جمع المال بمختلف الوسائل ، فقال مخاطبا اياهم : « كلا بل لا تكرمون اليتيم • ولا تحضون على طعام المسكين • وتأكلون التراث أكلا لمّـا • وتحبون المال حبا جما » وتوعد طبقة التجار والمرابين نارا محرقة ووعدهم بعذاب دائم لانهم كانوا : « اذا اكتالوا على الناس يستوفون • واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » [المطففون : ٢ ــ ٣] •••

واتصل النبي ﷺ بقبائل شبه الجزيرة وعرض عليها دينه،وتابع نضاله حتى تمكن من الهجرة الى المدينة ، وبهجرته بدأت مرحلة جديدة(*) هامة في تاريخ العـرب والاسلام •

لقد طويت بالهجرة صفحة الصراعات الداخلية على الزعامة في مكة بين بني هاشم وبني أمية بن عبد شمس ، وخلصت الزعامة فيها لابي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس ، وترسخت هذه الزعامة وتأصلت بين قبائل شبه جزيرة العرب أثناء الحروب ضد المدينة ، فصار أبو سفيان سيد أهل الجاهلية بلا منازع ، وازداد تعداد الامويين وعظمت ثرواتهم وخبراتهم السياسية والادارية والحربية ، وصحيح أن الحرب ضد المدينة قد انتهت بهزيمة أبي سفيان والارستقراطية المكية والعربية يوم فتح مكة ، لكن الهزيمة شيء والسحق والدمار شيء آخر ، فالذي حـدث أن الارستقراطية قد تخلت عن الوثنية ودخلت الى الاسلام حيث وجدت فوائد أعظم ، وتواءم هذا مع اتساع رقعة دولة المدينة وحاجتها الى ذوي الكفاءة لاستخدامهم

* لم يتوقف الصراع الاجتماعي والاقتصادي بعـد الهجرة بـل استمر ، وتجلى بالصراع ضد يهود المدينة الذين كانوا يملكون معظم الاراضي وبيدهم الحـرف والتجارات ، وبمحاولة تحطيم مكة اقتصاديا عن طريق ايقاف حركة القوافـل منها واليها ، وتحويل هذه الحركة الى المدينة ، ومع الايام أمكن اجلاء اليهود من المدينة فصارت اراضيهم للمسلمين من مهاجرين وأنصار ، ونشطت التجارة في أسواق المدينة حتى كادت هذه الاسواق ان تحل محل اسواق مكة واطرافها .

عمالا وقادة ، وهكذا تولى رجالات بني أمية والارستقراطية أكبر المناصب وأهمها اداريا وسياسيا وعسكريا ، وكانوا يدركون أن مآل الامور اليهم لا محالة ، فقد قال أبو سفيان يوما لابنه معاوية حينما كان يلي الشام لعمر بن الخطاب : « ان هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقوا وتأخرنا ، فرفعهم سبقهم ، وقصّر بنا تخلفنا ، وصاروا قادة وصرنا أتباعا ، وقد ولوكم جسيما من أمرهم فلا تخالفوهم ، وانك تجري الى أمد لم تبلغه وستبلغه »[1] :

في يوم السقيفة طرح اقتراح لايجاد صيغة للتعاون بين الانصار والمهاجرين لادارة الدولة الناشئة ، لكن لم يلق الاستجابة ، وانتصرت مقولة فيها « الائمة من قريش » فمع بيعة السقيفة أقر مبدأ : « الحكم في الاسلام وقف على قريش ومحصورا بها » ، وفي أيام عمر تطور هذا المبدأ من قريش عامة الى أسر المبشرين بالجنة ، وكانوا عشرة ، لكن عندما توفي عمر كانوا قد أصبحوا ستة ، وخلال مناقشات شورى الستة تطور المبدأ ، أو بالحري عادت الامور سيرتها الاولى ، فانحصر الحكم بآل عبد مناف بن قصي ، وقام صراع بين أسرتين من آل عبد مناف على السلطة ، هما : بنو أمية ، وبنو هاشم ، ولم يتبدل هذا الحال طوال تاريخ الاسلام المديد، وحين اختير عثمان للخلافة جرت نقلة نوعية بالنسبة لاحتكار السلطة، حيث رست الامور بأيدي بني أمية ، ووقف بنو هاشم على رأس المعارضة ، وأسفر الصراع المرير ، بعد الفتنة الكبرى ومعارك الحروب الأهلية عن انتصار معاوية بن أبي سفيان ، وتأسيس حكم الاسرة الاموية ، ولقد حاولت بعض الاسر القرشية دخول حلبة الصراع ، فخرجت منه مهزومة بشكل قاطع ، كما حدث لعائشة وطلحة والزبير في معركة الجمل ولابن الزبير فيما بعد .

ان هذا الايجاز يحتاج الى بعض التفصيل ، وسنحاول ذلك ، انما مع التركيز والالحاح على العوامل الاقتصادية والاجتماعية ، ذلك أن الحدث السياسي هو غالبا محصلة لاسباب اقتصادية واجتماعية ، والسبب أهم من المحصلة لانه صانع لها :

روى ابن الاعثم الكوفي في فتوحاته : « أنه لما صار الامر الى عثمان بن عفان ، واجتمع اليه الناس ، وأرسل الى عمال عمر بن الخطاب ، فأقرهم على أعمالهم التي هم

---

(١) انساب الاشراف : ٨/١/٢ — ١٠ .

عليها مدة يسيرة من ولايته ، ثم انه بعث اليهم فعزلهم عن الاعمال ، وجعل يقدم أهل بيته وبني عمه من بني أمية فولاهم الولايات ... ودرت عليه الاموال ... ثم كثر المال عليه ، فكان كلما اجتمع عنده شيء من ذلك يفرقه في الناس ، ويزيدهم في العطاء ، حتى كان يأمر للرجل الواحد بمائة ألف درهم ، ثم قدم عليه عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص من أمية فوصله بثلاثمائة ألف درهم ، ثم بعث الى الحكم بن أبي العاص فرده الى المدينة ، وهو طريد رسول الله ﷺ ، ثم وصله بمائة ألف درهم من بيت مال المسلمين ، وجعل له خمس إفريقية ، وجعل ابنه الحارث بن الحكم على سوق المدينة ووصل ابنه مروان بمال جليل ، قال : فكبر ذلك على أصحاب النبي ﷺ، وكرهوا ذلك من فعله »، وأثيرت هذه المسائل مع الخليفة عثمان، فقام بعد مداولات طويلة خطيبا في المسلمين ، وكان مما قاله : « وقد بلغني أن قوما منكم يقولون : لو أن أمير المؤمنين فرق هذا المال في المقاتلة والذرية الذين في الامصار لكان ذلك أعود عليه وعلينا ، وأقرب له الى الله عز وجل ، وقد قبلت ذلك منكم ، وأنا باعث الى كل مصر أن تقسم أمواله بين أهله بالسوية ان شاء الله تعالى، فان فضل لنا شيء صرفناه في نوائبنا التي تنزل بنا ، ونجعله في ضعفاء العرب ومساكينهم وأيتامهم وأراملهم » .

ولم تطل حياة هذا الاجراء ، وعادت التجاوزات من جديد ، وتحرك الصحابة في المدينة ، وتحرك أبو ذر في الشام وحدثت تحركات في العراق ومصر ، مما دفع عثمان الى استدعاء ولاة الامصار الى مؤتمر عقد برئاسته ، وفي المؤتمر « أقبل [عثمان] عليهم فقال » : « يا بني أمية أنتم باطنتي دون ظاهرتي » انه قد كثرت شكايات الناس منكم ، فأما القريب فقد بادهني ، وأما البعيد فما يألوا جهدا فماذا عندكم من الرأي ؟.

قال : فتكلم عبد الله بن عامر بن كريز [والي البصرة] وقال : يا أمير المؤمنين انه ليس يرضي الناس عنك الا ما أسخطهم عليك ، فان الناس انما نقموا عليك لاجل هذا المال ، فأعطهم اياه حتى يرضوا به عنك ، ولا يشكوك أحد بعد ذلك .

قال : ثم تكلم عبد الله بن سعد بن أبي سرح [والي مصر] فقال : يا أمير المؤمنين ان لك على الناس حقا في كتاب الله ، ولهم عليك مثل ذلك ، فادفع اليهم حقوقهم ، واستوف منهم حقك ، فانه قد ولي أمر هذه الامة من قبلك رجلان

فاضلان : أبو بكر وعمر ، فسارا بسيرة فسر بسيرتهما ، واستن بسنتهما واعمل بعملهما يرض الناس عنك ، ولا يشكوك أحد .

قال : ثم تكلم سعيد بن العاص [والي الكوفة] فقال : لا والله يا أمير المؤمنين ما دعا الناس أن تقسوا عليك الا الحمام والفراغ من الحروب ، وذلك أن العرب اليوم جلست في المحافل ، وتحدثت بالاحاديث ، فاشغل العرب بالغزو ، وقاتل بهم العدو ، حتى لا يرجع أحدهم ، اذا رجع ، الى منزله وقد أهمته نفسه ، ولا يتفرغ لعيب الامـراء .

قال : ثم تكلم معاوية ، فقال : يا أمير المؤمنين انك قد جمعتنا ، وذكرت أنه قد كثرت الشكايات منا ، وأنت قد ملكتنا رقاب الناس ، وجعلتنا أوتادا في الارض ، فخذ كل واحد منا بما يليه من عمله حتى يكفيك ما قبله ، ولا يكون ها هنا شكاية أحد ، ولا ينقم أحد عليك .

قال : فعلم عثمان أن الرأي ما قال معاوية ، فعزم أن يرد عماله الى بلادهم وأعمالهم »[1] ، وعليه أخفق المؤتمر في التوصل الى حل مناسب لاسباب الشكوى ، ولذلك لم يلبث أن تفجر الوضع في كل مكان في الشام والكوفة ومصر :

ظهرت المعارضة في الشام مع أبي ذر ، وكان عثمان قد بعثه الى الشام ، فلما قدم الى دمشق « قدم رجل حديث العهد برسول الله ﷺ ، فأخذ بقلوب الناس ، فأبكى عيونهم ، وأوغر صدورهم ، وكان فيما يقول : لا يبقين في بيت أحد منكم دينار ولا درهم ولا تبر ولا فضة الا شيء ينفقه في سبيل الله أو يعده لغريم ، فأنكر معاوية الناس ، فبعث اليه معاوية في جنح الليل بألف دينار،أراد أن يخالف فعله قوله، وسريرته علانيته؛فلما جاء الرسول قسم الالف فلم يصبح عنده منها دينار ولا درهم» فعلم معاوية أن فعله يصدق قوله ، وسريرته تصدق علانيته » .

ونشط أبو ذر ، وكان يأتي المسجد فيتحلق حوله الناس ويسألونه أن يحدثهم عن رسول الله ، فكان يبدأ حديثه بقوله تعالى : « ألهاكم التكاثر » ثم يستطرد فيقول : « سمعت النبي ﷺ يقول : في الابـل صدقتها والبقر صدقتها ، والغنم

---

(١) تاريخ المدينة لابن شبة : ١٠٩٥ ـ ١٠٩٦ . فتوح ابن الاعثم [مخطوطة استانبول]: ١/١ ـ ١٠ .

صدقتها ، وفي البر صدقته ، ومن جمع دنانير أو دراهم أو تبر ذهب ، أو تبر فضة لا ينفقه في سبل الله ولا يعده لغريم فهو كنز يكوى به يوم القيامة » ثم يتبع ذلك بتلاوة قوله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله » [التوبة : ٣٤] .

وحاول معاوية اسكاته فأخفق ، فكتب الى عثمان يقول : « ان كان لك بالشام حاجة فأخرج أبا ذر منه ، فانه قد [أفسد] الناس عندي » فاستدعاه عثمان الى المدينة ، وبعد مواجهة حامية بينه وبين عثمان نفاه الى الربذة حيث توفي هناك[1] .

واستطاع معاوية أن يضبط الامور بالشام لان معظم القبائل التي اعتمد عليها، ـ وكانت تقطن في جنوب الشام ـ كانت من أصل يماني ، وكانت موجودة في الشام منذ ما قبل الاسلام ، لكن الوضع لم يمكن ضبطه في الكوفة وهناك حدث انفجار قاد نحو وقائع الفتنة الكبرى ومقتل عثمان .

ولكن لماذا حدث الانفجار في الكوفة ، ومن ثم ارتبط تاريخ هذه المدينة بأهم حركات المعارضة ، خاصة الشيعة منها ؟

الكوفة مدينة أنشئت أيام عمر أثناء فتوحات العراق ، وسكنها في البداية الفاتحون الاوائل ، ثم ما لبث أن لحق بهم مهاجرون جدد من شبه الجزيرة وقدم اليها الكثيرون من أهل الردة ، لذلك لم يعرف مجتمعها الاستقرار ، وكانت هنالك دائما أسباب للشكوى والثورة .

قد يكون هذا من الاسباب الهامة لكن علينا أن نضيف اليه عوامل أخرى ارتبطت بموارد أهل الكوفة المحلية في العراق،وغير المحلية في الجزيرة وجبهة الكوفة.

كانت أرض الجزيرة عبر التاريخ مسرحا للصراع بين الدول والامبراطوريات التي قامت في شرقي الفرات ، وبين دول الشام أو الامبراطوريات التي تحكمت بهذه البلاد، فقد شهدت أرض الجزيرة حروب الاسكندر المقدوني ضد الفرس ،والحروب الفارسية الرومانية ، والايام بين الغساسنة والمناذرة ، والمعارك الساسانية البيزنطية التي كان آخرها معركة نينوى سنة ٦٢٧ م التي ربحها الامبراطور هرقل .

---

(١) تاريخ المدينة : ١٠٣٤ ـ ١٠٣٨ . وانظر مادة ابي ذر في كتابي مائة اوائل من تراثنا.

وكـــان العرب الفاتحون للشام والعراق ، قد عسكروا اثر كـــل من معركتي اليرموك والقادسية في كل من الجابية [في أحواز بلدة نوى في حوران ـ سورية] وفي البصرة المؤسسة حديثا في العراق ، واثر مؤتمر الجابية الذي حضره عمر بن الخطاب سنة ١٧ هـ/٦٣٨ م قام هذا الخليفة العبقري بادخال تعديلات أساسية على استراتيجية الفتوح والادارة عند العرب ، فألغى جيش شرحبيل بن حسنة الشامي ، وأذن بتأسيس معسكر جديد في العراق هو الكوفة ، وأوجد اقليم الجزيرة ليكون واصلا فاصلا بين اقليمي الشام والعراق المتنازعين أبدا ، وألحق هذا الاقليم بالكوفة وذلك عندما عهد الى جنده بخراج وموارد وفتح الاقاليم الواقعة خلف أراضي الجزيرة بدءا من أرمينية الصغرى (أو الدنيا) ، مثلما عهد الى جند البصرة بشؤون فتح خراسان والمشرق ، والى جند الجابية ببلاد الامبراطور البيزنطية في الشمال ، وعهد بالوقت نفسه الى جيش عمرو بن العاص ، بعد انجاز فتح القدس ، بالتوجه الى مصر ، حيث سيقوم بتأسيس معسكر الفسطاط بعد فتحه لارض الكنانة[1] .

وحدث في خلافة عثمان أنه أقدم أولا على افراد ولاية الشام لمعاوية بن أبي سفيان ، ثم ألحق به ولاية الجزيرة ، وعارض أهل الكوفة هذا الاجراء ، ووجدت لديهم أسباب أخرى للشكوى تجمعت فظهرت أولا على شكل نقد لادارة عثمان ، ثم ما لبث أن ارتدت دثار العنف ، فقد اجتمع عدد من زعماء قبائل الكوفة وتدارسوا الاوضاع وأسباب الشكوى وقرروا اثر ذلك كتابة كتاب الى عثمان جاء فيـه : « أما بعد : فانا كتبنا اليك هذا الكتاب نصيحة لك واعتذارا وشفقة على هذه الامة من الفرقة ، وقد خشينا أن تكون خلقت لها فتنة ، وأن لك ناصرا ظالما وناقما عليك مظلوما ، فمتى نقم عليك الناقم ونصرك الظالم ، اختلفت الكلمتان ، وتباين الفريقان ، وحدثت أمور متفاقمة أنت جنيتها بأحداثك يا عثمان ، فاتق الله والزم سنة الصالحين مـن قبلك ، وانزع عـن ضرب قرابتنا ونفي صلحائنا وقسم فيئنا بـين أشرارنا ، والاستبدال عنا ، واتخاذك بطانة من الطلقاء وأبناء الطلقاء دوننا ، فأنت أميرنـا ما أطعت الله واتبعت ما في كتابه ، وأنبت اليه ، وأحييت أهله ، وجانبت الشر وأهله ، وكنت للضعفاء ، ورددت من نفيت منا ، وكان القريب والبعيد عندك في الحق سواء ،

(١) تاريخ المدينة : ٨٢١ ـ ٨٣٧ . كتابي تاريخ العرب والاسلام : ٧٢ ـ ٨٨ .

فقد قضينا ما علينا من النصيحة لك ، وقد بقي ما عليك من الحق ، فان تبت من هذه الافاعيل نكون لك على الحق أنصارا وأعوانا ، والا فلا تلم الا نفسك فانا لن نصالحك على البدعة ، وترك السنة ، ولن نجد عند الله عذرا ان تركنا أمره لطاعتك ، ولن نعصي الله فيما يرضيك ، هو أعز في أنفسنا وأجل من ذلك ، نشهد الله على ذلك ، وكفى بالله شهيدا ، ونستعينه وكفى بالله ظهيرا ، راجع الله بك طاعته يعصمك بتقواه من معصيته[1] .

وكتب أحد الكوفيين الى عثمان يقول أيضا : « أما بعد : فاني نذير لك من الفتنة متخوف عليك فراق هذه الامة ، وذلك أنك قد نفيت خيارهم ووليت أشرارهم وقسمت فيئهم في عدوهم واستأثرت بفضلهم ، ومزقت كتابهم وحميت قطر السماء ونبت الارض ، وحملت بني أبيك على رقاب الناس حتى قد أوغرت صدورهم واخترت عداوتهم ، ولعمري لئن فعلت ذلك بنا ، فانك تعلم أنك اذ فعلت ذلك وتكرمت فانما تفعله من فيئنا وبلادنا والله حسيبك يحكم بيننا وبينك[2] » .

ووصلت الرسائل الى عثمان ، فكان رده عليها غاضبا حيث جرد الرسل من ثيابهم وأمر بضربهم بشكل موجع ، وأغضبت هذه التصرفات الصحابة من أهل المدينة ، فاجتمع نفر منهم تدارسوا الوضع « ثم انهم كتبوا كتابا ذكروا فيه كل حدث أحدثه عثمان منذ يوم ولي الخلافة الى ذلك اليوم ، ثم انهم خوفوه في الكتاب، وأعلموه ان لم ينزع عما هو عليه خلعوه واستبدلوا بـه غيره » وحمل الكتاب ، عمار بن ياسر وانطلق به ليبلغه الى عثمان ، ودفع عمار الكتاب الى عثمان « فنظر فيه حتى قرأ سطرا منه ، ثم غضب ورمى به من يده ، فقال له عمار لا ترم بالكتاب ، وانظر فيه حسنا ، فانه كتاب أصحاب رسول الله ﷺ ، وأنا والله ناصح لك ، فقال له عثمان : كذبت يا بن سمية ، فقال عمار : أنا والله ابن سمية وابن ياسر ، قال : فأمر عثمان غلمانه فضربوه ضربا شديدا حتى وقع لجنبه ، ثم تقدم اليه عثمان فوطىء بطنه ومذاكيره حتى غشي عليه وأصابه الفتق ، فسقط لما به ، لا يعقل من أمره شيئا[3] .

---

(1) فتوح ابن الاعثم الكوفي : ١/١٠ ــ ظ .
(2) فتوح ابن الاعثم الكوفي : ١/١١ ــ و .
(3) الفتوح : ١/٣ ــ و .

وعم الغضب أرجاء المدينة ، وأعانه الجميع وشارك في نقد عثمان والتحريض عليه حتى أن السيدة عائشة كانت تخرج على الناس وبيدها قميص رسول الله ﷺ وتخاطبهم : « هذا قميص رسول الله لم يبل بعد ، وقد بليت سنته على يد عثمان ، اقتلوا نعثلا قتل الله نعثلا[1] » .

وجرت بعض المحاولات لتدارك الامور ، والحيلولة دون الانفجار العام لكن بدون فائدة ، وثارت الكوفة وتمردت على واليها المعين واستبدلته بوال جديد ، ويروي لنا ابن الاعثم الكوفي قصة البدايات بقوله : « بينا سعيد بن العاص ذات يوم في مسجد الكوفة وقت صلاة العصر وعنده أهل الكوفة ، اذ تكلم حسان بن مجروح الذهلي فقال : والله ان سهلنا لخير من جبلنا ، فقال عدي بن حاتم : أجل السهل أكثر براً وخصبا وخيرا ، فقال الاشتر : وغير هذا أيضا ، السهل أنهاره مطردة ونخله باسقات، وما من فاكهة ينبتها الجبل الا والسهل ينبتها ، والجبل خون وعر ، يحفي الحافر ، وصخره يعمي البصر ، ويحبس عن السفر ؛ وبلدتنا هذه لا نرى فيها ثلجا ولا قراً شديداً .

قال : فقال عبد الرحمن بن خنيس ــ صاحب شرطة سعيد بن العاص ــ : هو لعمري كما تذكرون ولوددت أنه كان للامير ، ولكم أفضل منه،فقال له الاشتر : يا هذا يجب عليك أن تتمنى للامير أفضل منه ، ولا تتمنى له أموالنا ، فما أقدرك أن تتقرب اليه بغير هذا؟! فقال عبد الرحمن بن خنيس: وما يضرك من ذلك يا أشتر، فوالله ان شاء الامير لكان هذا كله له ، فقال له الاشتر : كذبت والله يا بن خنيس ، والله لو رام ذلك لما قدر عليه ، ولو رمته أنت لفزعت دونه فزعا يذل ويخشع .

قال : فغضب سعيد بن العاص من ذلك ، ثم قال : لا تغضب يا أشتر ، فانما السواد كله لقريش ، فما نشاء منه أخذنا ، وما نشاء تركنا ؛ ولو أن رجلا قدم فيه رجلا لم ترجع اليه ، أو قدم فيه يداً لقطعتها ، فقال له الاشتر : أنت تقول هذا أم غيرك ؟ فقال سعيد بن العاص : لا بل أنا أقوله ، فقال الاشتر : أتريد أن تجعل مراكز رماحنا وما أفاء الله علينا بأسيافنا بستانا لك ولقومك ، والله ما يصيبك من العراق الا كل ما يصيب رجل من المسلمين » .

---

(1) تاريخ العرب والاسلام : ٩٥ ــ ١١ .

وقاد هذا الحادث الى الشجار ، وتحول الشجار الى بدايات ثورة تتوجت بحصار عثمان في داره في المدينة ثم بقتله على يد الثوار[1] .

لقد كان كل من الاشتر وسعيد بن العاص منسجما مع نفسه غير متناقض ، فالاشتر كان زعيما قبليا ، وكان العرب قبل الاسلام مشكلين من مجموعة من القبائل، كل منها كانت تشكل وحدة سكانية متميزة اجتماعيا واقتصاديا ودينيا وسياسيا ، وكانت القبيلة في الحقيقة أشبه بالامة ، لها شخصيتها وهويتها وأعرافها وسياستها الخاصة والعامة ، تأخذ بمبدأ المسؤولية الجماعية ، ومشاعية الملكية ، حق المواطنة فيها محددة أسسه ، تقبل بين صفوفها مواطنين من سواها يعيشون في وضع خاص ، وتحرم من حق المواطنة فيها من خرج على قواعدها ، تقيم الاحلاف مع من تتواءم مصالحها ومصالحه ، وتحارب من يعتدي عليها ويهدد مصالحها ، تختار لزعامتها من يدافع عنها ويقاتل في سبيلها ، وتكلف شاعرها أن يكون « صوت الإعلام » فيها .

وعندما جاء الاسلام سعى نحو انشاء أمة واحدة من مجموعات القبائل ، وأراد أن يجعل رباط العقيدة أداة توحيد تحل محل صيغة الاحلاف القائمة على المصالح ، لقد أراد الاسلام أن يربط بين جميع القبائل أفقيا عن طريق العقيدة ، وهكذا جعل المؤمنين اخوانا بالعقيدة ، وبما أن العقيدة الاسلامية لم تميز بين العمل الدنيوي والديني فان أخوة العقيدة شملت جميع مصالح الحياة وغطتها .

وعندما قامت حركة الفتوحات الكبرى أراد رجالات القبائل توزيع الاراضي المفتوحة عليها ، لكن عمر بن الخطاب آثر لاسباب كثيرة مسوغة عدم توزيع الاراضي ــ وهو ما عرف باسم مسألة سواد العراق ــ وابقائها وقفا على مصالح الامة وملكا لها ، انما الذي حدث هو أن الامة كانت قد قبلت بزعامة قريش ، وغدت مع الايام قريش تمتلك ــ كما أوضحنا من قبل ــ كل شيء وتحتكره ، وتواءم هذا الاحتكار وتداخل منذ أيام عثمان مع المفهوم الشرقي القديم في امتلاك الدولة لكل شيء ، ولذلك اعتبر سعيد بن العاص السواد بستان قريش .

---

(١) فتوح ابن الاعثم : ١/٧ ــ ٨ . تاريخ خليفة : ١/١٨١ ــ ١٩٣ . تاريخ المدينة : ١٠٣٨ ــ ١١٩٥ . الطبري : ٤/٣٣٠ ــ ٤٢٦ . الاخبار الطوال : ١٣٩ ــ ١٤٠ . اليعقوبي : ٢/١٧٢ ــ ١٧٧ .

ولم يكن مثل هذا التحول الخطير ليمر بسلام أبدا ، فقـد قامت الثورة في الامصار ، سيما في الكوفة ، وكانت ثورة ذات أهداف ومبادىء ، ولكنها مع ذلك وقعت في شرك الزعامة ، فكان هنا مقتلها •

ليس بودي عرض ما حدث في المدينة حتى مقتل عثمان ، ويكفي القول أن الثورة فتشت عن زعامـة قرشية لقيادتها ، فوجدت ضالتها في علي بن أبي طالب ، وهكذا وجد علي نفسه متورطا بالوقائع الى حد الاتهام بالتحريض على عثمان ، وبعد مقتل عثمان جرى اختيار علي خليفة جديدا •

لم يكن علي حين ولي الخلافة فقيرا ، يعاني من أية ضائقة اقتصادية ، كما كان لا يشعر بالحرمان واغتصاب حقوقه وممتلكاته ، وكانت التركة التي ورثها اثر توليه الخلافة ثقيلة جدا ، فقد وجد نفسه أمام عدد لا يحصى من المشاكل ، وعلى رأس جماعة من الثوار ، جاؤوا من بلد لم يزره قط من قبل ، وقادوا ثورة لم يخطط لها أبدا ، ولم يكن لا هو ولا واحد من الذين تحلقوا حوله في المدينة من المشاركين في تفجيرها ووضع مبادئها بشكل مباشر[1] •

وحين جاء اختيار علي للخلافة ، لاحظ أن غالبية أهل المدينة مع أكثر أهـل الحجاز ليسوا معه ، بل هواهم مع عائشة أم المؤمنين والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ، وعندما توجهت نحو البصرة ، ترك هو الحجاز وذهب الى الكوفة •

عندما حدث هذا ، كانت شبه الجزيرة قد فقدت مكانتها المؤثرة في الاحداث ، وتجمعت قوى العرب العسكريـة في ثلاثة معسكرات رئيسة هـي : الكوفـة ، والبصرة والجابية ، وكان كل معسكر من هذه المعسكرات لديه مطامع للاستيلاء على مقاليد السلطة في العالم الاسلامي ، أو على الاقل الانفراد بالاراضي التابعة ـ كل ـ لمصره على حدة •

كـان معسكر الشام في الجابية أكثر المعسكرات تماسكا وأقلهـا تناقضات ومشاكل ، وكان على رأسه معاوية بن أبي سفيان منذ سنين طويلة ، لذا ليس من المغالاة القول ان معاوية بن أبي سفيان هو المؤسس الفعلي لمعسكر الشام ، وسيده، وكان معاوية ابن سيد أهل الجاهلية يطمح أن يغدو سيد أهل الاسلام •

---

(١) مصادر الحاشية السابقة .

وكان معسكر الكوفة أقل المعسكرات الثلاثة تماسكا، فقد كان في طور النشوء وبناء القواعد، لقد كان بالكوفة طوائف من مختلف القبائل العربية من الذين هاجروا قديما ، مع مهاجرين جدد ، والى جانب العرب كانت هنالك فئات وطوائف من سكان العراق المحليين ، مع أعداد كبيرة من أهل الاقاليم المفتوحة من ايران وخراسان ، وعليه يمكن تشبيه مجتمع الكوفة ببركان عنيف ، دائم الجيشان يقذف بحممه في كل اتجاه .

وكان معسكر البصرة يشبه معسكر الكوفة الى حد ما ، لكن استقراره الاجتماعي وتماسكه كان أفضل،وكان حجمه أدنى،وبالتالي كانت مشاكله أقل حدة.

وبعد ما وصل علي الى الكوفة جرت محاولات للحوار بين معسكره ومعسكر عائشة ، باءت كلها بالاحباط ، وآلت الامور الى الصدام المسلح في معركة الجمل ، حيث انتصر علي وأسرت عائشة ، وقتل كل من الزبير وطلحة .

لقد دخل معسكر الكوفة معركة الجمل ــ أول معارك المسلمين الاهلية ــ شبه موحد الاهداف ، وعندما خرج منها منتصرا صار سيدا للسياسة في غالبية بقاع دار الاسلام ، وهنا كانت بداية مشاكله ، فقد كان سهلا على هذا المعسكر أن يتدخل في السياسة ، لكن هذا هيأ السبل للسياسة أن تدخل اليه ، وكان لديه امكانات التمزق، لذلك بدأت السياسة تفتت قواه وتشلها عن الحركة المؤثرة .

وكما هو معلوم ، قام الاسلام على فكرة المزج بين المفاهيم الدينية والدنيوية وحدث في يوم الجمل أن أوجد علي بن أبي طالب شرعة قتال أهل القبلة ، حظر بموجبها على أتباعه أخذ الاسرى والغنائم ، واعتبار المهزومين كفارا أو مرتدين ، وبعد العودة من الجمل احتج بعض الجند على أوامره هذه قائلين : كيف أبحت لنا الدماء ، وحظرت علينا الاموال ؟

وهكذا تفجر بين أهل الكوفة صراع فكري مخيف ، أخذ يطرح مشاكل الكفر والايمان[1] ، ونما مع الايام هذا الصراع نموا خطيرا جدا ، وأسهمت فيه عناصر

(1) الفتوح : ٢٨/١ و ــ ٤٤ و . مصنف عبد الرزاق : ٤٥٧/٥ . تاريخ خليفة : ١٩٩/١ ــ ٢٠٧ . الطبري : ٤٢٧/٤ ــ ٥٤٣ . اليعقوبي : ١٧٨/٢ ــ ١٨٤ . الاخبار الطوال : ١٤٤ ــ ١٥٤ . وينصح القارىء بالعودة الى كتابي : عائشة والسياسة لسعيد الافغاني ، وعائشة لزاهية قدورة .

كثيرة غير عربية ، وما لبث أن تحول عن مسبباته الاولى ، فامتزج مع الصراع الذي كان يخوضه الاسلام ضد العقائد والطقوس القديمة والديانات التي هزمت أثناء الفتوحات ، وأقبل المتصارعون على استيراد الافكار المساعدة على اثارة الجدل والنقاش ، وكان هذا كله بداية الانقسامات الخطيرة التي ألمت بجماعة المسلمين سيما وأنه ترافق مع نشوء عقيدة الامامة وتطورها .

ودون الوقوف طويلا عند التفاصيل والدخول في متاهات النقاش الدينية ، نختصر القول بأن علي بن أبي طالب تمكن بعد لاي من قيادة أعوانه نحو الشام ، انما بكل صعوبة ، ولم يتوجه نحو دمشق مباشرة ، بل نحو الجزيرة ، لارتباطها بمصالح الكوفيين المباشرة ، وبعدما عسكر في صفين على الفرات ، أقبل أعوانه على القتال بنفوس مدبرة ، لذلك انتهى أمر يوم صفين دون نتيجة عسكرية حاسمة ، وعاد علي أدراجه نحو العراق ، بعدما فقد مكانته ، عاد وآثار الانقسامات الخطيرة واضحة بين صفوف جيشه ، وقد تجلى ذلك بقيام حركة الخوارج(١) .

وحاول علي تدارك الامور ، لكن الوقت لم يسعفه وعاجلته منيته حيث تم اغتياله وأخفق ابنه الحسن بالاحتفاظ بالسلطة بالعراق،فتنازل لمعاوية بن أبي سفيان، الذي صار الآن سيد العالم الاسلامي ، ومؤسس أول أسرة ملكية وراثية في تاريخ الاسلام وكان لهذا ردات فعل عنيفة جدا ، ومن يقرأ تاريخ العصر الاموي ، يشاهد أن الحكم الاموي لاقى صنوفا من المعارضة الكبيرة الدائمة(٢) .

فقد كان العراق المتضرر الاكبر من استيلاء الامويين على السلطة ، ولهذا تجمعت فيه غالبية عناصر المعارضة ، وكان معظم هذه الغالبية من أهل الكوفة عاصمة علي بن أبي طالب ، ومنذ البداية اختار أهل الكوفة لزعامتهم الحسن بن علي بن أبي طالب ، ومع الايام انتظمت أمور المعارضة ، وعبر عدد من الحوادث والازمات أخذت تتحول من حركات سياسية ترى أحقية أسرة محددة في السلطة الى حركات دينية سياسية .

---

(١) مصنف عبد الرزاق : ٥/٤٦٣ ـ ٤٦٦ . انساب الاشراف : ٢/٢٩٢ ـ ٣٦٧ . تاريخ خليفة : ١/٢١٦ . الطبري : ٤/٥٥٢ ـ ٥٧٦ ، ٥/٥ ـ ٧١ . صفين لنصر بن مزاحم . الاخبار الطوال : ١٥٢ ـ ٢٠١ . اليعقوبي : ٢/١٨٤ ـ ١٩٣ . الفتوح : ١/٥١ و ـ ١٣٥ و . مروج الذهب : ٢/٣٨٤ ـ ٤١٤ .

(٢) انظر كتابي تاريخ العرب والاسلام : ١٣٧ ـ ١٦٤ .

لقد كان لعناصر المعارضة هذه عدة جولات مع السلطان الاموي ، كان أهمها فاجعة كربلاء ، التي قدمت حصادا لم ينقطع ، وكان أبرز ثمرات هذا الحصاد حصر الزعامة السياسية لمعارضة الكوفة في آل علي بن أبي طالب ، وأخذ هذه المعارضة اسم الشيعة ، ففي العربية شيعة فلان : أصحابه ومؤيدوه ، وشيعة علي : حزب علي ، وهي عبارة صارت فيما بعد مقتصرة على لفظة « شيعة » فقط ، وكان من ثمرات هذا الحصاد أيضا ثورة التوابين التي نشهد فيها بداية التحول في حزب الشيعة من حزب سياسي محض الى حركة دينية ، وبعد التوابين خطا المختار بن أبي عبيد الثقفي في هذا المجال خطوات واسعة للغاية ، كما أن حركته سجلت بداية الانشقاقات في صفوف الشيعة ، وتحول حزبهم الى مجموعة من الفرق ، ليست ممزقة الصفوف فقط ، بل متصارعة أيضا .

كما كان من حصاد كربلاء أيضا أن زعامة غالبية الشيعة أخذت تنحصر في أبناء السبط الثاني للنبي ﷺ الحسين بن علي بن أبي طالب[1] .

وكان معاوية بن أبي سفيان عندما استولى على السلطة في الدولة الاسلامية ، استولى معها على لقب أمير المؤمنين ، وحيث أنه حاز السلطة بقوة السلاح ، فقد قامت السياسة الاموية على قاعدة شرعية السلاح ، والقول ان هذا ما كان ليتم الا بقضاء الله وقدره ، وهو ما سيعرف فيما بعد باسم الجبرية الاموية .

وحدثت تجاوزات كبيرة في العصر الاموي ، واغتصبت حقوق ، واعتمد الامويون على قطعة مختارة من الجند العربي ــ الجند الشامي ــ فانعدمت بذلك المساواة بينه وبين صفوف الجند العربي في الامصار كما انعدمت بين جماعات المسلمين من عرب وسواهم ، وأخذت عناصر المعارضة تنادي بالعدل ناقضة لافكار الجبرية الاموية،وسيعرف هؤلاء فيما بعد باسم القدرية،أو أهل العدل ، وسنراهم مع آثارهم بشكل واضح في فرق الشيعة والمعتزلة .

وقالت فرق المعارضة بأن حق آل علي بالسلطنة قائم على وصية النبي ﷺ لأبيهم وعلى شرعة الميراث ، وأن الخلفاء من بني أمية حين استولوا على السلطة استولوا على الجانب الدنيوي منها فقط ، ولم يستطيعوا انتزاع الجانب الديني من الميراث النبوي ، ودعي هذا الجزء من الميراث باسم الامامة :

---

(١) مصادر الحاشية السابقة .

يقول الله تعالى في القرآن : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » أي كنتم خير أصحاب دين أخرج للناس ، لان الامة هم أصحاب دين ، ولهذا أخذ الشيعة يطلقون على زعيمهم لقب الامام ، هذا من جهة ، ومن جهة ثانية حين تتحدث الاخبار عن سيرة علي بن أبي طالب ، تجعل من صفاته الاساسية ومزاياه التي تميز بها الشجاعة والعلم ، فهو ربيب بيت النبوة نشأ مسلما ، ونهل من علم النبوة ما لم ينهله سواه ، حتى قيل بأن النبي قد باح له بعلوم لم يطلع عليها سواه .

ومع الايام غدت الامامة ذات العلم الموروث محور العمل الشيعي ، وأغنيت فكرتها ، وزودت بكثير من المعاني والصفات بفضل التطور الثقافي والحضاري والسياسي الذي ألم بالمجتمع الاسلامي ، واستعير لها الكثير من المعاني والصفات والتجارب من تراث الديانات السماوية وغير السماوية ، ومن الأفلاطونية المحدثة والغنطوسية وحكمة الشرق الاقصى .

والمعروف أن حركة التشيع بدأت حركة عربية اسلامية محضة ، لكن ما لبث أن دخل اليها غير العرب ، خاصة من سكان أراضي الامبراطورية الساسانية المنهارة، وجاء هذا الدخول في كثير من المناسبات نوعا من أنواع المعارضة الاعجمية للعروبة والاسلام ، وعانت فئات في حركة التشيع في الوقت ذاته من تسرب الكثير من الافكار والعقائد الغريبة اليها ، مما أدى بها الى التمزق والانقسام ، وأدى هذا الى معاناة هذه الفئات من التنكيل الاموي والقمع الدموي ، كما أدى الى مزيد من الانقسامات داخل الحزب الشيعي ، وظهور فرق جديدة ، وتورطت بعض الفرق الجديدة هذه في ثورات آلت الى الاخفاق والدمار ، وسبب هذا استيراد المزيد من الافكار المتطرفة والغريبة ، ولعل أهم هذه الثورات كانت ثورة الامام زيد بن علي [سنة ١٢٢ هـ] في عصر هشام بن عبد الملك(١) .

---

(١) الفتوح : ٢٠٦/٢ و ــ ٢١٢ و . الطبري : ١٦٠/٧ ــ ١٩١ . تاريخ خليفة : ٥٣٦/٢ . اليعقوبي : ٣٢٥/٢ ــ ٣٢٦ . ومقاتل الطالبيين : ١٢٧ ــ ١٥١ . تاريخ الخلفاء : ٤١٥ ــ ٤٢٣ . مروج الذهب : ٢١٧/٣ ــ ٢٢٠ . المقالات والفرق للقمي : ٤ ــ ٢٨ . فرق الشيعة : ٢ ــ ٥١ . الارجوزة المختارة : ٩٨ ــ ١٨٠ . تاج العقائد ومعدن الفوائد : ٦٥ ــ ٨١ .

وللإنصاف العلمي اننا نلاحظ أن أعمال الملاحقة والتنكيل الاموية لم توجه ضد البيت الهاشمي بالاساس ، بل ضد حركات متطرفة أظهرت عداءا واضحا أو باطنيا للعروبة والاسلام ، صحيح أن الحكم الاموي قام بالاصل على القاعدة العربية والتعصب لها ، الا أنه من الملاحظ أن الامويين ، وضعوا منذ العصر المرواني الخطط لتعريب أمم دولتهم ، وشرعوا في تنفيذها ، ففي أيام عبد الملك بن مروان تمت أعمال تعريب الادارة والاقتصاد ، وأخذت علامات الاندماج بين العرب الفاتحين وسكان خراسان تظهر ، وأقبل الخراسانيون على الدخول في الاسلام ، كما أقبل عليه سواهم في مناطق أخرى من أراضي الدولة الشاسعة .

كانت بلاد الامبراطورية الساسانية تتألف من مجموعة من الاقطاعيات لها نظام اجتماعي قائم على تعدد الطبقات ، وقد حظر هذا النظام الانتقال من طبقة الى أخرى، ودون الدخول بتفاصيل أسماء الطبقات، لقد كان هنالك أولا وفي الاعلى الامبراطور والاسرة الامبراطورية ، وطبقة رجال الدين الزرادشت ، والاسر الاقطاعية المالكة ، وقابل هذا في الدرك الاسفل طبقات أقنان الارض والحرفيين والصناع أو العامة بشكل مطلق ، ووجد بين هاتين المجموعتين طبقة وسيطة شغلت دور صلة الوصل بينهما ، وعملت لصالح الطبقات العليا في الادارة والجباية ، وعرفت باسم طائفة الدهاقين .

ولدى نجاح الفتوحات العربية الكبرى جرى تدمير الطبقات العليا ، وحل محلها قادة العرب الفاتحين ، واعتمد العرب على طبقات الدهاقين التي اتسع الان نفوذها كثيرا ، حتى طمح بعض أفرادها للحلول محل الطبقات العليا الزائلة ، وعاش العرب في خارج المدن الخراسانية على شكل حاميات عسكرية ، مهامها ضبط الامن، وتسلم الخراج والجزية ، والقيام بأعمال الجهاد في المواسم المناسبة ، وأسلم بعض الدهاقين في سبيل توطيد صلاتهم بالحكم الجديد ، وفي البداية كانت غالبية سكان البلاد من غير المسلمين ، انما مع الربع الاخير من القرن الاول للهجرة بدأنا نسمع بأخبار دخول كثير من سكان خراسان بالاسلام ، وبعمليات أولية للاندماج بين العرب وسكان مدن خراسان ، فقد أخذ بعض العرب يقطنون هذه المدن ، وعمدت في هذه الاونة السلطات الاموية الى تعريب الادارة والاقتصاد في الدولة ، وقد جعل نجاح أعمال التعريب مع عمليات الاندماج في خراسان الدهاقين يشعرون

بالمخاطر الشديدة والتهديد بزوال طائفتهم من الوجود ، وازداد هذا الشعور بالخطر مع قيام حكم عمر بن عبد العزيز وتفرغه لتنفيذ خطط ايجاد أمة اسلامية جديدة ، لسانها عربي ، وعقيدتها حنيفية ، وعلى الرغم من أن فترة حكم عمر بن عبد العزيز كانت قصيرة ، وبالرغم من ردات فعل الأسرة الاموية عليها ، وعملها ضدها ، نلاحظ أن جميع الثورات التي تفجرت بعد عصر عمر الثاني نادت بشعاراته بالمساواة وبدمج أفراد الأمة في كيان واحد[1] .

ويرى بعض الباحثين أن هذا كله قد بعث الذعر في نفوس جماعات من الدهاقين فعملوا على محاربة هذا الاتجاه عن طريق التآمر لاسقاط الحكم الاموي ، وهكذا قام تنظيم الدهاقين الذي اختار لواجهته الاسرة العباسية ، ومن هنا نفهم أسباب وجود قوى معادية للاسلام بين صفوف الدعوة العباسية مثل خداش وسواه، ونفهم مغزى تعاليم ابراهيم الامام التي قيل بأنه بعث بها الى أبي مسلم الخراساني بعدم الابقاء على أحد من العرب في خراسان .

وأعود مؤكدا أنه يلاحظ في هذا المقام ، أنه بخلاف جميع الثورات التي سبقت الدعوة العباسية ، قام صلب تنظيم هذه الدعوة بين طائفة الدهاقين ، وأن هذه الطائفة هي التي تولت حشد الطوائف الدنيا وقيادتها ، وارتبطت هذه الطوائف والجماعات من خلال الدهاقين بامام منتظر هو « الرضا من آل البيت » .

وحين جرى تفجير الثورة العباسية لم تواجه هذه الثورة مشكلة التناقض

---

(۱) انظر محتويات كتاب تنسر مع كتاب عهد أردشير ۷ وجهار مقالـه للعروضي . وترجمة ابي مسلم في تاريخ ابن عساكر حيث هناك مادة خطيرة لم تستثمر بعد . الفتوح : ۲/۱٦٦ظ ـ ۱۷۲ظ ۸ تاريخ خليفة : ۱/٤٦۱ ـ ٤۷۱ . فتوح البلدان: ۱٥۹ . الطبري : ٦/٥٥۰ ـ ٥۷۳ . خراج ابي يوسف : ۱۱۹ . سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم . اخبار ابي حفص عمر للاجري . الاخبار الطوال : ۳۳۱ . تاريخ الخلفاء : ۵۲ ۳ـ ۳۸۸ . مروج الذهب : ۳/۱۹۲ ـ ۲۰٥ . تاريخ اليعقوبي : ۲/۳۰۱ ـ ۳۰۹ . العيون والحدائق: ۳/۳۷ ـ ٦٤ . معجم بني امية: ۱۳۲ ـ ۱۳۳ . الفخري : ۱۰۳ . السيوطي : ۲۲۸ ـ ۲٤٦ . فلهوزن : ۲٥٦ ـ ۳۰۱ . ملامح الانقلاب الاسلامي : ۸۱ ـ ۱۷۷ . تعريب النقود والدواوين لحسان حلاق : ٦۱ ـ ۷۹ .
هذا وقد اوقف عبد الحي شعبان كتابه « الثورة العباسية » بالانكليزية على دراسة اوضاع خراسان في العصر الاموي . ط. كمبردج ۱۹۷۰ .

بين القاعدة الثورية والزعامة القرشية ، فهذه الزعامة لم تتول قيادة الثورة ولا حتى توجيهها ، بل الذي تولى ذلك الدهاتين (الدعاة) ونجحت الثورة ، واحتلت العراق بعد خراسان ، وأخذت تعد العدة للدخول في معركة حاسمة ضد الخلافة الاموية ، وأعلن داعي الدعاة عن نفسه وزيرا لآل محمد ، ومع ذلك وجدت الثورة نفسهـا بحاجة الى اعلان الزعامة القرشية ، وبعد شيء من التردد والمراوغة من قبل الوزير جرى الاعلان عن أبي العباس السفاح خليفة واماما مهديا جديدا،له السلطة الاسمية، أما الحكم والادارة فبيد وزير آل محمد،أي حامل أوزار المسؤولية الدنيوية عنهم[1].

لقـد أوقف نجـاح الثورة العباسية عمليات الاندماج ، وأبقى على شعوب وطوائف الدولة الاجتماعية ، وربط هذه الشعوب والطوائف بروابط شاقوليـة بشخصية الامام العباسي ، عن طريق مؤسسة الوزارة ، التي تولت أمـور الادارة والحكم ، ولم يعد الامام العباسي خليفة لرسول الله ﷺ ، بل ابن عم رسول الله ، وخليفة الله ، وظل الله في الارض[2] .

وليس من المغالاة أبدا القول بأن الثورة العباسية قد حولت الدولة الاسلامية من دونة تنشد البنيان العقائدي الى امبراطورية تشبه الامبراطورية الساسانية التي أزالها العرب الفاتحون من الوجود ، اذ تعطلت عمليات الاندماج العقائدي ، أو أصيبت — على الاقل — بما يشبه الشلل ، وغدت الدولة العباسية امبراطورية تحوي

---

(١) انظر : اخبار العباس : ١٦٠ — ٢٧٦. الفتوح : ٢/٢١٨ و — ٢٢٨ و. الطبري : ٤٩/٧ — ٥١ ، ٢٥٣ — ٤٥٧ . تاريخ الموصل : ١٠٦ — ١٠٧ . تاريخ خليفة : ٥٦٤ — ٦٠٨ . الاخبار الطوال : ٣٦٠ — ٣٧٠ . اليعقوبي : ٣٢٨ — ٣٤٩ . مروج الذهب : ٣/٢٥٢ — ٢٦٦ . مسائل الامامة للناشيء الاكبر : ٢٦ — ٣٦ . تاريخ الخلفاء : ٤٧٥ — ٥٩٧ . العيون والحدائق : ٣/١٥٧ — ٢١٣ . الكامل : ٤/٢٠٠ — ٣٣٠ . العواصم : ٨٣ — ٨٤ ، ٩٨ . الفخري : ١١٣ — ١٢٠ . ابن كثير : ١٠/٢٥ — ٥٥ . السيوطي : ٢٥٤ — ٢٥٩ . الذهب المسبوك : ٤٨ — ٥٩. ابن العبري : ١١٧ — ١٢٠ . ابن خلدون : ٣/٢٥١ — ٢٧٩ . فلهوزن : ٤٥٥ — ٥٣٨ . العرب في التاريخ : ١١٣ . دولة بني العباس : ١/٩١ — ١٨٩ . اطروحة دكتوراه فاروق عمر بالانكليزية (الخلافة العباسية) وقد قام فاروق باخراج محتويات هذا الكتاب بثلاثة كتب عربية هي طبيعة الدعوة العباسية. العباسيون الاوائـل ١ + ٢ .

(٢) انظر مقال « من القاب الخلفاء العباسيين — خليفة الله وظل الله » للدكتور فاروق عمر . مجلة الجامعة المستنصرية — العدد الثاني بغداد ١٩٧١ .

العديد من الشعوب والطوائف الاجتماعية ارتبطت جميعا بشكل شاقولي بالخليفة وتعلقت به،وقد وجد بين هذه الطوائف والخليفة الامام طبقة وسيطة ، فقد قام مع الدولة العباسية دور الطبقة الوسيطة ولم يجر الغاؤه أبدا ، ولا شك أن من اسباب نجاح الثورة العباسية اعتمادها على مثل هذه الطبقة ، أو بالحري الطائفة من الوسطاء •

بعدما نجحت الثورة العباسية ، أراد قادتها الخراسانيون تحقيق أهدافهم ، فتصدى لهم الخلفاء الاوائل من بني العباس ، خاصة المنصور ، حيث دبر قتل أبي سلمة الخلال ، وبطش بأبي مسلم الخراساني ، وفصل الدعوة العباسية عن الحركة الكيسانية الشيعية ، وأعلن الحرب على الزندقة والشعوبية ، ووضع سياسة دينية متوازنة ، وعلى الرغم من ذلك فقد نجم عن انتصار العباسيين فيما نجم ، اخفاق مشاريع انشاء الامة الواحدة ، وظهر الى الوجود معالم انشطار العالم الاسلامي الى وطنين : واحد عربي ، وآخر أعجمي ، وظهرت حركة الزندقة وحركات لا اسلامية أخرى : كما نشطت حركة الشعوبية وسواها •

ولاحق العباسيون هذه الحركات بلا هوادة ، وسعوا للقضاء عليها ، صحيح أن حركة الدهاقين حققت بعض النجاح ، انما كان نصيبها في الاخفاق أعظم ، فقد تعمقت جذور الاسلام في ايران وخراسان ، وازدادت عقيدة الاسلام قوة ومنعة ، لذلك تابعوا تآمرهم وأرادوا توريط قوى اسلامية كثيرة في مشاريعهم ••

ومارس العباسيون سياسة دينية محكمة ربطت رجال الدين والفكر عامة بهم ، وخدمت هذه السياسة في توطيد فكرة أن الامام العباسي هو « محور الحياة الدنيا وقطبها » الذي تتعلق به جميع الكائنات ، وبذلك تعلقت شعوب الدولة الاسلامية المترامية الأطراف بشخصية الامام ، ولم ترتبط [كما أريد أصلا] بعضها ببعض أفقيا على أساس الشريعة ، وفي سبيل انشاء الامة الاسلامية الواحدة •

ولا شك أن هذا كان فيه انتكاسة كبرى لما أراده الاسلام ، ولا ريب أنه كان للنزعات الاستقلالية لدى شعوب الدولة الاسلامية دورها في هذا المجال خاصة عن طريق الحزبية الدينية ، والمهم قوله انه لم تتكون لدى الدولة الاسلامية المترامية الاطراف قاعدة اجتماعية بلا سدود وحواجز ، ومن هنا يلاحظ أنه عندما ضعف الخلفاء في بغداد انفصمت عرى الدولة العباسية ، وغدت مجموعة متزايدة العدد من الدول •

وحتى على صعيد العرب أنفسهم يلاحظ الشيء ذاته في قوالب قبلية قديمة أو مستحدثة ، وفي قوالب اقليمية وحزبية ودينية وسواها ، وكان أيضا أنه عندما ضعف سلطان الخلفاء في بغداد ضعف معهم شأن الدهاقين فزالت قوة مؤسسة الوزارة من الوجود ، وحكم على الخلفاء من قبل الجند ، لكنهم احتفظوا بمكانتهم الدينيــة السامية ، والسؤال الذي لا بد منه هنا هو : متى بدأت التحولات لدى العرب نحو تقبل الزعامة الفردية ، الطريق الذي قاد نحو تطوير عقيدة الامامة مع فكرة المهدي وجعل صاحبها يأخذ دور المخلص ؟

المتتبع لتاريخ الاسلام يلاحظ أن العرب تعلقوا أيام النبي ﷺ بالشريعة ذلك أنهم تعلموا من خلال سيرته ﷺ أن طريق التغيير هو تبديل القاعدة والنظام وليس السلطة أو رأسها ــ فالفارق كبير جدا بين الثورة والانقلاب[١] ــ لكن هؤلاء العرب شرعوا منذ أواخر أيام عثمان يرون أن تبديل رأس السلطة برأس جديد سيمكن من حل المشاكل ، ولعل مرد هذا الى ما تأثر بــه العرب في البلدان المفتوحة في الشام والعراق ومصر ، فهذه البلدان عرفت عقيدة « المـُخَـلـِّص » وكانت تجارب الحكم الماضية فيها قائمة على سيرة الفرد الحاكم وليس على قاعدة النظام المقرر ، ففي روما كان الامبراطور يؤله بعد اعتلائه العرش ، وبعدما تبنت روما المسيحية كانت أهواء الحكام ومطامحهم وراء تطور هذه الديانة وابتعادها عن كثير من أصولها ، وبالتالي السبب في قيام كنائس جديدة .

وعقيدة المخلص عقيدة بابلية ايرانية قديمة نبعت عن عبادة مردوخ والعقيدة الزروانية وتفاعلت مع الغنطوسية وبقية عقائد بلاد الرافدين ، وقد تأثر بها اليهود في أثناء السبي البابلي وظهرت لديهم مع النبي اليعازر، ثم تطورت مع ظهور المسيحية وبعد ذلك أثناء محاولات الاستقلال عن اليهودية خاصة ما حدث في شمالي بلاد الشام في مناطق الرها وحران وطرسوس وأنطاكية[٢] .

---

(١) في السيرة النبوية روايات عدة فيها ان بعض اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم اشاروا عليه في مكة ، بالعمل للاستيلاء على مقاليد الامور فيها بغتة فرفض . انظر سيرة ابن هشام : ٤٤٨/١ .

(٢) انظر كتابي ماني والمانويــة : ٨٢ ــ ٩٣ . تاريــخ المعتقدات والافكــار الدينية لميرسيا إلياد . ترجمة عربية ــ ط . دمشق ١٩٨٧ : ٨٣/١ ــ ٩٨ .

ولم يعرف عرب ما قبل الاسلام فكرة المُخَلِّص ، والنبي محمد ﷺ أرسله الله « بالحق بشيراً ونذيراً » [البقرة : ١١٩] وهو لم يقم بعمل فداء ولم يبشر بمثل ذلك ، بل بذل جهوده كلها في سبيل هداية قومه والناس أجمعين الى الوحدانية الخالصة ، وليس لفكرة الفداء حسبما استقرت في المسيحية وجود في القرآن ، وهذه الفكرة دخلت الى عقول العرب والمسلمين عن طريق شعوب الامبراطورية الساسانية، وذلك في وقت مبكر حينما جرى تطوير واقعة كربلاء الى ملحمة قائمة على عقيدة الفداء ، هـذا ويلاحظ أن التاريخ الاسلامي المبكر شهـد عمليات اغتيال كبيرة ، لكن لم تطلق عبارة « فداوي أو فدائي » على القائم بالاغتيال بين العرب ، فقـد ظهرت هذه العبارة فيما بعد مع اقامة حسن الصباح لتنظيم الدعوة الاسماعيلية الجديدة واعتماده القتل الطقوسي، ومعروف أن حسن أسس دعوته في الاراضي الايرانية[١]، حيث تراث الزروانية وسواهـا ه

لقد قلت : ان النبي ﷺ بذل جهوده لهداية قومه ، فهل كان ﷺ مهديا ؟

النبي ﷺ كان رسول الله ومبلغ كلماته دعا الى الاسلام ولم يدع الى نفسه ، وعبارة المهدي وان وردت في الآثار لم ترد مطلقا في القرآن الكريم ، وليس في القرآن ما يشابهها أبدا ، هذا ويلاحظ أن عبارة مهدي عندما استخدمت في الفترة المبكرة من تاريخ الاسلام عنت بشكل مجرد ومطلق عملية الهداية فقط ، وذلك انطلاقا من المعنى اللغوي البحت ، ففي العربية « المهدي : هو الذي قد هداه الله الى الحق »[٢] وفي هذا الاطار ظهرت العبارة في شعر صدر الاسلام ، يقول حسان بن ثابت من قصيدة رثى بها النبي ﷺ :

جـزعا على المهدي أصبـح ثاويا يا خـير من وطىء الحصى لا تبعد

بأبـي وأمي من شهـدت وفاتـه يـوم الاثنـين النبـيّ المهتـدي

ومدح شاعر سليمان بن عبد الملك فقال :

على طاعـة المهدي لـم يبق غيرها فأبنـا وأمـر المسلمـين جميـع

---

(١) ينصح القارىء الكريم بالعودة الى محتويات كتاب الدعوة الاسماعيلية الجديدة الذي سبق لي ترجمته الى العربية .
(٢) النهاية لابن الاثير مادة « هدا » .

وفيــه قــال الفرزدق :

وألقيت من كفيك حبــل جماعــة ‏ ‏ ‏ ‏ وطاعــة مهــدي شديــد النقائــم

ومدحــه جرير فقــال :

سليمــان المبــارك قــد علمتــم ‏ ‏ ‏ ‏ هــو المهــدي قــد وضح السبيل

ومدح جرير من بعده هشام بن عبد الملك فقال :

فقلت لهــا الخليفــة غــير شــك ‏ ‏ ‏ ‏ هو المهــدي والحكــم الرشيد(١)

وفي عودة الى كتب الحديث نجد أقدمها كتاب المصنف للامام عبد الرزاق بن همّام الصنعاني ، وقد أفرد عبد الرزاق بابا من كتابه بعنوان « باب المهدي » أورد فيه عدة روايات وحديثين فقط ، الروايات منقولة أو معزوة الى بعض الصحابــة والتابعين ، وأحد الحديثين مرفوع الى النبي والآخر فيه « ذكر رسول الله...(٢)».

وقد عظم حجم المادة المتعلقة بعقيدة المهدي في القرن الثاني للهجرة ، اثر نجاح الثورة العباسية ، وكان من أقدم من جمع المواد حول هذا الموضوع في كتاب مفرد الامام نعيم بن حماد المروزي الخزاعي [ت : ٢٢٨ هـ] في كتاب الملاحم والفتن . وكان لأئمة رجال الحديث موقفهم الواضح من هذا الكتاب وأمثاله ، فقد قال الامام أحمد بن حنبل : « ثلاثة كتب ليس فيها أصول : المغازي ، والملاحم ، والتفسير»(٣).

وتعطي عملية تفحص هذه المواد مع ما حوته المصادر التاريخية من أخبار ، أنه وان حافظ المسلمون في صدر الاسلام بشكل عام على المعنى النابع عن اللغة لكلمة مهدي فانه منذ خلافة علي وأثناء وجوده في الكوفة بدأت فكرة الامامة بالتبلور ومعها أخذت عبارة مهدي تكسب معاني جديدة ، ويدعى ما ظهر في الكوفة ببداية الغلو ، فقد روي عن القاضي الشعبي أنه قال: « إن علي عليه السلام أتاه قوم ، فقالوا: أنت هو ، قال : ومن أنا ؟ قالوا : أنت ربنا ، فأمر بنار فأججت ، فألقوا فيها ، وفيهم قال علي عليه السلام :

لمــا رأيت الامــر أمــراً منكــرا ‏ ‏ ‏ ‏ أججت نــاري ودعــوت قنبــرا

---

(١) انظر كتاب المهدية في الاسلام : ٤٥ ــ ٤٧ .
(٢) المصنف : ٢٦/١١ ــ ٢٩ . وانصح القارىء بالعودة الى مواد كتاب الامام المهدي عند أهل السنة تأليف مهدي الفقيه ايماني ــ ط . بيروت : ١٤٠٢ هـ .
(٣) الكامل لابن عدي ط . بيروت : ١١٨/١ .

فحرقهم علي بن أبي طالب ، ونفاهم في البلاد » .

وفي رواية أخرى عن شريك العامري قال :« أُتي علي بن أبي طالب ، فقيل له : ان ها هنا قوما على باب المسجد يزعمون أنك ربهم ، فدعاهم ، فقال لهم ، ويلكم ما تقولون ؟ قالوا : أنت ربنا وخالقنا ورازقنا ، فقال : ويلكم أنا عبد مثلكم آكل الطعام كما تأكلون ، وأشرب كما تشربون ، ان أطعته أثابني ان شاء الله ، وان عصيته خشيت أن يعذبني ، فاتقوا الله وارجعوا ، فأبوا فطردهم ، فلما كان الغد غدو عليه ، فجاء قنبر فقال : والله قد رجعوا يقولون ذلك الكلام ، فقال أدخلهم علي فقالوا له مثل ما قالوا ، وقال لهم مثل ما قال : انكم ضالون مفتونون ، فأبوا ، فلما كان اليوم الثالث ، أتوا فقالوا له مثل ذلك القول ، فقال لهم : والله لئن قلتم لأقتلنكم أخبث القتلة ، فأبوا الا أن يتموا على قولهم ، فدعا قنبر ، فقال : ائتني بفعلة معهم مرورهم وزبلهم ، فلما جاء بهم خدّ لهم أخدودا بين باب المسجد والقصر ، وقال : احفروا فحفروا فأبعدوا في الارض ، فلما حفروا وأبعدوا جاؤوا بالحطب ، فطرحه وبالنار فطرحها في الاخدود ، وقال : اني طارحكم فيها فارجعوا ، فأبوا أن يرجعوا ، فقذف بهم فيها حتى احترقوا ، قال :

اني اذ رأيت أمراً منكرا أوقدت ناري ودعوت قنبراً[1]

وبعدما قامت الخلافة الاموية وكثرت التجاوزات واشتد عود المعارضة ، لجأت هذه المعارضة الى تنمية فكرة المهدي ومزجها مع العقائد المتعلقة بشخصية المخلص ، وعمت الفكرة وآمن بها معظم الناس ، لان الظلم نزل بالاكثرية ، حتى أننا لنجد الفكرة لدى بني أمية ، في الحديث عن الاشج منهم وعن السفياني المنتظر .

وعلى الرغم من هذا كله نلاحظ أن كبار الفقهاء لم يؤمنوا بهذه العقيدة فقد سأل أحدهم الامام سفيان الثوري فقال : « قد أكثروا في المهدي ، فما تقول فيه ؟ قال : ان مرّ على بابك فلا تكن منه في شيء حتى يجتمع الناس عليه،واعلم علمك الله أن هذه الطائفة طمع بسخافة عقلها وكثرة جهلها وادعائها المنكرات من الاقوال والافعال كل أحد ممن يريد الكيد للاسلام ، وتشويش قواعد الدين والامامة ،

(1) الحرز والمنعة في بيان أمر المهدي والمتعة لابي منصور عبد الله بن محمد نسخة مصورة في مكتبي : ١/٥ ــ و .

وخرق إجماع أهل العقد و الإسلام حتى ترتسم لهذا الأمر و ترشح له من هو له أهل ومن ليس أهل ، وما كان سبب ذلك إلا ادعاء هذه الطائفة خروج هذا الخارج الذي يدعـون أنه صاحب الوقت والزمان ، تعالى مدبر الزمان ومالكه عما يقولون علوا كبيرا »[1].

وتطورت فكرة الامامة وامتزجت بفكرة المهدي وبالعقائد التي تعلقت بشخصية المُخَلِّص والفداء ، وتبدلت الصور والادوار ، ففي عملية الفداء المسيحية قـام المسيح بما قام في سبيل الناس تضحية منه ، وفي ملحمة كربلاء أقدم الحسين على سلوك طريق الشهادة ، وهو سبط آخر نبي ، ليضرب مثلا أعلى في الشجاعة والفداء للذين رضوا بطغيان بني أمية وجورهم ، والمدهش بعد كربلاء أنه طلب من جماهير الناس التي عانت من الظلم والحرمان أن تقوم هي بدور الفداء فتثور وتسفك الدماء لا في سبيل العدالة والمساواة ورفع الحيف بل في سبيل ايصال أسرة أو فرد الـى السلطة ، وباتت العدالة يتم الوصول اليها لا من خلال الشريعة وتطبيق الاحكام بل من خلال الزعيم الفرد ، ويشكل هذا المفهوم بعدا واضحا عن مفاهيم الاسلام في أن التغيير يجب أن يحدث من خلال الشريعة لا من خلال الافراد ، فعلى الشريعة تقاس أعمال الافراد ويحكم عليها ، وهذا ما بدا واضحا في سيرة النبي ﷺ وفي خطبة أبي بكر الاولى بعد اختياره خليفة وفي موقفه من المرتدين وغير ذلك من الامثلة كثير .

لقد تسلم السلطة في تاريخ الاسلام أكثر من مهدي ، لكن الذي حدث ليس زوال المظالم والمشاكل بل وقوع المزيد منها ومن الاكثر تعقيدا ، فالافراد لا يحققون العدالة من قبل أنفسهم ذلك لان النفس أمارة بالسوء ، لكن الطريق الى العدالـة هو طريق العقيدة التي يسعى الى تطبيقها المؤمنون بها .

ومما يثير الدهشة أن تاريخ العرب والاسلام شهد في العصرين الاموي والعباسي عددا هائلا من الثورات ، جلها ــ إن لم نقل جميعها ــ التزم بقاعدة أن الزعامـة ينبغي أن تكون لواحد من قريش ، وذلك على الرغم من أن أسر قريش ورجالاتها الكبار ظلوا مرتبطين بالارستقراطية والارستقراطيين الواسعي الثروات والاموال ! علما بأن الثورات وجهت بالاساس ضد التحكم الارستقراطي ، لهذا وقعت الثورات جميعا بالتناقض ونالت الاخفاق ، فقد كان التناقض طبقيا من جانب وتنظيما مـن

---

(1) الحرز والمنعة : ٢/٢٦ و ظ .

جانب آخر ، فغالبا ما دعي الزعيم القرشي الى تولي قيادة ثورة لم يعدّ لها ، ولم يكن يعرف أسبابها الاصلية ، ولا شك أن هذا يوضح سببا هاما من أسباب اخفاق ثورة الحسين بن علي ثم ثورة حفيده زيد بن علي ، ففي كلتا الثورتين سمعنا أثناء الدعوة تزعمهما لعشرات الالوف من الاعوان ان لم نقل لمئات الالوف ، وعند تفجر الاحداث سمعنا بأخبار أفراد فقط ، ومن ثم بنهاية مأساوية للزعيمين •

ويثير الدهشة أيضا أن جميع التنظيمات التي بشرت بالمهدي المنتظر جمع دعاتها ممن اتبعهم خمس مداخيلهم بغية ارسالها الى بيت الامامة ، لا للتخفيف عن المظلومين بل لرفاه ونفقات الامام ، وسنلاحظ في المستقبل أن حركة واحدة قد تمردت بعض أطرافها على هذه القاعدة وقاعدة الزعامة الارستقراطية هي حركة القرامطة وذلك مع أبي سعيد الجنابي •

الدعـوة الاسماعيليـة :

بعد ما استقر النبي ﷺ في المدينة ، وقطع أشواطا بعيدة في انشاء الامة الجديدة مع دولتها المركزية ، بدأ يظهر الى الوجود رسوم خاصة تحدد طرق التعامل مع النبي ﷺ ، فهو لم يعد ﷺ مجرد داعية الى دين جديد يتحدى به النظام القائم ، كما كان الحال في مكة ، ولم يعد يعرض نفسه على الناس ، بل صار الان سيد أمة في جميع مجالات حياتها ، ورئيس دولة مركزية الاولى من نوعها في تاريخ العرب ، لذلك اقتضى الحال احداث رسوم خاصة للتعامل معه ، ويلاحظ أن ظهور هذه الرسوم قد ترافق مع تمييز أسرة النبي ﷺ عن غيرها من الاسر ، والزام أفراد هـذه الاسرة بالتزامات أشد من التزامات بقية الاسر الاسلامية ، فالصدقة مثلا كانت تحل لكل مسلم محتاج الا آل النبي ﷺ ، والحجاب فرض على أزواج النبي ﷺ ، اللواتي ميزن عن سواهن بنيل لقب أمهات المؤمنين ، وهكذا •••

وفي أواخر أيام النبي ﷺ كان الاحياء من آله قلة أبرزهم ابن عمه علي ثم عمه العباس رضي الله عنهما ، وكان علي أقدم سابقة وجهادا في الاسلام من العباس ، كما كان أوثق صلة بالنبي ﷺ ، فهو ربيبه ، وزوج ابنته فاطمة ، ووالد سبطيه ﷺ •

وظل علي بعد وفاة النبي أبرز آل البيت ، بيت محمد ﷺ ، وقد رأى فيه عدد كبير من المسلمين الاهلية والجدارة والاحقية لخلافة النبي ﷺ ، ومع الايام تكوّن حوله نواة حزب خاص ، ضم عددا من الرجالات الذين أعجبوا به وبسلوكه وعلمه وشجاعته ، وظهر هذا الحزب للمرة الاولى أيام البيعة لعثمان •

ومعروف أنه بعد مصرع عثمان آلت الخلافة الى علي ، وكـان عصره زاخرا بالحروب الاهلية ، وقد انتهى هذا العصر باغتياله ثم باخفاق ابنه الحسن في البقـاء بالخلافة حيث تنازل لمعاوية بن أبي سفيان •

وبعد ما احتكر الحكم معاوية وآله من بني أمية تصدى لمعارضته قوى كثيرة تطورت الى أحزاب ، وقد كان الحزب العلوي أبرز هذه الاحزاب ، وقد تكون هذا الحزب بشكل عملي في الكوفة من عناصر تعاونت مع علي أثناء خلافته ولم يكن بين هؤلاء لجماعة المدينة دور كبير ، وكان من أبرزهم حجر بن عدي الكندي الذي قتله معاوية ثم سليمان بن صرد وأصحابه قادة حركة التوابين •

وكان الحسن بن علي بعدما تنازل عن الخلافة لمعاوية قد انسحب الى المدينة حيث دس له السم من قبل زوجته بتحريض من معاوية ، وبوفاته آلت زعامة الحزب العلوي الناشىء الى أخيه الحسين ، وقد استشهد الحسين في كربلاء ، وكان لفاجعة كربلاء وحصادها أبعد الاثار على تطور الحزب الشيعي وتاريخه حتى يومنا هذا .

ومنذ حركة التوابين يلاحظ المرء بداية تحول الحزب الشيعي من حزب سياسي الى فرقة دينية ، وقد وضح هذا التحول مع المختار بن أبي عبيد الثقفي وقيام فرقة الكيسانية ، ولقد عانت الحركة الشيعية ــ بعدما تحولت الى فرقة ــ من التمزق ، كما عانت من القمع والملاحقة والتنكيل ، وتورطت بعض الفرق الجديدة في ثورات آلت الى الاخفاق والدمار ، كان أهمها ثورة الامام زيد بن علي في عصر هشام بن عبد الملك[1] .

ويلاحظ أنه في الوقت الذي تورطت فيه بعض فرق الشيعة أيام الامويين وبعدهم بعدد من الثورات المسلحة ، واستوردت الجديد من العقائد الغريبة،حافظت بعض الجماعات على الهدوء ، ولم تتورط ــ بعد كربلاء ــ في أي حركة سياسية حربية ، وبذلك حمت أنفسها وعقيدتها ، وحالت دون تسرب أية عقائد غريبة جديدة اليها ، وظلت هكذا صافية الاسلام ، محمدية المنهج ، علوية النسب ، مثالية السلوك وعرف خط هذه الجماعات باسم الخط الامامي ، وقد قاده سلسلة من الائمة الكبار من أبناء الحسين بن علي بن أبي طالب ؛ وظل هذا الخط محافظا على اعتداله ووحدته حتى أواخر حياة الامام السادس منه ، حيث حدث انشقاق بين صفوفه شطره الى قسمين : قسم تابع خطه حتى الامام الثاني عشر ، وعرف باسم الاثنا عشرية أو الامامية ، وعرف الخط الثاني باسم السبعية أو الاسماعيلية ، وادعى كل طرف من هذين الطرفين بأن فقهه وعقائده وعلومه استقاها من الامام السادس .

---

(1) انساب الاشراف : ٤/١/١٠٢ ــ ١٠٣ ، ٢/١ ــ ١٦ ــ ٥/٢١٤ ــ ٢٧٣ . تاريخ خليفة : ١/٢٧٨ ــ ٣٣٢ . الفتوح : ١/٢٥٥ و ــ ٢٦٤ ظ . الاخبار الطوال : ٢٢٧ ــ ٣٠٦ . الطبري : ٥/٤٠٠ ــ ٥٨٢ . اليعقوبي : ٢/٢٤٣ ــ ٢٦٤ . تاريخ الخلفاء : ١٦١ ــ ٢٥٣ . مروج الذهب : ٣/٧٥ ــ ١١٧ . مقاتل الطالبيين : ٧٨ ــ ١٢٢ . الفخري : ٩٣ ــ ٩٥ . السيوطي : ٢٠٥ ــ ٢١٠ . البداية والنهاية : ٨/١٥٠ .

والامام السادس هو جعفر بن محمد ، الذي عرف بالصادق ، والائمة قبله هم : علي بن أبي طالب ، ثم الحسن بن علي ، ثم الحسين بن علي ، ثم علي بن الحسين ــ زين العابدين ــ ثم محمد بن علي الذي عرف بالباقر .

وولد الامام جعفر الصادق في حوالي سنة ثمانين للهجرة (٦٩٩ م) ونشأ في المدينة حيث آثار جده المصطفى ، وحيث كبار علماء الاسلام ، مع تراث آل البيت ، لذلك نال حظا كبيرا من العلوم الاسلامية ، وحظي بمكانة اجتماعية سامية ، وقيمة سياسية عالية ، وعندما بلغ مبلغ الرجال صار أبرز رجالات عصره ، وبعد وفاة أبيه اعتبرته الشيعة الامامية امامهما ، وكان رجالاتهما ودعاتهما يرجعون اليه بقضاياهم وبشؤونهم الخاصة والعامة كافة ، كما أن الغلاة منهم أخذوا يلهجون باسمه ، رافعين اياه الى درجات علياء لذلك تصدى الامام الصادق لدعوات الغلو ، وحارب أفكارها ، وقام بتعرية رجالها والبراءة منهم ، لكن جهوده كلها لم تحل دون انشطار صف الشيعة الامامية الى شطرين ، ولقنت الثورة العباسية جميع الاحزاب الاسلامية درسا بليغا ، مفاده أن التحرك ينبغي أن يعتمد على الخطط الطويلة الامد ، والواضحة الاهداف ، وأن النشاط الدعوي ينبغي أن يكثف في المناطق النائية عن مركز السلطة الرسمي ، لتبعد الشبهات عن رجالها ، ولتكون أكثر قدرة على التخطيط .

وتوفي الامام الصادق سنة ١٤٨ هـ/٧٦٥ م وبوفاته خسر المسلمون عالما جليلا أجمعت أطراف الامة على امامته[1] ، ولدى الوقوف عند مشكلة انشطار الخط الامامي الى قسمين : محافظ وراديكالي ، لن أدخل في تفاصيل متاهات مقالات كتب الملل والنحل ، وتوزيع الادوار على عدد من الرجالات ، فقد كفانا مؤونة ذلك كتّاب الفرق ، مع عدد من الباحثين في أيامنا هذه ، ويكفي هنا القول بأن الجماعة الجديدة قد قالت ان الامام بعد الصادق هو ابنه البكر اسماعيل ، واعتقد غالبية هذه الجماعة بأن اسماعيل قد توفي في حياة أبيه ، وقال أقليتها : لم يمت اسماعيل بل تغيب ليظهر بعد حين في البصرة حيث أقام مقعدا وجاء تغيبه خوفا من أبي جعفر المنصور ، وأصرت

---

(١) عيون الاخبار : ٢٥٣/٤ . الارجوزة المختارة : ١٨٩ . أعلام الاسماعيلية : ١٨٤ . الكافي : ٣٠٦/١ ، ٤٧٢ ــ ٣٧٥ . وجمع اسد حيدر أخبار الصادق وعلاقته بالمذاهب الاربعة في ثلاث مجلدات ، انظره ط . بيروت ١٩٨٣ .

الاغلبية على صحة خبر وفاته ، وقالت : ان الامامة انتقلت حكما ونصا الى محمد بن اسماعيل ، كل ذلك على الرغم من الاعتراف بأن الصادق قد عهد بالامامة من بعده الى ابنه موسى الكاظم .

لقد قالت ان تعيين الكاظم جاء تمويها وغطاء فهو قد عين بمثابة امام استيداع ؛ لان امام الاستقرار كان محمد بن اسماعيل وذلك بموافقة من جعفر الصادق ، ذلك أن الامامة لا يجوز أن تنتقل من أخ الى أخ بعد الحسن والحسين ، وهي لا تكون الا في الاعقاب ، وعرف محمد بن اسماعيل باسم المكتوم ؛ ذلك أن دعوة الفرع الذي قال بامامته دخلت في دور الكتمان الشديد ، وقد اتسم هذا الفرع بالتطرف ، والعلمية والدقة في التنظيم ، وباتت فرقتـه تعرف باسم الاسماعيلية أو السبعية أو التعليمية ، أو الباطنية أو القرامطة ، الى غير ذلك من الاسماء ، وقيل عرفت بالسبعية لان اسماعيل كان سابع الائمة ، والارجح من هذا هو التأثر بتقديس رقم سبعة ؛ فقد عرف العالم القديم من قدس الرقم / اثنا عشر / سيما في بلاد بابل ، ومن قدس الرقم / عشرة / واعتمده ، ومن قدس الرقم / سبعة / واعتمده سيما في العالم الكلاسيكي ومصر حيث ظهرت الفيثاغورثية ، ومن قدس الرقم / خمسة / واعتمده وهذا واضح في الديانة المانوية .

وتأثر المسلمون بهذه الانظمة ، وظهر ذلك في عقائد وأفكار الفرق ، وحين اعتمدت الاسماعيلية الرقم سبعة قالت : « ان السموات سبع ، والكواكب السيارة سبع ، والارضين سبع ، وأعضاء الانسان سبعة والنقب في الرأس سبعة والانبياء ذوي العزم أيضا سبعة »[١] .

وعرفوا بالتعليمية لان مذهبهم قام على « ابطال النظر والاستدلال ، والدعوة الى الامام المعصوم ، ويقولون : ان الحق اما أن يعرف بالرأي ؛ أو بالتعليم ، وباطل أن يعرف بالرأي لتعارض الاراء واختلاف العقلاء ، فلم يبق الا أن نعرف بالتعليم » .

وشهروا بالباطنية لانهم قالوا لكل ظاهر باطن ، والعلم علمان : علم الظاهر وعلم الباطن ؛ أو علم أهل الحقيقة وعلم أهل الطريقة ، ولقد اعتمد الاسماعيلية

---

(١) النوبختي : ٥٧ ــ ٥٨ . عيون الاخبار : ٣٤٩/٤ ــ ٣٥٠ . الملل والنحل : ١/ ٣٣١ ــ ٣٣٢ .

طرائق تأويل النصوص المقدسة ، وهذا عمل بدأ مع فيلون المؤرخ اليهودي والفيلسوف ووصل الذروة مع أفلوطين في مدرسة الاسكندرية للافلاطونية المحدثة.

وقالت الفئة الكبرى من أتباع الامام الصادق : انه بوفاة اسماعيل ولغير ذلك من الاسباب ، عين الصادق ابنه موسى الكاظم اماما سابعا ، وليس في هذا التعيين تمويه أو استيداع ، وتابع خط موسى هذا سلسلة أئمته حتى الامام الثاني عشر : محمد بن الحسن العسكري ، الذي ذهب في غيبة وسيظهر عندما يحين الوقت لانه المهدي المنتظر ، وبناء عليه عرف هذا الخط باسم الامامية أو الاثنا عشرية .

وتذهب المصادر الامامية الى أن موسى الكاظم قد مات مقتولا من قبل الخليفة العباسي هارون الرشيد وأن محمد بن اسماعيل هو الذي وشى بعمه الى الرشيد حيث دخل عليه في بغداد « فسلم عليه بالخلافة ، وقال : ما ظننت أن في الارض خليفتين حتى رأيت عمي موسى بن جعفر يسلم عليه بالخلافة »[1] .

وشكل القوم الذين تبعوا اسماعيل ، بعد عمل سري طويل ، فرقة عرفت باعدادها المحكم ، وتنظيمها الدقيق المتقن في مجالات الجذب العقلاني والفلسفي والثقافي العالي ، مع الاثارة العاطفية ، والانفعال ، وفاقت في ذلك كل الفرق التي سبقتها أو نافستها ، ففي مكان العمل المشوش للفرق السابقة ، والايمان البدائي ، والاعتماد على الفورات العاطفية ، أحكم عدد من العلماء ، ذوي القدرات الخارقة ، والعقول الجبارة ، نظاما جديدا للعقيدة الاسماعيلية ، على مستوى فلسفي في غاية الرقي ، وأنتجوا أدبا رفيعا ، بدأ الان رجال عصرنا بالاعتراف بقيمته وأثره .

لقد قدم الاسماعيليون للورعين احتراما كبيرا ظاهريا للقرآن والحديث والشريعة ، ومسايرة للعقيدة الشعبية الدارجة ، وقدموا للمثقفين شرحا باطنيا فلسفيا للكون اعتمد على مصادر الثقافات الشرقية القديمة والكلاسيكية ، وخاصة الفكر التأويلي والاشراقي من الافلاطونية المحدثة .

---

(١) الكافي للكليني : ١/٤٨٥ ـ ٤٨٧ . عيون اخبار الرضا : ٧٠ ـ ٨٩ . النوبختي : ٥٧ ـ ٥٨ . سرائر واسرار النطقاء : ٢٦٢ ـ ٢٦٣ . عيون الاخبار : ٤/٣٤٩ ـ ٣٥٠ . بحار الانوار: ٩/١٧٥ . الملل والنحل : ١/٢٣١. الفرق بين الفرق : ٣٩. بيان مذهب الباطنية : ٢١ ـ ٢٥ . اصول الاسماعيلية : ٨٢ ـ ٨٣ . تاريخ الفلسفة العربية : ١١ ـ ١٤ .

وقدم رجال الاسماعيلية للصوفية والروحانيين ، مادة فيها الدفء العاطفي والعرفان مع الحب السامي المؤدي الى التحام الكائنات ووحدة الوجود ، ودعم هذا كله بأمثلة وشواهد مما عاناه الائمة ومن تضحياتهم في سبيل أتباعهم ، وتم عرض هذا بمجمله وتقديمه في صيغ معارضة للنظام القائم ، وهادمة له ، فكان في ذلك سحر الثورة ، وحرارة العمل المعارض(١) .

وفي عودة نحو تاريخ الدولة العباسية نلاحظ أن العباسيين وصلوا الى السلطة، عن طريق شرعية الثورة مع حق الميراث ، وذلك بعد عمل دعوي منظم ، فقد قالوا بأنه عندما توفي النبي ﷺ كان واحدا من أعمامه حيا وهو العباس ، وحيث أنه لم يكن للنبي ولد ذكر يرثه ، ولما كان العم بمنزلة الاب ، فالعباس كان الوريث الشرعي للنبي ، ومنذ أيام المنصور مارس العباسيون سياسة دينية خاصة ، أحلت عبد الله بن العباس في العام محل علي بن أبي طالب ، وصار يعرف الان بحبر الامة ، وقرب العباسيون اليهم رجال الدين وعلماء الاسلام بشتى السبل من ترغيب وترهيب ، ولنذكر هنا على سبيل المثال أن الامام مالك بن أنس صنف « الموطأ » بناء على طلب المنصور وارشاده ، وابن اسحق صنف « السير والمغازي » أيضا بطلب من المنصور، ونحن عندما نقرأ كتب الادب والتاريخ والتراجم نراها تتحدث لنا مليا عن العلماء وعلاقتهم بالخلفاء ونشاطاتهم في مجالس الخلفاء ، والجوائز التي كانوا يحصلونها ، حتى ليكاد المرء يقول بأن رجال الدين صاروا أدوات الخلافة العباسية في الحكم ، وأن الفكر الاسلامي تمت صياغته عباسيا .

ونحن حين ندرس تاريخ الخلافة العباسية خاصة في القرن التاسع للميلاد ، نرى مدى التطورات التي ألمت بالمجتمع العباسي،فقد حدثت تحولات اجتماعية كبيرة مع انقلابات اقتصادية وصناعية ، وتجمعت الثروات في أيد قليلة ، وصار للبيوتات التجارية مكانتها على صعيد السلطة وغير ذلك ، كما أن الاقطاع الزراعي عظم ، وبات رجال السلطة يملكون العديد من القرى ، ويطلبون المزيد ، ويحصلون عليه بشتى السبل من شراء أو اغتصاب ، وفي تاريخ الخلافة العباسية نقرأ عن « ديوان للمظالم »

---

(١) عن طريق عقيدة القيامة التي سنتعرض لها، وينصح القارىء بالعودة الى محتويات رسائل اخوان الصفا .

كان يجلس فيه الخلفاء ، ويحدثنا الكتّاب عن عدالة بعض الخلفاء ، حيث نجد مثلا في المتخاصمين الى الخليفة شخصا اغتصبت ضيعته ، والمغتصب ابن الخليفة أو قريبه، أو أحد الوزراء أو الكتّاب أو القادة •

واستخدم الاقطاعيون أعدادا عظيمة من العمال في مزارعهم ، وجلبوا كميات هائلة من الرقيق ، خاصة الاسود منه ؛ للعمل الزراعي المرهق •

ومع منتصف القرن الثالث بدأ الضعف يلم بالكيان العباسي ، وأخذت المشاكل تتفجر،وترافق هذا مع استيلاء ضباط القصر الاتراك على السلطة وتحكمهم بالخلفاء، وبعد ما فعل الجند الاتراك هذا ، انعدم الاستقرار السياسي ، وكثرت الصراعات على منصب الخلافة وتعددت الانقلابات الدموية الشرسة، وهكذا ازداد تدهور الاوضاع من جميع الجوانب ، واستمر أثناء ذلك ارتباط رجال الدين ــ السنة ــ بالسلطة وقصر الخلافة، وتورط بعضهم بالنزاعات السياسية، وصاروا يسدلون ثوب الشرعية على كثير من الاعمال غير الشرعية ، ويقدمون المسوغ لما لا يقبل التسويغ ، يضاف الى هذا أنه منذ [أيام المتوكل] سيطر الحنابلة على شارع بغداد ، فشغلوا أنفسهم بمشاغل فكرية لاهوتية لا تسمن ولا تغني من جوع ، غافلين ــ أو متغافلين ــ عن المشاكل التي باتت تهدد كيان الامة بالخطر •

ولا غلو اذا قلنا بأن الفكر السني أفلس ــ أو كاد ــ في العطاء الاجتماعي ، وأن الناس فقدوا ثقتهم بعلماء السنة نظرا لتورط هؤلاء مع رجال السلطة ، ولشغل أنفسهم بقضايا التجسيم ومسائل علم الكلام الاخرى[1] •

وأمام هذا الحال بدأ الناس يفتشون عن البديل ، وأخذوا يسعون في البحث عن الحل ، وعن طريق الانقاذ والنجاة ، وقد فر بعضهم ــ لاسباب نفسية عديدة ــ الى الخيال ، فأغنى صورة المهدي المنتظر ، وجعله في أنواع من الشخصيات ، وهذا ما نشهده في كتاب « الملاحم والفتن » لنعيم بن حماد الذي جاءنا من هذا العصر •

وقامت الدعوة الاسماعيلية بتقديم البديل ، وهكذا ما أن حلت نهاية القرن

(١) انظر كتابي تاريخ العرب والاسلام : ٢٨١ ــ ٣١٠ • وينصح القارىء بالعودة الى كتاب «الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية» تأليف الدكتور فاروق عمر ــ ط • بغداد ١٩٧٧ •

التاسع للميلاد،حتى كان قد تم للاسماعيلية السيطرة على مسارات التفكير الاسلامي، وعلى عقول الفلاسفة ، وتغلغل تأثيرهم الموجه الى جوف نظم وأفكار الثورات وحركات العدالة والمساواة في بلاد الاسلام ، كما حصل لدى العامة شعور بدنو النصر ، وقرب ساعة التحرير ، وروجوا لهذا عن طريق فكرة الامام المهدي المنتظر ، الذي سيخرج عندما يحين الوقت فيمهد لاعلان القيامة وقيام القائم ، والقيامة عند الاسماعيلية ليست نهاية الحياة ، بل نهاية كلية أو جزئية للشرائع السائدة والنظم القائمة،وتحرير الانسان من كافة الاغلال وجميع القيود القانونية والتعبدية وسواها.

وكان لهذا ردات فعل عنيفة للغاية ، نرى أثرها في كتب الفرق على اختلاف ألوانها وأزمانها ، فكلها يعزو الى الاسماعيلية القول بالاباحية ، وحتى ممارسة ذلك وعدم الالتزام بالقيام بالفروض الدينية الكاملة ، واذا صح هذا فانه مورس فقط في مناسبات اعلان القيامة بصورة استثنائية ، ولم يأخذ صفة الاستمرار ، وشكل الممارسة الدائمة .

وعلى الرغم من توفر بعض المعطيات الممتازة ، لم تورط الحركة الاسماعيلية نفسها في عمل ثوري مباشر تتحمل أعباء نشاطه بشكل علني ، بل سعت نحو استغلال القوى غير الموالية لها تماما ، لكن المتأثرة بها ، الى أبعد الحدود ، في سبيل زيادة اضعاف النظام السني العباسي ، واضعاف هذه الحركات في الوقت ذاته .

وهنا لا بد من وقفة أمام سؤال فيه : أين كان مركز القيادة الاسماعيلية خلال هذا كله ؟ ثم ما هو موقف السلطات العباسية من النشاط الاسماعيلي ؟ والى أي مدى كان تأثير القيادة الاسماعيلية في كل ما حصل ؟

من الصعب اعطاء جواب مقنع موثق لهذا السؤال ، فنحن حين نتحدث عن دعوة اسماعلية ، الاجدر بنا أن نستبدل عبارة « دعوة » بـ « دعوات » ، ذلك أنه كما حصل في تاريخ التشيع حين انضوى العديد من الحركات المناوئة والمعارضة تحت لواء التشيع عن ايمان أو للتمويه ، حصل الشيء ذاته في الاسماعيلية .

قلنا ان دور الستر قد بدأ مع محمد بن اسماعيل ، حيث قيل بأن هذا الامام قد أودع لدى ميمون القداح، وذلك من قبل الصادق نفسه، أو من قبل اسماعيل[1]، واذا كان هناك اتفاق حول محمد بن اسماعيل فالخلاف شديد لدى المصادر حول

(١) سرائر وأسرار النطقاء : ٢٦٢ ــ ٢٦٤ . عيون الاخبار : ٣٣٢/٤ ــ ٣٣٥ . أصول الاسماعلية : ٨٦ .

أسماء أئمة فترة الستر وتعدادهم،والمقصود بفترة الستر هنا،الفترة التي قامت بين اسماعيل واعلان قيام الخلافة الفاطمية :

ويذكر صاحب كتاب التراتيب أن الامامة قد تولاها بعد محمد المكتوم ابنه أحمد الرضي الذي « كان حجابه الذي احتجب به وستره الذي ستره ، والذي نصبه وأقامه ميمون القداح » واثر وفاة أحمد آلت الامامة الى ابنه محمد ، وقد اتخذ الامام الجديد عبد الله بن ميمون القداح وكلفه أن « يأخذ العهد لنفسه » ويعني هذا أن ميمون القداح وولده من بعده قاما بوظيفة امام استيداع .

وإثر وفاة محمد آلت الامامة الى ابنه أحمد ،وقام الامام الجديد بتكليف أخيه ــ ولعله حمل اسم سعيد ــ بأن يكون امام استيداعه، مما يفيد بانتهاء دور الاسرة القداحية،وجاءت وفاةأحمد مبكرةفأوصى لأخيهأن يستمر بوظيفته،مستودعا لابنه محمد الذي حمل لقب المهدي ، وحاول العم اغتصاب الامامة من ابن أخيه فأخفق ، واحتفظ محمد المهدي بمنصبه ، وقد كلف أخاه عبد الله بامامة الاستيداع اثر وفاة عمه ، ولدى وفاة المهدي آلت الامامة الى ولده القائم ، وظل أخوه عبد الله محتفظا بامامة الاستيداع ؛ وعبد الله هذا هو أول الخلفاء الفاطميين ، الذي شهر بلقب المهدي[1] .

أما صاحب كتاب استتار الامام فيرى أن أول أئمة الستر فاسمه عبد الله ، وأنه قدم من المشرق واستقر أخيرا في السلمية ، واثر وفاته آلت الامامة الى ابنه أحمد ، وبعده الى ابنه حسين ، وحسين بن أحمد هذا هو والد عبد الله المهدي أول خلفاء الدولة الفاطمية ، وكان حسين عندما حضرته الوفاة قد أوصى بامامة الاستيداع الى أخيه سعيد الخير ، وحاول سعيد اغتصاب الامامة من ابن أخيه فأخفق[2] .

وذكر الداعي المطلق ادريس القرشي أن أول أئمة الستر هو عبد الله بن محمد المكتوم وقد حمل لقب الرضي ، وهو الذي بعث الدعاة الى المغرب ، وخلف عبد الله ابنه أحمد التقي ، وهو الذي انتقل الى السلمية ، وخلف أحمد التقي ولده الحسين الزكي ثم ابنه عبد الله المهدي ، ويذكر الداعي ادريس قصة سعيد الخير ومحاولته اغتصاب الامامة[3] .

(١) كتاب الترانيب في أخبار القرامطة : ١٣٧ ــ ١٣٩ .
(٢) اخبار القرامطة : ١١٣ ــ ١١٧ .
(٣) عيون الاخبار : ٣٥١/٤ ــ ٤٠٠ .

التناقض واضح بين هذه الروايات الاسماعيلية الثلاث ، لذلك لا غرابة أن نجد التناقض أشد في الروايات غير الاسماعيلية، وهكذا روى المقريزي أن أول أئمة الستر جعفر بن محمد المكتوم وقد حمل لقب المصدق ، وقد خلفه ابنه محمد الحبيب وهو والد عبد الله المهدي(١) ، ومعروف أن المقريزي قد عاصر ابن خلدون وتأثر به كثيرا لذلك جاءت الرواية لدى ابن خلدون أصلا مطابقا لما ذكره المقريزي(٢) .

لقد استغلت الدعاية العباسية فيما بعد هذا التناقض فطعنت في نسب الفاطميين(٣) ، وقد أدرك الداعي ادريس القرشي خطورة الموضوع فعلل الامر بقوله : « وكان الدعاة أيام الائمة المستورين منذ استتار الامام محمد بن اسماعيل يسمونهم بغير أسمائهم ، ويختلفون في الاسماء اخفاء لامر الله ، وسترا لاوليائه لتغلب الاضداد ، وقوة أهل العناد ، ولذلك وقع الاختلاف في الائمة المستورين ، وكثر خوض الخائضين ، وقول القائلين »(٤) .

قد يكون هذا صحيحا ، لكن من الواضح من جميع الروايات أن بيت الامامة الاسماعيلي قد عانى في فترة الستر العديد من المشاكل ، وأن ذلك أدى الى انشقاقه على نفسه ، وعمليات الانشقاق هذه توضح لنا قضية انتساب زعيمي قرامطة الشام الى اسماعيل بن جعفر الصادق .

من المرجح أنه وجد عدد لا بأس به من الحركات المطالبة بالعدالة ، وذات الفكر الراديكالي القريب من الفكر الاسماعيلي ، ولشهرة الاسماعيلية صنف الناس والكتاب هذه الحركات بين الاسماعيلية ، فنحن عندما نقرأ ، كتب الملل والنحل نرى أصحابها يعزون انتماء بعض الشخصيات والحركات الى أكثر من فرقة ، ويطلقون العديد من الاسماء ويحلونها بكمية من الصفات والنعوت .

هذا وعلينا أيضا أن نأخذ بعين الاعتبار مسألة تغير الائمة بالوفاة أو غير ذلك ، وبالتالي التعديل بالسياسة ، وفوق هذا مشكلة المواصلات ، فكل داعية من الدعاة في منطقة [جزيرة] من المناطق كان سيد عمله ، ينشط حسب معطياته ، ويعلل الامور كما يراها من منظاره الخاص ، ومنظار بيئته وخلفياته ، ومع الايام قد تكتشف

---

(١) اتعاظ الحنفا : ١٦/١ . انظر ايضا المصابيح في اثبات الامامة للكرماني : ١٣٩ .
(٢) العبر : ٤٤٩/٣ .
(٣) انظر اصول الاسماعيلية : ١١٧ — ١٦٣ .
(٤) عيون الاخبار : ٣٩٣/٤ — ٣٩٤ .

حمزة بن علي الزوزني وأحمد الكرماني ، وكانا متعاصرين ، فوجد فيها مؤثرات القيادة ذلك فلا ترضاه ، وقد يؤدي هذا الى طرده ، ومن ثم الى انشقاق في داخل الحركة ، والمطالع لما نشر من الكتب والرسائل الاسماعيلية يرى بشكل واضح أن هذا الفكر قد انتمى الى عدة مدارس ، تأثر كل منها بخلفيات محددة ، ولأضرب مثلا على ذلك أنني قرأت أثناء عملي في كتابي ماني والمانوية بعض رسائل وكتب كل من حمزة بن علي الزوزني وأحمد الكرماني ، وكانا متعاصرين ، فوجدت فيها مؤثرات مانوية واضحة ، ولا غرابة في ذلك ، فهما وان نشطا في مصر ، قد قدما بالاصل من بيئة سيطرت عليها المانوية فيما مضى •

ولعل من الاصوب ــ والامر كما أوضحت ــ أن نستخدم عبارة حركات بدلا من حركة ، ولدى العودة الى المصادر الاسماعيلية لتتبع تحركات بيت الامامة نجد أن بيت الامامة انتقل أولا من الحجاز الى العراق ، ربما الى البصرة ، ومن العراق الى خراسان ، الى منطقة جبال الديلم ، فهناك استقر فترة من الزمن مع التردد على الكوفة أحيانا ، ثم انتقل فجأة ــ اثر انشقاق كبير ــ الى بلاد الشام ، وكان هذا في حوالي منتصف القرن الثالث للهجرة ، واستقر بيت الامامة متخفيا في منطقة جبل السماق [الاربعين حاليا في محافظة ادلب السورية] ثم تحول بعد تجديد الاتصال به من قبل بعض الدعاة وأركان الدعوة الى منطقة مصياف ، ثم من مصياف الى السلمية على طرف البادية حيث استقر هناك ، وكانت السلمية مأهولة من قبل عدد من الهاشميين ، ومن الممكن الاتصال منها بسهولة بقبائل بادية الشام ، حيث المادة البشرية متوفرة للعمل السياسي والعسكري لاصحاب المطامح ، كما يمكن الوصول اليها من العراق وغير العراق من بلاد الاسلام ، وبالتالي السفر بكل يسر في جميع الاتجاهات •

في مرحلة السلمية انتهت مهمة آل القداح واتخذ الائمة حجابهم من آلهم ، هذا ما تذكره بعض المصادر الاسماعيلية كما رأينا ، لكن مصادر أخرى غير اسماعيلية تحكي العكس فتذكر استمرار آل القداح ، واستيلائهم على منصب الامامة عن طريق الولادة الروحانية والحلول النوراني ، وعلى الرغم من شيوع هذه الرواية ورواجها نتيجة اعتمادها من قبل الدعاية العباسية المضادة ، فان من المرجح صحة الرواية الاولى[١] •

---

(١) اخبار القرامطة : ١٣٧ • عيون الاخبار : ٣٥٤/٤ ــ ٣٩٦ • اتعاظ الحنفا : ١٦/١ • أصول الاسماعيلية : ١١٧ ــ ١٥٦ •

ويذكر أن الدعوة الاسماعيلية كانت ذات أهداف عالمية ومقاصد أممية ، لذلك أقدمت على تقسيم العالم الى عدة قطاعات دعوية دُعي كل منها باسم « جزيرة » وأرسل الى كل جزيرة أحد الدعاة الكبار ، وارتبط دعاة الجزر جميعا بداع للدعاة اتصل بالامام مباشرة ، وقسمت كل جزيرة بدورها الى عـدة مراكز دعوية تولى شؤون الدعوة في كل منها واحد من الدعاة ، كان ارتباطه المباشر بداعي الجزيرة ، الذي كان بمثابة داع للدعاة في جزيرته ، ولتجنب التناقضات وسواها وحرصا على وحدة الدعوة ونموها وجد دائما مع بيت الدعوة أو بالحري بيت الامامة أو تحت اشرافه مباشرة دار لتدريب الدعـاة وتخريجهم ، فقد كانت الدعوة ترسل خـيرة رجالاتها من كافة المراكز والجزر للتدرب والتخرج ، وكان بيت الدعوة يقوم بعـد تخريج الدعاة بتكليف كل منهم بمهمة من المهام في الاراضي التي جاء منها أصلا أو في أراض جديدة .

وفي أثناء مرحلة السلمية عاود بيت الامامة صلاته مع جزر الدعوة ، وأشرف مجددا على نشاط الدعوة والدعاة في كل مكان ، وحدث قبل الانتقال الى الشام ، أن ركزت الدعوة جهودها على اليمن ، ذلك أن اليمن كانت تعد منطقة نائية ، وهي ذات طبيعة جبلية مساعدة ، وقبلية موائمة للعمل ضد السلطة المركزية ، ثم ان اليمن شهرت منذ القديم بولائها الشيعي ، ولهذا توجهت أنظار الدعوة الاسماعيلية اليها ، وتركزت عليها ، وكانت اليمن أيضا مسرحا لنشاط بعض الحركات الشيعية الاخرى، ونخص بالذكر هنا الاسرة الرسية ، وهي أسرة حسنية ، تمركزت على مقربة مـن المدينة المنورة ، ونجح أفراد من الاسرة الرسية في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة في تأسيس كيان سياسي ومذهبي في وسط اليمن وشماليها ، استمر هنالك طويلا ، وكانت له جولات مع رجالات الدعوة الاسماعيلية في اليمن ، الذين ركزوا جهودهم على الجنوب[1] .

الى اليمن أرسل عدد من الدعاة الاسماعيلية ، تصدرهم مـع بدايات الفترة الشامية ، اثنان هما : ابن حوشب ، وهو عراقي الاصل ، تمركز في الجنوب علـى مقربة من عدن ، وشهر فيما بعد باسم « منصور اليمن » ، وعلي بن الفضل ، وهو

(١) افضل المصادر حول هذا الموضوع « سيرة الهادي الى الحق » وقد سبق لي نشر هذه السيرة ، وهنالك نصوص منها ضمن كتابنا اخبار القرامطة .

من أصل يماني تمركز في داخل اليمن الى الشمال من عـدن وقـد حققا في اليمن نجاحات واسعة لذلك أعلنت قيادة السـامية عن اليمن « دار هجرة » وحرضت الدعاة من جميع الجزر على التوجه الى اليمن ، وتحت اشراف « منصور اليمن » أقيم في اليمن دار تدريب للدعاة وتخريجهم ، وهذا موضوع لنا وقفات مستقبلية عنده •

قيـام الخـلافـة الفاطميـة ـ الطور الافريقـي

« لا بد لاهل المغرب من دولة دولة كفر ••• اذا قرىء على منبر مصر : من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين لم يلبث يسيرا حتى يقرأ : من عبد الله عبد الرحمن وهو صاحب المغرب وهو شر من ملك ••• اذا دخل أهل المغرب أرض مصر ، فأقاموا فيها كذا وكذا تقتل وتسبي أهلها ، يومئذ تقوم النائحات ، فباكية على استحلال فروجها، وباكية تبكي على ذلها بعد عزها ، وباكية تبكي على قتل أولادها ، وباكية تبكي على قتل رجالها ، وباكية شوقا الى قبورها » •

وردت هذه الاقوال على شكل أحاديث على طريقة الاثر ؛ في أحـد فصول كتاب الملاحم والفتن [مخطوطة لندن : ٧٠ ظ ـ ٧١ ظ] لنعيم بن حماد المرزوي الخزاعي [قتل في فتنة خلق القرآن سنة٢٢٨هـ/٨٤٢م] وعنوان هذا الفصل « أول علامة تكون من علامات البربر وأهل المغرب في خروجهم » ، وموضوع كتاب نعيم ابن حماد هذا هو الحديث عما كان من « ملاحم وفتن » وما سيكون ، وقد كتبت مواد هذا الكتاب قبل ما لا يقل عن قرن من الزمن سبق قيام الخلافـة الفاطمية في افريقية [تونس] أي في قـرن الدعوة والتحضير لتأسيس الامامة الاسماعيلية ، والنماذج المقدمة أعلاه هي أكثر مواد الفصل تهذيبا ، وأقلها اقذاعا بالشتائم ، ومع هذا فهي كما هو واضح تنم عن روح مفرطة بالعداء ، ذلك أن المعني بها الدولة التي ستعرف باسم الخلافة الفاطمية ، وهي ذات فائدة كبيرة ، اذ يمكن أن نفترض من خلالها تاريخا تقريبيا لبداية النشاط الدعوي الشيعي المتطرف في الشمال الافريقي ، والمهم الان هو أنه اذا كانت روح البغضاء والعداء « للخلافة الفاطمية » بلغت هذه الدرجة في التنبؤ ، فكيف آل اليه الامر في الواقع ؟•

كان من بين المناطق التي اهتمت بها الدعوة الاسماعيلية كثيرا بلدان المغرب العربي الكبير ، فهذه البلاد النائية عن بغداد ، والتي لم يصل السلطان العباسي الى

بعض بقاعها ، كانت مناسبة للنشاط بين قبائلها البربرية ، وعندما نستعرض تاريخ الشمال الافريقي الاسلامي ، نرى شراسة المقاومة التي أبدتها القبائل البربرية للفتح العربي ، وكثرة الثورات التي واجهت الخلافة الاموية ، وأن هذه الثورات ارتدت اما الطابع الرافض للعروبة والاسلام ، أو الطابع الخارجي ، لكن مع انقضاء القرن الهجري الاول ، كان الاسلام قد انتشر بين قبائل البربر ، وقامت حركة سفر واتصال مع المشرق ، خاصة مع الحجاز للحج ولغايات أخرى ، وكان لهذه الاتصالات أبعد الآثار ، منذ القرن الثاني ، حيث انتشر مذهب أهل السنة ، حسب مدرسة فقه أهل المدينة ، في كثير من المناطق ، وأفاد هذا التشيع العام ، سيما مع استمرار العداء للتيار الاموي • وفي بداية العصر العباسي فر بعض رجال بني أمية الى الشمال الافريقي ، وسعوا للنجاح سياسيا ، فلم ينالوا التوفيق ، وخير شاهد على هذا الجهود التي بذلها عبدالرحمن بن معاوية قبل دخوله الى الاندلس، انما بعد عبدالرحمن بفترة قصيرة وصل المولى ادريس الاول الى الشمال الافريقي ، واستقر بين قبائل أوربة في منطقة زرهون من المغرب الاقصى فنال نجاحا متميزا ، علما بأن قبائل أوربة كانت على رأس القبائل الخارجية في العصر الاموي •

ولنجاح الادارسة في المغرب الاقصى ، وأبناء سليمان [أخو ادريس] بن عبد الله في منطقة تلمسان ، ولوجود كل من دولتي الاغالبة في القيروان والرستمية في تيهرت[1] ، وقوى بر غواطة على ساحل الاطلسي ، ودولة بني مدرار على طرف الصحراء ، فقد ركزت الدعوة الاسماعيلية أنظارها على ديار قبائل كتامة في المغرب الاوسط [في عمق الاراضي الجزائرية المصاقبة للحدود مع تونس] والى هذه الديار بعثت الدعوة الاسماعيلية بعدد من الدعاة شهر منهم اثنان عرفا باسم : « أبو سفيان والحلواني» وأمرا «أن يبسطا ظاهر علم الائمة من آل محمد ــ صلوات الله عليهم ــ وينشرا فضلهم » وأمرا « أن يتجاوزا افريقية الى حدود البربر ، ثم يفترقان ، فينزل كل واحد منهما ناحية » •

ومع أن القاضي النعمان يعزو ارسال هذين الداعيين الى الامام جعفر الصادق ، فان من المرجح أن ذلك كان قبيل بدايات الفترة الشامية من تاريخ الدعوة الاسماعيلية وينقل المقريزي بأنهما أمرا بالبعد « عن المدن والمنابر ••• وقيل لهما : اذهبا فالمغرب

(1) انظر كتابي : تاريخ العرب والاسلام : ١١ ٤ـ ٤٢٣ ، ٤٥١ ـ ٤٦٠ ، ٤٨٥ ـ ٤٨٨

أرض بكر فاحرثاها ، واكرباها حتى يجيء صاحب البذر » ، « فيجدها مذللة فيبذر حبه فيها » .

ويفيدنا القاضي النعمان بأنهما لاقيا النجاح في عملهما الدعوي ، لكنه لايخبرنا عن الافكار التي دعوا اليها ، ولا عن واسطتهما اللغوية ، التي من المرجح أنها كانت العربية ، لاستعراب كتامة المبكر ، ويذكر القاضي النعمان أن الداعي أبا سفيان قد نزل بلدة تالا التونسية [علي بعد ١٧ كم من حدود الجزائر] فابتنى مسجدا هناك وكان بعض رجال القبائل « يأتونه ويسمعون منه ويأخذون عنه » وأن بعضهم تشيع على يديه ، ونزل الحلواني منطقة سوف الجمار في ديار كتامة « فبنى مسجدا وتزوج امرأة ... وكان في العبادة والفضل والعلم علما في موضعه ، فاشتهر به ذكره ، وضرب الناس من القبائل اليه وتشيع كثير منهم على يديه من كتامة ونفره وسماته ».

ومن المرجح قياسيا أن هذين الداعيين دعيا الى الامام الرضا من آل محمد ، وبشرا بقرب ظهوره ، ونعتاه بأنه المهدي المنتظر ، وصورة المهدي صورة غنية فيها العدل المنتظر والخصب والرحمة والمساواة وفيها الحروب والانتصارات المثيرة ، فيها برنامج سياسي وعقائدي واجتماعي كامل ، ولا شك أن نشاط هذين الداعيين قد مهد السبيل أمام من جاء بعدهما ليقطف الثمار[١] .

وفي فترة السلمية توفي أبو سفيان والحلواني ، ويرجح أن الخبر حمل الى السلمية على يد وفد من رجالات البربر ، وأمام المعلومات التي حملها هذا الوفد ، وضعت الخطط لمتابعة العمل ، فصدرت الاوامر الى مركز الدعوة في اليمن لاختيار عدد من الدعاة للسفر الى المغرب ، ويرجح أن الوفد البربري تم توجيهه الى الحجاز ليلتقي هناك بالبعثة الدعوية القادمة من اليمن،وفق ترتيبات كاملة،وأمام هذه الحالة من الصعب الاعتماد على رواية القاضي النعمان في كتابه رسالة افتتاح الدعوة ، وهي رواية تفوح بعامل الصدفة والنجاح الاعجازي بالمنح الربانية .

---

(١) افتتاح الدعوة : ٥٤ ـ ٥٨ . المقفى (مخطوطة باريس) ٢١٤ و . عيون الاخبار : ٣٢٤/٤ ـ ٣٩٥ . نهاية الارب : ٢٤/٢٣ . التراتيب : ١٣٨ . استتار الامام :٩٥ الكامل لابن الاثير : ١٣٠/٥ ـ ١٣١ . اتعاظ الحنفا : ١/١ ٥. ابن خلدون : ٤٥٠/٣ . دور كتامه : ٤٥ ـ ٢٢٩ .

حين يتحدث القاضي النعمان ـ وعنه أخذت بقية المصادر ـ عن ابن حوشب نجده يذكر عن « أهل العلم والثقة من أصحابه ، أنه كان من أهل الكوفة من أهل بيت علم وتشيع ، ••• وكان ممن يذهب الى مذهب الامامية الاثني عشرية » وأنه ترك مذهب الامامية وجرى تجنيده لحساب الاسماعيلية من قبل امام وقته ، وبعد التحاقه بفترة وجيزة تم تكليفه بالذهاب الى اليمن بصحبة علي بن الفضل[1] حيث نشطا هناك وحققا نجاحات كبيرة ، الامر الذي سأتعرض له فيما بعد بتفصيل أكبر •

ومواطن الريبة في هذه الرواية تنبع من التساؤل : كيف يمكن أن تعهد الدعوة الاسماعلية لرجل التحق بها جديدا بالدعوة باليمن والاشراف على الدعوة والدعاة بشكل عام بعدما أعلنت عن اليمن دار هجرة ، ثم لم طلبت من مركز اليمن بالذات توجيه دعاة أو داعية الى المغرب ؟

من بين كتب الاسماعلية التي جرى نشرها كتاب « البيان لمباحث الاخوان » ، لقد جرى تأليف هذا الكتاب في فترة الستر ، في مرحلة السلمية ، من قبل « أبي منصور اليمن » الذي شهر بلقب الشاذلي ، والمراد بأبي منصور اليماني والد الداعية « أبو القاسم الحسن بن فرج بن حوشب بن زادان الكوفي » ومعنى هذا أن اسمه كان « فرج بن حوشب » ، واذا صح هذا ، فهو ينفي حداثة تجنيد منصور اليمن ، وأصله الامامي ، يضاف الى هذا أنه عرف بلقب الشاذلي أو التادلي نسبته الى بلدةفي افريقية نشط بهاكداعية اسماعيليحتىاستدعي الىسلمية،ومما يؤكد هذا كله هو أننا عندما نقرأ كتاب الكشف من تأليف جعفر بن منصور اليمن ونقارن محتوياته بمحتويات كتاب « البيان لمباحث الاخوان » نجدهما معا ينتميان الى مدرسة اسماعلية واحدة ، وأن الافكار المعروضة في كتاب المباحث قد جرى تطويرها في كتاب الكشف[2] •

ان صورة الاحداث التي يمكن رسمها الان منطقية وفيها تفسير ليس للاسباب التي دفعت الاسماعيلية الى الايعاز الى منصور اليمن لارسال داعية من لدنه الى المغرب فحسب ، بل لاسباب النجاحات الهائلة والسريعة التي حققها أبو عبد الله الداعي في المغرب •

---

(١) افتتاح الدعوة : ٣٢ ــ ٥٤ .

(٢) نشر كتاب الكشف في اكسفورد عام ١٩٥٢ ، ثم أعيد نشره في بيروت ١٩٨٤ ، ونشر كتاب المباحث في عام ١٩٥٦ من قبل مصطفى غالب .

تألفت البعثة المرسلة من اليمن من اخوة ـ ربما اثنان ـ من أسرة يمانية بارزة في الدعوة الاسماعيلية ، اسمها « آل أبي الملاحف » مع أبي عبد الله الحسين بن أحمد ابن محمد بن زكريا ، وهو الذي سيشهر باسم « أبي عبد الله الداعي » ، وقبل انطلاق البعثة تخلف واحد من آل أبي الملاحف ، وأثناء الرحلة قبل الوصول الى مكة تخلف الثاني من آل أبي الملاحف ، وهكذا انفرد أبو عبد الله بالبعثة ، وكان أبو عبد الله هذا من أهل العراق ممن هاجر الى اليمن والتحق بدار الدعوة الاسماعيلية فيها ، وعرف بالمغرب بعدة أسماء كان منها « الصنعاني » لقدومه من اليمن .

ويبدو أنه كان في مكة جماعة كبيرة من الحجاج من كتامة والبربر ، لم يكونوا جميعا من الاسماعيلية ، أو بالحري « من الشيعة » لهذا تظاهر أبو عبد الله أنه معلم أطفال ، يود السفر الى مصر ، وبالتنسيق مع الاسماعيلية من كتامة متن من مكانته بين ركب الحجاج البربر حتى وافق الجميع على مرافقته الى الشمال الافريقي .

ويصف القاضي النعمان أبا عبد الله بقوله : « وكان ذا علم وعقل ودين وورع وأمانة ونزاهة ، وكان أكثر علمه الباطن ، ونظر في علم الظاهر نظرا لم يبالغ فيه » وكانت لديه تعليمات كاملة وواضحة حول مهمته في الشمال الافريقي ، ففي ديار كتامة نشط أبو عبد الله نشاطا أوصله في سنين قليلة الى استمالة العديد من القبائل البربرية ، وقام بتنظيم قوي بين صفوف هذه القبائل ، وقادها نحو النصر في عديد من المعارك مكنته من أن يصبح سيدا للمغرب الاوسط ، وقادرا على ازالة دولة الاغالبة من الوجود ، واحتلال أراضي كل من دولتي تيهرت وسجلماسة ، ويبدو أنه ظل طيلة الفترة من نشاطه مرتبطا باليمن ، التي كانت بدورها تبلغ السلمية[1] .

ويبدو أن أبا عبد الله قد جاهر أثناء عمله بأن الامام الذي يدعو اليه هو المهدي من أبناء اسماعيل بن جعفر الصادق ، أو بكلمة أخرى : نقل الدعوة من التشيع العام الى التشيع الاسماعيلي الخاص .

---

(1) افتتاح الدعوة : ٥٩ ـ ١٢٢ . مروج الذهب : ١/٣٧١ . ابن خلدون : ٣/٣٢ . نهاية الارب : ٢٣/٢٤ . طبقات المشايخ للدرجيني : ١/٩٢ . ابو الفداء : ٢/٨١ . الكامل لابن الاثير : ٨/٣٣ . اتعاظ الحنفا : ١/٥١ . ابن عذاري : ١/١٦٧ . المقفى . برتوباشا : ٣٩١ و . دور كتامه : ١٩٣ ـ ٣٣١ .

يبدو أن أول ما قام به أبو عبد الله كان الاستفادة من جهود الدعاة الذين سبقوه ولعله قام باعادة تنظيم جهاز الدعوة ، وأعد الدعاة الجدد ، وكان اعداده لهم عقائديا وعسكريا ، ونظرا لانه مارس مهنة التعليم في أيامه الاولى في المغرب ، فمن خلال التعليم ــ الذي لعله اقتصر على أبناء شيوخ القبائل ــ أوجد الدعاة وبنى صداقات مع زعماء القبائل ، ولا شك أن الافكار التي طرحت كانت بسيطة تعلقت بحق آل البيت بالامامة ، ثم بفكرة المهدي ، وقرب ظهوره وشروط طاعته المطلقة ، والايمان به وتقديسه •

ولقد أحسن أبو عبد الله استغلال ما كان لدى قبائل البربر من عقائد وعادات ، فالبربر تعلموا من العرب الانساب ، وقال أكثريتهم بأنهم انحدروا من قوم من قبائل حمير ، كانوا يسكنون فلسطين ، وكان زعيمهم اسمه « جالوت » وقتل النبي «داود» جالوت ، وطرد قبائله من فلسطين حيث وصلوا الى المغرب ، واستغل أبو عبد الله هذه الفكرة ، وروج لها ، وأعلن أن المهدي قادر على نقض قرار النبي داود ، ورغب البربر بالعمل من أجل الزحف نحو فلسطين ، ووعدهم بالنصر المحقق ، لان المهدي هو الذي سيقودهم •

ونقرأ في كتاب الكشف من تصنيف الداعي جعفر بن منصور اليمن أن المهدي هو الذي « يهدي الى الامر الخفي ، وهو القائم بالحق ، عند حلول الوقت بعد انقضاء عهد غيبة الائمة ، بعد استبداد أهل الظلم والعسف والجور ، بمقاليد الامور ، وهو حين يخرج ، يخرج مغضبا ، تؤيده ملائكة الرحمن ، وتسير أمامه ، وتواكبه أينما تحرك ، على رأسها جبرائيل على فرس أبلق بسرج من نور ، وعليه سرج من ذهب ، وعلى جبرائيل تجافيف من نور ، ومغفر من حديد ، وبيده حربة من نور ، وهو واقف على العقبة في سنان الحربة النصر ، وفي وسطها الرعب ، وفي زجها الظفر » ، لذلك « لا تتوالى للمهدي راية الى بلد الا قدمه الرعب بين يديه مسيرة شهر ، ولا يهدي بالدلالة أهل بلد الا وهداهم الله ، ومن أبى ذلك رماهم الله بحجارة الكبريت حتى يردهم أجمعين الى هداه يستسلمون بأجمعهم اليه ويكسر الصليب ، ويهدم البيع ، ويقتل الخنزير ، وتنقضي دعوة الشرك ، وتظهر دعوة الفرج ، وتقوم الدعوة بالدين لله خالصا ، وآنئذ يشرب الثور والسبع من حوض واحد ، ويخلف الراعي الذئب على غنمه[1] » •

---

(١) الكشف : ٤٨ ــ ٤٩ .

ومسألة ترغيب البربر بالهجرة الى فلسطين يمكن أن نفهمها في اطار أهـداف الدعوة الاسماعيلية ، فهدف هذه الدعوة لم يكن الاقتصار بالاستيلاء على رقعة من الارض من أجل اقامة دولة فحسب ، بل كان الهدف الاساسي ازالة الخلافة العباسية من الوجود ، واحلال الخلافة الاسماعيلية محلها ، ولا شك أن فلسطين كانت احدى بلدان الخلافة العباسية ، وكان الوصول من المغرب الى العراق سيتم عبرها حتما ، وفي تاريخ الخلافة الفاطمية ، توجهت الجيوش البربرية بعد احتلالها لمصر مباشرة بقيادة بربرية ، لاحتلال فلسطين ، لكنهم أخفقوا في تجاوز حدود الشام والزحف على العراق .

وبعد ما مضينا بعيدا مع أبي عبد الله الداعي ونشاطاته في الشمال الافريقي ، نعود نحو السلمية ، حيث نجد بيت الدعوة الاسماعيلي يشهد انشقاقا خطيرا ، تجلى بقيام ما يعرف بحركة قرامطة الشام بزعامة « صاحب الجمل » أولا ثـم « صاحب الخال » ، فقد ادعيا النسب الاسماعيلي ، وتسمى كل واحد منهما بلقب امام ، وقام صاحب الشامة بمهاجمة السلمية حيث دمرها وأباد كل من وجده فيها ، وأثناء زحف القرامطة على السلمية ، وصلت رسالة الى الزعيم الاسماعيلي فيها انهم « قد عزموا على قتالك وقتل أهلك،فان كنت قاعدا فقم » ، وكان هذا الزعيم الذي سيعرف باسم المهدي الفاطمي ، وسيكون أول خلفاء الدولة الفاطمية ، وبادر المهدي لدى وصول الخبر اليه بالرحيل ، وأخذ معه أبا القاسم الذي سيكون الخليفة الفاطمي الثانـي وسيعرف باسم القائم ، وأخذ معه « جعفر الحاجب وابن بركة الحاضن لا غير » ، وترك القصر « كما هو بفرشه وستوره وأمواله وعبيده وبني عمه وبني أخيه الذكور والاناث... وخرج وقت صلاة العصر ولم يعرف به أحد»وبعد خروجه من السلمية اتصل بواحد من كبار بداة المنطقة واسمه غيلان الرياحي فأتاه « ومعه ثلاثون فارسا ، فمشى معه الليل كله حتى وصل الى حمص صلاة الغداة ، ورجع عنه غيلان ، وتمادى هو يومه ذلك حتى وصل طرابلس الشام ، فأقام بها يوما واحـدا ، ثم توجـه الى فلسطين الرملة » وأقام بالرملة ما يزيد على السنة يرقب الحوادث بالشام ، ويجدد الاتصالات ببعض الدعاة لتدارس الموقف والتخطيط لخطوات مقبلة ، وأثناء الاقامة بالرملة جرت بعض الاتصالات مع القرامطة ، ولعل هذا كان في حوالي سنة ٢٩٠ هـ لكنها لم توصل الى نتيجة مجدية ، لهذا تقرر مغادرة الرملة نحو مصر ، وكانت قد

بلغته الاخبار بدمار السلمية وبقتل جميع من كان بها ، وكان آنذاك « داعي الدعاة ، وأجل الناس عند الامام وأعظمهم منزلة ، والدعاة كلهم أولاده ومن تحت يده ، وهو باب الابواب الى الائمة » اسمه فيروز وكان المسؤول عن الدعوة في مصر اسمه أبو علي « وكان مقيما يدعو بها ، وأكثر دعاة الامام من قبله ، وكان فيروز الذي دعاه ورباه وزوجه ابنته أم أبي الحسين ولده » .

وأقام « المهدي » في مصر متخفيا فترة من الزمن ، وهو على نية التوجه من هناك الى اليمن ، لكنه ما لبث أن غير نيته وقرر التوجه الى الشمال الافريقي يريد سجلماسة على طرف الصحراء ، ويحدثنا الحاجب جعفر وكان بصحبة المهدي عما حدث في مصر والاعمال التي قام بها المهدي هناك ، فيذكر وصول تقارير الى والي مصر حول نشاط اسماعيلي فيها ، ويبدو أن هذه التقارير لم تكن واضحة ، ولذلك اعتقل الحاجب جعفر وأجري معه التحقيق ثم أطلق سراحه ، يقول جعفر : « وكنت ذلك الرجل المقبوض عليه وضربت أسواطا يسيرة ضربا خفيفا لم يكن علي منه بأس، وكان المهدي ــ ع.م ــ قد تقدم الي قبل القبض وقال لا توجعك نفسك اذا دفعتك الى العامل دون أصحابك ، فاني أريد أن أردك الى سلمية لتستخرج القمقمين اللذين أمرتك بدفنهما ، فليس معي من الغلمان من يعلم بهما سواك ، واذا وقفت للتقرير ، فقل : أنا رجل حر ، خدمت هذا الرجل بأجرة معلومة فعلى ما تقرروني ، ولم أخدمه الا من قريب ، وأنا أرد عليه باقي أجرته وأرجع عنه الى بلدي ؟ .

قال : ففعلت ما أمرني به ، وخلى العامل سبيلي ، فدخلت على المهدي ــ ع.م ــ بالليل ، فقال لي : بكّر في الغداة ، ولا تلو على شيء حتى تصل سلمية ، وتستخرج المال ، وتشتري منه أحمال قطن ، وتجعله في بعضها وتسرع جهدك ، واحذر أن تظهر لاحد بسلمية ... وأنا أنتظرك بأطرابلس المغرب ، ولا أبرح منها حتى أراك ان شاء الله »[1] .

وكان قرار التوجه مفاجئا بالنسبة لاتباع المهدي ، يقول الحاجب جعفر : «ولم نشك أنا نريد اليمن ، فلم يظهر سيره الى المغرب الا تلك الليلة ، قال جعفر : فاشتد ذلك على كل من كان معه ، وشق علينا ذكر المغرب » . والاسباب التي دفعت المهدي الى اتخاذ هذا القرار نبع من أخبار اليمن غير المشجعة ، ولخلافه مع داعي دعاته

(١) سيرة الحاجب جعفر : ١٠٩ ــ ١١٤ .

فيروز ، ففي داخل اليمن حقق الهادي الى الحق يحيى بن الحسين ، وهو امام زيدي منذ سنة ٢٨٤ هـ/٨٩٧ م وبعد عمل دعوي وحربي طويل ، نجاحات كبيرة ، وخاض أكثر من معركة ناجحة ضد اسماعيلية اليمن •

وعن فيروز يقول الحاجب جعفر : « وخالفه [المهدي] فيروز قبل خروجه من مصر ، ومضى الى اليمن ••• ووصل فيروز الى داعي اليمن ، وهو رجل من الكوفة، وكان السبب في اتصاله بالامام فيروز ، وهو ••• المعروف بمنصور اليمن ، من بيت تشيع ، فلما وصل فيروز اليه لقيه بالتبجيل والتعظيم لما كان يعلم من محله »[١] •

ويبدو أن الخلاف مع فيروز عجل بقرار المهدي بالسفر نحو الشمال الافريقي ، فانطلق من الاسكندرية يريد مدينة طرابلس ، لكن لم تسر الامور بيسر ، حيث وصلت تقارير وافية الى السلطات المصرية حوله، تبين صفاته وملامحه وتذكر مكانته، ويرجح هنا أن المنشقين هم الذين رفعوا هذه التقارير ، ومهما يكن الحال ، فقد تمكن المهدي ومن برفقته من الوصول الى طرابلس عن طريق الرشوة والتنكر ، وركوب المسالك غير المطروقة ، حتى أن ركبه تعرض للنهب من قبل بعض البربر •

ومن طرابلس توجه المهدي ، وهو على غاية الحذر يريد سجلماسة [اقليم الراشدية في المملكة المغربية] على طرف الصحراء ، وكانت سجلماسة مركزا تجاريا نشطا بشكل كبير ، وكانت أشبه المدن بحال مكة ودورها لما قبل الاسلام ، وكانت هذه المدينة تدار من قبل أسرة خارجية تعرف ببني مدرار[٢] ، واختيار سجلماسة يشبه من حيث المنطلقات اختيار الدعوة الاسماعيلية للسلمية من قبل في بلاد الشام •

وقد يتساءل المرء عن السبب الذي جعل المهدي يأخذ الطريق الى سجلماسة وليس الى ديار كتامة حيث أبو عبد الله الداعي كان يحقق النجاحات الكبيرة؟ وأرجح الاسباب هنا مرتبط بالانشقاق الذي حصل في مصر ، فأبو عبد الله الداعي تم توجيهه الى المغرب من قبل منصور اليمن ، وكان به متصلا ، ولم يسبق له أن زار السلمية ، ونال معرفة واحد من الائمة •

ويذكر الحاجب جعفر أن المهدي كان قد كتب الى منصور اليمن يخبره بأمر

---

(١) سيرة الحاجب : ١١٤ ـ ١١٥ .
(٢) المغرب الاسلامي للحبيب الجنحاني : ١٤٣ ـ ١٩٠ .

فيروز ، وطلب منه القيام بقتله ، ويتابع الحاجب جعفر قوله بأن فيروز علـم وهو باليمن بما وصل من عند الامام ، فهرب الى علي بن الفضل ، وهو الداعية الاسماعيلي الاخر باليمن ، وكان ابن الفضل سيدا لعدد من القلاع اليمانية مع منطقة شاسعة ، ويذكر الحاجب جعفر بأن فيروز « فتن علي بن الفضل وأهل بلده وشعوذ لهم »(١) وتتحدث المصادر اليمنية(*) بأن علي بن الفضل أعلن القيامة في منطقته ودخـل في حروب طاحنة مع منصور اليمن ؛ وانتهت الصراعات هذه بمؤامرة اغتيال ناجحـة لعلي بن الفضل ، ولعل ذلك كـان سنة ٢٩٣ هـ/٩٠٥ م ، وأثنـاء هـذا تجددت الاتصالات بين منصور اليمن وأبي عبد الله الداعي ويبدو أن هذا الاخير علم الآن بتوجه المهدي الى الشمال الافريقي •

ووصف لنا الحاجب جعفر مصاعب الرحلة الى سجلماسة ، وبـين بأن المهدي « قد لقي قبل دخولنا سجلماسة رجلا وسيما حسن الهيئة ومعه ولد له ، وهو يريد اليها بتجارة معه ، فسأله المهدي ــ ع•م ــ وقد جمعهما الطريق عـن اسمه ونسبه وبلده ، فعرّفه أنه مطلبي ، وبلده القيروان ، فحادثه المهدي ــ ع•م ــ وأنس بـه ولاطفه ، فوجده متشيعا ، ففتش عقله ، فلما رضيه أخذ عليه » •

واستقر المهدي في سجلماسة ، وفيها توثقت علاقاته بالمطلبي ، ولما فرغ « من تجارتـه ، استأذن المهدي ــ ع•م ــ في الرجوع الى القيروان » فأذن له وكلفـه بالاتصال بأبي عبد الله الداعي ، وقال لـه : « اذا رأيته قـد عزم على الخروج الى سجلماسة، فاخرج معه ، وأنفذ اليّ ابنك هذا معه••• قال جعفر : وانما أراد المهدي ــ ع•م ــ بانفاذ المطلبي ليعرف أبا عبد الله الشيعي بالمهدي ــ ع•م ــ لان الشيعي الداعي ببلد كتامة لم يكن رأى المهدي»(٢) •

ويستفاد مما كتبه الحاجب جعفر بأن المراسلات توالت بين المهدي وأبي عبد الله الداعي ، وأثارت نشاطات المهدي ريبة اليسع بن مدرار صاحب سلجماسة ، فقرر التحقيق معه ، واتهمه بالنشاط السياسي وأنه يتظاهر بالتجارة للتمويه فقط ، لذلك اعتقله ، وفرق بالاعتقال بينه وبين القائم ، وتعرض رجـال حاشية المهدي للتعذيب الشديد ، وقاد ذلك الى معرفة اليسع بوجود علاقات بـين أبي عبـد الله الشيعي

(١) سيرة الحاجب : ١١٥ .

* نشرت غالبية النصوص اليمنية المرتبطة بهذا الموضوع في كتابنا هذا « الجامع في أخبار القرامطـة » .

(٢) سيرة الحاجب : ١١٦ ــ ١٢٠ .

والمهدي ، وكان أبو عبد الله قد صار سنة ٢٩٦ هـ/٩٠٩ م سيد إفريقية ، حيث أزال دولة الاغالبة من الوجود ، لذلك حافظ اليسع بن مدرار على حياة المهدي ليساوم به ، وبالفعل توجه أبو عبد الله الشيعي على رأس جيوش كبيرة يريد سجلماسة ومعه ابن المطلبي التاجر ، ولما وصل « الى سجلماسة وضع عليها الحرب ، بعد أن راسل اليسع بن مدرار أمير البلد في اخراج المهدي ـ ع م ـ اليه وضمن له بالانصراف عن بلده على الموادعة ، فامتنع عليه ، وضيق عليه ، وضيق على المدينة بالحرب ، وأحاطت العساكر من كل الجهات بسجلماسة بعد حرب عظيمة ، فلما رأى اليسع ما لا طاقة له به استشار من معه من أهله بالحيلة في الخلاص ، فقال له بعض من استشاره : أقتل هؤلاء المتهمين عندك ، فان كانوا أصحابهم فللت جمعهم ، وأبطلت عليهم مذهبهم ، وشتت كلمتهم ؛ وقال آخرون بل تحسن اليهم ، فانهم يكفونهم عنك ان كانوا أصحابهم ؛ ويكافئونك عن احسانك اليهم .

قال جعفر : وكان قد اتهم أيضا بهذا الامر رجل من التجار يعرف بابن بسطام، وذلك أن قوما من التجار حسدوه على نعمته ، مع شر كان فيه ، فأرادوا زوال نعمته وهلاكه ، فاجتمعوا الى اليسع وقالوا له : ان الرجل الذي يطلبه السلطان ليس هو مولى هؤلاء المعذبين عندك ، وانما هو هذا الرجل ـ يعني ابن بسطام ـ فأمره بلزوم منزله . قال جعفر : وكان ذلك مما شككه في المهدي ـ ع م ـ فتوقف عن عذابنا ... وقال له بعض من كان يثق به ويرجع الى رأيه : القوم قد أحاطوا بنا من كل جانب ، وليس لنا بهم طاقة ، فان أنت قتلت هؤلاء القوم قتلوك بهم وقتلونا ، والرأي لنا ولك أن تخرج هؤلاء الرجال واحدا واحدا ، فمن كان منهم صاحب القوم اشتغلوا به عنك وعنا وقت خروجه اليهم ، فعند ذلك نجد نحن لاشتغالهم الفرصة للهرب ، ومع هذا فانه اذا وصل اليهم صاحبهم لم يكن له ولا لهم اهتمام الا القفول الى إفريقية ، خوف أن يبلغ زيادة الله بن الاغلب الهارب من بين أيديهم أنهم انصرفوا عن افريقية الى سجلماسة ، فيرجع اليها طمعا منه لبعد ما بين البلدين ، ويحشد بها العرب ، ويتحصن منهم ، فيصعب الامر عليهم ، فاذا انصرفوا عن البلد بصاحبهم رجعنا اليه .

قال جعفر : فاتفق القوم على اخراج ابن بسطام ، الذي وشى التجار به ، وأخرجوه الى أبي عبدالله،فلما رآه أبو عبدالله ترجل اليه،وقدر أنه المهدي ـ ع م ـ فترجل ابن بسطام لترجل أبي عبد الله ، فلما رآه أبو عبد الله قد ترجل لترجله ركب

فرسه ولم يلتفت اليه ، ودعا بأبي القاسم بن المطلبي ، وقال لـه : الزم على يميني ولا تفارقني ، فلهذا وجهك معي الامام ، ولو كنت معي ما نزلت لرجل من سائـر الناس ... قال : ووقف ابن بسطام تحت ركاب أبي عبد الله يحرضه على فتح المدينة، ويعرفه سلامة المهدي وسلامة القائم ـ صلوات الله عليهما ـ قال جعفر : فلما زاد البلاء على أهل سجلماسة ورآهم صاحبها لم يلتفتوا الى ابن بسطام ، بعث الـى المهدي ـ ع.م ـ بفرس كميت ، وقال له : اخرج عنا الى هـذا الرجل ان كـان صاحبك ، قال جعفر : فخرج المهدي ... فلما فصل عن سجلماسة ، وانتهى الـى حيث تبين للمتأمل ، قال ابن المطلبي لابي عبد الله : هذا مولاي ومولاك ومولـى النـاس جميعـا ، فنزل أبو عبـد الله عن فرسـه وابن المطلبي ، فنـزل الجيش كلـه ، وقبل أبو عبد الله الارض ، وقبل الناس معـه ، وغـدا وغدا الناس خلفه ، يقبل الارض والناس يقبلون خلفه، حتى انكب على حوافر فرس المهدي بالله صلوات الله عليه ، ثم رفع رأسه فقبل ركاب المهدي عليه السلام وقد خنقته العبرة ، فأخـذ المهدي ـ ع.م ـ بيده رأس أبي عبد الله ، وأقبل بوجهه اليه ، وقال : أبشر بخـير يا حسين » ، وازدحم الناس حول المهدي ، وانشغل رجال جيش كتامة بذلك عـن متابعة القتال ، الفرصة التي اهتبلها اليسع بن مدرار وأصحابه ، فخرجوا « هاربين من المدينة على وجوههم الى الصحراء ، يريدون صنهاجة المشركين الذين في داخل المغـرب » .

وما أن هدأت الاحوال واستعيد النظام ، حتى أمر المهدي باقتحام سجلماسة والعمل على استنقاذ القائم ورجال حاشيته ، وبعد شيء من الصعوبات تم ذلك ، وفي اليوم التالي أقيم سرادق كبير ، ووضعت الترتيبات لبيعة المهدي بالخلافـة ، والاعلان عن ولادة الدولة الجديدة .

ويقدم لنا الحاجب جعفر وصفا وثائقيا لاحتفالات البيعة ، حيث نصب سرير كبير للمهدي وضع تحت سرادق كبير مفتوح من جميع الجوانب ، جـاء أشبـه بمظلة سماوية كبيرة جدا ، ووقف رجال حاشية المهدي مع القائم حوله ، وعلى مسافة مائتي ذراع وقف أبو عبد الله الداعي « ومعه ألف بواب ، وقد وقفوا صفين ، وهو يدعو بأسماء الدعاة والقواد يقدمهم عشرة عشرة » للسلام على المهدي وتقديم البيعة

واحتاج هذا العمل عدة أيام ، وبعد ذلك رحل المهدي يريد القيروان ليتخذها مقرا لملكه الجديد[1] .

مما سلف نخلص الى القول أنه في سنة ٩٠٩ م تمت ولادة دولة جديدة ، دعيت باسم الخلافة الفاطمية [نسبة الى فاطمة الزهراء] ، وهذه الخلافة هي أول خلافة شيعية متطرفة في التاريخ ، وأعظم دول الشيعة مكانة ودورا ، وحمل أول خلفاء هذه الدولة لقب المهدي ، ويبدو أنه كان مهديا من حيث الاسم فقط لا من حيث التصور الوهمي المرغوب فيه ، ووصل هذا المهدي الى السلطة وحقق النصر بفضل عمل دعوي طويل وجيد التنظيم، ثم بفضل استخدام القوة المسلحة البشرية، لا بفضل الملائكة وجند السماء ، ولا شك أنه كان لتبدد الصورة الخيالية السرابية ، وقيام دولة الواقع ردات فعل شديدة ، لكن قبل الاستطراد في الحديث عن هذا : وعلى الرغم مما أوردناه من قبل ، من المناسب هنا الوقوف لنحاول التعرف عن كثب الى شخصية المهدي ، واسمه ونسبه ومرتبته في الدعوة الاسماعيلية ، وهل كان امام استيداع أم استقرار ، وهل انحدر من صلبه أئمة الخلافة الفاطمية ؟

الخلاف بين مصادرنا حول أصل المهدي ونسبه شديد، فقد ذهب كل مصدر مذهبا خاصا في تحديد اسم المهدي ونسبه، قبل أن يكون مهديا، ثم بعدما صير نفسه كذلك، فغالبية المصادر السنية تنفي عنه النسب العلوي الفاطمي ، وتعزوه حينا الى الفرس المجوس وحينا آخر الى اليهود ، وغير ذلك ، وهي ان اختلفت أيضا في تحديد اسمه قبل استلامه الخلافة ، تتفق على أن اسمه بعدما صار خليفة هو عبيد الله ، وعلى هذا الاساس دعت المصادر السنية الخلافة الفاطمية باسم « الدولة العبيدية » .

ان مسألة الطعن في نسب المهدي والفاطميين مسألة مرفوضة ، ذلك أن الكتّاب السنة أخذوا بها مسايرة للدولة العباسية ، التي عجزت عن التصدي للفاطميين بقوة السلاح ، فلجأت الى وسيلة الطعن بالنسب عن طريق البيانات ، واستغلت الثغرة التي قامت بسبب لجوء أبناء اسماعيل بن جعفر الصادق الى التكتم والتخفي الشديد، نتيجة للملاحقة العباسية ، ومن المدهش أن السلطات العباسية لاحقت تحركات المهدي في طريقه من الشام الى مصر ، ثم في مصر ، ومنها الى الشمال الافريقي وكانت

---

(١) سيرة الحاجب جعفر : ١٢٠ ـ ١٢٣ .

أثناء الملاحقة هذه ترى بداهة صحة نسبه العلوي ، لذلك لم تطعن بأصله العلوي ، انما بعدما انتصر نفت عنه هذا النسب .

وفيما يتعلق باسمه ، نحن لا نملك من المصادر الاسماعيلية وغير الاسماعيلية ، ما يساعد بشكل حاسم تماما على اثبات أو نفي كونه كان يحمل اسما غير الاسم الذي عرف به بعد استلامه الخلافة ، ومرد هذا الامر الى عاملين رئيسين : أولهما مرتبط بما أثير حول النسب ، والثاني مرتبط بقضية التكتم والتخفي ، فلعل ذلك استلزم منه اعطاء نفسه أسماء مختلفة بين حين وآخر .

ومع هذا كله فهل كان اسمه بعد استلامه الخلافة عبيد الله ؟ إن اسم عبيد الله هو مصغر عبد الله ، ومن المعلوم أن في التصغير تحقير ، ومرة أخرى كما أرادت السلطات العباسية أن تطعن بنسب المهدي سعت الى تحقيره بتصغير اسمه ذلك أن المهدي عند الشيعة عامة وعند الاسماعيلية خاصة ينبغي أن يكون من قريش من بني هاشم ، ثم من بني عبد المطلب ، من ولد الحسين بن علي ، لان الحسين من ولد فاطمة بنت الرسول ، واسم المهدي اما عبد الله مثل اسم أبي رسول الله واسم أبيه مثل اسم النبي محمد ، أو عكس ذلك ، كما اعتقد الخليفة المنصور العباسي حين أعلن ابنه محمدا مهدي الدولة العباسية [كان اسم المنصور عبد الله] يضاف الى هذا أن اسم ـ الخليفة ـ المهدي الفاطمي في المصادر الاسماعيلية وفي الكتابات التاريخية المعاصرة له ، وعلى النقود هو عبد الله ، وقد رأيت في القيروان دينارين ذهبيين من دنانير المهدي ضربا فيها الأول سنة ٣٠٢ هـ/٩١٤ م والثاني سنة ٣٠٤ هـ/ ٩١٦ م ونقشهما :

الامام عبد الله

لا اله الا الله محمد رسول الله

وحده لا شريك له

المهدي بالله أمير المؤمنين(١)

---

(١) في متحف دمشق دينار ذهبي وربع دينار يؤكدان هذا ايضا .

وأما فيما يتعلق بمكانة المهدي في الدعوة الاسماعيلية ، فمن المرجح أنه كان امام استيداع ولم يكن امام استقرار ، وكان عما للقائم ، ولم يكن والده رغم ماأثبت في بعض المصادر المتداولة ، ويمكن أن نسوق هنا عدة أدلـة :

١ ــ نقرأ في كتاب المجالس والمسايرات للقاضي النعمان ، وعنه نقل الداعي المطلق ادريس القرشي في كتابه عيون الاخبار بأن المهدي ولد له بالمهدية غلام ذكر دعاه بأبي الحسن ، وفكر بجعله وليا لعهده ، لكن هذا الغلام جدر فذهب بصره ، وهكذا بقيت ولاية العهد للقائم ، وكانت أم الوليد المجدور تقول دائما : « والله لقد خرج هذا الامر من هذا ــ تعني قصر المهدي [صلع] فلا يعود اليه أبدا ، وصار الى ذلك القصر ــ تعني قصر القائم بأمر الله ــ فلا يزال في ذرية صاحبه ما بقيت الدنيا»وكانت اذا مارأت واحدة من نساء قصر القائم تقول لها:«قد ولدت اماما»[1].

٢ عندما بنى المهدي مدينة المهدية ــ كما سنوضح ذلك ــ لم يبن في المدينة الجديدة دارا للخلافة بل قصرا له وآخر للقائم ، رغم ضيق الرقعة .

٣ ــ يبدو أن المهدي أنجب وهو في الخلافة عددا من الاولاد ، وقد أثار هؤلاء المشاكل الكثيرة لابناء القائم من بعده ، وخاصة الامام المنصور اسماعيل ثم المعز لدين الله ، وفي رسائل هذين الامامين الى الاستاذ جؤذر ، الذي كان من العبيد الصقالبة [السلاف] وتدرج في المناصب حتى وصل أعلاها وصار المسؤول عن القصر ، ففي عدد من الرسائل شكا جؤذر سوء سلوك أبناء المهدي ، فوافق المنصور ثم المعز على اتخاذ أقسى الاجراءات ضدهم ، ووصفهم المنصور بأنهم « الشجرة الملعونة في القرآن » ووصفهم المعز بالقردة وغير ذلك من الاوصاف ، وبلغ المعز تآمر أحمد بن المهدي عليه « وأنه يكثر القبيح ويتقول على المقام » فكتب الى جؤذر يقول : « ... وقد كبر على كل ذي نعمة ما وهبنا الله ، واستعظموا الخروج مما هم فيه ، فلو وجدوا من سوء الشنع كل عظيمة ــ يرد الله شرها ــ برؤوسهم لفعلوا ارادة أن يطفئوا نور الله ، « ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .... وهذا الشقي أحمد قد تقدم له رسم في الشؤم ...»[2] .

---

(١) المجالس والمسايرات : ٥٤٢ ــ ٥٤٣ .

(٢) سيرة جؤذر : ٦٥ ــ ٦٩ ، ١٠٥ ــ ١٠٦ .

٤ ــ ونقرأ ــ كما سلفت الاشارة ــ في مخطوط اسماعيلي قديم اسمه «كتاب التراتيب ــ وهي سبعة تراتيب على التمام والكمال» بأن والد القائم، وكان لقبه المهدي تسلم الامامة «واشتهر بها، وكان أمر الظهور قد اقترب؛ بأوان طاوع الشمس من مغربها، فحضرته النقلة [الوفاة] دون الظهور الكلي؛ فعندها أحضر المهدي ولده القائم، وسلم اليه بمحضر من خواص الدعاة؛ وأكابر الحجج، وأمر أخاه عبد الله أيضا بأن يقوم مقامه ــ أي الامام المهدي أبو القائم ــ وينوب منابه، ويتسمى باسمه، وينعت نفسه بنعته، وينسب القائم عليه السلام، أنه ولده، كيما تعلو كلمته، وتثبت دعوته، لانه صاحب الكشف، على يده يكون الظهور والفرج، وبروز كل أمر من الدين مستور.

وقام القائم عليه السلام بصورة الجود الكلي، والفيض الالهي، وقام عمه عبد الله بالخلافة والنيابة، وتلقب بالمهدي، كما أمره الامام على ذكره السلام؛ ودعا لنفسه، وبسط الدعاة والحجج في الجزائر والاقاليم من قبله، والدعاء له، والطاعة لأمره، وأنه الامام المقصود، الذي دلت الحدود على طاعته، وعلى يده يكون الظهور، وبروز كلام من الدين مستور، فلم يزل كذلك حتى ظهرت الدعوة باليمن على يد بعض دعاته، وهو الملقب بمنصور اليمن، فظهرت الدعوة بالمغرب على يد أبي عبد الله الشيعي، واستقام أمره، وتم المراد، وظهر بالامامة والملك، وخطب على المنابر في جميع الامصار، وسائر الاقطار، وشد عند ذلك ما كان ضعف من شريعة جده محمد ﷺ، وبتر ما كان من غيرها، وأقام أركانها، وشد بنيانها، وكشف علم التأويل، وأبان حقائق التنزيل، وجاهد في الله حق جهاده، ولم يزل كذلك الى أوان نقلته، وحضور أجله، فعند ذلك أحضر حججه، وحدود دعوته، وسلم الامر الى صاحبه وهو القائم محمد بن المهدي، والامام الحقيقي، بمحضر منهم، فأشهدهم على نفسه أنه أدى ما وجب عليه من الخدمة والخلافة؛ وسلم الامر لصاحب الامر.

وكان المهدي أبو القائم، هو أخو المنتقل الى سجلماسة، وكان المهدي صاحب الكشف، هو المولود؛ المنتقل بالمهدية كما جاء بالتواريخ، ومن هذه الجهة أنكر أبو العباس أخو أبي عبد الله الشيعي امامة المهدي الظاهر من سجلماسة لأنه عارف بالمهدي أبي القائم، فلما رأى الامر وسوس لأخيه أبي عبد الله الشيعي، وقال: ان هذا الذي يدعي بأنه الامام، وسلمت مقاليد الملك الذي بيدك اليه،

وقلت أنه المهدي المنتظر ، ما هو كما قلت ، ولا الامر كما توهمت ، ولا هو صاحب الامر ، ولقد كنت أنت أحق بالخلافة منه ، وأولى بالنيابة ، وكان من أمر أبي عبد الله الشيعي ، وأخيه العباس »[1] أن قتلهما المهدي بتهمة التآمر والخروج .

٥ ـ اللقب الذي حمله القائم ، فهو الوحيد بين أئمة الفاطميين الذي تفرد بحمل هذا اللقب ، ذلك أن لقب القائم هو أرفع الالقاب الاسماعيلية وأعلاها قداسة، هو ليس اماما عاديا بل نبيا من الانبياء ذوي العزم ، ففي رسالة من رسائل القاضي النعمان ، كتبها أيام المعز لدين الله الفاطمي ، في الفترة الافريقية ، ودعاها باسم « الرسالة المُذْهِبَة في الحكمة والتأويل »[2] تحدث القاضي النعمان طويلا عن شخصية القائم وكان من جملة ما قاله : « قد ذكر الله عز وجل في كتابه العزيز له ثلاثمائة وستين اسما يعرفها العارفون ، ويعمى عنها الجاحدون ، حتى أن الصفوة الذين اقتفوا آثار الائمة صلوات الله عليهم أجمعين اختلفوا فيه ، فزعمت طائفة منهم أنه جسماني غير مؤيد ، واحتجوا على ذلك ، وقالوا : انه مقتف آثار أبيه رسول الله ﷺ مقتبس من علمه ، لا يحكم الا بما وصى به اليه جده ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ وكيف لا يكون ذلك ، وقد أعطاه الله تبارك وتعالى ما لم يعط لأحد غيره ، لقوله عز وجل : « ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » [التوبة : ٣٣] ولا يكون أفضل من فاضل،وتحقيق ذلك أن سائر النطقاء والرسل والانبياء والخلفاء من الائمة ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ كلهم مبشرون منذرون به ، داعون اليه .

وقالت طائفة أخرى : انه روحاني منتقل عن الجسماني ، وهم الجم الغفير ... وقالت طائفة أخرى أيضا : انه سابع سبعة من آدم ... فالنطقاء سبعة أولهم آدم وآخرهم القائم ... ومثله مثل من سلف من النطقاء [الانبياء ذوي العزم] أصحاب الشرائع والاحكام ، والحلال والحرام ، غير أنه أيده الله بما لم يؤيدهم به ، وأعطاه ما لم يعطهم ، وذكر الدعاة اليه ، والمبشرون به، والمخبرون عنه ، أن دوره ـ صلوات الله عليه ـ آخر الادوار ، اذ كان يومه آخر الايام ، وأنه يجيء بالجسمانية فيحكم في الجسمانية ويملؤها عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما ، وأن دوره دور القيامة .

---

(١) اخبار القرامطة : ١٣٧ ـ ١٤١ .

(٢) لدي صور ثلاث نسخ منها حصلت عليها من مكتبة خاصة .

فلا تزال دعوته قائمة الى أن يرث « الارض ومن عليها » [الانبياء : ٨٩] والقائم يحكم في الحياة بالجسمانيين، وبعد الحياة «في الروحانيين كما حكم في الجسمانيين، لا على من كان في عصره وزمانه » فقط بل على الجميع من « الاولين والآخرين ، اذ كان هو صلوات الله عليه سببا لبدء الابتداء ، واليه الانتهاء » .

ان الرسالة المذهبية من أهم الرسائل الاسماعيلية ، اوقف القاضي النعمان جل مواردها على شخصية القائم ، على أساس النظام السبعي ، وعنده الانبياء ذوي العزم هم «النطقاء السبعة عليهم السلام ، وذلك أن الولاية لادم عليه السلام وأن الطهارة لنوح ، وأن الصلاة لابراهيم ، وأن الزكاة لموسى ، وأن الصوم لعيسى ، وأن الحج لمحمد ﷺ ، وأن الجهاد الى القائم صلوات الله على ذكره » وكان من المفترض بالمهدي التمهيد لعصر القائم لدى تسلمه السلطة باعلان قيامة عظمى ، لكن لم تتح الفرصة للقائم الفاطمي حتى باعلان قيامة صغرى ، لانه شغل أثناء حكمه بثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد الخارجي[1] .

---

(١) يذهب القاضي عبد الجبار الهمذاني الى ان الخلافة الفاطمية اظهرت اثناء ثورة أبي يزيد « الرجوع الى الاسلام ، وقام الامام » بقتل الدعاة ، ونفي بعضهم الى أرض الاندلس وغيرها ، وقال للعامة من سمعتموه يلعن الانبياء فاقتلوه وانا من ورائكم ، وأذن للفقهاء والمحدثين ... وخفف الخراج واظهر الشغل بالفقه » . انظر اخبار القرامطة : ١٦٤ .

وبالنسبة لثورة ابي يزيد مخلدبن كيداد يمكن العودة الى ترجمتي القائم والمنصور اسماعيل في المقفى للمقريزي والى طبقات المشايخ للدرجيني والى محتويات المكتبة الإباضية الافريقية ، والى عيون الاخبار للداعي ادريس ، وجرى نشر السبع الخامس من هذا الكتاب في بيروت ، وأعيد نشر اجزاء منه في تونس بعنوان «تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب» تحقيق د. فرحات الدشراوي – تونس ١٩٧٩، وشخصية هذا الثائر ما تزال تستهوي الباحثين بين معجب ومتهم ومن احدث الكتب الاباضية حوله كتاب « ثورة ابي يزيد – جهاد لاعلاء كلمة الله » تأليف الشيخ سليمان بن الحاج داود بن يوسف ط . الجزائر : ١٩٨١ .
أما بالنسبة الى موضوع القيامة فلا تكاد رسالة او كتاب من كتب الاسماعيلية الا ويكون فيها وفيه الموضوع الرئيسي ، انظر : سرائر واسرار النطقاء لجعفر بن منصور اليمن : ٢٢٩ – ٢٦٤ . كتاب الكشف له : ٤٦ – ٥٠ ، ٦٤ – ٦٧ ، ١٠٥ – ١٠٦ ، ١١٦ – ١١٧ . كتاب البيان لمباحث الاخوان لابي منصور اليماني : ٨٨ – ٩٣ ، ١٠٨ – ١٠٩ . اربع رسائل اسماعيلية تحقيق عارف تامر : ٥١ – ٥٢ ، ١٠٢ . ثلاث رسائل اسماعيلية تحقيق عارف تامر : ١٨ – ٢٠ . اربع كتب حقانية تحقيق مصطفى غالب : ٨٨ – ٩٩. كتاب اثبات الامامة لاحمد بن ابراهيم النيسابوري : ٤١ – ٩٣ كتاب اثبات النبوءات لاسحق السجستاني : =

لعل ما قدم حتى الآن يكفي للبرهنة ، وعليه لن أتوسع الآن أكثر حول هذه المسائل ، بل سألزم نفسي بالمضي في البحث ، انما بشيء من الاختصار :

فبعدما تسلم المهدي زمام الامور من أبي عبد الله الداعي ، وما أن أصبح أميرا للمؤمنين حتى أخذ يباشر أمور الحكم بنفسه حسب قاعدة الامامة عند الاسماعيلية ، ذلك أن الامام وحده هو صاحب الحق في الحكم والتشريع ، وقام المهدي بجمع الدعاة وعمل على اعادة تنظيم الدعوة ، وجهد في سبيل ايجاد جيل جديد من الدعاة ، ولقد أصاب في هذا السبيل نجاحا كبيرا ، ذلك أن زعامة الفكر الاسماعيلي ستؤول بعد قليل الى جيل من الدعاة جلهم من أصل بربري أو مغربي ، وسيظل هذا الجيل متمسكا بهذه الزعامة حتى عصر الحاكم بأمر الله في مصر .

وأصبحت الدعوة الاسماعيلية الآن دعوة علنية ، تدعمها سلطة دولة فتية ، وهنا لا بد لنا من أن نتساءل عن التجديدات التي أدخلت على أفكار الدعوة ثم عن التأثيرات المحلية عليها ؟.

يروى بأن المهدي كان قد جلب معه من المشرق كمية من الكتب الخاصة ، لعلها تضمنت النتاج الفكري الاسماعيلي ، أو بعض المهم منه ، واذا صح هذا ، فان هذا النتاج هو الذي اتخذ أساسا في العمل الدعوي الجديد ، وعليه فقد بقيت أفكاره الظاهرية هي هي ، وكذا التأويل الباطني ، وجاء لاعادة تنظيم الدعوة والمجاهرة بها وبأفكارها مع ممارسة المهدي للسلطة ، ومباشرته الحكم بنفسه ، ردات فعل اسماعيلية داخلية ، وغير اسماعيلية خارجية ، ونجمت ردات الفعل الداخلية بالأساس عن حصر المهدي للسلطات وعمله في سبيل تغيير وضعه الامامي وتبديل ولي العهد ،

= ١٨٩ - ١٩٣ كتاب شجرة اليقين للداعي عبدان القرمطي : ١١-١٣،٣٦-٣٧، ٤٧ - ٤٨ ، ٥٥ - ٥٦ ، ٨٩ ، ١٠٢ . تاج العقائد ومعدن الفوائد تاليف علي بن محمد الوليد : ٥٨ - ٩٥ . كتاب الذخيرة في الحقيقة له : ٨٤ - ١٢٢ . كتاب الافتخار لابي يعقوب السجستاني : ٤٧ - ٩١ .

وقد تعرض لهذا الموضوع في أيامنا برنارد لويس في كتاب الدعوة الاسماعيلية الجديدة : ٨٧ - ٨٩،١٢٨ . المحجة فيما نزل في القائم الحجة لها شم البحراني، وقد حاول مؤلف هذا الكتاب اثبات قيام القائم عن طريق تأويل آيات القرآن الكريم . الامامة وقائم القيامة لمصطفى غالب ، وهو كتاب وان تميز بالضحالة لا يخلو من فائدة .

وبناء دولة مركزية على غرار الدولة العباسية ، وكان في هذا حرمان من الغنائم للذين تحملوا أعباء الدعوة مثل أبي عبد الله الشيعي وسواه ، ثم كان في ذلك انتكاسة عقائدية ، وتراجع ، ذلك أن اقامة سلطة ملكية مركزية شديدة ومطلقة : شيء ، والتصور الوهمي والخيالي الفضفاض لدولة المهدي شيء آخر .

يروي القاضي عبد الجبار الهمذاني في كتابه تثبيت دلائل النبوة أنه بينما كان أصحاب أبي عبد الله الشيعي من المغاربة يحمّلون أمتعة المهدي « وجدوا ملابس الحرير والديباج ، وأواني الذهب والفضة ، وخصيان رومة ، وآثار الانبذة، فأنكروا ذلك في أنفسهم ، مع بلادة البربر ، وسألوا أبا عبد الله الداعية عن ذلك،وانما أنكروا ذلك،لأن أبا عبد الله هذا كان مقيماً سنين كثيرة في كتامة يدعوهم الى المهدي، الذي هو حجة الله ، ويزعم أنه صاحبه ، وكان أبو عبد الله يتقشف ويلبس الخشن ، ويأكل العشب ، ويعدهم عن المهدي بمثل ذلك ، فلهذا أنكروا وسألوا ، فقال لهم أبو عبد الله : هذه الآثار لاصحابه وأتباعه ، وكان معه أتباع كثير »(1) .

ووفق المهدي في القضاء على المعارضة الداخلية ، وقام بتصفية دموية لابي عبد الله الشيعي ومن سانده(2) ، وجاء نجاحه نتيجة بذله الاموال ، وشرائه زعماء قبائل كتامة ، وكان للمعارضة من الخارج قصة أخرى من رواتها ابراهيم الرقيق مؤرخ القيروان ، وقد بدأت في الاسبوع الاول لنزول المهدي برقادة حيث كانت قصور الاغالبة الفخمة على مقربة من القيروان : « فعندما حلت الجمعة أمر المهدي الخطيب أن يذكره في الخطبة ، فيقول : عبد الله الامام المهدي بالله أمير المؤمنين ، فلما صعد الخطيب المنبر واتنهى الى ذكر المهدي قام واحد من رجالات السنة الحضور واسمه جبلة بن حمود الصدفي « قائما وكشف رأسه حتى رآه الناس ومشى من المنبر الى آخر الجامع وهو يقول: قطعوها قطعهم الله ويكررها، يعني الخطبة لبني العباس،

---

(1) اخبار القرامطة : ١٧٨ ـ ١٧٩ .

(2) الكامل لابن الاثير : ٨/١٥٠ ـ ١٥٢ . اخبار بني عبيد : ١١٥ ـ ١١٦ . رسالة افتتاح الدعوة : ٢٦٠ . اخبار الدول المنقطعة ـ نسخة غوطا ، قسم الدولة الفاطمية : ٦ ـ ٨ . صلة عريب : ٥٢ . البيان المغرب : ١/٢٢٣ ـ ٢٢٥ . تاريخ المغرب في العصر الوسيط : ٥٢ ـ ٥٣ . نهاية الارب : ٢٣/٣٥ . معالم الايمان : ٣/٤٧ . عيون الاخبار : ٥/١٢٣ . المقفى : تراجم المهدي . ابو عبد الله الداعي واخيه ابي العباس .

وقام الفقهاء ووجوه البلد معه ، فما حضر أحد من الاماثل ، وجلس بعد الجمعة رجل يعرف بالشريف ، ومعه الدعاة ، وأحضروا الناس بالعنف والشدة ، ودعوهم الى مذهبهم ، فأجابوا الى ذلك الا القليل ، فأمر بهم ، فضربوا وحبسوا ، ونابذت طائفة من الفقهاء المهدي ، وحتى أنه أدخل برجل على الوالي فقال له الوالي : قل لا اله الا الله ، فقال : أما من قولك فلا ، انني لا أدري ما تقول لي بعدها ، وأدخل اليه بآخر، وبين يديه مصحف ، فقال له : أليس هذا هو القرآن ؟ فقال له : ما أعرف ما هو ، ووجد رجل من أصحاب المهدي المشارقة مقتولا ، فأتوا اليه ، وقالوا : قتل رجل من الاولياء ، قال : وأين هو ؟ قالوا له : أكلوه ولم تبق الا عظام ساقيه ، فقال المهدي : هذا بلد لا يحل أن يقام فيه ، فأمر بقتل المحبسين ان لم يرجعوا عما هم عليه ، فقتل منهم على ما قيل أربعة آلاف رجل في العذاب ما بين عابد ورجل صالح » .

وأثارت هذه الاعمال أهل القيروان ، وكانوا يتعصبون لمذهب الامام مالك وأهل السنة ، وكانوا سادة الاعمال التجارية والصناعية والثقافية والحضارية العامة في الشمال الافريقي ، ودخلوا في صراع مع رجال قبيلة كتامة ، لاسباب عربية بربرية وحضارية واجتماعية وسياسية عامة ، وكان الصراع حادا أجبر المهدي على التراجع ولو مؤقتا ، والخروج لتسكينهم « وكف الدعاة عن طلب الناس بمذهب التشيع » ، فلما كانت سنة ٣٠٠ هـ/٩١٣ م « خرج بنفسه الى تونس يرتاد لنفسه موضعا على ساحل البحر يتخذ فيه مدينة ، فلم يجد بقرطاجة الى تونس أحسن ولا أحصن من موضع المهدية ، وهي جزيرة متصلة بالبر كهيئة كف متصل بزند ، فتأملها فأعجبته »، فبنى فيها مدينة في غاية الحصانة والاحكام ، ذلك أنه أراد من المدينة حصنا «يعتصم هو فيه ، ثم من يخلفه » لانه أدرك أن شعوب تونس والشمال الافريقي لن يمنحوه الولاء صرفا،ولن يدعوه بينهم اذا مااستطاعوا الى ذلك سبيلا،وعلى الرغم من تسمية المهدي لمدينته باسمه ــ وهذه حالة شاذة في تاريخ الاسلام ــ فان هذه المدينة لم تخطط وتشيد كمدينة عقائدية ومثالية ، بل أريد منها أن تكون قوية حصينة ، ولما وجد المهدي أن مساحة الجزيرة غير كافية قام بردم جزء من البحر ، كما قام بنقر ميناء لها في الصخر يتسع لحوالي ثلاثين سفينة ، وأقام على مدخل هذا المرسى برجين عظيمين[1] ــ ما تزال بقاياهما قائمة ــ للحراسة ، ربط بينهما بسلاسل من الحديد

---

(١) المقفى ــ باريس ــ ٢١٥ و ــ ٢٢٢ ظ (ترجمة المهدي).

لتحول دون طروق السفن الغريبة الى الميناء ، ونقر في الصخر أيضا دارا للصناعة تتسع لثلاثمائة سفينة ، كما بنى في المدينة الاهراءات الكبيرة لخزن الحبوب والمؤن، ونظرا لندرة المياه فقد أكثر المهدي من بناء خزانات المياه التي تملأ بمياه الامطار .

وبنى المهدي لنفسه قصرا وآخر للقائم ، كما بنى مسجدا كبيرا ، ويختلف بناء هذا المسجد عن غيره من مساجد المشرق والمغرب ، ذلك أن له بوابة كبيرة قام على مقربة منها برجان في غاية الضخامة ثم أبراج أصغر ، مما جعل واجهة المسجد أشبه بواجهة احدى القلاع ، وجاءت هذه الابراج مجوفة حيث كانت تملأ بمياه الامطار ، وكان الامام يدخل الى المسجد من بوابته الكبيرة ، ذلك أن حرمه لم يكن فيه مقصورة لها دهليز خاص متصل بقصر الخليفة كما كانت العادة منذ أيام معاوية بن أبي سفيان ، اثر محاولة اغتياله على يد الخوارج ، كما لم يكن القصر قريبا من المسجد ، والجديد في بناء مسجد المهدية أيضا وجود ممر خاص مسقوف قام على صفين من الاعمدة ، وكان يصل البوابة بالحرم ، وتعليل هذا مرتبط بأمر المظلة وما يتعلق برسومها عند الفاطميين ، فمن المشهور أن النبي كان اذا تحرك ــ أثناء رحلته الى الشام ــ كانت تظله غمامة ، لذلك عندما قامت الخلافة الفاطمية اتخذ الخلفاء لأنفسهم مظلة كانت تحمل فوق رؤوسهم ، وحيث أنه كان من غير اللائق ، أو من المحال حمل المظلة داخل المسجد عند دخول الخليفة اليه،تم بناء رواق خاص مسقوف جاء على شكل المظلة ، ليمر الخليفة تحته عند دخوله المسجد ، وكان الموقع الذي اختاره المهدي لبناء مدينته موقعا معروفا من قبل ، كان فيه بعض السكان عندما اختاره ، والمنطقة المحيطة به ، وتعرف بمنطقة الجم (أرض جمة) كانت منطقة حضارة وعمران وهي ما تزال كذلك ، وعندما أنجز بناء المهدية انتقل المهدي اليها مع أركان دولته ، ثم أمر بعد فترة بأن تحول طرق التجارة اليها ، وكان في ذلك مشقة على التجار وعقوبة لاهل القيروان ، وسنجد المنصور اسماعيل ، وهو الخليفة الثالث يترك المهدية ، ويبني قرب القيروان صبرة المنصورية لارضاء التجار وكسب ود أهل القيروان ، وقد جعل المهدي أسواق المدينة في داخل الجزيرة ، وحرم على التجار

البيتوتة في المدينة الجزيرة ، فكانت بضائع التجار تبقى رهينة داخلها تمنعهم من التحريض أو المشاركة في أية ثورة تدبر في الليل واذا حدث وانفجرت ثورة في النهار كانت بوابة المدينة الوحيدة الشديدة الحصانة ، والتي لا يتصل بالبر سواها ، تغلق ويبقى التجار وبضائعهم رهائن فيها .

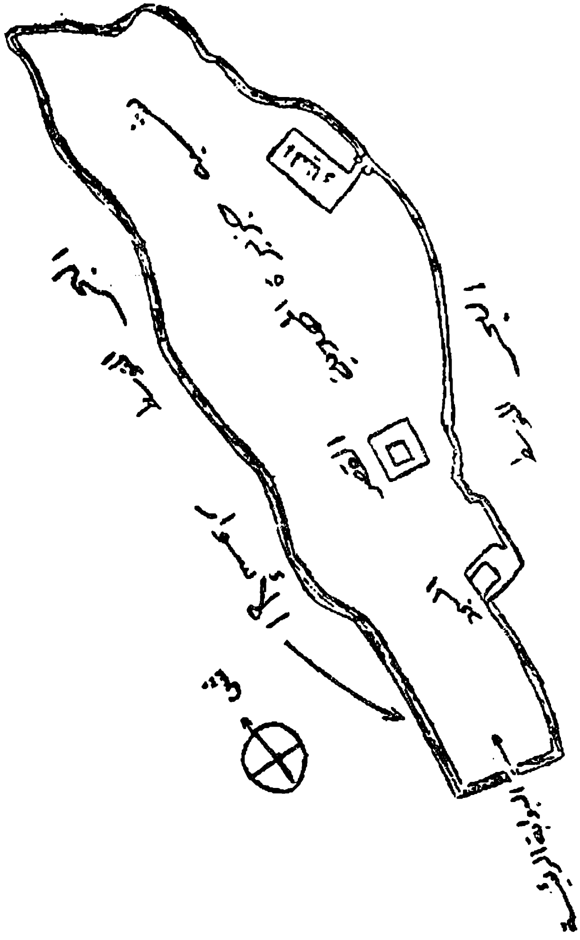
ومن المهدية أخذ بتوجيه الدعاة الى مناطق البلدان الاسلامية في المغرب والاندلس والمشرق ، وأولى المهدي المشرق عنايته الكبرى ، ذلك أن هدف الاسماعيليين كان ازالة الخلافة العباسية من الوجود ، وينقل المقريزي أن المهدي « لم يمت حتى وصلت دعاته الى بلاد الشرق ، وبعث اليه نصر بن أحمد أمير خراسان يقول : أنا في خمسين ألف مملوك يطيعوني ، وليس على المهدي كلفة ولا مؤونة . فان أمرني بالمسير سرت اليه ، ووقفت بسيفي ومنطقتي بين يديه ، وامتثلت أمره ؛ وان أمرني أن أدخل أهل الارض في طاعته فعلت ، وكتب بهذا اليه أيضا مرادويج الجبلي بمثل ذلك ، وكتب اليه يوسف بن أبي الساج ... وأحمد بن صعلوك ... بمثل ذلك ، وأنفذوا رسلهم مع الاموال اليه ، فوقع على ظهر كتبهم : الزموا مراكزكم « لكل أجل كتاب »[١] .

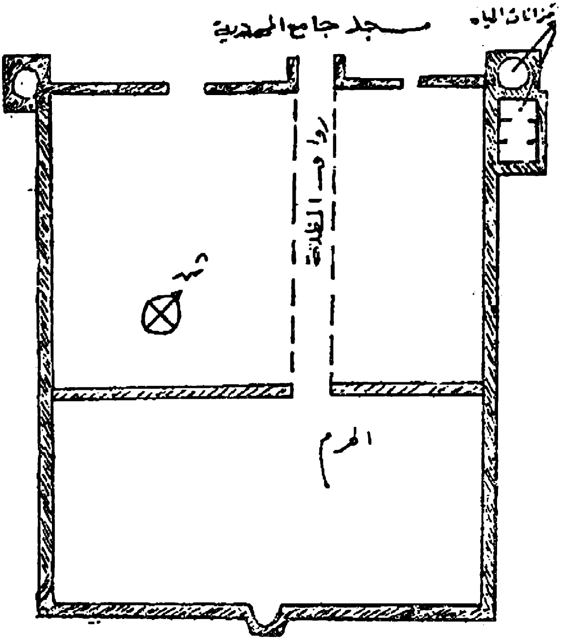
ولم يقتصر اعتماد المهدي على جيش الدعاة الكبير كوسيلة لازالة الخلافة العباسية عن طريق تفجير الثورات، بل اعتمد القوة المسلحة لدولته، فتوجهت أنظاره فور استقرار الأمور له في افريقية نحو مصر الاخشيدية ، فوجه ضدها عدة حملات عسكرية قاد غالبيتها خليفته أبو القاسم محمد القائم ، وكان نصيب هذه الحملات الاخفاق[٢] . وعقب وفاة المهدي سنة ٩٣٤ م توقفت هذه الحملات ، ذلك أنه كان على أبي القاسم ثم ابنه المنصور اسماعيل بعده العمل في سبيل المحافظة على الوجود الفاطمي في المغرب ، هذا الوجود الذي كادت تعصف بأركانه الثورة الخارجية التي قادها أبو

---

(١) مصادر الحاشية السابقة ، وهذا الوصف للمهدية ومسجدها قائم على المشاهدة الشخصية لدى زيارتي لها عام ١٩٧٥ .

(٢) للقائم ترجمة مفيدة في المقفى ، انظر ايضا عيون الاخبار : ٥/١٢٠ ــ ١٣٦ .




مسجد جامع المهدية
خزانات المياه
رواق البلاطة
الحرم

يزيد مخلد بن كيداد النكاري بتحريض ودعم من الخلافة الاموية في الاندلس(*) ، ووافت المنية القائم في المهدية سنة ٩٤٦م دون أن يتمكن من القضاء على هذه الثورة، ثم خلفه ابنه المنصور اسماعيل ، وقد تسنى للمنصور بعد حروب طويلة القضاء على ثورة أبي يزيد ، وعقب ذلك أخذ يعيد تنظيم دولته ، ويتوجه ببصره نحو مصر ، وخلال انشغال الدولة الفاطمية في المهدية بثورة أبي يزيد بقي الدعاة نشطين ، وثابروا في تركيز الجهد على مصر وغيرها من بلدان المشرق ، ويبدو أن الدعوة كسبت بعض القواعد في مصر ، وأخذت هذه القواعد تستقبل المزيد من الدعاة للتدريب والتوجيه، ولعل من أبرز الذين وصلوا الى واحد من مراكز الدعوة في مصر أحمد بن الحسين، الذي سيعرف باسم المتنبي الشاعر ، ذلك أنه بعد عودته من مصر أعلن ثورته في بادية الشام(١) ، حيث آسره لؤلؤ صاحب حمص وأودعه السجن ، وسيقوم المتنبي بعد خروجه من السجن بالالتحاق بسيف الدولة الحمداني حيث قال في مدحه أروع القصائد ، وحاول كسبه الى الجانب الاسماعيلي فأخفق ، لذلك ذهب الى مصر ، تسير أمامه شهرته الواسعة ، فاتصل بكافور الاخشيدي ، وسعى لنيل ولاية منه لتكون قاعدة متقدمة للتحرك الاسماعيلي نحو احتلال مصر ، لكن كافور رفض طلبه ، فاتصل بواحد من كبار قادة جيشه، فتوفي هذا في ظروف غامضة وبشكل مفاجىء، وضيق كافور على المتنبي، فاضطر الى مغادرة مصر فورا، وأعلنت الدعوة الاسماعيلية نتيجة ذلك ، أن مصر لن تفتح « حتى يزول الحجر الاسود من مكانه » .

وفي أيام المعز خليفة المنصور، وكان الحجر الاسود[كافور]قد زال من الوجود، تمكنت الخلافة الفاطمية بفضل حملات قادها جوهر الصقلبي قائد المعز ، تمكنت من بسط سيطرتها على جميع أجزاء الشمال الافريقي ، ونشط بعض الدعاة في الاندلس،

---

* رايت في القيروان دينارا ذهبيا ضرب سنة ٣٣٣ هـ/٩٤٣ م لابي يزيد مخلد بن كيداد ، من المعتقد ان ذهبه اندلسي المصدر ، وجاء على هذا الدينار :
١ ــ الطوق : الحمد لله . ضرب بمدينة القيروان . سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة .
٢ ــ الوجه الاول : ربنا الله . لا حكم الا لله . وحده لا شريك له . الحق المبين.
٣ ــ الوجه الثاني : العزة لله . محمد رسول الله . خاتم النبيين .

(١) ترجمة المتنبي في بغية الطلب لابن العديم مع ترجمة جوهر الصقلبي في ملاحق كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية .

لكن الاندلس ودولتها لم تكن هدف الامامة الفاطمية ، لذلك ما أن وافت الفرصة حتى زحفت القوات الفاطمية على مصر فاحتلتها ، ثم ألحقت بها القسم الاكبر من بلاد الشام .

وفي مصر بنت الخلافة الفاطمية عاصمة جديدة كانت هي القاهرة ، ودار دعوة جديدة كانت هي الازهر ، وعندما انتقل مركز الفاطميين من افريقية الى مصر لم يترك هذا المركز وراءه أتباعا عقائديين كثيرين ، حيث سهل بعد فترة قصيرة نسبيا التخلي عن الولاء الفاطمي ، والعودة الى الولاء السني العباسي ، وهذا يعني أن الدعوة الاسماعيلية قد نجحت في المغرب سياسيا، ولم تنل النجاح عقائديا، وسيتكرر هذا الحال في مصر،وانه لمن الغرابة بمكان أن نجد للعقيدة الاسماعيلية أتباعا يؤمنون بها حيث لم تقم لها سلطة ودولة ، وأن لا نجد لها من يؤمن بها حيث حكمت سنين طويلة ؛ انه لامر يتمنى الباحث أن يعرف سره ، ويكشف مغلق لغزه .

ونظرا للتداخل العضوي والتمازج بين تاريخ كل من الخلافة الفاطميةوالقرامطة واكمالا للفائدة سأقوم بتقديم عرض موجز للمتبقي من تاريخ الخلافة الفاطمية .

لقد مر تاريخ الخلافة الفاطمية بطورين رئيسين هما : الطور الافريقي ، والطور المصري،ومن الممكن أن نقسم الطور المصري الى دورين : ينتهي الاول منهما مع بداية عصر الخليفة الحاكم بأمر الله ، وينتهي الثاني بسقوط الخلافة الفاطمية على يد صلاح الدين الايوبي ، وقام هذا التقسيم على اعتبارات سياسية ودينية ، حيث ــ كما سنرى ــ أخذت مظاهر الضعف تبدو على جسم الخلافة أيام الحاكم ، وفي عصر الحاكم جرت محاولات لاعادة بناء أسس العقيدة الاسماعيلية :

كان من الطبيعي أنه عندما توطدت أركان الخلافة الفاطمية في افريقية الاتكتفي الدعوة الاسماعيلية بتونس ، بل ابتغت التوسع لكن ليس في بلدان المغرب بشكل أساسي ، ذلك أن هدف الدعوة الاسماعيلية الاساسي كان ازالة الخلافة العباسية من الوجود ، واحلال الخلافة الفاطمية محلها ، لهذا كانت أنظار رجالات الاسماعيلية ترنو نحو مصر ومن ثم المشرق ، وكانت مصر يوم قامت الخلافة في تونس ، تحكم من قبل الاسرة الاخشيدية ، وكانت هذه الاسرة تحكم بالاضافة الى مصر المناطق الجنوبية من بلاد الشام ، لان الشمالية كانت تدار من قبل الاسرة الحمدانية فيحلب، وعلى الرغم من استقلال الاسرة الاخشيدية فانها كانت تدين بالولاء للخلافة العباسية .

وسلفت الاشارة الى أن الخلافة الفاطمية قد سعت نحو الاستيلاء على مصر ، وذلك منذ أيام المهدي ، حيث قاد القائم عدة حملات ضد مصر كان نصيبها الاخفاق، وبالاضافة الى الحملات العسكرية ، نشطت الدعوة الاسماعيلية في مصر واتخذ عدد مؤثر من الاسماعيليين مصر منزلا لهم بغية الاعداد للاستيلاء على مقاليد الامور فيها ، وسبق أن ذكرنا أن المتنبي كان من أشهر الذين قدموا الى مصر ، قدمها للمرة الاولى وهو داعية اسماعيلي مغمور ، ثم زارها ثانية وهو شاعر قد طبقت شهرته الافاق ، فالتحق بكافور الاخشيدي ، وحاول أن ينال منه ولاية ولو على طرف الصحراء فأخفق ، فاتصل بالقائد فاتك الاخشيدي ، فتوفي هذا في ظروف غامضة . فاضطر المتنبي الى الهرب من مصر ، وواضح أن الولاية كانت لتستخدم قاعدة للاسماعيلية ، والقائد الاخشيدي لاحداث انقلاب ضد كافور .

وبعد وفاة المهدي سنة ٣٢٢ هـ/٩٣٤ م وفي عهد خليفته القائم محمد [٣٢٢ ـ ٣٣٤ هـ/٩٣٤ ـ ٩٤٦ م] انشغلت الخلافة الفاطمية في الدفاع عن وجودها الذي تهدد بثورة صاحب الحمار أبو يزيد مخلد بن كيداد النكاري ، ولقد استطاع خليفة القائم وابنه المنصور اسماعيل (٣٣٤ ـ ٣٤١ هـ/٩٤٦ ـ ٩٥٣ م) القضاء على هذه الثورة ؛ وتمكن من اطفاء نائرتها ، وفي عهد خليفة المنصور وابنه المعز لدين الله معد (٣٤١ ـ ٣٦٥ هـ/٩٥٣ ـ ٩٧٥ م) تمكنت الخلافة الفاطمية من بسط سيطرتها على غالبية أجزاء الشمال الافريقي ، ووافق هذا التعاظم في القوة تدهور لأحوال الدولة الاخشيدية في مصر ، خاصة بعدما توفي كافور الاخشيدي .

واغتنم المعز لدين الله الفرصة فبعث قائده جوهر الصقلبي على رأس جيش حسن الاعداد جيد التنظيم والعدة ، واستطاع هذا الجيش أن يسيطر على مصر دون كبير عناء وعظيم خسائر[1]، وتم هذا سنة ٩٦٩م وعقب ذلك زحفت القوات الفاطمية نحو بلاد الشام ، وهنا كان لزحفها هذا قصة أخرى تباينت تباينا شديدا مع قصة الاستيلاء على مصر ، سنعرض لها بعد قليل .

وفي مصر قام جوهر الصقلبي ببناء نواة مدينة جديدة ـ لتكون مقرا للفاطميين،

---

(١) تراجم جوهر الصقلبي ، جعفر بن فلاح ، جيش الصمصامة في ملاحق كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية : ٢٩٨ ـ ٣٧٦ . عيون الاخبار : ١٣٦/٦ ـ ١٦٥ . اتعاظ الحنفا : ٩٣/١ ـ ١٠٠ .

هنالك الى جانب الفسطاط العاصمة الاولى لمصر الاسلامية ـ دعاها بالقاهرة المعزية، وبعدما أنجز بناء القاهرة وفي أثناء محاولات الاستيلاء على بلاد الشام ، اصطدمت الجيوش الفاطمية بقوات قرامطة الاحساء والبحرين ، الامر الذي تطور الى حد تهديد الوجود الفاطمي في مصر ، مما حدا بالخليفة المعز لدين الله الى ترك إفريقية والارتحال نحو مصر في موكب كبير جدا ، تضمن الكثير من بربر كتامة وسواهم من المنتمين الى الدعوة الاسماعيلية ، مع كميات عظيمة من الذخائر والذهب وأهل الحرف والصناعات والفنون ، كما حمل المعز تابوت أبيه وتوابيت أجداده[1] .

لقد جاءت حملة جوهر ثم موكب المعز أشبه بهجرة بربرية نحو مصر ثم بلاد الشام ، وكانت الاولى من نوعها ، وفي القاهرة استقر المعز ، وفيها أيضا بنى الفاطميون دار دعوة جديدة ومسجدا كان في الوقت نفسه جامعة دعي بالازهر،وذلك نسبة الى فاطمة الزهراء التي انتسب اليها الفاطميون ، وأطلقوا اسمها على دولتهم .

وفي مصر تم احكام بناء الدولة الفاطمية ووضع لها نظام اداري يمكن وصفه بالعلمية لرقيه ودقته ، كما أحكم نظام الدعوة الاسماعيلية بشكل رائع جدا ، ويعتبر يعقوب بن كِلِّس وزير كل من المعز ثم ابنه العزيز أهم بناة النظام الاداري والدعوي للدولة الفاطمية في مصر ، فبفضل هذا النظام استطاعت الدولة الفاطمية أن تبقى حية لمدة تفوق القرنين على الرغم من أنه لم يوجد بين الخلفاء الذين تعاقبوا على عرش القاهرة بعد المعز من اتسم بالقدرة والكفاءة السياسية والادارية ، فمن هو يعقوب بن كلس هذا ؟

كان من رجال الادارة والمال اليهود في العراق ، وقد هجر العراق ، وجاء الى بلاد الشام حيث عمل مدة من الزمن في مدينة الرملة ، ثم غادرها الى مصر ، واتصل هناك بكافور الاخشيدي فولاه احدى الوظائف وكلفه بمهام فنجح بها أيما نجاح ، فأعجب به كافور اعجابا كبيرا حتى أنه سمع يقول : « أي وزير بين جنبيه » لو كان مسلما ، فماكان من يعقوب الا أن مضى في اليوم التالي الى المسجد حيث أعلن عن اسلامه ، « وبلغ خبره الى كافور فسره ذلك ، وعاد من الجامع الى دار كافور ،فخلع عليه غلالة مبطنة ودراعة وعمامة وزادت مراتبه عنده » .

---

(١) عيون الاخبار : ٦/١٨٤ ـ ١٩٤ . اتعاظ الحنفا : ١/١٣٤ ـ ١٤٣ .

وبعد وفاة كافور ترك يعقوب مصر ، وسافر الى المهدية ، حيث دخل في خدمة المعز لدين الله الفاطمي ، وقدم له المساعدات من أجل الاستيلاء على مصر ، وفي مصر تسلم ابن كلس وضع أسس الادارة الفاطمية هناك ، ولم يكتف بذلك بل تولى اعادة تنظيم بناءالدعوة الاسماعيلية وألف كتابا معتمدا في الفقه الاسماعيلي،وحين اعتل علة الوفاة عاده الخليفة العزيز « فقال له : وددت لو أنك تباع فأبتاعك بملكي ، أو تفدى فأفديك بولدي فهل من حاجة توصي بها يايعقوب ؟» وشكره يعقوب،وأوصاه بأن يتبع منهجا سماه له في عمله بالسياسة الخارجية لدولته ، ومن المدهش حقا أن وثائق الجينزا اليهودية التي عثر عليها في كنيس الفسطاط القديم ، وهي وثائق تحوي أوراق ومستندات الجالية اليهودية في مصر أيام الفاطميين ومن جاء بعدهم ، تشير هذه الوثائق الى يعقوب بن كلس باسم الاخ يعقوب ، وتوحي بأنه ظل محافظا على يهوديته وتظاهر بالاسلام تظاهرا[1] .

وبعد ما توطد الفاطميون في مصر صار تحدي العقيدة الاسماعيلية للنظام العباسي والفكر السني أكثر قوة وأشد خطرا ، وصار للفاطميين امبراطورية مترامية الاطراف ، شملت وهي في ذروة قوتها : مصر وبلاد الشام ، وشمال افريقيا وصقلية وشواطىء البحر الأحمر وبلاد الحجاز واليمن بما في ذلك المدينتين المقدستين : مكة والمدينة ، وسيطر الفاطميون على جيش هائل من الدعاة ، واعتمدوا على ولاء عدد لا يحصى من الاتباع في أراض كانت خاضعة للحكم العباسي فعليا ، أو اسميا .

وعلى الرغم من توفر جميع هذه الامكانات الهائلة للخلافة الفاطمية ، فانها أخفقت في تحقيق أهدافها في اسقاط الخلافة العباسية وازالتها من الوجود ، ومرد ذلك الى أسباب عدة منها اخفاق الفاطميين في الاستيلاء على بلاد الشام ، وتضاءل القدرات العسكرية للجند البربر أمام الجند المشارقة ، والصدام الشديد مع قرامطة الاحساء والبحرين ، وعدم تميز واحد من بين الخلفاء الفاطميين بالقدرات العسكرية، ولعل مرد ذلك الى طبيعة التنشئة الدينية لهؤلاء الخلفاء .

---

(١) الاشارة الى نال الوزارة : ١٨ ــ ٢٣ . الوزارة والوزراء في العصر الفاطمي: ٢٤١ وفي كتاب ــ فرغت من اعداده وطبعه ــ المزيد من التفاصيل حول حياة يعقوب والبراهين على احتفاظه بيهوديته .

ظهرت بوادر الاخفاق الفاطمي منذ تاريخ مبكر،فبعدما استولى جوهر الصقلبي على مصر ، وفي العام نفسه ، أرسل جيشا كبيرا ـ أوكل قيادته الى الامير البربري جعفر بن فلاح ـ نحو بلاد الشام ، كي يعمل على ضمها الى الحكم الفاطمي ، ولقي هذا الجيش أثناء زحفه في فلسطين مقاومة من بقايا القوات الاخشيدية ، لكنه تغلب عليها ، وتابع سيره نحو دمشق ، وقبيل وصوله اليها فرّ حاكمها الاخشيدي منها « فخلت المدينة من السلطان ، فطمع الطامع ، وكثر الذعار وحمال السلاح » ، ونظم الدمشقيون أمور الدفاع عن مدينتهم ، بأن أغلقوا أبوابها ، وأوقفوا الرماة على شرفات الاسوار ، وأقاموا الحواجز داخل المدينة ، وكسروا أقنية المياه ، وحفروا الخنادق ، واشترك الرجال والنساء والصبية في الاعداد للدفاع عن دمشق ، وتولى شؤون المقاومة وقادها منظمة شعبية عرفت بالاحداث وكانت هذه المنظمة شبه عسكرية ، قامت في مدن بلاد الشام ، وشغلت أكبر الادوار فيها ، وأدت بعض أنواع الخدمات البلدية والعسكرية والامنية .

وصمد أهالي دمشق ، وكاد الاخفاق أن يلحق بالجيش الفاطمي لولا أن جماعة من تجار المدينة وأشرافها قامت فشكلت وفدا قام بالتوسط لدى جعفر بن فلاح ، وبث هذا الوفد التخاذل بين المدافعين ، مما سبب ايقاف المقاومة ، وأدى الى فتح أبواب المدينة لجيش ابن فلاح .

وكان أبرز الزعماء القائمين بالدفاع عن دمشق رجل من عامة أهلها وأحداثها اسمه أبو اسحق محمد بن عصودا ، وبعد ما سقطت دمشق للجيش الفاطمي نجا ابن عصودا بحشاشة نفسه ، وهرب الى الاحساء في شبه جزيرة العرب فاجتمع بزعيم القرامطة الحسن الاعصم ، فحضه على مساعدة دمشق ، فلقي الاستجابة منه ، وجاء جيش قرمطي الى دمشق ، فالتقى بجيش ابن فلاح فهزمه ولقي ابن فلاح مصرعه أثناء المعركة ، وهكذا تخلصت دمشق من الحكم الفاطمي ، وعين القرامطة عليها من يحكمها وتابعوا زحفهم نحو مصر كي يخلصوها بدورها من الحكم الفاطمي، ولكنهم أخفقوا وهزموا، وجردت الجيوش الفاطمية مجددا في أثرهم لملاحقة فلولهم، ولاعادة جنوب بلاد الشام الى حظيرة الخلافة الفاطمية .

وكما سلفت الاشارة حدت المخاطر التي تهددت القاهرة المعز لدين الله الفاطمي

الى ترك تونس والقدوم الى مصر ، هذا من جانب ، ومن جانب آخر كان من بين نتائج النشاطات القرمطية في شبه جزيرة العرب قيام هجرة بدوية عملاقة حملت قبائل من عامر بن صعصعة وسواها مثل : عقيل ، وقشير ونمير، وخفاجة ، وطيء ،وكلاب، وفزارة ، وسليم ، الى بلاد الشام وبلاد الرافدين ، وعلى هذا رست القوى الفعالة في الشام بأيدي رجالات القبائل ، وكانت طيء أقوى قبائل فلسطين ، وقد سعى القرامطة الى كسب هذه القبيلة الى جانبهم ، كما سعى الفاطميون عن طريق الذهب وعرض المناصب شراء ولاء هذه القبيلة وسواها ، هذا ومن المقرر أن اعتماد القوى المتصارعة على ولاء البداة لا يمكن من حسم الامور ولا من قيام معارك فاصلة .

وهكذا نجد في سنة ٣٦٣ هـ/٩٧٣ م الخليفة المعز لدين الله يقوم بتعيين ظالم بن مرهوب (أو موهوب) العقيلي على دمشق، وحاول ظالم البدوي العربي أخذ دمشق بالحديد والنار ، فأوقع الحرائق بعدة أماكن من المدينة ، ولكن ذلك لم يفت في عضد الدمشقيين بزعامة الاحداث ، وتم أخيرا التوصل الى تسوية غادر ظالم بن مرهوب بموجبها دمشق ، وسمح أحداث دمشق لحاكم فاطمي آخر من أصل بربري اسمه جيش بن الصمصامة بدخول مدينتهم ، وكان هذا حلا مؤقتا ، وغير ناجع ، اذ سرعان ما عادت الاضطرابات الى دمشق ، وهنا تدخل المعز فأوعز الى واليه على طرابلس الشام بالقدوم الى دمشق للمساعدة على حل مشاكلها فقام هذا الوالي بصرف القوات الفاطمية وأجلاها عن دمشق ، وهكذا تم الوصول الى تفاهم مؤقت مع أحداث دمشق ، الذين أحكموا الآن قبضتهم على المدينة وأمورها ، وكان زعيم الاحداث في هذه الآونة عاميا عرف باسم ابن الماورد ، وكانت منطقة الباب الصغير هي نقطة تمركز الاحداث ، أو لنقل مكان معسكرهم .

وكان في هذه الاونة الصراع على السلطة على أشده في بغداد ، وقد أدى فيما أداه الى خلع الخليفة العباسي المطيع لله [٣٣٤ ــ ٣٦٣ هـ/٩٤٦ ــ ٩٧٤ م] واستخلاف ولده الطائع ، وأدت هذه المشاكل ببعض العسكريين الاتراك الى القيام بهجر بغداد ، وكان من بين هؤلاء واحد عرف بألبتكين (هفتكين) الحاجب ، حيث ترك العراق وقدم الى دمشق ، وعندما وصلها عسكر مع غلمانه خارجها ، فخرج اليه بعض شيوخ المدينة وأشرافها فرحبوا به ، وسألوه « الاقامة عندهم والنظر في أحوالهم » ، وقبل ألبتكين العرض ؛ وكان عسكريا محترفا ، له خبرات ادارية

وسياسة ، وقد تمكن من دخول دمشق ، فرتب الامور فيها بالتعاون مع الاحداث ، وكان زعيم الاحداث قد أصبح رجلا عاميا عرف باسم قسام التراب ، وكان قسام أصله من تلفيتا « احدى قرى دمشق من قوم من العرب كان يقال لهم الحارثيون » ، نشأ في دمشق ، وكان يعمل في التراب ، ثم انضم الى الاحداث فتزايد أمره بينهم حتى غدا أول رجل بينهم •

وفي القاهرة توفي الخليفة المعز دون التمكن من حل مشكلة دمشق ، وقد خلفه ابنه العزيز ، وافتتح هذا الخليفة عهده باعداد جيش كبير جرده نحو دمشق ، وجعل على رأسه جوهر الصقلبي قاهر مصر ، وأمره أن يسترد دمشق بأي ثمن ، وأن يبعد خطر القرامطة عن الشام مهما كلفه الامر ، وأخفق جوهر ، وتمكن ألبتكين بالتعاون مع قرامطة الاحساء من صد جيوش الفاطميين ، وأوقع فيها الهزائم ، وألحق بها العار في أكثر من معركة ، مما اضطر العزيز الى الخروج بنفسه الى حربه وحرب القرامطة ، وبعد جهود مضنية وبذل كميات من الذهب لزعماء قبيلة طيء ، استطاع العزيز ايقاع الهزيمة بألبتكين وحلفائه ، وقام العزيز بشراء رضا القرامطة بمبلغ كبير من المال يدفع لهم سنويا ، وحمل ألبتكين معه الى القاهرة وذلك سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م، لكن نصر العزيز لم يقده الى احتلال دمشق ، فقد عاد الى مصر دون أن يجرب ذلك ، وهكذا حافظت دمشق على استقلالها ، واستبد قسام وأحداثه بأمورها فضبطوها ضبطا جيدا ، وقام قسام بمراسلة الخليفة العزيز ، فاعترف اسميا بسلطانه ، ودفعه عن دمشق ، وأراد خداعه ، وتظاهر العزيز بالرضى ، لكنه ما لبث أن جرد جيشا جديدا أرسله نحو دمشق ، ولم يتمكن هذا الجيش من تحقيق مهمته ، واضطر الى الانسحاب راضيا بتعهد من قسام بأنه لن يسلم دمشق لحاكم يدين بالطاعة للعباسيين •

ودام الحال على هذه الصورة حتى سنة ٣٧١ هـ/٩٨١ م حيث جهز الخليفة جيشا فاطميا جديدا لاعادة السيطرة على دمشق ، وذلك بعدما أخفقت أساليب أخرى مختلفة مثل قطع المؤن والتجارة عنها واثارة الاعراب وتسليطهم عليها ، بهدف اسقاط حكم قسام •

ووصل الجيش الفاطمي دمشق فحاصرها طويلا ، ولقي من المقاومة الشيء الكثير ، لكن انشقاقا في صفوف أهل المدينة أجبر قسام على القاء السلاح ، ودخل

الفاطميون دمشق ، انما بقيت مقاليد الامور بأيدي الاحداث ، وظل الحال هكذا بين أخذ ورد حتى سنة ٣٨٨ هـ/٩٩٨ م حيث تمكن الفاطميون من دعوة زعماء الاحداث الى وليمة غدر ، جعلوهم فيها طعمة للسيوف ، وهكذا توطد حكم الفاطميين في جنوب الشام ، ولكن الى حين فقط .

وفي الوقت الذي كان فيه الفاطميون يسعون الى السيطرة على دمشق حاولت بعض جيوشهم الاستيلاء على مدينة حلب ، فأخفقت بفضل دفاع حكامها من الحمدانيين عنها ، وبفضل حماية الامبراطورية البيزنطية لها ، ذلك أن هذه الامبراطورية رغبت أن تكون حدودها مع بلاد الشام مع دولة صغيرة حاجزة لا مع خلافة قوية واسعة الاملاك .

وحتى أوائل أيام العزيز كان قوام الجيش الفاطمي من الجند البربر الذين استولوا على مصر ، ثم من الذين اصطحبوا المعز لدين الله حين قدم مصر ، ولكن أخذ العزيز الان بتجنيد عناصر تركية وديلمية على غرار الخلافة العباسية ودول الشام والمشرق ، كما شرع بتشكيل فرق زنجية ، وسيكون لهذا انعكاساته على مستقبل الخلافة الفاطمية حيث سيقوم صراع بين جنسيات الجيش وسيؤدي ذلك الى اضعاف الخلافة وزعزعة كيانها[١] .

الدور المصري الثاني :

توفي العزيز سنة ٩٩٦ ، فخلفه ابنه أبو علي المنصور بلقب الحاكم بأمر الله ، وكان صبيا صغيرا ، فأديرت الدولة من قبل عدد من الرجال الى أن بلغ من السن ما مكنه من مباشرة الحكم بنفسه ، وما أن فعل ذلك حتى طبع العصر بطابعه الخاص ، ونظرا لكثرة ما قام به من أعمال اتسمت بالتناقض الشديد ثم للنهاية التي آل اليها ، اختلفت آراء الناس فيه في القديم والحديث ، فهناك من رفعه الى المنزلة الالهية ،

---

(١) بالاضافة الى مواد كتابنا « اخبار القرامطة » يعتبر تاريخ دمشق لابن القلانسي مصدرنا الاساسي : ١ ــ ٩٣ . انظر ايضا تراجم : بشارة الاخشيدي ، جعفر بن فلاح ، جوهر الصقلبي ، جيش بن الصمصامة في ملاحق كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية : ٣٠٦ ــ ٣٤٨ .

وهناك من اتهمه بالجنون ، ومن اتهمه بالطغيان ، وفي أيامنا هناك من اعتبره لغزا يستحيل حله ، ومن اعتبره ممثلا للشر والكفر ، ومن رأى فيه العدالة والاستقامة فرفعه الى منزلة أبي بكر وعمر .

والحق أن وصف كل مؤرخ أو باحث متأثر الى أبعد الحدود بعقيدته الدينية ، ذلك أن الحاكم اتبع سياسة دينية خاصة ، وكان باعثه هو محاولة انشاء عقيدة جديدة ، أو بالحري تحقيق ما استهدفته الحركة الاسماعيلية في الوصول الى اعلان قيامة عظمى تلغي جميع الديانات والشرائع القائمة وتحرر الانسان من ربقتها ، وتكشف للانسان صور حقائق العلوم والمعارف انما الآن ليس بوساطة « الامام القائم عليه السلام سابع النطقاء » ذوي العزم ، بل بوساطة « الاله الواحد » الذي نزل من عليائه الى الارض فتجلى لبعض الوقت ناسوتيا في شخصية عرفها الناس باسم الامام الحاكم .

الكتابات الحديثة حول هذا الموضوع باتت كثيرة سيما في لبنان نتيجة للصراع الدائر هناك ، ومهما يكن الحال يبدو أن الحاكم أراد أن يجمع الناس على عقيدة واحدة طوعا أو كرها ، وأنه بالنظر للمعارضة الشديدة التي لقيها ثم في سبيل نجاح حركته أراد أن يزلزل أركان دولته في مصر ومجتمعه ، فكان يصدر الاوامر الغريبة ثم يلغيها ويصدر غيرها وهكذا ، فلعله استهدف اقناع الناس أنه وحده فعال لما يريده

ولم يكتف الحاكم بالاخذ بهذه الوسيلة بل عمد الى الاكثار من سفك الدماء ، خاصة دماء كبار رجالات الدولة ، ولعله أراد من وراء ذلك ازالة رجال العقيدة القائمة لاحلال أتباع العقيدة الجديدة محلهم ، ثم الايحاء أنه هو وحده قادر على أخذ الحياة ممن يشاء ساعة يشاء ، له الحق في ذلك كاملا دون اعتراض ...

وقد واجه الحاكم العديد من الثورات كان أولها وأكبرها ثورة أبي ركوة الذي ادعى أنه هشام بن الوليد الاموي الاندلسي ، وكان مسرح نشاطه بين قبائل مناطق الحدود الليبية المصرية الحالية ، وكان على رأس هذه القبائل بنو قرة العرب ، وقد تمكن الحاكم بعد جهود مضنية من القضاء على هذه الثورة ، ثم واجه ثورة أخرى في فلسطين بين قبائل طيء ، وقد جلبت طيء أحد أشراف مكة وأعلنته خليفة في الرملة ، وتيسر أيضا للحاكم القضاء على هذه الحركة ، ثم واجه اثر ذلك جيشاً شعبياً

في بلاد الشام تزعمه الاحداث ، وقد نجح أحداث مدينة صور بزعامة رجل اسمه علاقة الملاح في نزع زمام الامور في بلدتهم من الفاطميين ، وقام العلاقة فضرب نقوده الخاصة ، وكانت ردة فعل الحاكم تجاه هذه الثورة شديدا ، حيث بعث اسطوله ضد صور ، وأردفه بجيش بري ، واستطاع الفاطميون أخذ صور ، وأوقعوا الهزيمة بالعلاقة وأسروه ، حيث حمل الى القاهرة ، وهناك سلخ هذا الثائر حيا وصلب بظاهر القاهرة .

وعندما شعر الحاكم باستتباب الامور له ، بدأ بتحركه الديني ، فكان أن تخلى عن ملابسه المذهبة ، ولبس الصوف ، وتظاهر بالزهد ، وسمح للدعاة بالقول بأن الاله قد حل فيه ، وأثار هذا القول ردات فعل عنيفة في العاصمة المصرية ، خاصة في شطر الفسطاط والاقسام الاقدم بناء من القاهرة ، وفي ذروة الصراع من أجل العقيدة الجديدة التي ستعرف بالدرزية ، اختفى الحاكم من على مسرح الاحداث ، وجاء هذا بشكل مفاجيء ولذلك أحدث دويا كبيرا ، واحتار الناس في كشف غوامضه ومعرفة أسبابه وصنّاعه .

فمن قائل ان الحاكم قد اغتيل بفعل مؤامرة أعدتها أخته ست الملك بالتعاون مع عدد من قادة الجيش ورجالات الدولة ، هذا ويرى الدروز من الجانب العقدي أنه ارتفع من الارض وعاد الى طبيعته اللاهوتية في حين توحي بعض الكتابات الدرزية المبكرة ــ رسائل الهند ــ أنه تغيب بفعل رغبته ومحض ارادته ، وأنه قام برحلات كبيرة شملت مناطق شاسعة من بلاد الشام والمشرق حتى الهند، هذا ولعقيدة الغيبة على أنواعها مكانة خاصة في الفكر الشيعي عامة والاسماعيلي خاصة ، وعلى الرغم مما اعتقده الدروز ورأوه فان بعض الكتاب يغمزون من طرف خفي ويقولون ان الحاكم اغتيل من قبل رجال من دعاة دعوته الجديدة، ذلك أن تغيبه قد حوله من حال الواقع الى الاسطورة ، ولا شك أن الوهم والخرافة أهم ينابيع الكثير من العقائد والديانات لاعتمادها على الغيبيات[1] .

(1) في مصادر التاريخ الفاطمي والمصادر المعاصرة وسواها مثل تاريخ دمشق لابن القلانسي ومرآة الزمان لسبط ابن الجوزي مواد غنية حول الحاكم ، وجرى حديثا نشر عدد من الكتب والرسائل الدرزية وهي ذات اهمية خاصة، ومن اشهر الدراسات العربية عن الحاكم كتابا عبد الله عنان ثم عبد المنعم ماجد ولهما منهج متعارض انظر كتاب « تاريخ دولة الكنوز الاسلامية » : ٤٧ ــ ٥٦ .
The Druze Faith by Sami Nasib Makarim, pp 14 - 24 .

لقد جاء اختفاء الحاكم في سنة ٤١١ هـ/١٠٢١ م وكان في أيام خلافته قد عين ابن عمه عبد الرحيم بن الياس وليا لعهده، ثم عزله واثر وفاته أخرجت أخته ست الملك ابنه أبا الحسن علي وأعلنته اماما جديدا ، وهرب عبد الرحيم بن الياس ، وأمسكت ست الملك بزمام الامور ، ومنح الخليفة الجديد لقب الظاهر لاعزاز دين ، وفي هذا اللقب اعلان عودة الى دين الظاهر بعد محاولة الخروج عنه الى دين الباطن ، وكان الظاهر يوم اعلان خلافته ما يزال صبيا ، ولهذا استبدت عمته بكل شيء وغلبته على أمره .

ومع توليه الخلافة أخذت مظاهر الضعف والتفكك تبدو جلية على الامبراطورية الفاطميه ، ففي بلاد الشام تحالفت قبائل الشام الرئيسة وهي : كلب وطيء وكلاب على طرد الفاطميين من البلاد واقامة دول عربية ثلاث : واحدةفي دمشق لكلب ، وثانية في الرملة لطيء ، وثالثة في حلب ، وتزعم هذا التحالف : حسان بن المفرج الطائي ، وسنان بن عليان الكلبي ، وصالح بن مرداس الكلابي ، واستطاع هذا التحالف تحقيق جزء كبير من برامجه ، فطرد الجيوش الفاطمية ، وأجلاها عن الشام ، وأقام صالح بن مرداس الدولة المرداسية في حلب ، لكن حدث بعد حين أن توفي سنان بن عليان فتصدع التحالف ، مما شجع الخلافة الفاطمية على ارسال جيوشها الى الشام ، وفي وادي اليرموك ، هزمت الجيوش الفاطمية صالح بن مرداس وقتلته في معركة عرفت بمعركة الاقحوانة ، لكن على الرغم من هذا النصر لم يستطع الفاطميون تثبيت أقدامهم طويلا في الشام ، وتوفي الظاهر وهو لا يزال في مقتبل العمر فخلفه ابنه معد بلقب المستنصر وكان هذا سنة ٤٢٧ هـ/١٠٣٦ م ، ويعتبر عصر المستنصر أطول عصور الخلفاء الفاطميين حيث امتد حتى سنة ١٠٩٤ م .

وفي هذا العصر المديد ملكت الخلافة الفاطمية العديد من الفرص الثمينة ، فقد وصلت الى ذروة توسعها ثم هوت بسرعة كبيرة وذلك لاسباب داخلية وأخرى خارجية ، ففي عصر المستنصر ضعف شأن الاسرة البويهية التي كانت تتحكم بخلفاء بغداد ، ووجد في المشرق دول اسلامية سنية كبرى ، وحيث أن الدعوة الاسماعلية لم تستطع الوفاء بالوعود التي قطعتها على نفسها ، فقد خبت جذوة هذه الدعوة ، وشهدت في الوقت نفسه بلدان العالم الاسلامي بعثا سنيا بروح قوية ، وكان مما

ساعد على هذا البعث قيام الدولة الغزنوية في المشرق ، لكن الفضل الاكبر في نجاحه بسرعة وفعالية يعود الى السلاجقة الذين خلفوا الدولة الغزنوية في حكم خراسان .

والسلاجقة هم أسرة الزعامة لدى القبائل التركمانية ، ففي بداية القرن الحادي عشر هاجرت مجموعات كبرى من التركمان من موطنها في بلاد ما وراء النهر الى خراسان ، ومن هناك انساحت الى العراق وبلاد الجزيرة والشام وآسية الصغرى وأرمينية ، ونجم عن هذه الهجرة نتائج خطيرة للغاية كان لها انعكاساتها على تاريخ العالم الوسيط أجمع ، وعلى الخلافة الفاطمية بشكل خاص ، وألم بالمناطق التي هاجر اليها التركمان دمارا كبيرا كما أنها شهدت تغييرات سياسية واجتماعية ودينية وعرقية كبيرة .

ولم تحدث الاستفاقة السنية في المشرق فقط بل قامت في المغرب أيضا ، ففي ولاية افريقية — تونس — أعلن حاكمها المعز بن باديس استقلاله عن الفاطميين ، وترافق هذا بالبطش بعناصر الاسماعيلية في ولايته ، وتجديد قواعد العقيدة السنية، وجمع الناس كلهم على مذهب مالك ، وحين حدث هذا كانت مصر تعاني من مواسم جفاف متعاقبة وقصور في النيل ، أفقر البلاد ، وأصاب الناس بالمجاعة والوباء، لذلك عجزت الخلافة الفاطمية عن القيام بأي عمل مباشر ضد المعز بن باديس .

وكان في مصر العديد من القبائل العربية جلها من هلال وسليم ، وكانت هذه القبائل مصدر شغب واخلال بالامن ، وحين — قامت المجاعة وحدث الانفصال في افريقية ، شجعت هذه القبائل ، لا بل دفعت للزحف نحو تونس ، وهنا حدثت الهجرة الهلالية الكبرى ، وحققت هذه الهجرة غرض تدمير سلطة ابن باديس، لكنها لم ترجع شمال افريقية الى العقيدة الاسماعيلية ، بل ساعدت بشكل حاسم على تعريب الشمال الافريقي ، وتشكل آثار هذه الهجرة وأخبارها واحدا من محاور فلسفة ابن خلدون التاريخية الاساسية ، ولقد لقيت عناية خاصة من قبل المستشرقين خاصة الفرنسيين أيام الاستعمار في المغرب الكبير ، وكان الهدف القول بأن العرب دمروا الشخصية المغربية البربرية مع الحضارة ، وان البلاد ينبغي أن تعاد الى أصولها الى غير ذلك من الدعاوي الحاوية للزيف والاختراع ، والتي تهاوت جميعا بعدما كشف باطلها .

وفي المشرق ، ومع تدفق التركمان على أرضه ، زحفت جموعهم نحو العراق للسيطرة على بغداد وانهاء النفوذ البويهي فيها ، كما زحفوا على الجزيرة وبلادالشام،

وأثر هذا على كل من التركمان أنفسهم وعلى القوى السياسية والعربية لهذه المناطق، وقامت تحالفات متنوعة مع العديد من الخصومات ، كما برز عدد من المغامرين خاصة بين صفوف بقايا الجند البويهي ، وكان من أبرز هؤلاء رجل عرف بالبساسيري •

والبساسيري هـو أبو الحارث أرسلان التركي ، نسب الى بلدة بسابفارس (والعرب تسميها فسا ، وينسبون اليها فسوي ، وأهل فارس يقولون بسا ، بين الباء والفاء ، وينسبون اليها البساسيري وكان مولاه رجل من أهل بسا ، فنسب الغلام اليه ، واشتهر بهذه النسبة) ، وبدأ البساسيري حياته كعبد تركي لدى الحكام من آل بويه ، وتدرجت المناصب به حتى أصبح ــ في سنة ٤٣٥ هـ / ١٠٣٣ م الحاكم العسكري للقسم الغربي من بغداد ، وبعد هذا صار من أبرز شخصيات السلطة في بغداد وأكثرها قوة ؛ وعرضه هذا للتصارع مع غيره من رجالات بغداد مع البحث عن الحلفاء من الداخل والخارج وحين رأى خصومه يتحالفون مع السلاجقة ، راسل القاهرة وعرض عليها امداده بالمعونات والاموال ، حتى يزيل الخلافة العباسية من الوجود •

وتجاوبت القاهرة مع ما عرضه البساسيري عليها ، وفي سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م، أرسلت الخلافة الفاطمية الى البساسيري ما قيمته (٢٫٣٠٠٫٠٠٠) من الدنانير مع داعي الدعاة المؤيد في الدين ، وبعد جهود مضنية واتت الفرص البساسيري سنة ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م فدخل بغداد ، واعتقل الخليفة العباسي ، حيث أودع في مدينة عانة على الفرات،وألغيت الدعوة العباسية وخطب الخطباء للمستنصر من على منابر بغداد، وهكذا تحقق حلم الفاطميين في القضاء على الخلافة العباسية ، لكن هذا كله كان سرابا ، حيث لم يمض العام الواحد على حكم البساسيري لبغداد حتى تمكن طغرلبك سلطان السلاجقة من قيادة جموعه من التركمان ، فاستعاد بغداد وقتل البساسيري ، وأعاد الخليفة العباسي الى داره •

وعقب هذا بوقت قصير تمكن التركمان من أخذ دمشق والانسياح في جنوب الشام وشماله ، وقام لهذا مع اخفاق البساسيري ردات فعل كبيرة في القاهرة ، حيث تمرد بعض ضباط الجند على الخليفة وأراد التحكم فيه ، وتمكن في سنة ١٠٧٤ م أحد الضباط من الاصل الارمني واسمه بدر الجمالي من الاستيلاء على مقاليد الامور في القاهرة •

وقبل هذا كان الخليفة الفاطمي يسيطر على جميع فروع السلطة في دولته وهي (الادارة ، والدعوة ، والدعاة ، والجيش) وكان الوزير الذي يرأس قسم الادارة ، الشخصية الاولى في الحكم بعد الخليفة وكان داعي الدعاة يرأس الحزب الفاطمي ويسير جيشا هائلا من الدعاة الموزعين في كافة أنحاء العالم الاسلامي والهند ، وكان قائد الجيش رئيسا للجند وثالثا في الترتيب ، في حكم كان بالاساس مدنيا .

لكن الآن صار أمير الجيوش سيدا للبلد ، يحكم على الخليفة ويحجر عليه ويحمل من الالقاب : لقب وزير ، وداعي الدعاة ، وذلك بالاضافة الى لقبه كأمير جيوش ، وغدا منصب أمير الجيوش منصبا وراثيا ، وقد أيقظ هذا التسلط والتغير عدم رضا ، ومعارضة شديدة بين صفوف الحركة الاسماعيلية .

وبعد وفاة الخليفة المستنصر سنة ١٠٩٤ م ، واجه الافضل بن بدر الجمالي الذي ورث منصب أبيه ، فصار أميرا للجيوش وداعيا للدعاة ، واجه أمر اختيار خليفة جديد ، كما واجه عددا من المسائل الاخرى نجمت في الاساس عن تملك التركمان لبلاد الشام ، وعن تعرض هذه البلاد لغزو جديد جاء من أوروبة الغربية ، وعرف بالغزو الصليبي .

وكان أمام الافضل نزارا ، الابن الاكبر للمستنصر ، وكان معينا لولاية عهد أبيه ، وكان أمامه أيضا أخوه الاصغر المستعلي، وكان حدثا بدون مساندة أو جماعة، فاختاره أمير الجيوش ، وسماه اماما جديدا وصاهره على أخته (أي أخت الافضل) وهرب نزار الى الاسكندرية ، فقام بثورة هناك ، لكن قوات أمير الجيوش تمكنت من ملاحقته والقضاء عليه وعلى حركته .

وأدى اختيار المستعلي الى انشطار الدعوة الاسماعلية الى قسمين ، فقد رفض الاسماعيليون في المشرق ، وكذلك القسم الاكبر من اسماعلية بلاد الشام الاعتراف بالخليفة الجديد، وقامت بين صفوفهم دعوة جديدة أسسها حسن الصباح في المشرق، وبنى أركانها في قلعة الموت ، كما استولى على عدد من القلاع كان من أشهرها قلعة لمسر ، وأبدع حسن الصباح طرقا جديدة لنشر دعوته ، واعتمد الاغتيال السياسي بطعن الخصوم حتى الموت ، بالسكاكين ، وقد عرفت دعوته في المشرق باسم الباطنية، وقد تمكن أتباع حسن الصباح من الاستيلاء على عدد من القلاع الهامة في بلاد

الشام ، ومارسوا هناك دورا بالغ الخطورة ، وكان اسمهم في بلاد الشام الحشيشية، وهي كلمة غير معروفة الاصل حتى الآن ، انما انتقلت الى اللغات الاوروبية لتعني الاغتيـال •

ذلك أن حشيشية الشام ، وباطنية المشرق قاموا بعدد من عمليات الاغتيـال الكبرى ضد قادة المسلمين السنة بشكل رئيـي وضد قادة الاسماعيلية المستعليـة في مصر ، كما نفذوا بعض عمليات الاغتيال ضد بعض قادة الصليبين ، وأثاروا جوا كبيرا من الرعب ، كما فرضوا فروضا (أتاوات) مالية كبرى على قادة المسلمين في المشرق والشام وعلى بعض قادة الصليبين ــ وحتى تبعا لبعض الروايات ــ على ملوك وأباطرة أوروبـة •

وبعد وفاة حسن الصباح خلفه أحد معاونيه وعرف باسم كيابزرك أميـد ، وبتولي كيابزرك أميد هذا صار حكم أتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة بيد أسرة وراثية ، وبعد وفاة كيابزرك أميد قام أحد أحفاده فادعى لنفسه النسب الاسماعيلي ، وصاغ قصة مفادها بأن نزارا بن المستنصر خلف طفلا جلب الى ألموت سرا ، وربي هناك وعاش وأنجب ، ثم أنه عندما حان الوقت قام وأعلن نفسه اماما اسماعيليـا جديدا ، وترافق هذا الاعلان بطقوس كبيرة للغاية ، عرفت بطقوس القيامة الصغرى، وقد وصلنا وصف مفيد لهذه الطقوس في كل من بلاد الشام والمشرق :

« ففي السابع عشر من رمضان لسنة ٥٥٩ هـ/٨ آب ١١٦٤ م ، أمر صاحب ألموت وسيد الباطنية والحشيشية الحسن بن محمد بن كيابزرك أميد باقامة منبر متوجه الى الغرب نصبت على أطرافه أربعة رايات كبار:واحدة بيضاء،وثانية صفراء، والرابعة خضراء ، وواحدة حمراء ، واجتمع في الساحة جمهور كبير من الناس من مختلف الاجناس والاقطار ، وحيث أن المنبر كان موجها الى الغرب ، فقـد كانت ظهور المجتمعين موجهة الى الكعبة ، وعند الظهر كما يقـال من مصدر اسماعيلي (نزل المولى حسن ــ على ذكره السلام ــ من القلعة مرتديا رداء أبيض وعمامـة بيضاء) ثم ارتقى المنبر بكل جلال وبعدما تفوه بالسلام صرح برسالة الامام القائم ، باعلان القيامة، وببعثه صلواته ورحمته لاتباعه وتسميتهم بعباده المختارين، وبموجب القيامة أعفاهم من أعباء الناموس وتكاليف الشريعة ، ثم نزل من على المنبر فصلى

ركعتي العيد وظهره الى الكعبة ثم أمر بمد سماط عظيم، ودعا الحسن الناس الى الاقطار والمشاركة بالوليمة ، وأباح لهم بأن يطربوا ويمارسوا من الاعمال ما رغبوا فيه » .

ولقد تقبل غالبية الباطنية الحشيشية الاعمال الجديدة، على أن قلة منهم رفضت التحرر من نير الشريعة ، فاستخدم حسن ضدهم أصرم العقوبات وأشدها (مؤكدا أنه كما في عصر الشريعة اذا لم يطع الانسان الناموس ولم يتعبد ، بل اتبع أحكام القيامة بحجة أن الطاعة والعبادة أمران روحيان ، كان ينكل به ويرجم أو يقتل ، فكذلك الان في عصر القيامة الصغرى ، اذا تقيد المرء بحرفية الشريعة ، وواظب على العبادة الجسدية وعلى تطبيق الشعائر، فان ذلك يعتبر تعصبا ينكل به من أجله ويقتل).

ولقد استمر أتباع ألموت أقوياء يزرعون الرعب في كل مكان ، ويبرهنون على عجز سلطات دول الاسلام تجاههم ، حتى قام الغزو المغولي لبلاد الاسلام ، ففي طريقه لاحتلال بغداد، قام هولاكو باحتلال قلاع ألموت ولمسر وبقية القلاع الاسماعيلية في المشرق ، وقضى على مؤسساتهم السياسية ، لكن أتباع العقيدة الاسماعيلية ظلوا يعيشون في بقاع كثيرة ، وفي العصر الحديث يتزعمهم أئمة يحمل الواحد منهم لقب الآغا خان ، ويدعون الانحدار من أئمة ألموت .

وعندما أقام الافضل المستعلي اماما جديدا ، قبل بهذا الاختيار عدد لا بأس به من الاسماعيلية ، وبعد وفاة المستعلي صار ابنه الآمر اماما جديدا ، وفي سنة ١١٣٠ م تمكن اسماعيلية ألموت من اغتيال الآمر وعقب اغتيال الآمر رفض الاسماعيلية المستعلية الاعتراف بالخليفة الفاطمي بالقاهرة ، وتبنوا عقيدة فيها أن طفلا رضيعا للآمر يدعى الطيب كان قد فقد ، حيث استتر وتغيب ، وكان تغيبه في اليمن لدى احدى سيدات الاسرة الصليحية التي كانت تحكم اليمن ، والطيب هو الامام المنتظر، ولهذا لم يعد لدى المستعلية أئمة بعده ، إنما صار المسؤول عن أمورهم داعي الدعاة ، وقد نقل أتباع هذه الدعوة نشاطهم مع مركز أعمالهم الى الهند ، ويوجد الان في الهند ما يقارب المليون والنصف من المستعلية ، وتعرف طائفتهم باسم البهرة ، وأفراد هذه الطائفة من أكثر أهل الهند ثروة ويحمل داعي دعاتهم لقب سلطان ، لهم لغتهم الخاصة وجامعتهم ومعاهدهم الثقافية .

وحكم بعد الآمر في القاهرة أربعة خلفاء من الاسرة الفاطمية لكنهم لم يعتبروا أئمة ، ثم كانوا بلا صلاحيات أو نفوذ داخلي أو خارجي وضعفت مصر في زمنهم

ضعفا شديدا ، ونجم ذلك عـن توسع الصليبيين وعن تنافس القوى في القاهـرة وصراعاتها من أجل منصب أمير الجيوش ، وأراد بعض أفراد هذه القوى الاستعانة بمملكة القدس الصليبية ، وعرف الصليبيون مصر وقدروها حق قدرها ، فعملوا من أجل احتلالها فتدخل نور الدين محمود بن زنكي ، سيد الشام وبطل الاسلام زمن الحروب الصليبية ، فمنعهم بجيش قاده أسد الدين شيركوه ، وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب بصحبة عمه أسد الدين ، كما أنه كان أبرز أمراء الحملة بعد عمه ، وعقب وفاة أسد الدين حل محله صلاح الدين ، وتسلم منصب الوزارة ، وقـام صلاح الدين في سنة ١١٧١ م ـ بناء على تعليمات تلقاها من نور الدين ـ بالغـاء الخلافة الفاطمية وأعاد مصر الى حظيرة الدولة العباسية ، ولم يؤد هذا الالغاء الى ردات فعل شعبية في داخل مصر،ويبدو أن مرد ذلك يعود الى أن العقيدة الاسماعيلية لم تتعد سيطرتها على مصر أطر السياسة ، وكان عدد الاسماعيليين في مصر قليلا خاصة بين المصريين ، ذلك أن الحركة الاسماعيلية التفتت بعد سيطرتها على مصر الى النشاط الخارجي ، وأهملت الوضع الداخلي ، وكان هذا من أعظم الاخطاء التـي وقعت فيهـا[١] .

---

(١) انظر كتابي امارة حلب بالانكليزية : ٦٧ ـ ١٢٩ ، مدخـل الى تاريخ الحـروب الصليبية : ٩٦ ـ ١٢٤ ، تاريـخ العـرب والاسلام : ٣٢٥ ـ ٣٣٥ . الـدعوة الاسماعيلية الجديدة : ٥٢ ـ ١١٢ .

الفصل الثاني

القرامطـة

ظهور القرامطـة ـ قرامطـة العـراق :

يكتنف موضوع ظهور القرامطة بعض الغموض ، فهناك خلاف شديد حول أصلهم ومدى علاقة هذا الاصل بالحركات الاسماعيلية عقيدة وتنظيما ، فقد ذهب جل الباحثين في عصرنا الى القول ان القرامطة جزء من الاسماعيلية وأن هناك علاقات عقائدية وعضوية بين الطرفين واضحة كل الوضوح ، بينما ذهب قلة من الباحثين الى نفي هذا الرأي والقول ان القرامطة تنظيم قائم بذاته ، مستقل كل الاستقلال عـن الاسماعيلية ، فهذا ما حاول اثباته المستشرق ايفانوف ، الذي اختص بالاسماعيلية ، وارتبط بالآغاخانية بأمتن الروابط الى حد يمكن القول فيه بأنه كان يعمل لحسابها ، ولهذا كانت محتويات المكتبات الاسماعيلية تحت تصرفه في كل مكان ، واحتـج ايفانوف بأن المصادر الاسماعيلية وغيرها لا تثبت وجود علاقة ، كما أن المعلومات المتوفرة عن عقائد القرامطة تظهر أن هذه العقائد تختلف عما تبنته الاسماعيلية[1] .

ان الفحص الدقيق للمواد التي كانت متداولة أيام ايفانوف تثبت عكس ماذهب اليه ، ويدعم هذا الرأي المواد الجديدة التي ظهرت الى النور بعده ، فلدى العودة الى مختلف المصادر الاسماعيلية نراها تنظر الى القرامطة نظرة فئة تمردت على قيادتها وهـذا ما نشهده في كل من كتاب (سيرة الحاجب جعفر) و (استتار الامام) ، وفي الرسالةالتي وجهها المعز لدين الله الفاطمي الى الحسن الاعصم حيث جاء قوله : «فأما أنت أيها الغادر الخائن ، الناكث المباين عن هدي آبائه وأجداده ، المنسلخ عن دين أسلافه وأنداده ... أما كان لك بجدك أبي سعيد أسوة حسنة وبعمل أبي طاهر قدوة ، أما نظرت في كتبهم وأخبارهم ، ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم ؟ أكنت غائبا

---

(١) (مجلة فرع بومباي للجمعية الملكية البريطانية الاسيوية)
Ismailis and Qarmatians J.B.B.R.A, Vol 16 (1940) pp 42 - 85 .

عن ديارهم ، وما كان من آثارهم ، ألم تعلم أنهم كانوا « عبادا لنا أولي بأس شديد » وعزم سديد، وأمر رشيد ، وفعل حميد ، تفيض اليهم موادنا ، وتنشر عليهم بركاتنا، حتى ظهروا على الاعمال ، ودان لهم كل أمير ووال ، ولقبوا بالسادة فسادوا منحة منا واسما من أسمائنا ••• » •

ومن الكتب التي نشرت بعد ايفانوف كتاب « المقالات والفرق » لسعد القمي ، وكتاب « شجرة اليقين » للداعي القرمطي عبدان ، بين كتب أخرى ، ويعتبر سعد القمي بين أقدم من كتب في الملل والنحل ، فقد عاصر ظهور القرامطة ورأى نشاطاتهم الحربية المعلنة ، ذلك أنه توفي في أواخر القرن الثالث للهجرة •

قال سعد القمي : « وتشعبت بعد ذلك فرقة ••• ممن قال بامامة محمد بن اسماعيل تسمى القرامطة ، سميت بذلك لرئيس كان لهم من أهل السواد من الانباط، كان يلقب بقرمطويه ••• وقالوا : يكون بعد محمد ﷺ سبعة أئمة : علي وهو امام رسول ؛ والحسن والحسين وعلي بن الحسين ، ومحمد بن علي ، وجعفر بن محمد ، ومحمد بن اسماعيل بن جعفر ، وهو الامام القائم المهدي وهو رسول ؛ وهؤلاء رسل أئمة ، وزعموا أن النبي ﷺ انقطعت عنه الرسالة في حياته في اليوم الذي أمر فيه بنصب علي بن أبي طالب للناس بغدير خم ، فصارت الرسالة في ذلك اليوم الى أمير المؤمنين وفيه ، واعتلوا في ذلك بخبر تأولوه وهو قول رسول الله : « من كنت مولاه فعلي مولاه » ، وأن هذا القول منه خروج من الرسالة والنبوة وتسليم منه ذلك لعلي بن أبي طالب بأمر الله، وأن النبي ﷺ بعد ذلك صار تابعا لعلي محجوبا به، فلما مضى أمير المؤمنين صارت الامامة والرسالة في الحسن ، ثم صارت من الحسن في الحسين ، ثم صارت في علي بن الحسين ، ثم في محمد بن اسماعيل بن جعفر ، كما انقطعت الرسالة عن محمد في حياته ، ثم ان الله بدا له في امامة جعفر واسماعيل فصيرها عز وجل في محمد بن اسماعيل ، واعتلوا في ذلك بخبر رووه عن جعفر بن محمد أنه قال : ما رأيت مثل بداء بدا لله في اسماعيل ، وزعموا أن محمد بن اسماعيل حي لم يمت ، وأنه غائب مستتر في بلاد الروم ، وأنه القائم المهدي ، ومعنى القائم عندهم أنه يبعث بالرسالة وبشريعة جديدة وينسخ بها شريعة محمد ، وأن محمد بن

---

(١) أخبار القرامطة : ٣١٨ ـ ٣١٩ ، ٣٧٤ ـ ٣٧٥ .

اسماعيل من أولي العزم ، وأولو العزم عندهم سبعة : نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد وعلي ومحمد بن اسماعيل على معنى أن السموات سبع ، والارضين سبع . وأن الانسان بدنه سبع : يداه ورجلاه وظهره وبطنه وقلبه ، وأن رأسه سبع : عيناه وأذناه ومنخراه وفمه وفيه لسانه ، وفمه بمنزلة صدره الذي فيه قلبه ، والائمة سبع كذلك وقلبهم محمد بن اسماعيل ، وأولو العزم سبع ، واعتلوا في نسخ شريعة محمد ﷺ وتبديلها بأخبار رووها عن جعفر بن محمد أنه قال : لو قام قائمنا علمتم القرآن جديدا ، وأنه قال : « إن الاسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا فطوبى للغرباء » ونحو ذلك من أخبار القائم ، وزعموا أن الله جعل لمحمد بن اسماعيل جنة آدم ، ومعناها عندهم الاباحة للمحارم وجميع ما خلق في الدنيا وهو قول الله : [فكلا منها رغدا حيث شئتما] يعني محمد بن اسماعيل وأباه اسماعيل ، [ولا تقربا هذه الشجرة] موسى بن جعفر وولده من بعده من ادعى منهم الامامة ، وزعموا أن محمد بن اسماعيل هو خاتم النبيين الذي حكاه الله في كتابه ، وأن الدنيا اثنتا عشرة جزيرة ، في كل جزيرة حجة ، وأن الحجج اثنا عشر ... وزعموا أن جميع الاشياء التي فرضها الله على عباده وسنها نبيه ﷺ فيها ظاهر وباطن ، وأن جميع ما استعبد الله به العباد في الظاهر من الكتاب والسنة فأمثال مضروبة وتحتها معان هي بطونها عليها العمل وفيها النجاة ... واستحلوا مع ذلك استعراض الناس بالسيف وسفك دمائهم وأخذ أموالهم والشهادة عليهم بالكفر والشرك ... وقد كثر عدد هؤلاء القرامطة ، ولم يكن لهم شوكة ولا قوة ، وكان كلهم بسواد الكوفة وكثروا بعد ذلك باليمن ونواحي البحرين واليمامة وما ولاهما ، ودخل فيهم كثير من العرب فقوي حالهم بهم وأظهروا أمرهم »[1] .

ان أهم الافكار الواردة في هذا النص الوثائقي هي :

١ ــ القرامطة تشعبوا عن الاسماعيلية .

٢ ــ الايمان بامامة اسماعيل وابنه محمد .

٣ ــ الصراع مع الامامية الاثني عشرية .

٤ ــ الفرقة سبعية .

٥ ــ عقيدة القائم والقيامة هي الاساس والمحور .

---

(١) المقالات والفرق : ٨٣ ــ ٨٦ .

٦ ـ التأويل الباطني .
٧ ـ النبوة انتهت يوم غدير خم وبدأت امامة علي .
٨ ـ استعراض الناس جميعا بلا استثناء .
٩ ـ اباحة بعض المحظورات .

كان سعد القمي اماميا من أصحاب الامام الحادي عشر ، وهو أقدم المعروفين من الشيعة ممن صنف في الملل والنحل،وقد جاء من بعده الحسن بن موسى النوبختي، وهو أيضا شيعي امامي ، خلف لنا « كتاب فرق الشيعة » وقد توفي النوبختي بعد القمي بحوالي عقدين من الزمن ، وردد النوبختي ما كتبه القمي من حيث الجوهر لا بل من حيث العبارات اللهم الا قوله:«وعددهم كثير الا أنه لا شوكة لهم ولا قوة، وهم بسواد الكوفة واليمن أكثر ، ولعلهم أن يكونوا زهاء مائة ألف »[1] .

وكان ممن عاصر القمي والنوبختي وأتى على ذكر القرامطة الامام أبو الحسن الاشعري (ت ٣٣٠ هـ) وذلك في كتابه مقالات الاسلاميين بقوله : والصنف الثامن عشر من الرافضة وهم القرامطة : يزعمون أن النبي ﷺ نص على علي بن أبي طالب وأن عليا نص على امامة ابنه الحسن ، وأن الحسن بن علي نص على امامةأخيهالحسين ابن علي وأن الحسين بن علي نص على امامة ابنه علي بن الحسين وأن علي بن الحسين نص على امامة ابنه محمد بن علي ، ونص محمد بن علي على امامة ابنه جعفر ، ونص جعفر على امامة ابن ابنه محمد بن اسماعيل ، وزعموا أن محمد بن اسماعيل حي الى اليوم لم يمت ولا يموت حتى يملك الارض ، وأنه هو المهدي الذي تقدمت البشارة بـه ؛ واحتجوا في ذلك بأخبار رووها عن أسلافهم يخبرون فيها أن سابع الائمـة قائمهم »[2] .

الاتفاق بين هذه المصادر واضح تمام الوضوح،ولنلتفت الآن الى كتاب «شجرة اليقين » للداعي القرمطي عبدان الذي سنتعرض الى شخصيته بعد قليل ، ونقرأ في كتابه قولـه :

« ... وصلى الله على سيدنا محمد الغفور الودود ، وعلى وصيه أمير المؤمنين صاحب الحوض المورود وعلى ذريتهما الحجج على كل موجود ، وعلى القائم بالامر،

---

(١) فرق الشيعة : ٦١ ـ ٦٤ .
(٢) مقالات الاسلاميين : ١/٩٨ .

صاحب الزمان والعصور ... وان كل من ينظر في هذه الايات الموجودة في الافاق والانفس والدلالات الباطنة فيهـا ، ولا يطلب حقائقها وتأويلاتها من أرباب الدين وأصحاب اليقين فيكون من الابالسة والشياطين » .

ويستعرض عبدان أثر هذا ما جاء به الانبياء ذوو العزم : آدم، ونوح ،وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ليخلص الى الحديث عن شخصية القائم فيقول : « وأما القائم سلام الله عليه فهو صاحب التأويل الذي يجمع به جميع شرائع النطقاء وأعمالهم وهو صاحب يوم الكشف الذي ذكره الله عز وجل في كتابه : [هل ينظرون الا تأويله][1] ويوقف عبدان جل مواد كتابه على التأويل الباطني للبرهنة على القيامـه والقائم معتمدا في عمله على النظام السبعي فاسمعه يقول : « القائـم محصول جميع الانس ... وآخر النطقاء السبعة الذي يتم به الكور العظيم » ،وقد أشار أثناء عرضه أكثر من مرة الى الامام الاسماعيلي أحمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق وذلك تحت اسم « الحكيم الصادق »[2] وينقل بعض أقواله كما وردت في كتاب اسمه المحصول ، ومن المعروف أن تصنيف هذا الكتاب منسوب الى هذا الامام كما ينسب اليه تصنيف رسائل اخوان الصفا في مرحلة السلمية من دور الستر[3] .

ونستخلص مما قلناه من كتاب عبدان ومن مجمل متن الكتاب أنه كان من كبار دعاة الاسماعيلية وأكثرهم تمكنا من علم التأويل الباطني،اعتمد النظام السبعي وآمن بفكرة القائم والقيامة ، وكان على معرفة باللغة الفارسية ، كما كان يفهم لغة « نبط العراق » أي الارامية[4] ، ويتوافق هذا مع ماسبق عرضه وله دلالات أخرى مفيدة.

وننتقل بعد هذا الى تراث الاسماعيلية وهو تراث غني جدا ، نجده يجمع على مسألة القيامة والقائم وغير ذلك مما سبقت الاشارة اليه في الفصل السابق وحتـى تجنب التكرار والاطالة سأكتفي بعرض بعض ما جاء عند القاضي النعمان الذي كان أكبر علماء الاسماعيلية في وقته وبعد وقته وأكثرهم انتاجا ، فقد ردد القاضي النعمان

---

(١) شجرة اليقين : ٩ ـ ١٢ .
(٢) المصدر عينه : ٢٠ ، وانظر ايضا : ٣٦،٤٨،٥٢،٥٥،٨٩،٩٤،١٠٢،١٠٧ .
(٣) عيون الاخبار : ٤/٣٦٧ .
(٤) شجرة اليقين : ٥٩ ، ١٠٧ .

ما ورد عند القمي والنوبختي والاشعري وعبدان ، في معظم كتبه ، وكان من بين ما كتبه النعمان أيام المعز لدين الله الفاطمي وقبل الانتقال الى مصر رسالة دعاها « الرسالة المذهبة في الحكمة والتأويل » وقد احتوت هذه الرسالة على عدد من الاسئلة أجاب عنها النعمان، وأتيح لي الوقوف على نسخ ثلاث منها ، نسخها متأخر ، فيها من التصحيفات والاخطاء والسقط الشيء الكثير ، ومع هذا استطعت بعد شيء من الصعوبة ترميم النص وتقويمه واعداده للنشر ، وكان مما قاله القاضي النعمان في رسالته هذه :

« وسألت عن السبب الذي أوجب أن النبي ﷺ كان في بداية أمره يتختم في يمينه ، فلما كان أوان نقلته [أي وفاته] حوّل خاتمه من يمينه الى يساره ؟.

اعلم أيدك الله انما سبب تختمه بيمينه في بداية أمره ، فانما ذلك اشارة منه الى نفسه بتسلم منزلة النبوة والناطق ، وقيامه بتبليغ رسالات ربه كما جرى فيمن تقدمه من النطقاء والمرسلين ، وأنه لم يزل متختما بيمينه أيام حياته دليل على العمل بشريعته ، وظاهر تنزيله ، واقامة دعوة الظاهر حتى نزل من الله تعالى اليه بنصب أساسه ووصيه ، فبلغ عن الله أمره ، ونصب وصية يوم غدير خم ، وأقامه ، واستخلفه من بعده ، فحول خاتمه من يمينه الى يساره ، وأمر وصيه عليا عليه السلام أن يتختم باليمين ولا يحوله الى شماله ، فكان ذلك اشارة منه بتسليم المنزله الى وصيه ،فكان الوصي يتختم باليمين دليلا على ما قد صار اليه ، وتختم الرسول بالشمال دليل على انقطاع المواد عنه بتسليمه الامر الى وصيه » .

وقال في مكان آخر متحدثا عن النبي ﷺ : « فالذي له اثنتا عشرة امرأة مضى على تسع نسوة وسقط منهن ثلاث ، وقد تروي عامة الشيعة[1] أنه رد طلاق نسائه

---

(1) هذا صحيح ، فقد روى ابن الاعثم الكوفي في كتابه الفتوح اخبار معركة الجمل ونتائجها ، وذكر امورا لا نجدها الا عنده ، ذلك انه كان شيعيا من الاوائل ، فبعد ما وصف وقوع السيدة عائشة بالاسر تحدث عن محادثات جرت بينها وبين ابن عباس ثم علي بن ابي طالب ثم قال : بعث علي « اليها بابنه الحسن ، فقال لها : يقول لك امير المؤمنين : اما والذي فلق الحبة وبرا النسمة لئن لم ترحلي الساعة لأبعثن عليك بما تعلمين ، قال : وعائشة في وقتها ذلك قد ضفرت قرنها الايمن وهي تريد ان تضفر الايسر ، فلما قال لها الحسن ما قال وثبت من ساعتها =

بيد علي عليه السلام ؛ وذلك أنه لما أمر بالتسليم اليه فوض اليه أمر حججه ونقبائه ، فله أن يطلق منهن من يشاء وينصب من شاء » .

وسبق القول في الفصل السابق أن القاضي النعمان قد ذكر شخصية القائم حيث تحدث عنه على الأساس السبعي، وبين أكثر من مرة أنه « سابع سبعة من آدم ودوره آخر الادوار » ، كما وأشار الى أنه من الانبياء ذوي العزم يأتي بما يلغي كل الشرائع السابقة ، ويعلن الجهاد على معانديه ، وعلى ضوء هذا الامر سيمكننا فهم ما أقدم عليه قرامطة الاحساء والبحرين من استعراض لخصومهم واغارات على قوافل الحجاج بلغت الذروة في مهاجمة مكة سنة ٣١٧ هـ/٩٢٩ م وقتل الحجاج ، واقتلاع الحجر الاسود من الكعبة .

فلقد أراد القرامطة ما أرادته الدعوة الاسماعيلية ايقاف الحج بشكل نهائـي بوساطة مهاجمة قوافل الحجيج وقطع طرق الحج ، لكن عندما أخفقت هذه الخطة هاجم أبو طاهر القرمطي مكة في أيام الموسم ، فقد قتل الحجيج واقتلع الحجر الاسود لان القرامطة اعتقدوا أنه مغناطيس القلوب « يجذب الناس اليه من أطراف العالم »(١).

ان الحج هو شعيرة تميز بها الاسلام ، وهي الشعيرة الوحيدة التي تعلن بشكل عالمي ظاهري عن استمرارية الاسلام والعمل بمبادئه أمميا ، فالصلاة ، ودفع الزكاة وصوم رمضان مع التلفظ بالشهادتين شعائر يمكن أن تمارس بشكل فردي وسري، لكن الحج لا يمارس الا في بقعة محددة وبصورة علنية ، واستمرار الحج معنـاه

وقالت : رحلوني ، فقالت لها امرأة من المهالبة : يا ام المؤمنين جاءك عبد الله بن عباس فسمعناك وانت تجاوبينه حتى علا صوتك ثم خرج من عندك وهو مغضب، ثم جاءك الان هذا الغلام برسالة ابيه فاقلقك ، وقد كان أبوه جاءك فلم نر منك هذا القلق والجزع ، فقالت عائشة : انما اقلقني لانـه ابن بنت رسول الله ﷺ فمن احب ان ينظر الى رسول الله ﷺ فلينظر الى هذا الغلام ، وبعد فقد بعث الي ابوه بما قد علمت ولا بد من الرحيل ، فقالت لها المراة : سألتك بالله وبمحمد ﷺ الا اخبرتني بماذا بعث اليك علي ــ رضي الله عنه ــ فقالت عائشة : ويحك إن رسول الله ﷺ ... قال : يا علي اني قد جعلت طلاقهن (ازواج النبي) اليك، فمن طلقتها منهن فهي بائنة ، ولم يوقت النبي ﷺ في ذلك وقتا في حياة ولا موت، فهي تلك الكلمة » . الفتوح مخطوطة استانبول : ٤٣/١ وظ .

(١) اخبار القرامطة : ١٩٧ .

اخفاق العمل في سبيل اعلان القيامة ، ونجاحها في تعطيل الشريعة ، واحلال ديـن الكشف الذي سيأتي به القائم محلها .

وبعدما فرغنا من اثبات أن القرامطة كانوا بالاصل فرعا من فروع الاسماعيلية يغدو بديهيا أن نشأتهم مرتبطة بنشأة الاسماعيلية وتطورها ومع ذلك لا بد من سؤال حول التاريخ الذي ظهرت به كلمة « قرامطة » ، وعن معناها والمقصود منها ، وعن البلد الذي شهد أول تنظيمات القرامطة وتحركاتهم .

وقبل معالجة هذه القضايا لا بد من أن نضع بالحسبان أن المؤرخ المسلم رصد لدى تدوينه لاخباره الحركات لا عندما بدأت ولكن عندما كانت تصطدم بالانظمة الحاكمة القائمة ، أو عندما كانت الحركات تتحول الى مؤسسات سياسية ، ففي كتب السيرة النبوية نلاحظ وضوحا في أخبار المرحلة المدنية ودقة لا نجدها في أخبـار المرحلة المكية السابقة ، فقد عمد رواة السيرة الى البحث في المدينة عما سلف منـذ زمن،فوجدوا أنفسهم في شح من الروايات وفي بحر من الخيال والتمازج والاختلاط، وقد تكرر هذا الحال دائما ، ولهذا تختلف الروايات حول بداية ظهور القرامطـة ومعنى تسميتهم .

لقد أكثر الاوائل والمعاصرون البحث في هذه القضية، لكن عجزوا عن الوصول الى رأي حاسم حولها ، ومثل هذا ليس بغريب في التاريخ العام والخاص ، فهناك أسماء كثيرة ذات شهرة واسعة لا نعرف شيئا مؤكدا عـن أصلها مثل « دمشق ـ سورية » وغير ذلك ، وعلى صعيد الحركات الاسماعيلية المتأخرة ينطبق هذا الحال على كلمتي « قرامطة » و « حشيشية » ، ومع هذا سنحاول أن ندلي بدلونا في هذه المسألة عارضين أولا لأهم الآراء والروايات حول هذا الموضوع ، ثم محاولين بعد ذلك الوصول الى نتيجة ما : نقرأ في لسان العرب :

قرم : القَرَم بالتحريك : شدة الشهوة الى اللحم ...

قرمد : القَرْمَد كل ما طلي به ... وقيل القرمد والقرميد حجارة لها خروق يوقد عليها حتى اذا نضجت بني بها ، قال ابن دريد : هو رومي تكلمت به العرب قديما ... قال : القراميد في كلام أهل الشام آجر الحمامات ، وقيل : هي بالرومية قرميدي ...

قرمط : القَرْمَطيط المتقارب الخطو ، وقرمط في خطوه اذا قارب ما بين قدميه ... والقرمطة المقاربة بين الشيئين ، والقَرْمُوط زهر الغضا وهو أحمر ... والقرمطة في الخط دقة الكتابة وتداني الحروف ... والقرامطة : جيل واحدهم قَرْمَطي(١) .

ونقرأ في بعض كتب الملل والنحل :

قال سعد القمي : « القرامطة : سميت بذلك لرئيس كان لهم من أهل السواد من الانباط كان يلقب بقرمطويه »(٢) .

وقال النوبختي : « القرامطة : وانما سميت بهذا برئيس لهم من أهل السواد من الانباط كان يلقب قرموطويه(٣) » .

وقال البغدادي في الفرق بين الفرق : « ثم ظهر ... رجل يقال له حمدان قرمط لقب بذلك لقرمطة في خطه أو في خطوه ، وكان في ابتداء أمره أكارا من أكرة سواد الكوفة ، واليه تنسب القرامطة »(٤) .

وقال الديلمي في بيان مذهب الباطنية وبطلانه : « وأما لقبهم بالقرامطة »فلانتسابهم الى رجل يقال له حمدان قرمط من أهل الكوفة ، وهو أحد دعاتهم في الابتداء ، فلما استجاب له ناس سموا قرامطة وقرمطية »(٥) .

وكتب الامام الغزالي في كتابه فضائح الباطنية :

« وأما القرامطة فانما لقبوا بها نسبة الى رجل يقال له حمدان قرمط ، كان أحد دعاتهم في الابتداء ، فاستجاب له في دعوته رجال ، فسموا قرامطة وقرمطية ، وكان المسمى حمدان قرمط رجلا من أهل الكوفة مائلا الى الزهد ، فصادفه أحد

---

(١) لسان العرب المحيط « مادة قرم » . انظر المادة ذاتها في تاج العروس حيث التطابق كاملا .
(٢) المقالات والفرق : ٨٣ .
(٣) فرق الشيعة : ٦١ .
(٤) الفرق بين الفرق : ٢٦٦ — ٢٦٧ .
(٥) بيان مذهب الباطنية : ٢٢ .

دعاة الباطنية في طريق وهو متوجه الى قريته وبين يديه بقر يسوقها ، فقال حمدان لذلك الداعي ــ وهو لا يعرفه ولا يعرف حاله : أراك سافرت من موضع بعيد ، فأين مقصدك ؟ فذكر موضعا هو قرية حمدان ، فقال له حمدان : اركب بقرة من هـذه البقر لتستريح من تعب المشي ، فلما رآه مائلا الى الزهد والديانة أتاه من حيث رآه مائلا اليه ، فقال : اني لم أومر بذلك ، فقال حمدان : وكأنك لا تعمل الا بأمر ؟ قال: نعم ، قال حمدان : وبأمر من تعمل ؟ فقال الداعي : بأمر مالكي ومالكك ، ومن له الدنيا والاخرة ، فقال حمدان : ذلك اذن هو رب العالمين ، فقال الداعي : صدقت ، ولكن الله يهب ملكه لمن يشاء ، قال حمدان : وما غرضك في البقعة التي أنت متوجه اليها ؟ قال : أمرت أن أدعو أهلها من الجهل الى العلم ومن الضلال الى الهدى ، ومن الشقاوة الى السعادة، وأن أستنقذهم من ورطات الذل والفقر ، وأملكهم مايستغنون به عن الكد والتعب ، فقال له حمدان : أنقذني أنقذك الله ، وأفض علي من العلـم ما يحييني به ، فما أشد احتياجي الى مثل ما ذكرته ، فقال الداعي : وما أمرت بأن أخرج السر المخزون لكل أحد الا بعد الثقة به والعهد عليه ، فقال حمدان : وما عهدك فاذكره لي ، فاني ملتزم له ، فقال الداعي : أن تجعل لي وللامام على نفسك عهد الله وميثاقه أن لا يخرج سر الامام الذي ألقيه اليك ، ولا تفشي سري أيضا .

فالتزم حمدان سره ، ثم اندفع الداعي في تعليمه فنون جهله حتى استدرجـه واستغواه واستجاب له في جميع ما دعاه ، ثم انتدب حمدان للدعوة ، وصار أصلا من أصول هذه الدعوة ، فسمي أتباعه القرمطية »[1] .

وجاء في كتاب المنية والامل في شرح الملل والنحل:« ومات عبد الله (بن ميمون القداح) فأوصى الى ابنه أحمد فخرج الى العراق وصحبه رجل يقال له قرمط فأجابه ومن ثم سموا قرامطة ، ودعا قرمط أهل قريته فأجابوه ، فلما مات قرمط خلفه تلميذ له يسمى حمدان قرمط ، وممن أعانهم ودعا الى ملتهم عبدان داعية العراق ، وخليفته عيسى بن موسى ، ولعبدان كتب ، ومن دعاتهم زكرويه بن مهرويه أخذ العلم عن حمدان قرمط »[2] .

---

(١) فضائح الباطنية : ١٢ ــ ١٥ .

(٢) المنية والامل في شرح الملل والنحل تاليف احمد بن يحيي بن المرتضى : ٩٨ .

ونلتفت الى المصادر التاريخية وتاريخ الطبري أقدمها ، وفيه جاء في حوادث سنة ٢٧٨ هـ : « وفيها وردت الاخبار بحركة قوم يعرفون بالقرامطة بسواد الكوفة، فكان ابتداء أمرهم قدوم رجل من ناحية خوزستان الى سواد الكوفة ، ومقامه ... يظهر الزهد والتقشف » ثم تحدث على عمله في القرية ودعوته أهلها واقامته لدى واحد من سكانها « أحمر العينين شديدة حمرتهما وكان أهل القرية يسمونه كرميته لحمرة عينيه ، وهو بالنبطية أحمر العينين » ثم تحدث عن ذهاب هذا الداعية الى الشام وأنه«سمي باسم الرجل الذي كان في منزله...كرميته ثم خفف فقالوا:قرمط»ـ.

وكانت السلطات العباسية قد ألقت القبض على عدد من القرامطة وحملتهم الى سجون بغداد ، وقد كان من بين الذين حققوا معهم محمد بن داود الجراح وقد « ذكر عن محمد بن داود أنه قال : قرمط رجل من سواد الكوفة ، كان يحمل غلات السواد على أثوار له يسمى حمدان ويلقب بقرمط ، ثم فشا أمر القرامطة ومذهبهم وكثروا بسواد الكوفة »(١) .

لقد اعتمدت مصادر تاريخ العرب والاسلام بعد الطبري روايته الاولى وأهملت ما عداها ومن أجمع الروايات وأفضلها ما ذكره ابن الجوزي في كتابه المنتظم حيث قال : « وأما تسميتهم بالقرامطة ففي سبب ذلك ستة أقوال :

أحدها : أنهم سموا بالقرامطة لان أول من أشير لهم بتلك الجهة محمد الوراق المقرمط ، وكان كوفيا .

والثاني : أن لهم رئيسا من السواد من الانباط يلقب بقرمطويه ، فنسبوا اليه.
والثالث : أن قرمطا كان غلاما لاسماعيل بن جعفر ، فنسبوا اليه ، لانه أحدث لهم مقالاتهم .

والرابع : أن بعض دعاتهم نزل برجل يقال له كرميته ، فلما رحل تسمى قرمط ابن الاشعث ، ثم أدخله في مذهبه .

الخامس : أن بعض دعاتهم رجل يقال له كرميته ، فلما رحل تسمى باسم ذلك الرجل ، ثم خفف الاسم فقيل قرمط ...

---

(١) تاريخ الطبري : ٢٣/١٠ — ٢٥ . انظر ايضا العيون والحدائق : ٦٨/٤ — ٦٩ حيث اورد الرواية نفسها .

السادس : أنهم لقبوا بهذا نسبة الى رجل من دعاتهم يقال له حمدان بن قرمط، وكان حمدان من أهل الكوفة يميل الى الزهد ، فصادفه أحد دعاة الباطنية في طريقه، فاستدرجه واستغواه ، واستجاب له في جميع ما دعاه اليه ، ثم انتدب للدعوة ، وصار أصلا من أصول هذه البدعة ، فسمي أتباعه القرمطية[1] .

ولا يقل مكانة عن رواية ابن الجوزي ما ذكره مؤرخ حلب الكبير الصاحب كمال الدين ابن العديم في كتابه (بغية الطلب) في ترجمة صاحب الخال كبير زعماء قرامطة الشام حيث قال : « وانما سموا القرامطة : لانهم زعموا أنهم يدعون الى محمد بن اسماعيل بن جعفر بن علي ، ونسبوا الى قرمط ، وهو حمدان بن الاشعث، كان بسواد الكوفة ، وانما سمي قرمطا-لانه كان رجلا قصيرا ، وكانت رجلاه قصيرتين ، وكان خطوه متقاربا ؛ فسمي لهذا السبب قرمطا ... وذكر بعض العلماء أن لفظة قرامطة ، انما هي نسبة الى مذهب يقال له القرمطة خارج عن مذاهب الاسلام ، فيكون على هذه المقالة عزوة الى مذهب باطل لا الى رجل »[2] .

لدى عودتنا الى هذه المواد نلاحظ :

١ ــ المعاجم اللغوية العربية لا تسعفنا بشيء .

٢ ــ ظهر القرامطة للمرة الاولى في سواد الكوفة .

٣ ــ الوسط الذي ظهر فيه القرامطة كان وسطا فلاحيا لغة أهله النبطية أي الارامية .

٤ ــ قرمط كان لقبا حمله أحد الدعاة واسمه حمدان بن الاشعث .

٥ ــ القرمطة مذهب « خارج عن مذاهب الاسلام » .

ونتيجة لهذا يتوجب على الباحث أن يجعل منطقة بحثه وقاعدة انطلاقه الاولى منطقة سواد الكوفة .

الكوفة مدينة تأسست في عهد الخليفة عمر بن الخطاب أيام الفتوحات الكبرى، وهي عاصمة علي بن أبي طالب ؛ وقد تميزت دوما بطابعها الشيعي وكانت لهذا مركزاً

---

(١) اخبار القرامطة : ٢٥٧ ــ ٢٦٠ .
(٢) اخبار القرامطة : ٢٧٧ .

للنشاط الدعوي الشيعي ، لذلك لا غرابة اذا وقع اختيار دعـاة الاسماعلية علـى سوادها وتمركزوا فيه دون سواه للتفجير العسكري ، متذكرين في الوقت نفسـه ثورة الزنج ونشاطاتها في سواد البصرة في تلك الاثناء •

كانت منطقة الكوفة ذات خلفيات حضارية وعقائدية غنية جدا ، عرفت ديانات بابل القديمة ، كما شهدت تفاعل هذه الديانات مع العقائد الايرانية ومع عقائد أعالي بلاد الرافدين والاجزاء الشمالية من الشام ، وهذا ما تلمسه في عقائد جميع الفرق التي ظهرت هناك ، لقد كان في منطقة الكوفة في العصر العباسي وبعده بقايا أتبـاع الديانة المانوية (الزندقة) وأهم منهم وأشهر أتباع المندعية الذين يعرفون باسـم صابئة العراق ، والذين ما تزال بقاياهم في العراق حتى يومنا هذا ، ولقد اعتاد سكان سواد الكوفة على التنظيمات الدينية خاصة السرية منها ، كما اعتادوا على الادب الديني المدون سيما الذي حوى علوم الباطن (الغنطوسية)[1] وما تعلق بشخصية المُخَلِّص (المهدي) والفداء •

ومع اعتماد هذه المعرفة والاستفادة منها يتوجب علينا العودة الى اللغة الارامية وهنا يترجح لدينا أن كلمة قرمط مشتقة من عبارة « قرم » الارامية أو السريانية ، فهي تعني أخفى وغطى وستر،وبذلك تقابل كلمة (باطنية)،وما تزال هذه العبارة تعني في السورية الدارجة « جذر » ويقابلها في سريانية معلولا « كرموتية » ولنتذكر أن القرامطة كانوا منتسبين الى حزب عقائدي ، ولم يشكلوا قط قبيلة ولم ينتسبوا الى جد أعلى اسمه قرمط انحدروا منه ، هذا ما نراه الان ونقدره ، لكن المؤرخ المسلم اعتاد أن ينسب الطوائف والجماعات حسب قواعد علم النسب لا عقائديا ، فقـد غلبت تسمية اسماعيليـة ــ نسبة الى اسماعيل بن جعفر الصادق ــ على باطنيـة وتعليمية وسبعية وسواها !•

ليس في التاريخ قرار حاسم أو رأي لا رجعة عنه ، والاراء قائمة على الاجتهاد، وباب الاجتهاد التاريخي مفتوح دائما ، والان : وبعد أن فرغنا من قضية التسميـة فلنلتفت نحو معرفة تاريخ ظهور هذه التسمية •

---

(١) انظر كتابي ماني والمانوية : ١٨ ــ ٣٨ . وينصح القارىء الكريم بالعودة الى كتاب «الصابئة المندائيون» تاليف الليدي دراوور ــ ترجمة عربية ــ ط بغداد: ١٩٦٩ .

يرتبط هذا الظهور ببداية الدعوة في سواد الكوفة ، وأقدم تاريخ قدمه محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله المعروف بالقرمطي بالمدينة سنة خمس المؤرخون هو « سنة احدى وستين ومائتين » حسبما جاء عند النديم في فهرسة[1] ، لكن اذا تذكرنا أن النشاط الاسماعيلي قد شهدته مناطق الكوفة قبل ما لا يقل عن قرن من هذا التاريخ ، يمكننا أن نتصور أن كلمة قرمطي قد استخدمت منذ تاريخ أبكر من سنة ٢٦١ هـ ، ففي أثناء عملي في كتاب الكامل في الضعفاء لابن عدي مر[2] معي في ترجمة عاصم بن عمر بن حفص بن عاصم الاسناد التالي : « ثنا صاعد ، ثنا محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله المعروف بالقرمطي بالمدينة سنة خمس وأربعين ومائتين » .

وقبل الانتقال نحو الحديث عن قرامطة العراق ثم قرامطة الشام ، فقرامطة اليمن ، وأخيرا ــ لكن ليس آخرا ــ قرامطة الاحساء والبحرين لا بد من سؤال : لماذا القرامطة وحدهم كفرع من فروع الاسماعيلية ــ أخذوا بمبدأ استعراض الناس؟

من الصعب اعطاء جواب مقنع موثق لهذا السؤال ، انما اذا تذكرنا وسبق تقريره في أن الاسماعيلية لم تكن حركة واحدة بل حركات ، وأنه كما حصل في تاريخ التشيع العام، حين انضوى العديد من الحركات المناوئة والمعارضة تحت لواء التشيع، عن ايمان واجتهادات ومطالب مختلفة أو للتمويه ، حصل الشيء ذاته في الاسماعيلية، اذا تذكرنا هذا سهل علينا الجواب .

لربما وجد عدد لا بأس به من الحركات المطالبة بالعدالة ، وذات الفكر « الراديكالي » القريب من الفكر الاسماعيلي ، ولشهرة الاسماعيلية وضخامة امكاناتها انضووا تحت لوائها،وليس من المستبعد أيضا أن الاسماعيلية أرادت تجربة العمل العسكري المحدود ، انما البالغ الشدة ، لتدرس ردات الفعل ، أو لتشغل خصومها ، في سبيل النجاح التام في مكان آخر ، واعتماد مثل هذه الطرائق أمر معقول لكن لا يمكن ضبط نتائجه ، فهو قد يقود الى التمزق وبالتالي التمرد على القيادة وعدم الاعتراف بشرعيتها ، واتهامها بالخروج على المبادىء والعقيدة ، وهذا ما حصل بالفعل في تاريخ العلاقات الاسماعيلية القرمطية ، وأخيرا يجب ألا ننسى أن الحزب الواحد قد يتمزق ويرمي أفراده بعضهم بعضا بأقسى التهم وأشنعها ، وقد

---

(١) الفهرس ــ ط . طهران : ٢٣٨ .

(٢) الكامل ــ مخطوطة الظاهرية ــ ص ٦٠٩ .

يحدث مثل هذا أثناء الاعداد للثورة ، ثم يتطور بعد الوصول الى السلطة ، فالملك عقوق عقيم ، والانسان في السلطة هو غيره في الواقع النظري ، ومقتضيات السياسة تتباين عن مقتضيات المبادىء والمثل ، وها نحن الان في أيامنا هـذه أمامنا صورة الصراعات بين الانظمة العربية ، وصورة الاحزاب الشيوعية في العالم ، نسمع كل يوم أخبار ما يجري بين العملاقين الشيوعيين الاعظمين : الاتحاد السوفييتي والصين الشعبية ـ ألا يرى كل منهما أن الخطر المحدق به آت من قبل رفاقه ؟، أو لم يقم ـ وما زال قائما ـ تفاهم متبادل بين الصين الشيوعية من جهة وأمريكا الرأسمالية من جهة ثانية للوقوف ضد الاتحاد السوفييتي ؟•

قرامطة العـراق :

مرّ تاريخ قرامطة العراق بمرحلتين رئيستين كان بينهما توقف حدث خلالـه نشاط قرامطة الشام ، والحديث عن قرامطة العراق يجب أن يتقدمـه أولا وصف لأوضاع العراق ، وبما أن العراق كان دار الخلافة العباسية ومقرهـا ، فالحديث سيتناول أوضاع الخلافة العباسية أولا ومن ثم أوضاع العراق •

لقد جرى عرض شيء من هذا القبيل فيما مضى ، لكن ما تقدم لا يكفي ، لهذا نعاود البحث للايضاح مع تجنب التكرار :

وصل العباسيون الى السلطة نتيجة ثورة جرى الاعداد لها بشكل منظم،ومرت الدعوة بمرحلتين أساسيتين : ما قبل ابراهيم الامام ثم ما جاء اثر ذلك ، فقد كان قوام الدعوة قبل ابراهيم الامام : الدعاة وبيت الامامة ، ونشط الدعاة في خراسان وانتمى غالبيتهم الى طائفة دهاقين ايران وخراسان ، واستقر بيت الامامة في الحميمة على مقربة من البحر الميت في الشام ، وعمد ابراهيم الامام لدى تسلمه للقيادة الى تكليف أبي مسلم الخراساني بالذهاب الى خراسان ليتولى التفجير العسكري وقيادة قوات الثورة ، وكان من معاني هذا التكليف أن الدعوة العباسية باتت الآن قائمة على ثلاثة مرتكزات هي : الامامة ، الدعاة ، جيش الثورة ، ولنتذكر في هذا المقام أن العمل الدعوي سبق تولي العباسيين له كقادة ، وأن الجيش ولد بمبادرة مـن الامامة لا من الدعاة ، وأعلنت الثورة وحققت انتصاراتها الكبرى دون أن يكون

للامامة أي دور يذكر،بل قام بمسؤولية العمل جيش الثورة بقيادة أبي مسلم الخراساني، والدعاة بقيادة داعي الدعاة أبي سلمة الخلال ، واثر الاستيلاء على الكوفة أطلق أبو سلمة الخلال على نفسه لقب وزير آل محمد ، وهكذا ولدت مؤسسة جديدة في تاريخ الاسلام هي مؤسسة الوزارة ، وباشر الخلال السلطة بكل حدودها ومعانيها، ولدى شعوره بضرورة الاعلان عن اسم خليفة جديد، وجد نفسه في حل من الارتباط بالعباسيين ، لعدم اسهامهم بالثورة ، وعرض منصب الخلافة على زعيمي بيتي الحسن والحسين ابني علي بن أبي طالب ، فلم يحصل نتيجة ، وكان للجيش رأي آخر في الموضوع ، لهذا ضغط على أبي سلمة لمبايعة واحد من اخوة ابراهيم الامام الذين التجؤوا اثر مقتله الى الكوفة ، وأذعن الخلال وهكذا بويع لابي العباس السفاح .

ولم يغفر العباسيون للخلال ما أقدم عليه ، وأرادوا منذ اللحظة الاولى أن يباشروا الحكم بأنفسهم ، مما عنى تجريد الخلال والدعاة من صلاحياتهم ولم يكن من السهل الوصول الى هـذا سلما ، فسافر أبو جعفر المنصور أخو الخليفة الى خراسان واجتمع بأبي مسلم الخراساني وبحث الامر معه ، فتقرر احداث انقلاب ضد الدعوة والدعاة (الحزب) وبعث أبو مسلم بعدد من جنوده الى الكوفة فأقدموا على قتل الخلال في وضح النهار ، وهكذا تمكن الخليفة العباسي من مباشرة السلطة، لكنه وجد نفسه مضطرا الى اختيار وزير ؛ وطبعا جاء الاختيار من بين شخصيات الدعاة ؛ ومن جديد حاول الوزير الانفراد بالسلطة ، فقام صراع مع الخلافة ، ومن يستعرض تاريخ بني العباس في قرنه الاول يلاحظ أن غالبية الوزراء جرى قتلهم في ذروة القوة والسيطرة ، وأكبر مثل على هذا مصرع البرامكة ، وخلاصة الامر أن الحكم في الخلافة العباسية وان اعتمد على ثلاث مؤسسات هي : الخلافة والوزارة والجيش،لم تحكم الخلافة فيه من خلال التوازن والتنافس والصراع بين المؤسستين: المدنية والعسكرية ، بل شذت عن القاعدة ، وقام الحكم على الصراع بين الامامة والوزارة ، أي بين مؤسستين مدنيتين ، وطبعا كان الجيش هو المستفيد ، ونظرا للسياسة الدينية التي اعتمدها العباسيون، ولادعائهم أنهم جمعوا بين الخلافة والامامة، فان الجيش استفاد على حساب الوزارة والخلافة، لكن دون المساس بجوهر الامامة، وسعى الجيش الى التدخل بالسلطة ، ووضح هذا المسعى في أواخر عصر المعتصم

وفي أيام خليفته الواثق ، وحاول المتوكل الذي جاء بعد الواثق التخلص من سلطان الجيش ، فتخلص الجيش منه وقتله سنة [٢٤٧ هـ / ٨٦١ م] واستولى على مقاليد الامور(١)

على هذا مر التاريخ العباسي بطورين رئيسين : طور أول ، حكم فيه الخلفاء، وطور ثان حكم فيه الجند ، وبعدما تدخل الجند بالسياسة واستلموا مقاليد الأمور دخلت السياسة الى الجيش، وتغلغلت بين صفوف الجند، وحدث أن تضخم الجيش، وضم عددا من الاسلحة من : مشاة ، وفرسان نبالة ، وفرسان حملة رماح ، ومشاة رماة وحملة رماح ، وجاء رجال كل سلاح من هذه الاسلحة من احدى أمم الدولة ، ولذلك كان ما حدث بعدما استلم الجند مقاليد السلطة أن قام صراع بين فئات الجيش ، وغذى هذا الصراع رجال السياسة والمطامع وعناصر الاسلحة ، لذلك تميز طور تحكم الجند بعدم الاستقرار ، وكثرة الفتن ، وتبديل الخلفاء ، مما كان له أبعد الاثار على بنية الدولة داخليا وخارجيا من كافة الجوانب .

---

(١) اخبار العباس : ١٦٠ ـ ٢٧٦ . الفتوح : ٢/٢١٨ و ـ ٢٢٨ و . الطبري : ٧/٤٩ ـ ٥١ ، ٣٥٣ ـ ٤٥٧ . تاريخ الموصل : ١٠٦ ـ ١٦٧ . تاريخ خليفة : ٥٦٤ ـ ٦٠٨ .الاخبار الطوال : ٣٦٠ ـ ٣٧٠. اليعقوبي : ٣٢٨ ـ ٣٤٩. مروج الذهب : ٣/٢٥٢ ـ ٢٦٦. مسائل الامامة للناشيء الاكبر : ٢٦ ـ ٣٦ . تاريخ الخلفاء : ٤٧٥ ـ ٥٩٧ . العيون والحدائق : ٣/١٥٧ ـ ٢١٣ . الكامل : ٤/٢٠٠ ـ ٣٣٠. الفخري : ١١٣ ـ ١٢٠ . ابن كثير : ١٠/٢٥ ـ ٥٥ . السيوطي : ٢٥٤ ـ ٢٥٩. الذهب المسبوك : ٤٨ ـ ٥٩. ابن العبري : ١١٧ ـ ١٢٠. ابن خلدون: ٣/٢٥١ ـ ٢٧٩ . فلهوزن : ٤٥٥ ـ ٥٢٨. العرب في التاريخ : ١١٣. دولة بني العباس: ١/٩١ ـ ١٨٩ .

Combridge Medie Val His Tory, IV, 639 - 641

اوقف عدد من الباحثين المعاصرين اطروحاتهم لمعالجة الثورة العباسية . من هؤلاء : M.A. Shaban الذي كتب بالانكليزية كتابا دعاه (الثورة العباسية) The Abbasid Caliphate 750 - 786 ولم يعالج شعبان في هذا الكتاب مسألة الثورة والاعداد لها ، بل اوقف كتابه على دراسة أحوال خراسان في العصر الاموي . وقام فاروق عمر بدراسة الثورة العباسية باطروحته التي دعاها :

The Abbasid Caliphate 750 - 786

ثم قام بعد ذلك باعادة كتابة هذه الاطروحة مع شيء من التوسع في كتب ثلاثة دعاها : طبيعة الدعوة العباسية، والعباسيون الاوائل ، وقد جاء الاخير في مجلدين.

وكانت الخلافة العباسية منذ يوم قيامها قد أخفقت في المحافظة على وحدة ديار المسلمين والسيطرة على جميع ما كان تابعا للدولة الاموية ، وعانت هذه الخلافة حتى في طور حكم الخلفاء من النزعات الاستقلالية والثورات الانفصالية ، وهكذا رأينا ظهور دولة الاغالبة في افريقية ، ودولة الادارسة ، والدولة الرستمية ودولة سجلماسة في المغربين الاوسط والاقصى ، وظهور الدولة الطاهرية في خراسان ، وقويت النزعات الاستقلالية بعد تحكم الجند بالخلافة ، وظهرت الى الوجود أسر وقوى محلية استقلت بالاطراف ثم توسعت نحو الداخل ، كما أن بعض قادة الترك الذين أخفقوا في بغداد اتجهوا نحو مصر من الامصار للاستقلال به ، وهكذا تقلصت مع الايام رقعة دولة الخلافة حتى باتت مقتصرة على العراق أو أجزاء منه فقط ، وكان من معاني ذلك تناقص موارد الخلافة بشكل شديد جدا ، وترافق هذا التناقص مع ازدياد الطلب على المال لنفقات دار الخلافة وأهم من هذا لشراء المزيد من الغلمان الترك لسد حاجة الجيش ، وللانفاق على كبار القادة والموظفين ، ولسداد نفقات الانقلابات ، وقد قاد عدم الاستقرار الى تدمير الموارد ، وعندما حدث هذا كله كانت العراق تجتاز مرحلة اقتصادية « زراعية وحرفية وتجارية » متميزة ، فالاموال كانت قد تكدست في بعض البيوتات ، والاراضي الزراعية آلت ملكيتها الى كبار من الملاك ، وبالنظر الى حاجة السلطة الدائمة الى المال لجأت الى زيادة الضرائب لا بل مضاعفتها ، ولجأت في كثير من الاحيان اثر كل انقلاب أو تغير سياسي الى أعمال المصادرة والتصفية ، وأهم من هذا ، تحالف كبار التجار وملاك الاراضي مع قادة الجند ورجال السلطة وأمدوهم بالمال ، لكن بعدما سخروا وسائط وطاقات الدولة لحسابهم ولمنفعتهم ، وهكذا لحق البلاء ونزل الظلم بالفلاحين والحرفيين ، وهرب كثير من الفلاحين من قراهم ، وأقبل كبار الملاك على استخدام الرقيق الاسود من زنوج افريقيا وزنوج (زط) الهند في مزارعهم خاصة في منطقة البصرة وأراضي المستنقعات في جنوبي العراق .

وعاش هؤلاء الرقيق في حالات متردية وقاسية جدا ، وهكذا توفرت بين صفوفهم أجواء الاستعداد الثوري والتمرد على السلطان ، فتوجهت أنظار الحركات المعارضة نحوهم تحاول استغلالهم حاملة اليهم برامج اصلاحية اقتصادية واجتماعية ، واتسمت هذه الحركات بالسمة الشيعية المزيجة أو شبه الواضحة، كما سنرى بالنسبة

لما حدث في سواد الكوفة ، فكان أن قامت ثورة الزنج ، وقد تزعم هذه الثورة رجل قيل كان اسمه علي بن محمد ، ادعى النسب العلوي وطعن في نسبه ، فالطبري يقول أنه كان من عبد القيس القبيلة العربية وغيره يقول انه من أصل ايراني ، وقد بدأت تحركات صاحب الزنج قبيل عام ٢٥٤ هـ/٨٦٨ م ، وجرى الاعلان عن الثورة في ٢٦ رمضان سنة ٢٥٥ هـ/١٨ ايلول ٨٦٩ م ، وحققت الثورة انتصارات واسعة ، واستمرت حتى سنة ٢٧٠ هـ/٨٨٣ م ، ويلاحظ من أخبار وقائعها أن رجالاتها استهدفوا الانتقام لا الاصلاح ، والانقلاب الاجتماعي لا التقويم ، وأن قائدها لم يستطع أن يحرر ذاته من مسألة فكرة الزعامة القرشية ، الامر الذي سيفلح فيه بعض القرامطة ، يضاف الى هذا أن أطر الثورة كانت محلية محدودة ولم تكن لديها تطلعات شاملة ، ومن هنا نفهم رفض صاحب الزنج التنسيق مع الحركة القرمطية حين عرض عليه ذلك، ومع ذلك ان دراسة هذه الثورة[1] تسهل على الباحث تصور ماكان عليه حال الفلاحين والسواد الاعظم من سكان العراق لا بل سكان معظم بلدان العالم الاسلامي ، ويمكن أن نجد بعض الصور المعبرة لا في حوادث العنف فقط بل في ثنايا كتب الادب وبعض عناوين مصنفات ذلك العصر ، مثل : الفرج بعد الشدة ، والمكافأة وحسن العقبى وغير ذلك ، ولعل من أصدق الصور المعبرة عن أحوال الناس قول الشاعر :

تلوم عليَّ تـرك الصلاة حليلتـي	فقلت اغربي عـن ناظري أنت طالق
فوالله لا صليت لله مفلسـا	يصلي لـه الشيخ الجليـل وفائق
وتـاش وبكتاش وكنباش بعـده	ونصر مـن ملك والشيوخ البطارق
وصاحب جيش المشرقين الذي لـه	سراديب مـال حشوهـا متضايق
ولا عجب إن كـان نـوح مصليـا	لأن لـه قسراً تدين المشارق
لمـاذا أصلي أيـن باعـي ومنزلي	وأيـن خيولـي والحلـى والمناطق
وأيـن عبيدي كالبـدور وجوههم	وأيـن جواري الحسان العواتـق

(١) تاريخ اليعقوبي : ٢/٥٠٧ ـ ٥١١.الطبري : ٩/٤٣١ ـ ٦٦١.العيون والحدائق: ٤/١٩٤ ـ ١٩٥ . الكامل لابن الاثير : ٦/٧ ـ ٥١ .

أصلـي ولا فتر من الارض يحتوي — عليـه يميـنـي انـنـي لمنافـق
تركت صلاتي للذيـن ذكرتهم — فمن عـاب فعلي فهو أحمق مائـق
بلـى ان عليّ الله وسـع لـم أزل — أصلي لـه ما لاح في الجـو بارق
فـان صـلاة السيء الحـال كلها — مخـارق ليست تحتهن حقائـق(١)

امتد عصر تحكم الترك بالخلافة من سنة ٢٤٧ هـ الى ٣٣٤ هـ [٨٦١/٩٤٦ م] وقد تولى الخلافة خلاله اثنا عشر خليفة هم : المنتصر ، المستعين ، المعتز ، المهتدي ، المعتمد ، المعتضد ، المكتفي ، المقتدر ، القاهر ، الراضي ، المتقي ، المستكفي ، والفترة المميزة في تاريخ هؤلاء الخلفاء هي التي بدأت مع خلافة المعتمد سنة ٢٥٦ هـ/٨٧٠م وحتى نهاية أيام المكتفي سنة ٢٩٥ هـ/٩٠٨ م ، ويعود الفضل في تميز هذه الفترة أنه تسلم قيادة الجيش أيام المعتمد أمير عباسي فتحكم هو بالخلافة ، وأعاد اليهـا بعض رونقها ، وهذا الامير هو أبو أحمد الموفق أخو المعتمد ، والموفق هو الذي صد عن دار الخلافة القوى الطامعة، وقضى على ثورة الزنج، وفرض ابنه وليا للعهد، حيث سيلي الخلافة بلقب المعتضد .

وكان المعتضد مثل أبيه ، تأثر به وسار على خطاه ، وكان قائدا شجاعا ، واداريا ناجحا حاول ايجاد حلول لبعض مشاكل الشعب وانهاء التذمر والفوضى والاستغلال، وخلفه في سنة ٢٨٩ هـ/٩٠٢ م ولده المكتفي ، فاقتدى به ، لكنه كان يفتقر الـى حزمه وشدته ، ولهذا عاد القادة الترك في أيامه الى التسلط على الخلافة(٢) .

في فترة الانتعاش السياسي هذه بدأت حركة قرامطة العراق ، في سواد الكوفة، عندما كانت أنظار رجالات العباسيين مشدودة نحو سواد البصرة حيث ثورة الزنج، وتتفق غالبية الروايات على أن أول الدعاة الذين نشطوا في سواد الكوفة كان اسمه

---

(١) يتيمة الدهر : ١٥٧/٤ ــ ١٥٨ . المحمدون من الشعراء : ٢٤ ــ ٢٥ .
(٢) الطبري : ٤٣٨/٩ ــ ٦٦٧ ، ٧/١٠ ــ ١٣٩ . اليعقوبي : ٥٠٧/٢ ــ ٥١١ . مروج الذهب : ١٩٩/٤ ــ ٢٩١ . العيون والحدائق : ١/٤ ــ ١٢٩ . الفخري : ٢٠١ ــ ٢١١ . الكامل : ٢٥٠/٥ ــ ٣٦٧ ، ٢/٦ ــ ١١٨ . الذهب المسبوك : ٢٣٣ ــ ٢٣٧ . ابن كثير : ٢٢/١١ ــ ١٠٤ . كتاب فاروق عمر الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية : ٧٩ ــ ٨٦ .

الحسين الاهوازي ، وأنه أرسل من قبل عبد الله بن ميمون بن القداح ، أو من قبل الامام عبد الله بن محمد المكتوم ، ومن المرجح أنه جاء مرسلا من السلمية بعد الاستقرار فيها ، ومعنى هذا أنه قدم أيام الامام أحمد ابن وخليفة الامام عبد الله بن محمد المكتوم ، ويستدل مما ذكره الداعي المطلق ادريس القرشي أن الدعوة الاسماعيلية شهدت في عهد الامام أحمد بن عبد الله هذا ، نشاطا ثقافيا ودعويا بارزا حيث قال : « وقويت الدعوة أيام الامام أحمد بن عبد الله عليه السلام ، واشتهرت وأعلن بها الدعاة فظهرت ، ولم يعرف صاحبها الذي الدعوة اليه ، وامام أهلها الذين يعولون عليه ، والجبابرة العباسية على الارض متغلبون ، وبقطع العترة النبوية مطالبون ».

وكان الامام أحمد بن عبد الله ينتقل تحت الستر والتقية ، تارة الى الكوفة والديلم ، وتارة الى سلمية ، وتارة الى عسكر مكرم (خوزستان) يظهر بزي التجار ، ويخفي فضله ، فلا يعرفه الا الاخيار »[١] ، هذا وسبقت الاشارة في الفصل السابق الى الداعية القرمطي الكبير عبدان والى اشاراته في كتابه شجرة اليقين الى الامام أحمد باسم « الحكيم الصادق »[٢] .

كان أول من قابله الاهوازي في سواد الكوفة حمدان بن الاشعث ، ويبدو أن المقابلة لم تأخذ عامل الصدفة كما توحي الروايات المبكرة ، ذلك أن حمدان كان كما يقول الغزالي « مائلا الى الزهد والديانة » أي أنه كان لديه الاستعداد والمؤهلات لتحمل العمل الدعوي الاسماعيلي ، ودليل آخر على هذا سرعة تقبله لما دعي اليه ، وتسلمه العمل الدعوي وقيامه بتنظيم هذا العمل خير قيام وأحسنه ، ولهذا كله كان أول من حمل لقب قرمط أي باطني أو اسماعيلي .

وأهم ما يثير الانتباه في قيام العمل الدعوي في سواد الكوفة هو الصبغة الاجتماعية والاقتصادية الاصلاحية ، وهذا أمر طبيعي ، فهو مطلب ذلك العصر ، في سبيله قامت ثورة الزنج ، انما كانت هنالك فوارق بين ما طرحه صاحب الزنج وبين ما دعا اليه دعاة الاسماعيلية ، كما أن العمل التنظيمي قد تباين لديهما :

---

(١) عيون الاخبار : ٣٦٥/٤ ــ ٣٩٤ . اخبار القرامطة : ٣٠٨ .
(٢) شجرة اليقين : ٢٨ ، ٥٥ .

روى الامام الغزالي أن حمدان بن الاشعث سأل الحسين الاهوازي حين التقيا : « وما غرضك في البقعة التي أنت متوجه اليها ؟ قال : أمرت أن أدعو أهلها من الجهل الى العلم ، ومن الضلال الى الهدى ، ومن الشقاوة الى السعادة ، وأن أستنقذهم من ورطات الذل والفقر، وأملكهم ما يستغنون به عن الكد والتعب »[1].

وجاءت رواية المقريزي حول الموضوع ذاته : « قال حمدان : فما تريد في القرية التي سألتني عنها ؟ قال : دفع الي جراب فيه علم وسر من أسرار الله ، وأمرت أن أشفي هذه القرية : وأغني أهلها ، وأستنقذهم ، وأملكهم أملاك أصحابهم »[2].

تحتوي كلمات الاهوازي هذه على أفكار الاسماعيلية الاساسية في الدعوة الى تعلم علوم الباطن والى معرفة الامام والايمان به ، وذلك بالاضافة الى فكرة جديدة تضمنت طرحا اجتماعيا واقتصاديا ، وهو ما يهم الباحث في أيامنا هذه .

ونجح الاهوازي في عمله ، وقد أثار نشاطه انتباه السلطات المحلية وأصحاب الاراضي ، ولعله أودع السجن وفر منه ، ويرجح أنه استمر في عمله ونشاطه حتى وفاته ، وكان عندما حضرته الوفاة قد « عهد الى حمدان بن الاشعث قرمط وأقامه مقامه » .

ودخلت الدعوة في ظل قيادة حمدان مرحلة جديدة حاسمة ، حيث تضاعف عدد الذين آمنوا بدعوته أو التحقوا بها ، وذلك بعد ما بث دعاته ، وكان من بين هؤلاء الدعاة : جلندي الرازي ، وعكرمة البابلي ، واسحق البوراني ، ومهرويه بن زكرويه السلماني ، وعبدان الاهوازي ، وكان عبدان أبرز الدعاة نشاطا ومكانة ، كما وكان أكبرهم وأكثرهم علما وقد ربطته بحمدان قرمط رابطة المصاهرة[3] .

وأقدم قرمط على تنظيم المؤمنين بدعوته تنظيما اجتماعيا واقتصاديا ، وذلك بشكل تدريجي ، فقد فرض أولا على « كل واحد من الرجال والنساء والصبيان » دفع مبلغ درهم ، ودعا ذلك باسم « الفطرة » ثم ما لبث أن فرض على البالغين دفع

---

(1) فضائح الباطنية : ١٢ ـ ١٣ . انظر ايضا الطبري : ١٠/٢٣ ـ ٢٥ . اخبار القرامطة : ٩٠٦ .
(2) أخبار القرامطة : ٣٩٣ ـ ٣٩٤ .
(3) المصدر السابق : ٣٢٩ ـ ٣٩٥ .

مبلغ دينار ، ودعـا ذلك باسم « الهجرة » وسارع القرامطـة الى دفع ذلك اليـه « وتعاونوا عليه ، حتى أن من كان منهم فقيرا أسعفوه » ثم فرض عليهم دفع سبعة دنانير ، ودعا ذلك باسم « البلغة » وبعد ذلك فرض على كل واحد دفع خمس دخله، وعندما تحقق له هذا كله بادر الى اتخاذ خطوة خطيرة وجديدة من نوعها ، وذلك بأن أمر بالغاء الملكية الخاصة وأحل محلها الملكية الجماعية العامة ، ودعا ذلك باسم الألفة « وهي أنهم يجمعون أموالهم في موضع واحد ، وأن يكونوا فيه أسوة واحدة لا يفضل أحد من أصحابه على صاحبه ولا أخيه في ملك يملكه البته ••• وقال لهم : لا حاجة بكم الى الاموال فان الارض بأسرها ستكون لكم دون غيركم ••• وأقام في كل قرية رجلا مختارا من الثقات ، فجمع عنده أموال قريته من : غنم ، وبقر ، وحلي ، ومتاع ، وغير ذلك ، فكان يكسو عاريهم ، وينفق عليهم ما يكفيهم ، حتى لم يبق بينهم فقير ولا محتاج ، وأخذ كل رجل منهم بالانكماش في صناعته والكسب بجهده ، ليكون له الفضل في رتبته : وجمعت اليه المرأة كسبها من مغزلها ، وأدى اليه الصبي أجرة نطارته وحراسته ونحوه ، ولم يبق في ملك أحد منهم غير سيفه وسلاحه لا غير » •

لا شك أن هذا الاجراء كان الاول من نوعه في تاريخ الاسلام ، وكان حمدان يدرك مخاطره وردات الفعل ضده اسماعيليا وعباسيا ، ذلك أن الدعاة قبل حمدان كانوا يجمعون الاموال من أتباعهم لترسل الى الامام ، أما الان فانها صرفت في سبيل هؤلاء الاتباع ، ويبدو أن خلافا ما قد حدث بـين حمدان والقيادة الاسماعيليـة والدليل على هذا أن حمدان أعلن عن قيامة صغرى ، ومثل هذا الاجراء قد حدث في تاريخ القرامطة في اليمن والاحساء وجاء بمثابة تمرد على القيادة الاسماعيلية كما سنرى، يضاف الى هذا ما آل اليه أمر حمدان ومعه ختنه الداعي عبدان مجهول بالنسبة لنا لا تحوي المصادر شيئا واضحا أو يقينا عنه ، بل الذي تحويه ـ وهذا ما سنبحثه ـ أخبار قيام صراع بين آل زكرويه بن مهرويه وامامة السلمية ، كما أن هذا الصراع سيقوم مع قرامطة الاحساء والبحرين الذين أسس دعوتهم أبو سعيد الجنابي ، وهو من دعاة حمدان وتلاميذ عبدان ، وقد نفذ برنامجا اقتصاديا يشبه الذي سبق وصفه، ومثل هذا البرنامج لم نجده الا لديهما ، فالخلافة الفاطمية عندما قامت سارت على طريق بقية دول الاسلام ، لا بل شهرت بكثرة ضرائبها وبسياساتها المالية الثقيلـة المتشددة في الجباية الى حد العسف •

وفي الوقت نفسه كـان حمدان قرمط يدرك أن ردة فعل الخلافة العباسية ستكون ضده عنيفة مثلما كان الحال ضد الزنج ، ولهذا ألزم أتباعه منذ عام « سنة وسبعين ومائتين » بشراء السلاح ، كما عمل على بناء دار هجرة « في قرية تعرف بمهتماباذ » ، « في طسوج الفرات من ضياع السلطان المعروفة بالقاسميات » ، وقد حصنت هذه القرية بشكل جيد حيث بنى القرامطة « حولها سورا منيعا عرضه ثمانية أذرع ، ومن ورائه خندق عظيم ، وفرغوا من ذلك في أسرع وقت ، وبنو فيها البناء العظيم ، وانتقل اليها الرجال والنساء من كل مكان »[1] ويرجح أن هذا كان سنة ٢٧٧ هـ/٨٩٠ م ، فقد ذكر صاحب العيون والحدائق في أخبار هذه السنة أن قوما قدموا « من الكوفة ، ورفعوا الى السلطان أمر القرامطة وأنهم قد أحدثوا دينا غير الاسلام ، وأنهم يرون السيف على أمة محمد ﷺ الا من بايعهم على دينهم »[2] ، « فلم يلتفت اليهم ولم يسمع منهم »[3] .

لقد مضى على نشاط القرامطة في سواد الكوفة حتى الآن قرابة العقدين من الزمن والخلافة في بغداد غافلة عن ذلك غير مهتمة به ، الى حد أنها عندما شكي اليها من هذا النشاط لم تعبأ ولم تصغ للشكوى والشكاة ، وهذا الامر ان بعث على الدهشة فيه دلالة واضحة على أحوال ادارة الخلافة ، وعلل المقريزي الامر فقال : « وكان الذي أعانهم على ذلك تشاغل الخليفة بفتنة الخوارج ، وصاحب الزنج بالبصرة ، وقصر يد السلطان ، وخراب العراق ، وتركه لتدبيره ، وركوب الاعراب واللصوص بعد السبعين ومائتين بالقفر ، وتلاف الرجال ، وفساد البلدان »[4] .

ليس في المصادر المتوفرة ما يشير الى اقدام السلطات العباسية في بغداد على نشاط حربي ضد حمدان وقرامطته في سواد الكوفة ، بل الذي نلاحظه اهمال لأخبارهم وتركيز للانتباه على ظهور قرامطة الاحساء والبحرين بزعامة أبي سعيد وعلى قيام حركة قرامطة الشام ، واستقطب نشاط قرامطة الشام ــ كما سنرى ــ

(١) اخبار القرامطة : ٣٣٢ ــ ٣٣٣ ، ٣٩٧ ــ ٣٩٨ . الفهرس للنديم : ٢٣٨ ــ ٢٤٠ . قرامطة العراق : ٦١ ــ ٦٥ . القرامطة لدى خويه : ٣٣ ــ ٣٧ .
(٢) العيون والحدائق : ٦٩/١/٤ ــ ٧٠ .
(٣) الطبري : ٢٥/١٠ . اخبار القرامطة : ٩ .
(٤) اخبار القرامطة : ٣٣٢ .

حول شخصيتين قيل كانا أخوين شهرا باسم صاحب الجمل ثم صاحب الخال ، وكلاهما ادعى الانتساب الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، لكن غالبية المصادر من سنية واسماعيلية تقول بأنهما كانا من أولاد الداعية زكرويه بن مهرويه ، وتتحدث المصادر الاسماعيلية عن خلاف قام بين امامة السلمية وبين أولاد زكرويه ، وأن هؤلاء قتلوا زوج أختهم[١]،وحين نعود الى روايات المقريزي حول حمدان قرمط نراه يذكر من بين دعاته رجلا اسمه مهرويه بن زكرويه السلماني ، كما أنه ذكر عبدان وركز حديثه حول أهميته ومكانته وأوحى بما يفيد أن عبدان اختص بمناطق دعوية ، وكان يتبعه عدد من الدعاة منهم : الحسن بن أيمن ، والبوراني والوليد ، وأبي الفوارس ، وزكرويه بن مهرويه ، وبين المقريزي أن زكرويه هذا كان أهم دعاة حمدان حيث « كان شابا ذكيا فطنا من قرية بسواد الكوفة على نهر هد ، فنصبه عبدان على اقليم نهر هد وما والاه ، ومن قبله دعاة جماعة متفرقون في عمله »[٢] ، وبناء عليه لا علاقة بين مهرويه بن زكرويه وبين زكرويه بن مهرويه ، فأولهما تبع حمدان وثانيهما كان من دعاة عبدان .

لا ندري ما الذي حدث بالتأكيد لعبدان وحمدان ، لعلهما ماتا بشكل طبيعي أو قتلا ؟ المهم بالامر أن الدعوة في سواد الكوفة آلت الى زكرويه بن مهرويه ، وأن زكرويه اضطر الى التخفي ، ولعله أشيع أنه مات ، لذلك قام بأمر الدعوة من بعده أولاده ، ولعلهم كانوا ثلاثة ، وهؤلاء هم الذين اصطدموا ببيت امامة السلمية،واثنان منهما قادا على التوالي قرامطة الشام[٣] .

يبدو أن أعمال التغيير في دعوة سواد الكوفة لم تكن سلمية البته ، لذلك اتخذت الامامة اجراءات قضت بعزل أولاد زكرويه عن الدعوة في الكوفة ، وكان أكبر أولاد زكرويه واسمه أبو القاسم محمد هو الذي حل محل أبيه،وتلاه في المكانة أخوه أبو العباس أحمد ، ويبدو أن أبا القاسم احتج لامام السلمية على عزله عن دعوة سواد الكوفة ، وزار مع أخوته الشام ، ومكثوا بين السلمية وحماه فترة من

(١) اخبار القرامطة : ١١٧ .
(٢) اخبار القرامطة : ٣٢٩ .
(٣) اخبار القرامطة : ١١٧ ـ ١١٨ ، ٣٢٩ .

الزمن ، وحين لم يتم التوصل الى تسوية توجه أبو القاسم محمد نحو منطقة دمشق، ففجر ثورة قرامطة الشام .

ان نشاط قرامطة الشام سيتم بحثه فيما بعد ، المهم أنه قد أنزلت ضربة ماحقة بهؤلاء القرامطة سنة ٢٩٣ هـ/٩٠٦ م ، أجبرت زكرويه على مباشرة النشاط وتوجيه الدعوة بنفسه ، وكان زكرويه قبل ذلك « مختبئا في سرداب عليه باب حديد ، وكان للقرامطة تنور ينقلونه ، فاذا جاءهم الطلب وضعوا التنور على باب السرداب وقامت امرأة تسجره »(١) .

وحاول زكرويه أولا النشاط في منطقة دمشق فأخفق فنقل النشاط الى بادية السماوة ووضع خطة محكمة للاستيلاء على مدينة الكوفة ، وقضت الخطة بمفاجأة الكوفة صباح يوم عيد الاضحى ، والناس غارون قد خرجوا الى المصلى في ظاهر المدينة ، وهوجمت الكوفة وتمكن من الدخول اليها حوالي مائة فارس من القرامطة، لكن أهل الكوفة تصدوا لهم ، وجمع والي الكوفة شتات قواته وهكذا أمكن مقاومة الهجوم القرمطي وصده(٢) .

ولم يفت هذا الاخفاق بعضد زكرويه وقرامطته وشرع بمهاجمة قوافل الحجاج والبطش بها ونهبها،وقد أجبر نشاطه هذا الخليفة المكتفي العباسي على حشد ماأمكنه من قوات وجهها ضده ، وتمكنت القوات العباسية من انزال ضربة حاسمة بالقرامطة، فقتلت عددا كبيرا منهم وأسرت أعدادا أكبر ، وقد أصيب زكرويه أثناء القتال بجراحات مميتة ففقد حياته اثر ذلك ، وكان ذلك سنة ٢٩٤ هـ/٩٠٧ م ، وبمقتل زكرويه انطفئت نائرة قرامطة الكوفة ، وطويت صفحة أخبارهم ، والمثير للدهشة اقتصار نشاط زكرويه على سواد الكوفة وعدم مده لهذا النشاط الى مناطق أخرى مثل البصرة ؟.

من الملاحظ بشكل عام أن القرامطة جميعا نشطوا في الاطراف ، واعتمدوا دائما على القوى البدوية ، ولم يتوفر أدنى تعاون بين مجموعاتهم ، ولهذا جاء تأثيرهم

---

(١) الطبري : ١٠/١٢٧ ـ ١٢٨ .

(٢) الطبري : ١٠/١٢٤ ـ ١٢٥ . اخبار القرامطة : ٢٨ ـ ٣٠ .

(٣) الطبري : ١٠/١٣٣ ـ ١٣٥ . اخبار القرامطة : ٣٠ ـ ٣٥ .

هامشيا ، سريع الزوال منعدم التأثير الدائم والعميق مثله مثل طباع البداة في الولاء السياسي •

وكانت البصرة منطقة نفوذ ونشاط لقرامطة الاحساء والبحرين ولهذا لم يقربها زكرويه وأتباعه ، هذا وان انعدام التعاون والتنسيق بين مجموعات القرامطة في الشام والعراق والاحساء واليمن يجعلنا نقول : شكل القرامطة حركات لا حركة واحدة ، ولا بد أن من معاني هذا التباين في الخطط والاهداف والاساليب والغايات، فزكرويه وقرامطة الشام وقرامطة اليمن على خلاف قرامطة حمدان بن الاشعث وقرامطة الاحساء والبحرين لا تلحظ في أخبارهم أية برامج اصلاحية اجتماعية أو اقتصادية ، وقبل التعرض لاخبار قرامطة الاحساء والبحرين نلتفت عائدين أولا نحو قرامطة الشام •

قرامطة الشام :

يقضي البحث في قرامطة الشام وقفة أولية مع أوضاع بلاد الشام وما تميزت به:
بلاد الشام عند الجغرافيين العرب هي صقع واسع يحده من الشرق سقى الفرات ، ومن الغرب البحر المتوسط ، ومن الجنوب البحر الاحمر وعريش مصر ، ومن الشمال الثغور مع بيزنطة التي تتوغل بعيدا حتى ما بعد سفوح جبال طوروس الشمالية ، وقد جعل العرب المسلمون بعد فتحهم للشام هذه البلاد أربعة أجزاء أو مناطق عسكرية أطلق على كل منها اسم جند ، وغدا عدد هذه المناطق في عهد يزيد بن معاوية بن أبي سفيان خمسا وهي : جند فلسطين ، وجند الاردن ، وجند الشام ، وجند حمص ، وجند قنسرين ، وقد عمّر هذا التقسيم فترة قصيرة ، واستمر وجوده نظريا فقط •

وكانت بلاد الشام ـ وما زالت ـ من أقدم البلدان التي ارتبط تاريخها بالعرب والعروبة ، ففي الشام قامت أقدم الدول العربية ، والى هذه البلاد هاجرت القبائل العربية من شبه جزيرة العرب بشكل لم يتوقف ، وكان في الشام قبل قيام الفتوحات الاسلامية العديد من القبائل العربية ، كان أكثرها ـ تبعا لروايات النسابين العرب ـ منحدرا من أصل يماني ، وقد شهر منها قبيلة كلب ، ذلك أنها استقرت في منطقة دمشق والى الجنوب منها ، وكان لها دورها البالغ الخطورة في العصر الاموي •

وفي المقابل كانت غالبية القبائل التي هاجرت الى شمال بلاد الشام واستقرت هناك من أصل قيسي ، وكان من أشهر هذه القبائل قبيلة كلاب ، وفي سنة ٦٤ هـ/ ٦٨٣ م بعد وفاة الخليفة الاموي يزيد بن معاوية التحمت قوى قيس بقيادة الضحاك ابن قيس الفهري بقوى كلب ومن ساندها من اليمانيين بقيادة مروان بن الحكم في معركة مرج راهط ، ولقد هزمت قيس وانتصرت اليمن ، وكانت قبيلة كلاب أكبر القبائل القيسية التي اشتركت في هذه المعركة ، ولقد فر زعيمها زفر بن الحارث شمالا واعتصم في قرقيسيا (البصيرة حاليا في سورية حيث يلتقي الخابور بالفرات) ورفض الاعتراف بمروان بن الحكم كخليفة ، ولم يستطع مروان أن يقسره على مثل هذا الاعتراف ، ولعل من أهم نتائج هذه المعركة أنها قسمت بلاد الشام الى قسمين: شمالي تسكنه القبائل القيسية وخاصة كلاب وتسيطر عليه ، وجنوبي تسكنه القبائل اليمانية ، خاصة كلب ، وتسيطر عليه ، وهكذا غدت بلاد الشام واقعيا عبارة عن دارين : دار لكلب في الجنوب ، ودار لكلاب في الشمال ، وكان الخط الفاصل بين الدارين يمر وهميا عند الرستن على العاصي بين حمص وحماه ، وازداد مع الايام نفوذ كلب في منطقة دمشق وتركز ، وغالبا ما كانت أجزاء منها تقطن في منطقة المزة خارج أسوار المدينة ، كما انتشرت عشائر كلب في البادية حتى منطقة السماوة بين العراق والشام[1] .

ومعروف أن بلاد الشام كانت مقر الخلافة الاموية،وبعد سقوط هذه الخلافة غدت ولاية شبه مهملة من ولايات الخلافة العباسية ، وكانت النزعات الاستقلالية في الشام واضحة ، وقد ازدادت قوة مع وضوح سيطرة الاعاجم على هذه الخلافة ، وتزامنت هذه النزعات مع استقلال مصر وقيام الدولة الطولونية فيها منذ بداية النصف الثاني للقرن الثالث للهجرة [٢٥٤ هـ/٨٦٨ م] ، وكما فعل من سبق ابن طولون من حكام مصر المستقلة ، لم يتوقف طموحه عند حدود مصر ، بل سرعان ما اتجه بأنظاره نحو الشام ، فسيطر على مختلف أجزاء البلاد ، واصطدم أثناء ذلك بالخلافة العباسية ، ونتيجة لهذا ولاسباب أخرى ، سيطر الطولونيون على الاجزاء الجنوبية من الشام سيطرة قوية،وكانت سيطرتهم على الشمال وهمية أو شبه معدومة.

---

(١) تاريخ خليفة : ٢٦٦/١ . الطبري ٥٤٠/٥ - ٥٤٢ . ابن عساكر : ٢١١/٦ و - ٢١٢ ظ .

توفي أحمد بن طولون سنة ٢٧٠ هـ/٨٨٣ فخلفه ابنه خمارويه ، وورث عنه الصراع ضد الخلافة العباسية ؛ لذلك قضى كثيرا من وقته في دمشق ، وفي دمشق اغتيل خمارويه سنة ٢٨٢ هـ/٨٩٥ م ، ومنذ ذلك الحين عصفت بالدولة الطولونية رياح التمزق والتنافس على السلطة ، وقد انعكس هذا على الاوضاع في دمشق والاجزاء الجنوبية من بلاد الشام[1] ، وكانت على هـذا الاجواء مهيأة والفرص متوفرة للاقدام على عمل ثوري في الشام .

وانتشر دعاة الاسماعيلية بين صفوف قبيلة كلب ، فلاقوا النجاح وخاصة بين أفراد بني العليص ، وتبعا للمصادر الاسماعيلية توجه أبو القاسم محمد بن زكرويه من السلمية نحو كلب في منطقة دمشق والتقى بزعماء بني العليص « وكان معه دفاتر، وكان غلاما شيطانا » واتفق معهم على الثورة ، وتفجرت الحركة في مزة كلب ، ويبدو أنها استهدفت الاستيلاء على مدينة دمشق .

كان يلي دمشق آنذاك قائد اسمه طغج بن جف وذلك نيابـة عن هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون، «وكان طغج قد طغى وجار في دمشق جورا عظيما»[2] كما وكان ضابطا تركي الاصل التحق بالخدمة الطولونية ، وقد اتهم بالتآمر علـى اغتيال خمارويه بن أحمد بن طولون ، وابنه محمد هو الذي سيرث الدولة الطولونية ويؤسس الدولة الاخشيدية .

وبدأت الثورة في منطقة دمشق سنة ~~٢٩٨~~ ٢٨٩هـ هـ/٩٠٢ م وأعلن أبو القاسم عـن نفسه اماما اسماعيليا باسم « محمد بن عبد الله بن يحيى » وأنه ولد اسماعيل بـن جعفر الصادق ، وقيل ــ وهو الارجح ــ محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن اسماعيل ، وقد عرف باسم الشيخ وشهر بلقب صاحب الناقة أو صاحب الجمل .

وشهرته بهذا اللقب تعود الى أنه ادعى أن ناقته التي كان يركبها كانت مأمورة وموجهة سماويا ، وأن تلك آيته الدالة على صحة امامته ، ومرد هـذا الى دعوى وراثة الامامة للنبوة وعلاماتها جميعا أو بعضها ، ويروى أن النبي ﷺ عندما هاجر من مكة ودخل المدينة ، أخذ أهل المدينة يدعوه كل فريق منهم للنزول عليه ، وذلك

(١) انظر كتابي تاريخ العرب والاسلام : ٣٩٩ ــ ٤٠١ .
(٢) اخبار القرامطة : ١١٩ .

عن طريق اعتراض سبيله ومحاولة جر ناقته الى دارهم ، وكان النبي يطلب من موجهي الدعوة اليه ترك الناقة على أساس أنها مأمورة ، ويروى أيضا أن من علامات نبوته ﷺ « خاتم النبوة » ، وكان عبارة عن كتلة لحمية ناتئة فوق كتفه من الخلف ، وسنلاحظ أن خليفة صاحب الجمل سيعرف باسم صاحب الخال على أساس أن الكتلة اللحمية التي كانت بارزة في وجهه هي علامة امامته ، وذلك على قاعدة خاتم النبوة •

حاصر صاحب الجمل طغج بن جف في دمشق ولم يستطع دخولها ، وحاول طغج فك الحصار فأخفق وطلب النجدات من مصر فجاءته تباعا ، لكنها لم تغن شيئا وأخيرا وصلت قوات لا بأس بقدراتها بقيادة بدر الحمامي ، وفي هذه الأونة التحق بصاحب الجمل أخوه أحمد ، « فعند ذلك جمع مشايخ العليصين من بني زياد ، وقال لهم : هذا أخي قدم ، ونحن بالغداة نلتقي بالقتال على باب المزة ، فبايعوا لأخي ، فاني غدا أطلع الى السماء أقيم بها أربعين يوما » ، ورتب قواته ، وأعطي أخاه خمسمائة فارس يكمن بها بين بساتين المنطقة •

وخرجت قوات بدر وطغج من دمشق لقتاله ، وزحفت ضده ، وباشرت القتال، وضغطت على قوات القرامطة ، وجمل القرمطي واقف مكانه لم ينبعث ، وسدد أثناء ذلك أحد جنود بدر نحوه حربة قصيرة منفطة ورماه بها مع جمله فأصابه اصابة قاتلة ، وتقول احدى الروايات بأنه سبب احراقه مع جمله وتقول روايات أخرى بأن أصحابه قاتلوا دونه حتى استنقذوا جثته ، وساعدهم على ذلك خروج الكمين بقيادة أحمد أخوه •

لقد حدث هذا سنة ٢٩٠ هـ/٩٠٣م، ولم تؤد هذه المعركة الى هزيمة القرامطة، بل على العكس من ذلك ، فقد ارتدت القوات الطولونية نحو دمشق ، وفي الوقت نفسه انسحب القرامطة لتنظيم صفوفهم •

وجرت بيعة أحمد بالامامة ، وأعلن عن نفسه مهديا ، وجعل علامته الخال في وجهه ، واتخذ لنفسه حاجبين دعا أحدهما باسم « المدثر » لأن الله تعالى خاطب نبيه في القرآن بهذه العبارة ، ودعا الثاني باسم المطوق ، وقام صاحب الخال بنشاط كبير حيث سعى نحو الاستيلاء على المناطق المحيطة بدمشق ، ثم توجه نحو وسط بلاد الشام فأخذ حمص وزحف من هناك الى السلمية فدمرها وأباد كل من كان فيها ،

وعلم وهو هناك بقدوم حملة عباسية ضده بقيادة أبي الأغر خليفة المبارك السُلمي كان قوامها عشرة آلاف فارس ، فبعث غلامه المطوق على رأس قوة اعترضت سبيل الجيش العباسي قبل وصوله الى حلب فهزمته ، وفر أبو الاغر الى حلب واعتصم بها، وحاول القرامطة الاستيلاء على حلب فأخفقوا وردوا ، وبعد هذا احتل القرامطـة معرة النعمان ، وحاول صاحب الخال اقامة دولة قرمطية في وسط الشام حيث « بث ولاته في » أعمال حمص «وضرب الدنانير والدراهم وكتب عليها: المهدي. المنصور. أمـير المؤمنـين » .

وشعر الخليفة المكتفي بجسيم ما وقع بالشام وبعجز السلطات الطولونيـة ، لذلك قرر حشد قوات دولته والتوجه على رأسها نحو بلاد الشام ، وكان عـدد ما حشده يزيد على ثلاثين ألفا ، وكان هذا سنة ٢٩٠ هـ ، وتوقف المكتفي في مدينة الرقة ، ومن هناك وجه محمد بن سليمان الكاتب الانباري على رأس الجيش نحـو القرامطـة .

وزحفت القوات العباسية ضد القرامطة بعد اتخاذ جميع الاحتياطات ، ومـع حلول عام ٢٩١ هـ التقت بالقرامطة في موقع الى الشمال من مدينة حماة ، فأوقعت بهم ضربة ماحقة ، حيث « قتل منهم وأسر أكثر من عشرة آلاف رجل ، وشرد الباقون في البوادي ، واستمرت بهم الهزيمة » ، وهرب صاحب الخال نحو منطقة الرحبـة (قرب الميادين في سورية) وهناك التقى ببعض أركان دعوته وقادته ، وحاول مـن جديد جمع شتات قواته فأخفق ، ورفض أصحابه التعاون معه وقالوا له : « قد وجب حقك علينا ، وقد رأيت ما كان من جدنا واجتهادنا ، ومن حقك علينا أن ندعك ، وانما يطلبنا السلطان بسببك ، فانج بنفسك » .

واستجاب صاحب الخال ، وركب الطريق يريد الكوفة ومعه غلام له اسمـه لؤلؤ « وركب معه المدثر ، وكان يزعم أنه ابن عمه ، والمطوق غلامه » وحمل كـل واحد من أصحابه هؤلاء كمية من الدنانير ، وأخذ دليلا « وسار يريد الكوفة عرضا في البرية ، فغلط الدليل » وقادهم باتجاه احدى قرى الرحبـة ، وكانت السلطات العباسية قد نشرت قواتها في المنطقة ووضعت في كل قرية مجموعة للحراسة ، وتنبه حراس القرية للقرمطي وأصحابه فألقوا القبض عليهم ، وبسرعة طار الخبر الى الرحبة ومنها الى الرقة حيث الخليفة المكتفي ، فسر سرورا عظيما وبدأ يستعد لصنع موكب

للنصر لا نظير له يدخل به بغداد ومعه صاحب الخال وأسرى القرامطة، وأعد الموكب، ودخل الخليفة بغداد ، وبعدما خلع على كبار القادة من أصحابه ، تقرر اعدام صاحب الخال وقرامطته اعداما جماعيا بشكل علني وتـم ذلك بصورة لم يعرف التاريـخ الاسلامي لها مثيلا .

وقع الاختيار على مصلى الجانب الشرقي من بغداد ، وهناك جرى بناء دكـة (منصة) مرتفعة مساحتها حوالي ٣٠٠ م٢ وأمر الخليفة « القواد جميعا بحضور هذه الدكة ، ونودي كذلك في الناس أن يحضروا عذاب القرامطة ففعلوا ، وكثر الناس في هذا الموضع » وعندما اكتمل الحضور جلب صاحب الخال مع حوالي ثلاثمائة من أسرى القرامطة ، وبدأت المراسم بتقديم حوالي الثلاثين من وجوه الاسرى «فقطعت أيديهم وأرجلهم وضربت أعناقهم، ثم قدم القرمطي فضرب مائتي سوط، ورش على الضرب الزيت المغلي ، وكوي بالجمر ، ثم قطعت يداه ورجلاه وضربت عنقه » واستغرقت طقوس عمليات الاعدام سحابة النهار ، وفي اليوم التالي « صير ببدن القرمطي الى باب الجسر الاعلى من الجانب الشرقي فصلب هناك » وهكذا طويت صفحة مـن صفحات نشاط القرامطة[١] .

وحين ذكرت مصادرنا أن صاحب الخال أراد التوجه الى الكوفة ، فان ذلك يوحي أنه أراد الالتحاق « بأبيه » زكرويه بن مهرويه ، وهنا لا بد من سؤال : اذا صح وكانت الصلات بين كل من صاحب الجمل وصاحب الخال وزكرويه كما قيل علاقة أبوة وبنوة، فلماذا انعدم التنسيق والتعاون بين قرامطة الشام وقرامطة العراق؟ ليس كل ما يسأله الباحث في التاريخ يجد جوابا مقنعا أو موثقا له ، لكن لا شك أنه لو صحت الصلات بين الطرفين ، كان بامكان الفريق العراقي لو تحرك التخفيف عن قرامطة الشام ، ولربما تسبب الاخفاق لحملة الخليفة المكتفي !

ومثلما كان الحال بالعراق بشكل عام يلاحظ أن تأثـير نشاطات القرامطة في الشام كان هامشيا ، ذلك أنه من المشاكل الاساسية في تاريخ القرامطة أنهم عندما عمدوا الى استخدام القوة المسلحة أهملوا أعمال الدعوة السلمية والتبشير بأفكارهم، وأنهم اقتصروا على المناطق المتطرفة من بلاد الشام والعراق ، ولا بد من سؤال أخير :

---

(١) الطبري : ١٠/٩٤ ــ ١١٥ . اخبار القرامطة :١٨ــ٢٥، ١١٩ــ١٢٠، ٢٧٥ــ٣٠٠.

ما هو موقع الدعوة الاسماعيلية وقيادتها مما وقع بالشام ثم بالعراق ؟ أما المصادر الاسماعيلية فتقول ان ما قام به القرامطة بالشام كان موجها بالاساس ضدها وضد امامها الصحيح ، وهذا غير مقنع البته ، فلقد ملكت الاسماعيلية العديد من الدعاة ، ولا شك أنه كان بامكان الدعاة التدخل لدى حشود القرامطة وافهامها أن ما يحدث هي غير راضية عنه وهو ضد الدعوة الاسماعيلية التي آمنوا بها ، ويبدو أنه عندما قامت نشاطات قرامطة الشام كانت الامامة الاسماعيلية منقسمة على نفسها في السلمية وتعاني من مشاكل حادة ، واذا صح هذا ، صحت معه دعوى نسب صاحب الخال وأخيه من قبله الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وهذا يجعل الامور مسوغة بعض الشيء اذ من غير المعقول أن ينقاد تنظيم القرامطة الى دعي ، وحين نقول تنظيم القرامطة ، نبنيه على مايمكن استخلاصه من مواد كتابنا أخبار القرامطة ، حيث كان هناك داعي دعاة الى غير ذلك حسب التنظيم الاسماعيلي المحكم ، وصحيح أن القرامطة اعتمدت قياداتهم على العناصر البدوية ، لكن لا يجوز أن نتصور أن جميع قواهم كانت بدوية أعرابية ، ولا جميع البداة كانوا أعرابا متقلبي الاهواء والولاء ، فقبيلة كلب قبيلة قديمة في الشام ، لم يكن رجالها أعرابا ، ويبدو أنه لشدة تأثرها بالدعوة القرمطية أن بيت الزعامة فيها صار يعرف بآل القرمطي وظل يعرف كذلك فترة طويلة من الزمن •

واذا ما عدنا الى الروايات التي وصفت طقوس الاعدام الجماعي في بغداد نجدها تذكر أن عدد الاسرى الذين جلبوا للاعدام كان حوالي الثلاثمائة ، وأن كثيرين منهم كانوا موجودين في سجون بغداد من قبل ، وهذا العدد قليل جدا ، ويدل على أن القرامطة قاتلوا بشجاعة وكانوا يموتون ولا يؤسرون ، ذلك أنهم آمنوا أن الحياة بعد القتل أفضل ، فالقتل كان يخلص أرواحهم من قذر الابدان وشهواتها[1] •

قرامطة اليمن :

لقد قيل : الجغرافية توجه التاريخ ، ولئن صح هذا القول بعض الشيء بالنسبة لبعض البلدان ، فان صحته مطلقة بالنسبة لليمن ، ذلك أن الطبيعة الجغرافية لهذا

(١) قرامطة العراق : ٢١٠ . مع مصادر الحاشية السابقة .

البلد شغلت أعظم الادوار في صنع تاريخه ، فلقد سيطرت الطبيعة الجبلية على اليمن، لهذا نادرا ما نعمت بالوحدة السياسية والاستقرار ، وهذا ما نلاحظه في تاريخها السابق لظهور الاسلام وما تلاه،وقبل الاسلام شغلت اليمن أدوارا هامة في التاريخ، خاصة بالنسبة للتجارة بين الشرق الاقصى وبعض أجزاء افريقية من جانب والشرق الاوسط وأوربة من جهة ثانية ، ودخلت اليمن الاسلام أيام النبي ﷺ ، وشاركت قبائلها بالفتوحات الكبرى مشاركة فعالة ، وبعد قيام الخلافة الاموية تأثرت اليمن بشكل كبير ، بالنظر للتحولات التي طرأت على طرق التجارة والاوضاع الاقتصادية في العالم بسبب الفتوحات الاسلامية،وعاشت اليمن على هامش حياة الدولة الاموية، وباتت ولاية شبه منسية ، ولم يتغير هذا الحال في العصر العباسي ، ولهذا السبب ولغيره توجهت أنظار بعض الاحزاب المعارضة نحو اليمن ، فمنذ خلافة يزيد بن معاوية نُصح الحسين بن علي بالتوجه الى اليمن وبعدم الذهاب الى الكوفة، وذلك بسبب الطبيعة الجبلية وحصانة البلاد ومنعتها ، ولان قبائلها كانت من أنصار أبيه علي بن أبي طالب .

لقد توجهت أنظار أحزاب المعارضة الى اليمن ، ففيها نشط الخوارج لا سيما في أواخر العصر الاموي ، كما نشط فيها أيام الدولة العباسية بعض دعاة الشيعة . وتميز بين الشيعة الذين نشطوا بها أفراد من الاسرة الحسنية التي أقامت بالرس على مقربة من المدينة ، ونجح منهم هناك منذ عام ٢٨٠ هـ/٨٩٣ م الهادي الى الحق يحيى بن الحسين[1] والى اليمن بعثت الدعوة الاسماعيلية بدعاتها ، وشهر من هؤلاء الدعاة داعيين هما : علي بن الفضل ، والحسن بن فرج بن حوشب وكان يكنى أبا القاسم .

وتتفق مختلف المصادر اليمنية على أن علي بن الفضل قد كان من زعماء اليمن ومن الشيعة الامامية الاثني عشرية ، وقد توجه عام ٢٦٦ هـ/٨٨٠ م الى تأدية فريضة الحج وبعدما زار قبر النبي ﷺ دعته نفسه « الى زيارة قبر أمير المؤمنين ، وقبر ابنه الحسين بكربلاء رضي الله عنهما ، فخرج مع الصادرين من حاج العراق الى هنالك ، فلما وصل الى الكوفة ، وزار قبر الحسين رضي الله عنه رأى عنده زوارا

---

(١) نشرت سيرة الهادي الى الحق ، انظر عرض مصادر نصوص الكتاب في الفصل التالي .

كثرة ، فاجتهد في البكاء والجزع » وقد لفت انتباه رجالات الاسماعيلية هنالـك فتقربوا منه وتعرفوا اليه ثم استدرجوه الي دعوتهم ، ويروى أن الذي تولى ذلـك ميمون بن القداح أو واحدا من كبار الدعاة ، حيث جمعه بعدما توثق منه بشخصية الامـام •

هذا أيضا ما تذكره المصادر الاسماعيلية ، ونحن وان كنا لاندري مدى صحة هذه الرواية يهمنا تاريخ الحادثة ، فهو يتوافق مع التاريخ المبكر للحركة القرمطية في سواد الكوفة ، أضف الى هذا وصفه من قبل المصادر لاسيما التي عاصرته بالقرمطة، مع أن المصادر نفسها حين تحدثت عـن النشاط الدعوي في الشمال الافريقي وفي مناطق أخرى سمته نشاطا اسماعيليا وميزته عن النشاط القرمطي ، وتبعا لهذا هل جرى تجنيده من قبل الدعوة القرمطية ، خاصة وأن تسمية قرامطة أطلقت على دعوة سواد الكوفة أولا وعممت فيما بعد على كل من ارتبطت أصوله بهذه الدعوة ؟!•

ان المتفحص لسيرة حياة علي بن الفضل وما قام به في اليمن كما هي معروضة في مواد كتابنا أخبار القرامطة يلاحظ أن الرجل كان متمكنا من علوم الباطن والفكر الاسماعيلي بشكل عام ، فأين ومتى نال هذا كله ؟ علما بأن مصادرنا تشير الى تكليفه بالعمل في اليمن مع ابن حوشب اثر تجنيده مباشرة، مما يفيد أنه لم يتلق أية تدريبات ونعود الى المصادر اليمنية فنجد صاحب كتاب « الفرق والتواريخ » يقول : « وكان أهل بيت هذا الرجل أهل تشيع ، فرغب في علم الادب ، وكان لسنا جريء القلب صبوراً نظاراً ، فانتحل مذهب الاثني عشرية » ، ولا يفيد هذا النص أن أسرته كانت أسرة امامية ، ويفيد أنه كان صاحب خلفيات ثقافية ، وأن ارتحل في طلب المزيد من العلم ، فهل يا ترى تأثر بواحد من دعاة الاسماعيلية في اليمن وبعث به الى العراق ليقرر بذاته ما يأخذ به وليتدرب ، ومثل هذا قد حدث في التاريخ الاسماعيلي أكثر من مـرة •

أما بالنسبة لابن حوشب الذي سيشهر بلقب منصور اليمن فقد سبق التبيان في الفصل السابق أنه كان من أصل اسماعيلي ، ويزيد هـذا قوة وبرهانا ما ذكره صاحب « الفرق والتواريخ » حين وصف لقاء ابن الفضل بالامام الاسماعيلي حيث قال : « وكان عند هذا الامام المستور الذي ذكروه رجل يقال له أبو القاسم ، رجل

مواظب معه على مراده ، فقال له : يا أبا القاسم هذا الرجل الذي كنا بطلبه من نهج اليمن ، فما رأيك بالخروج معه الى بلده ، وتدعوان الناس الى هذه المقالة »[1] ؟

ومهما يكن الحال جرى ارسال الداعيين الى اليمن ، وحددت لكل واحد منهما منطقة يدعو بها ، وأخبر ابن حوشب أن عليه أن يذهب الى عدن لاعة حيث سيجد من ينتظره من أهل المنطقة ، أي أن الامور كانت ممهدة في اليمن ، وقد توجها من العراق « في سنة سبع وستين ومائتين ، فدخلا مع الحاج مكة حرسها الله تعالى ، وخرجا الى اليمن في سنة ثمان وستين ومائتين » .

ونشطا في اليمن وفي مدة وجيزة حقق كل منهما نجاحات كبيرة ، واستولى ابن حوشب على حصن « فائش » في جبل مسور ، وكان من أمنع حصون اليمن ، كما استولى ابن الفضل على حصن المذيخرة وكان أيضا منيعا ، ومنذ عام سبعين ومائتين « ظهرت مقالتهما ، فأجابهما خلق كثير » واستطاع كل منهما دخول عدد من المعارك والخروج منها منتصرا .

وشجعت نجاحاتهما بيت الامامة في السلمية ، فأعلنت عن اليمن دار هجرة للاسماعيلية ، وذلك الى حد التفكير بالتوجه اليها ، وهذه مسألة سبق بحثها ، ويهمنا أن نشير هنا الى أنه بعدما التحق داعي الدعاة فيروز بعلي بن الفضل ، أعلن عن قيامة كبرى « وقال لاصحابه: أنا الامام المهدي الذي كنت دعوتكم اليه فاحلقوا رؤوسكم فحلق منهم قدر مائة ألف نفس يظنون أن ذلك شيء من الدين ، وأباح لهم ما حرم عليهم ، وقال : انما الجنة الذي ذكرها الله في كتابه هي الدخول في اللذات المكتومات عن هذا الخلق المنكود ، ولهذا سميت الجن جنا لاستتارهم من أعين الناس ، وقد أبحت لكم اظهارها ، فصدقوه وانتهكوا المحارم ، ونسخ لهم الشرائع ، وادعى بعد ذلك أنه نبي نسخ الله تعالى به نبوة محمد ﷺ بتحليل ما حرم الله عليه وتحريم ماأحل الله له ، وقال لهم : اني بعثت بالراحة السمحة والاستباحة المحضة ، يعني بالراحة « ترك العبادات » والاستباحة « ترك المحظورات » فتبعه على ذلك خلق كثير ، وسار

---

(١) ينسب هذا الكتاب الى الامام الغزالي ، وهو من تاليف عالم يمني من اهل القرن الخامس اسمه أبو محمد ـ انظر نصه بين نصوص كتابنا هذا « الجامع في أخبار القرامطة » .

الى صنعاء ، وأظهر بها ذلك » ، ويروى أنه كان قد أمر « جواريه أن يضربن الدفوف على المنبر ويغنين بشعر قاله » منـه ·

خـذي الـدف يا هـذه واضربي	وغنـي هـزاريـك ثـم اطربـي
تولـى نبـي بنـي هاشـم	وهـذا نبـي بنـي يعـرب
لكـل نبـي مضـى شرعـة	وهـذه شرائـع هـذا النبي
فقـد حـط عنـا فروض الصلاة	وحـط الصيـام فلـم تتعب
اذا النـاس صلـوا فـلا تنهضي	وان صومـوا فكلـي واشربـي
ولا تطلبـي السعـي عنـد الصفا	ولا زورة القبـر في يثـرب
ولا تمنعـي نفسك المعرسـين	مـن أقربي ومـن أجنبـي
فكيف تحلـي لهـذا الغريب	وصـرت محرمـة لـلأب
أليس الغـراس لمـن ربـه	وسقـاه في الزمن المجـدب
ومـا الخمـر الا كمـاء السمـاء	حـلالا فقـدست من مـذهب[1]

والمثير في أخبار قرامطة اليمن أنه لا توجد أدنى اشارة الى وجود برامـج اجتماعية أو اقتصادية لديهم سواء من حيث الواقع النظري أو التطبيق ، لكن ما هو سر الاستجابة الواسعة التي لاقاها دعاتهم ؟ هل مرد ذلك الى اتقان فن استغلال الصراع القبلي ؟ لعل هذا ما حدث سيما وأن رائحة العصبية واضحة في هذا الشعر المنسوب الى ابن الفضل ، حتى كأننا أمام ردة يمانية جديدة ، فلقد ضاق اليمانيون دوما بالزعامة العدنانية المتمثلة بولاية قريش ، لهذا لا غرابة أن رأينا التمرد علـى الامامة أخذ شكل ردة ورفض لما جاء به النبي الهاشمي ﷺ ، وهنا كان مقتل حركة ابن الفضل حيث كان من المفترض أن يفعل مثلما فعل معاصره أبو سعيد الجنابـي حيث أوقف الاعتراف بامامة الدعوة ودفع الاموال اليها وانصرف نحو انشاء مجتمع لم يشهد التاريخ الاسلامي له مثيلا ·

ان من المشاكل الرئيسة بالنسبة لحركات القرامطة هـي أنها عبرت في غالب الاحيان عن رفضها للواقع الاقتصادي والاجتماعي بأساليب وقوالب وأشكال دينية

---

(1) أخبار القرامطة : ٢٣٠ ــ ٢٣١ ، ٤٢١ ــ ٤٢٢ ·

ليست محضة فحسب بل في غاية التطرف ، وللانصاف هذه السمة وجدت لدى جميع حركات الاصلاح والمعارضة ، لكن وضوح الرؤية تباينت بين طائفة وأخرى، ووضوح الرؤية هو المطلوب في كل حركة اصلاحية ووضوح الرؤية هو ما نشهده في السيرة النبوية سيما في المرحلة المكية ، ووضوح الرؤية هو ما تشهده في أفكار وأعمال عدد كبير من الائمة ، فعندما يعود المرء الى كتاب الكسب لمحمد بن الحسن الشيباني ، الذي صنف في فترة بدأ فيها استبداد كبار التجار وأصحاب الاموال واضحا بمجتمعات الدولة العباسية ، يجد هذا الامام الكبير قد قام بكل شجاعة بتحدي الواقع الاستغلالي المفروض ورفضه ، انما بشكل نظامي وعلى أساس الشريعة ، ذلك أن التغيير لا يجري بوساطة السلاح ، وبالرفض الاحمق ، ولا عن طريق الفرد حتى وان كان اماما مهديا حقا ، التغيير يمكن أن يحدث فعلا عن طريق العقيدة والشريعة والنظام ، فهنا تكمن عناصر الديمومة ومنع الانحراف .

بعدما أعلن علي بن الفضل ما أعلنه دخل في صراع مع ابن حوشب ، وجرد ضده قواته وحاصره حصارا شديدا ، لكنه أخفق في الاستيلاء على حصنه وأراضيه، وقد استغلت هذا الصراع قوى اليمن القبلية وسواها ، فتم انتزاع صنعاء من ابن الفضل : كما انتزعت منه بعض المناطق الاخرى ، واضطر الى الانكفاء الى حصنه بعدما تصالح مع ابن حوشب ، وفي سنة ٣٠٢ هـ/٩١٤ م توفي ابن حوشب واضطرب الحال في منطقته بعض الشيء ، ولم يستطع علي بن الفضل استغلال هذا الفراغ حيث تعرض للاغتيال ومات بعد بضعة أشهر فقط من موت ابن حوشب ، وذلك سنة ٣٠٣ هـ/٩١٥ م ، الفرصة التي أحسن استغلالها حكام صنعاء ، فاستولوا على قلعته وعلى ما تركه ، وقاموا بتصفية كاملة لميراثه الخاص والعقائدي ، وهكذا طويت هذه الصفحة من تاريخ القرامطة دون أن تترك أية آثار لها صفة الديمومة[1] الايجابية النافعة ، أو الملهمة .

قرامطة الاحساء والبحرين :

حظي تاريخ قرامطة الاحساء والبحرين بعناية كبيرة من قبل الباحثين في عصرنا، حتى أن تاريخ القرامطة بات بالنسبة لبعضهم هو تاريخ قرامطة البحرين ولهذا أهملوا

(١) أخبار القرامطة : ٢٢٦ ـ ٢٢٨ ، ٤١٣ ـ ٤٣١ .

تاريخ قرامطة الشام واليمن ، وجاء البحث في قرامطة العراق بمثابة مقدمة لتاريخ طائفة الاحساء والبحرين ، وكان من أوائل من اهتم بهم اهتماماً زائداً المستشرق الهولندي دي خويه ، وقد دفع هذا الاهتمام المستشرق الكبير برنارد لويس الى القول : « وتاريخ هذه الطائفة الظاهري معروف الى حد ما ، وليس لدينا الا شيء قليل نستطيع أن نضيفه الى دراسات دي خويه في هذا الموضوع »[1] ، وركز لويس جهوده على تحقيق علاقة هذه الطائفة بالدعوة الاسماعيلية الفاطمية ، فأثبتها من حيث الاصول والبدايات .

ترتبط بدايات الدعوة القرمطية بالبحرين بالحركة القرمطية في سواد الكوفة أيام حمدان بن الاشعث وعبدان ، فقد جرى ارسال داعية الى منطقة هجر يدعو بين قبائلها ،وكان على رأس هذه القبائل عُقيل وكلاب من قبائل « عامر بن صَعْصَعَة»[2]، ومن المرجح أن اسم هذا الداعية قد كان أبو زكريا يحيى بن علي الطمامي ، وقد أنفذ هذا الداعية سنة ٢٨١ هـ/٨٩٤ م ثم ألحق بعد فترة بأبي سعيد الحسن بن بهرام الجَنّابي ، ويلاحظ أن هذا قد تم بعد القضاء على ثورة الزنج وتصفيتها نهائياً، ذلك أن البحرين منطقة خليجية خاضعة للمؤثرات القادمة من البصرة، ولاشك أن الدعوة القرمطية قد استغلت فرصة القضاء هذه وتتائج أعمال التصفية مع انتشار التشيع بين القبائل ، ويعلل هذا سرعة الاستجابة التي لقيها الطمامي أولا ثم الجَنّابي بعده .

لقد قام أبو سعيد بتصفية الداعية الطمامي ، ومن المرجح أنه قد قتله ، ويمكن أن نستنتج من هذا العمل بداية تمرد على دعوة العراق ، ويرجح أن هذا قد حدث اثر استيلاء زكرويه بن مهرويه على هذه الدعوة ، وتصفيته لكل من عبدان وحمدان ابن الاشعث[3] ، ولا شك أن هذا كان له أبعد الاثار على أبي سعيد وخططه المستقبلية .

---

(١) اصول الاسماعلية : ١٦٧ .
(٢) اخبار القرامطة : ١٣ .
(٣) اخبار القرامطة : ١٣ ، ١٤٨ ، ٣٣٤ ، ٤٠١ . اصول الاسماعيلية : ١٧١ . دي خويه : ٤٢ .

بدأ أبو سعيد نشاطه في بلدة هجر قصبة البحرين ، ولقي معونة عشيرة قوية عرفت ببني سنبر ، وتحالف أبو سعيد مع هذه العشيرة ، وكان قوام هذا التحالف : القيادة لابي سعيد : والمشورة لآل سنبر ، واستمر العمل بهذه القاعدة بعدما أفلح أبو سعيد في تأسيس دولة قرمطية في البحرين ، فقد كانت السيادة في هذه الدولة لآل أبي سعيد والوزارة لآل سنبر وفق خطة محكمة •

ليس هنالك من اشارات الى قيام امامة الدعوة الاسماعيلية بمراسلة أبي سعيد أو توجيهه ، ومرد هذا الى ما حل ببيت الامامة في السلمية بسبب نشاط قرامطة الشام ، وسفر المهدي والقائم نحو الرملة فمصر فالمغرب ، وليس من المستبعد ، لا بل من المرجح أن نوعا من الاتصالات قد جرى بعد قيام الخلافة الفاطمية ، لكن ليس المهم قيام هذه الاتصالات بل هو أن الدعوة في البحرين نشأت مستقلة عن التوجيه الاسماعيلي ، والمثير للانتباه ، أن أبا سعيد لم يستغل هذا الاستقلال استغلالا شخصيا بأن يدعي النسب العلوي كما فعل صاحب الزنج ويعلن عن نفسه اماما ، أو يعلن عن نفسه اماما مهديا من دون هذا النسب كما فعل علي بن الفضل •

لقد اكتفى أبو سعيد باتخاذ لقب سيد وسار في أتباعه سيرة ديموقراطية فكان في غاية التواضع وهكذا كان أولاده من بعده ، وركز جهوده الدعوية ونشاطاته الحربية وأوقفها على الاستيلاء على بلدة هجر ، فقد أقام على مقربة منها بلدة الاحساء واتخذها قاعدة له ، وعندما تمكن من هجر دمرها ، ونقل من أطاعه من أهلها الى الاحساء التي غدت الآن عاصمة لدولة لم يعرف تاريخ شبه جزيرة العرب مثيلا لها •

لقد أنشأ أبو سعيد مجتمعا جديدا ، أساس خطه تجربة حمدان قرمط في سواد العراق ، ففي البداية جمع صبيان أتباعه « في دور ، وأقام عليهم ما يحتاجون اليه ، ووسمهم لئلا يختلطون بغيرهم ، ونصب لهم عرفاء ، وأخذ يعلمهم ركوب الخيل والطعان ، فنشأوا لا يعرفون غير الحرب ، وقد صارت دعوته طبعا لهم » •

بوساطة هؤلاء عندما غدوا رجالا أمّن البنية الاساسية والعمود الفقري لدولته ومجتمعه ، ويلاحظ في هذا المقام أن الجنابي لم يبدع هذه الطريقة ، فهي أساس تجربة جيش المعتصم من الغلمان الاتراك ، وكانت أيضا مطبقة في ثغور بلاد الشام

سيما في مدينة طَرسُوس ، وتتجلى عبقرية الجنابي في حسن استفادته من هـــذه التجربة وتطويرها لصالح دولته العقائدية •

لقد ألغى الجنابي كما فعل حمدان من قبل الملكيات الخاصة « وقبض كل مال في البلد ، والثمار ، والحنطة ، والشعير ، وأقام رعاة للابل والغنم ومعهم قوم لحفظها، والتنقل معها على نوب معروفة وأجرى على أصحابه جرايات ، فلم يكن لأحد غير ما يطعمه»، وتبعا لهذا أجرى الغاء الضرائب ، وأمنت الحاجيات للمواطنين بالقسطاس المستقيم ، ولم يكن هناك حاجة الى النقود الذهبية والفضية ، وقد اكتفى الناس بالتعامل بنقود خاصة من الرصاص ، وكان هذا من بين الاجراءات التي اتخـــذت للحفاظ على الثروة العامة « والرأسمال الوطني » •

لقد أقام الجنابي مجتمعا « اشتراكيا عسكريا » من الطراز الامثل بشكل لـــم تعرف له سابقة من قبل ، فقد أوقف وقته كله « على جمع الخيل ، واعداد السلاح ، ونسج الدروع والمغافر، واتخاذ الابل، واصلاح الرجال ، وضرب السيوف والاسنة، واتخاذ الروايا والمزاود والقرب ، وتعليم الصبيان الفروسية ، وطرد الاعراب مـــن قريته ، وسد الوجوه التي يتعرف منها أمر بلده وأحواله بالرجال ، واصلاح أراضي المزارع ، وأصول النخل ، واصلاح مثل هذه الامور وتفقدها ، ونصب الامناء على ذلك ، وأقام العرفاء على الرجال ، واحتاط على ذلك كله حتى بلغ من تفقده أن الشاة اذا ذبحت تسلم العرفاء اللحم ليفرقوه على من ترسم لهم ، ويدفع الرأس والاكارع والبطن الى العبيد والاماء ، ويجز الصوف والشعر من الغنم ويفرقه على من يغزله . ثم يدفعه الى من ينسجه عبيا وأكسية وغرائر وجوالقات ، ويفتل منه حبال ، ويسلم الجلد انى الدباغ ، ثم الى خرازي القرب والروايا والمزاود ، وما كان من الجلود يصلح نعالا وخفا عمل منه ، ثم يجمع ذلك كله الى خزائن •

فكان ذلك دأبه لا يغفله ••• فزادت بلاده ، وعظمت هيبته في صدور الناس»• لم يبن الجنابي في بلدته المساجد ، كما لم يقم بها صلاة الجمعة ، وعلى هذا لم تعرف دولته الدعوة لخليفة أو امام ، فهو حين أنشأ دولته لم تكن الخلافة الفاطمية قـــد قامت ، وكان هو بالاساس معاديا للدولة العباسية •

ويلاحظ أن « مواطني » دولة الاحساء عاشوا مـــع نظامها وتعايشوا بكـــل اخلاص وانسجام ، وعلى هذا لم تورد الاخبار أية حوادث تمرد أو فتن داخليـــة ،

وعاش هذا النظام طويلا ، وهذا ما نلاحظه في وصف الاحساء لـدى ناصر خسرو الذي زارها بعد ما يزيد على القرن ونصف القرن من تأسيسها .

لقد كانت دولة الاحساء دولة مقاتلين عقائديين ، وقد احتاجت الى الخدمات العامة ، وهذا ما قامت الدولة بتأمينه ، حيث مكنت الحرفيين من العمل ومنحتهم الرساميل والمواد الاولية والحوانيت ، أما بالنسبة لاعمال الزراعة والخدمات الاخرى فقد جرى تأمين ذلك بوساطة الرقيق ، خاصة الاسود منه ، ودفع استخدام العبيد بعض الكتاب الى القول : ان دولة الاحساء لم تكن دولة اشتراكية محضة ، انما كانت دولة محاربين طبقت نظام رأسمالية الدولة ، وذهب باحثون آخرون الى القول: ان دولة القرامطة في البحرين والاحساء قامت في منطقة خضعت بشكل متواصل الى التأثير الفارسي لا سيما الساساني منه ، وعلى هذا ان نظام دولة القرامطة الذي قام فيها لم يكن سوى نظاما متطورا عن النظام الاقطاعي الساساني الـذي شهر بنظام اقطاعيات الفرسان .

لا شك أن اعتماد العبيد كان ثغرة في نظام دولة الاحساء ، الدولة التي شهدت ساحاتها وبصرتها قبل قيامها ثورة عارمة للزنج ، لكن أما والاخبار لم تذكر أعمال تمرد أو شكوى للعبيد ، يمكننا الافتراض أنها أحسنت معاملتهم ولنتذكر في هذا المقام أن العقل البشري لم يتقبل الغاء الرقيق الا منذ فترة وجيزة نسبيا ، وأن تجربة الاحساء قامت منذ أحد عشر قرنا ، وهي بلا شك تجربة ما تزال دول العالم الحالي الاشتراكية والشيوعية سواء تتطلع الى ما يماثلها .

لقد بهرت تجربة الاحساء عقول معاصريها أيام أبي سعيد وخلفائه من بعده ، وهذا ما نشهده في محتويات المكتبة الجغرافية العربية وعند بعض الكتاب المتأخرين نسبيا مثل البيروني ، فقد تحدث المقدسي عن الاحساء فقال : « وبها مستقر القرامطة من آل أبي سعيد ثم نظر وعدل غير أن الجامع معطل » ووصف ابن حوقل وهـو جغرافي اسماعيلي أوضاع دولة الاحساء بعد قرابة قرن مضى على تأسيسها ، وذلك أيام الصراع بينها وبين الخلافة الفاطمية ـ كما سنرى ، وكان مما قاله :

« وبها أموال وعشور ووجوه مرافق وقوانين ومراصد وضروب مرسومة من الكلف الى مايصل اليهم من بادية البصرة والكوفة وطريق مكة بعد اقطاع مابالبحرين من الضياع بضروب ثمارها ومزارعها من الحنطة والشعير والنخل لاتباعهم المعروفين كانوا بالمؤمنين ، ومبلغها نحو ثلاثين ألف دينار ، وما عدا ذلك من المال والامر والنهي

والحل والعقد وما كان يصل اليهم من طريق مكة ومال عُمان وما وصل اليهم من الرملة والشام فمتساو ، فيه آراء ولد أبي سعيد الباقين ومفاوضة أبي محمد سنبر بن الحسن بن سنبر ، وكان أكمل القوم وأشدهم ثم تمكنا من نفسه ، فاذا هموا بقسمة ما يصل اليهم من مال السنة كان ذلك اليوم معلوم مـذ لم يزالوا ... وكان من رسومهم ركوب مشايخهم وأولادهم فرادى فيجتمعون الى قبلة الاحساء بالمكان المعروف بالجرعاء ، ويلعب أحداثهم بالرماح على خيولهم وينصرفون أفذاذا بغاية التواضع ، وقد لبسوا البياض لا غير ، وكان من رسومهم أن تقع شوارهم بالجرعاء فيمن يخرجونه لما قدحهم وأهمهم ، فـان اتفق رأيهم على خروجهم بأجمعهم لم يتخلفوا وتفذوا »[1] .

وعندما وصلت أخبار أبي سعيد الى السلطات العباسية في بغداد عجلت بارسال جيش ضده ، فلحقته الهزيمة الماحقة ، وكان وقع ذلك مخيفا على سكان البصرة حتى « عزم أهلها على الانتقال منها » ، وأرسلت الخلافة العباسية الجيش تلو الاخر ضد القرامطة فأخفقت جميعا ، وخيل لكثير من الناس أن القرامطة باتوا قادرين على الاستيلاء على العراق ، واقتحام بغداد بالذات .

أخبار المعارك بين القرامطة والجيوش العباسية مفصلة في نصوص كتابنا هذا ولا حاجة لسردها ثانية ، ذلك أن المستهدف من الدراسة التي نقوم بها أن تكون بمثابة مفتاح يساعد على تفهم نصوص الكتاب ، لذلك لا بأس في أن ننتقل مباشرة الى القول ان أبا سعيد الجنابي قد جرى اغتياله سنة ٣٠١ هـ/٩١٤ م[2] .

وتسلم السيادة بعده ابنه سعيد ؛ وكان مستضعفا ، لكنه كان أسن أخوانه ، ولهذا ولي ، وحدث أن الخلافة العباسية كانت قد عمدت الى ارسال سفارة الى أبي سعيد ، وعندما وصلت الى البصرة علمت بمصرعه ، فراجعت علي بن عيسى وزير الخلافة فطلب منها الذهاب الى الاحساء ، وكان مما جاء في رسالة الخلافة « زعمت

---

(١) احسن التقاسيم : ٩٣ ــ ٩٤ . صورة الارض : ٣٣ ــ ٣٤ . الاثار الباقية : ٢١٢ ــ ٢١٣ . اخبار القرامطة : ١٣ــ١٥، ١٥٠ــ١٥٢، ١٩٥ــ١٨٩، ٢٣٤ــ٢٣٩ ، ٤٠٠ ــ ٤٠١ . دي خويه : ٦١ ــ ٩٥ .

(٢) قيل ان عملية الاغتيال كانت فردية بدون دوافع تآمرية داخلية او خارجية ، ومن الصعب تصديق هذا لا سيما على ضوء العلاقة مع الطمامي ثم مع ابنه فيما بعد.

أنك رسول المهدي ، وقد قتلت العلويين وسبيت آل الاخيضر العلويين ومن باليمامة، واسترققت العلويات ، وغدرت بأهل البحرين » فأجاب سعيد بن أبي سعيد : « ان أهل البحرين بغوا علينا ، وغدروا بنا ، وقالوا : انا نشترك في أزواجنا ونرى الاباحة وتعطيل الشريعة وقد كذبوا علينا ، ونحن قوم مسلمون ، وما نحل من اتهمنا بغير الاسلام » .

وشجعت هذه الاجابة الوزير علي بن عيسى فكتب الى قيادة القرامطة يقول : « ان كنتم صادقين فأطلقوا من في أيديكم من أسارى المسلمين » واستجاب القرامطة « فأطلقوا نحو ثلاثين ألفا ، وأظهروا الاسلام والصلاة ، وقراءة القرآن » ، ويفيد هذا أن السلام ساد بين القرامطة والسلطات العباسية ، وقد دام ذلك حتى سنة ٣٠٥ هـ/٩١٧ م ، حيث خلع سعيد وحل محله أخوه أبو طاهر سليمان .

واختلفت شخصية أبي طاهر عن سعيد ، وفي أيام أبي طاهر نشط القرامطة عسكريا بشكل هائل،وتركز نشاطهم بصورة خاصة وتوجه ضد قوافل الحجاج كما استهدف اضعاف العباسيين وشلهم عن العمل ، ويلاحظ أن تولي أبي طاهر تلا عزل علي بن عيسى عن الوزارة في بغداد وحدوث تبدل في المواقف العباسية ، وقد تزامن هذا مع استقرار الامور في افريقية للمهدي الفاطمي وشروعه في ارسال الجيوش ضد مصر لاحتلالها ، ويبدو أن الاتصالات قد قامت في هذه الاونة بين الخلافة الفاطمية والقرامطة ، ووضعت الخطط للتنسيق في الجهود العسكرية بين الطرفين ، والذي طلبته الخلافة الفاطمية من القرامطة هو الضغط على العراق ، والضغط أيضا على السلطات الاخشيدية في الشام وهذا ما حصل[1] .

أخبار حملات أبي طاهر مفصلة في نصوص كتابنا ، وهي قد وصلت الذروة في عام ٣١٧ هـ/٩٢٩ م بمهاجمة مكة في موسم الحج وقتل الحجاج مع أهل مكة واقتلاع الحجر الاسود من الكعبة ، هذا وقد سبقت الاشارة الى هذا الحدث الجلل مع التعليل ، ويروى أن أبا طاهر كان قد وقف أثناء الفتك بالحجاج على باب الكعبة يلعب بسيفه وينشد ويقول :

أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا

(١) دي خويه : ٧٢ ـ ٨٠ .

وأنه أنشد اثر انصرافه من مكة :

ولـو كان هـذا البيت لله ربنـا لصب علينا النار مـن فوقنا صبـا
لأنـا حججنا حجـة جاهلية مجللـة لـم نبق شرقـا ولا غربا
وأنـا تركنا بـين زمزم والصفـا جنائـز لا تبغي سوى ربهـا ربا[1]

انها والحق يقال لم تكن حجة من أية نوع من الانواع بل كانت حملة بربرية قصدت الغاء الحج وذلك تمهيدا لاعلان قيامة عظمى ، حيث لم يلبث بعد هذه الحملة حتى ظهر في الاحساء زكريا الطمامي بن أبي زكريا الداعية القرمطي السابق لأبي سعيد ، ويروى أن ابا طاهر « جمع الناس بالبحرين ، وقال : معشر الناس انا كنا ندخل عليكم بحسب أهوائكم ، مرة بمحمد ، ومرة بعلي ، ومرة باسماعيل بن جعفر ، ومرة بمحمد بن اسماعيل ، وبالمهدي ، وهذا الهنا والهكم ، وربنا وربكم ، يعني » زكريا الطمامي .

وحار الكتاب في تعليل هـذه الحادثة ، فالاوائل عللوها ردة الى الديانـة الزرادشتية والى عبادة النيران ، وهذا بعيد الاحتمال ، ورأى آخرون فيها تمردا على الفاطميين ورفضا لسلطتهم ، وفي هذا أيضا ما فيه ، سيما اذا أخذنا بعين الاعتبار أنه لم تقم للفاطميين سلطة على قرامطة الاحساء والبحرين .

ان التعليل يمكن ايجاده في مضامين العقيدة الاسماعيلية في مسألتي الكشف عن علوم الباطن واعلان القيامة العظمى ، ومثل هذا العمل قد شهده التاريخ الفاطمي أيام خلافة الحاكم بأمر الله[2] .

ولم يطل الامر بزكريا الطمامي ، فقد حاول الانفراد بالامر بالاحساء وتصفية آل أبي سعيد الجنابي وآل سنبر ، لذلك سارع أبو طاهر فقتله وتخلص منه .

ويبدو أنـه عندما أعلن عن تأليه زكريا الطمامي ، جرى الاعلان عن أبي طاهر

---

(١) اخبار القرامطة : ٥٣ ، ٢١٥ .

(٢) الآثار الباقية للبيروني : ٢١٣ . اخبار القرامطة : ١٥٨ . اصول الاسماعيلية : ١٨٥ ــ ١٨٧ .

اماما مهديا ، فهذا ما يستفاد من شعر أورده له البيروني[1] ، ويتوافق هذا أيضا مع ما حصل لحمزة بن علي الزوزني أيام الحاكم بأمر الله[2] .

ومهما يكن الحال لقد كان لهذا الحادث أثره الكبير على أوضاع القرامطة عامة ومسألة القيادة والطاعة لأبي طاهر فقد « صار أصحابه لا يمتثلون أمره كما كان ، وقد كانوا لا يخالفونه في شيء البته ، وكان أي شيء نهبوه أو غنموه يسلموه اليه ، ولا يخونونه في شيء منه لأنه حجة الله ... فصار ... لا يعطونه ما ينهبونه، وصاروا يشربون الخمر ، ويسمعون القيان ، ويطلبون المواخير ، واذا جاءهم العرفاء وقالوا لهم : هاتوا ما غنمتم لم يعطوهم ، واذا قالوا لهم : السيد يأمركم بكذا » وجهوا أقبح الشتائم للسيد .

لقد سبب نشاط القرامطة في شبه الجزيرة اندفاع كميات هائلة من القبائل ، خاصة من قبائل عامر بن صعصعة نحو الشام والعراق ، ومع اتساع عمليات القرامطة أيام أبي طاهر جرى زيادة في الاعتماد على رجالات هذه القبائل عن طريق الاغراء بالغنائم ودفع الاموال ، وأخذ العباسيون يسعون لشراء ولاء بعض زعماء القبائل ، كما أن بعض هؤلاء الزعماء أخذ يفكر بالعمل لصالحه ولمنفعته الخاصة[3] .

لقد خفت حدة نشاط أبي طاهر ، لكنه لم يتوقف ، وتجددت الاتصالات بينه وبين بغداد ، وطلبت السلطات العباسية منه منذ عام ٣٢٢ هـ/٩٣٤ م عدم التعرض لقوافل الحجاج ، ورد الحجر الاسود ، وذلك مقابل اعتراف الخليفة العباسي به أميرا على البلاد التي يحكمها ، وبعد فترة تم التوصل الى اتفاق ، بات على الخلافة العباسية بموجبه لا الاكتفاء بالاعتراف بأبي طاهر بل بدفع مبلغ كبير من المال له سنويا ، ويبدو أن مرد هذا الاتفاق لا يعود الى الازمة الداخلية التي وقعت ، فحسب بل الى الاخفاق في قطع الحج ، والى ما لحق الدولة الفاطمية ونزل بساحها اثر وفاة المهدي سنة ٣٢٢ هـ/٩٣٤ م ، بقيام ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد النكاري[4] .

---

(١) الاثار الباقية : ٢١٤ . اخبار القرامطة : ١٦٠ ــ ١٦١ . دي خويه : ١٠٤ــ١٠٨ .

(٢) The Druze Faith, by Sami N. Mkarem, pp 16 - 22 .

(٣) اخبار القرامطة : ١٤٦ ، ١٦٠ ــ ١٦١ .

(٤) اخبار القرامطة : ٣٦٠ ــ ٣٦١ . دي خويه : ١٠٨ ــ ١١٢ .

وظل أبو طاهر سيدا لقرامطة الاحساء والبحرين حتى وفاته سنة ٣٣٢ هـ/ ٩٤٤ م ، ولعل من أهم ما حصل في العقد الاخير من حياته هو أخذ حركة قرامطة الاحساء والبحرين شكل دولة ، والدول في العادة تتعامل بالسياسة حسبما تمليه المصالح ، وانشاء الدولة معناه اما وصول الثورة الى غاياتها القصوى ، أو قناعتها بعدم امكان حصول ذلك والاكتفاء بما تحقق من مكاسب ، وفي هذا انكماش وبداية تراجع وسير في دروب الانهيار ، وهذا ما حصل بالفعل بالنسبة لقرامطة البحرين ، صحيح أن دولتهم لم تزل من الوجود فورا وعاشت لفترة طويلة ، لكنها عاشت على الهامش يحجبها عن أماكن التأثير الفاعلة في العالم الاسلامي محيطات من رمال الصحراء ، ومن جديد لا بد من الاشارة الى أن اعتماد القرامطة على القوة المسلحة المدمرة فقط دون ارفاق ذلك بعمل دعوي منظم قد أضرّ بهم ضررا بالغا وحال دون انتشار مبادئهم . المشكلة الاساسية في تاريخ القرامطة أنهم اهتموا بأوضاعهم الداخلية ، لكنهم لم يلتفتوا الى قضية سمعتهم الخارجية ، ونسوا أنهم لئن ملكوا القوة المدمرة لوقت من الاوقات ، فان من قهروهم وأنزلوا بهم الضربات الموجعة كانوا أكثر منهم عددا وعدة ، وأمامهم فرص استرداد القوة ومن ثم التمكن من الانتقام ...

لقد اهتم القرامطة بالمسائل الاجتماعية والاقتصادية اهتماما كبيرا ، ورأوا بأم أعينهم أكثر من مرة زيف الغطاء الديني للباطنية وشفافيته وتناقضاته ، وملكوا الفرصة حتى يتخلصوا من هذا الغطاء وذلك عن طريق العودة الى الجادة القويمة ، فذلك كان سيفتح أمامهم مختلف الابواب في جميع البلدان،لكن على الرغم من كل هذا تمسكوا بالغطاء الواهي ، وسخروا قواتهم في سبيل تدمير ما أجمعت الامة على الايمان به والتمسك ، فأهلكوا أنفسهم بأيديهم ، فهذا كان وما يزال مصير كل من يتنكر للتراث ويعلن الحرب عليه .

وحين توفي أبو طاهر كان معظم اخوانه ما زالوا على قيد الحياة بينهم سعيد ، وكان من المقدّر أن يعود سعيد الى تسلم منصب القيادة ، لكن هذا لم يحدث بالتحديد بل وقعت الادارة مشاركة بين الاخوة ، ومع الايام برز بينهم أحمد ، حتى بات المقرر انفراده بالسيادة ، لكن وجد بين القرامطة جماعة ارتأت تنصيب سابور بن أبي طاهر ، وسلكت هذه الجماعة مسلك التآمر ، وفي سنة ٣٥٨ هـ/٩٦٩ م ألقى

القبض على سابور وجرى قتله ، وبذلك انفرد أحمد بالسيادة ، ويعلق ابن حوقل على هذا الحدث ويبين آثاره على القرامطة حيث « تشتت كلمتهم وتغيرت أحوالهم، واستوحش بعضهم من بعض ، وانقبضوا عن الالتقاء بالجرعاء وغيرها »[1] .

ويبدو أن الذي حدث لم يكن مجرد صراع داخلي على السلطة ، بل للقضية أسبابها الخارجية ، ففي السنة التي قتل بها سابور كان قد تمكن الفاطميون من الاستيلاء على مصر ، وسبق لنا الحديث عن هذا الحدث وعما جلبه من قيام صراع بين قرامطة الاحساء والخلافة الفاطمية ، ويستخلص من ابن حوقل أن سابور وحزبه كانوا من مؤيدي الخلافة الفاطمية ، في حين كان أحمد وحزبه من المعادين للفاطميين، وهذا أيضا واضح في رسالة الخليفة المعز للحسن بن أحمد المشهور بالاعصم .

لقد كان لاستيلاء الفاطميين على مصر وبناء مدينة القاهرة أبعد الآثار وأخطرها على دولة قرامطة الاحساء والبحرين ، فقد تعارضت مصالح الدولتان ، الفرصة التي استغلها سادة بغداد الجدد من الديلم ، فضغطوا على الخليفة المطيع العباسي [٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ/٩٤٦ ـ ٩٧٤ م] للتقرب من القرامطة ، كما أوعزوا الى الحمدانيين في الموصل والى قادة قبائل الشام والعراق والجزيرة للمبادرة الى تقديم العون الى القرامطة في صراعهم مع الفاطميين .

لن نتعرض للحديث عن وقائع الصراع بين الفاطميين والقرامطة ، فقد سبقت الاشارة الى ذلك في الفصل السابق ، يضاف الى هذا ان نصوص كتابنا تحوي تفاصيل كبيرة حول الموضوع ، ويهمنا أن نشير هنا الى أن الفاطميين حين خططوا لاحتلال مصر،كانوا لايتوقعون عون القرامطة لاعدائهم،وكانوا يعولون على القرامطة لا في سبيل تسهيل احتلال بلاد الشام فحسب ، بل بمهاجمة العراق من الجنوب ، وذلك في وقت تهاجم فيه الجيوش الفاطمية من الشمال والشرق وهكذا يمكن بيسر القضاء على الخلافة العباسية ، وتحقيق الاهداف الاسماعيلية الفاطمية ، آخذين بعين الاعتبار كميات الاسماعيلية في خراسان وكون قبائل الشام والجزيرة والعراق مع الديلم كانوا من الشيعة .

---

(١) صورة الارض : ٣٣ ـ ٣٤ . دي خويه : ١٥٠ ـ ١٥٢ .

وأحبط هذه الخطط الحفاظ على مصالح دولة القرامطة ودول آل بويه من الديلم مع الدويلات البدوية ، فغالبا ما قهرت المصالح الدولية الوحدة العقائدية ، وصحيح أن قوى الشام والجزيرة والعراق كان غالبيتها شيعة ، لكنهم كانوا امامية أو زيديه معادين للاسماعيلية ، ولهذا أخفقت خطط الفاطميين ولم يتعد سلطانهم وسط الشام في غالب الأحيان .

ومع قيام الصراع القرمطي الفاطمي كانت زعامة القرامطة قد آلت الى الحسن ابن أحمد الذي شهر بالاعصم لقصره ، وقد دامت زعامته طيلة فترة النزاع التي امتدت حتى أيام العزيز الفاطمي ، فمع أيام العزيز تم التوصل الى اتفاق هدنة في سنة ٣٦٦هـ تعهدت الخلافة الفاطمية بموجبه بدفع أتاوة سنوية للقرامطة قدرتها المصادر بسبعين ألف دينار ، واثر التوصل الى هذا الاتفاق توفي الاعصم ، وتراجع القرامطة الى الاحساء ، وقد استمرت دولتهم بعد الاعصم ما يزيد على القرن ، ففي سنة ٤٦٩هـ /١٠٧٧ م في أيام السلطان السلجوقي ملكشاه أغار القائد التركماني أرتق على الاحساء ورام فتحها فأخفق بعدما حاصر قرامطتها فترة طويلة من الزمن[1] .

---

(1) مرآة الزمان ـ مخطوطة احمد الثالث ـ حوادث سنة ٤٦٩ . اخبار القرامطة : ٦٨ ـ ٨٤ ، ٣٦٤ ـ ٣٨٩ ، ٤٠٢ ـ ٤٠٩ . دي خويه : ١٥٢ ـ ١٥٦ .

الفصل الثالث

تعريف نقدي بالنصوص المحققة وبمصنفيها

لقد كانت الغاية من الفصلين السابقين تمهيد السبيل أمام القارىءومساعدتهعلى مباشرة التعرف الى أخبار القرامطة عن طريق النصوص ، وعرض الاخبار عن طريق النصوص ، هي أحدث طرائق العرض التاريخي ، ذلك أنها وثائقية ، لا يتدخل فيها الكاتب أو الباحث في توجيه القارىء وانتقاص حريته في الاستنساج والفهم ، ذلك أن من المفترض أن قارىء هذا العصر هو رجل متحضر يملك زادا ثقافيا يمكنه لوحده ــ مع شيء من التوجيه ــ من المشاركة في فهم أي علم من العلوم الانسانية أو قضية من قضايا التاريخ •

ان النصوص المقدمة في كتابنا هذا بمجملها تقدم للقارىء صورة متكاملة لتاريخ القرامطة في جميع المناطق وكافة المراحل ، وهي تحوي زبدة ما جاء في المصادر العربية ، ولم يحدث قط أن حوى كتاب منفرد مثل هذا الحشد الذي يحويه كتابنا هذا ، وهذه النصوص بعضها ينشر للمرة الاولى وبعضها الآخر ، وان سبق نشره فهو لأول مرة ينشر بشكل علمي دقيق ، دون تصحيفات في النص مع ما يكفي من الحواشي والشروح ، ويمكن أن أعتبر هذا الكتاب عملا مطورا للكتاب الذي سبق نشره من قبل باسم « أخبار القرامطة » •

نصوص هذا الكتاب انتزع أولها من تاريخ ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الصابىء الحراني الاصل ، وجمع في مجلد منفصل،وتم ذلك من قبل شخص مجهول، ولعل هذا قد حدث خلال العصر المملوكي ، وتاريخ ثابت بن سنان لم يصلنا ، وكل ما وصلنا هو وصفه وبعض النقول منه ، ونصنا الذي ننشره اليوم ، ولعله أكبر قطعة تصلنا منــه • وحسبما أعلم هنالك نسخة مخطوطة واحدة من هذا النص ، هــي بحوزة المستشرق الانكليزي الكبير برنارد لويس ، أستاذ تاريخ الشرق الاوسط في جامعة لندن سابقا • وتعود معرفتي بهذه النسخة الى عام ١٩٦٧ عندما كنت آنذاك في لندن أحضر لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الاسلامي تحت اشراف الاستاذ

لويس . ولقد تفضل الاستاذ لويس فأعارني نسخته وأخبرني أنه كان قد ابتاعها من القاهرة قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية ، واستفاد منها في دراسته عن أصول الاسماعيلية ، وعزم على تحقيقها ونشرها وحتى عمل على ترجمتها الى الانكليزية ولكن قيام الحرب وانشغاله بعدها لم يمكنه من اتمام عمله . وتكرم أيضا فأعارني مجموعة تضم ما حضره لنشر هذه المخطوطة من جملة ذلك نسخة تحوي نص المخطوطة مضروب على الالة الكاتبة . ولقد استخدمت هذه النسخة في عملي ولم أقم بنسخ المخطوطة وكل ما فعلته أنني قابلت المطبوعة على النسخة الام ، وأثناء عملي بالتحقيق استفدت كثيرا من عمل الاستاذ لويس وملاحظاته القيمة ، ولهذا فانني مدين له في عملي هذا ، ولا يسعني هنا سوى أن أقدم شكري ، واعترافي بالفضل ، وشعوري بالامتنان .

وتتألف مخطوطة الاستاذ لويس من احدى وثلاثين ورقة من قطع ١٩×١٣,٥سم وفي كل صفحة ما بين ٢٠ ـ ٢٣ سطرا ، في كل سطر ما بين ٧ ـ ٨ كلمات . وهذه النسخة قد كتبت من قبل ثلاثة نساخ على الاقل . وقد تم الفراغ من كتابتها « في سلخ شوال سنة ألف وسبع وخمسين » [٢٧ تشرين الثاني سنة ١٦٤٧] وقد نسخت كما يبدو عن نسخة من تاريخ ثابت تم نسخها في « سلخ جمادى الاولى سنة سبع وسبعين وخمسمائة » [١١ تشرين الاول سنة ١١٨١] . وهذه النسخة قد نسخت ـ كما صرح ـ عن مسودة المؤلف .

ان خط مخطوطة الاستاذ لويس هو نسخي مقروء وحالة المخطوطة حسنة انما يبدو أن المستوى الثقافي لنساخها ومعرفتهم بقواعد اللغة العربية قد كان ضعيفا ، لهذا تبعثرت الاخطاء النحوية والاملائية في كل مكان . وحين قمت بعملي في التحقيق قومت هذه الاخطاء ، ولكن لكثرتها لم أشر بالحواشي الا لنزر يسير منها خشية ملء الحواشي بأمور لا فائدة منها .

المعلومات التي تتضمنها مخطوطة الاستاذ لويس هذه ، يمكن تقسيمها الى قسمين : قسم وردت معظم رواياته في تاريخ الطبري ، وقسم تمت أحداث رواياته بعد وفاة الطبري ، فقام ثابت بتدوينه ، وكثير من أخبار هذا القسم مما عاصره ثابت ، وقد نقل ابن الاثير معلومات ثابت ودونها في تاريخه الكامل دون الاشارة الى ثابت . على أنه على الرغم من هذا هناك بعض التفصيلات ، والمعلومات في نصنا هذا غير

موجودة عند ابن الاثير•ونشر نصنا هذا يوفر رواية متسلسلة لتاريخ القرامطة ويعين على دراسة حركة التدوين التاريخي عند العرب ، خاصة فيما يختص بعلاقة كتابات مسكوية بتاريخ ثابت بن سنان •

وثابت بن سنان هو أحد أفراد آل الصابىء ، الاسرة التي اشتهرت بالطب فنبغ منها عدد من الاطباء خدموا الخلفاء العباسيين ورجال دولتهم • ويذكر بعض من ترجم لثابت بأنه كان مختصا بخدمة الخليفة الراضي [٣٢٢/٩٣٤ ــ ٣٢٩/٩٤٠] وأنه كان بارعا بالطب ، تولى تدبير المارستان في بغداد وخدم عددا من الخلفاء بعد الراضي • ولقد ذكر بعضهم أن ثابتا قد توفي في عام ٣٦٣/٩٧٣ ــ ٤ ؛ وهذا وهم ، أصح منه أن وفاته حدثت في عام ٣٦٥/٩٧٥ ــ ٦ وهذا ما تثبته مخطوطتنا وما نقله ياقوت عن ابن أخت ثابت هلال بن المحسن الصابىء • وكان ثابت بن سنان كمعظم بقية آله متميزا الى جانب كونه طبيبا باهتمامه بالتاريخ وتدوينه ، فكتب عددا من التواريخ أشهرها تاريخه الكبير الذي انتزع منه ، نصنا الذي ننشره اليوم • وقد بدأ ثابت تاريخه هذا بفترة حكم الخليفة المقتدر [٢٩٥/٩٠٨ ــ ٣٢٠/٩٣٢] ، وتوقف عن متابعة الكتابة فيه قبيل وفاته بأيام • ولثابت تاريخ « مفرد في أخبار الشام ومصر في مجلد واحد » وله كتاب آخر دون فيه « وفاءات من توفي في كل سنة من سنة ثلاثمائة الى السنة التي مات فيها » أي سنة ٣٦٥ هـ • وتاريخ ثابت الكبير هو بداية سلسلة من التواريخ كتبت من قبل أفراد الصابىء وكلها تعتبر كذيول لتاريخ الطبري ، وهي في حد ذاتها على غاية من الاهمية تغطي فترات انفردت ــ تقريبا ــ في رواية أخبار أحداثها • ثم ان خدمة آل الصابىء للخلفاء العباسيين ورجالاتهم وشخصيات دولتهم قد أعطى معلوماتهم ورواياتهم التاريخية مزية خاصة وقيمة عالية • ومفيد هنا أن ننقل ما كتبه القفطي في هذا الباب :« واذا أردت التاريخ متصلا فعليك بكتاب أبي جعفر الطبري رضي الله عنه ، فانه من أول العالم والى سنة تسع وثلاثمائة ، ومتى شئت أن تقرن به كتاب أحمد بن أبي طاهر وولده عبيد الله فنعم ما تفعل لأنهما قد بالغا في ذكر الدولة العباسية وأتيا من شرح الاحوال بما لم يأت به الطبري بمفرده ، وهما في الانتهاء قريبا المدة ، والطبري أزيد منهما قليلا • ثم يتلو ذلك كتاب ثابت فانه يداخل الطبري في بعض السنين ، ويبلغ الى بعض سنة

ثلاث [الاصح خمس] وستين وثلاثمائة فان قرنت به كتاب الفرغاني الذي ذيل به كتاب الطبري فنعم الفعل تفعله فان في كتاب الفرغاني بسطا أكثر من كتاب ثابت في بعض الاماكن . ثم كتاب هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابىء فانه داخل كتاب خاله ثابت وتمم عليه الى سنة سبع وأربعين وأربعمائة . ولم يتعرض أحد في مدته الى ما تعرض له من أحكام الامور والاطلاع على أسرار الدول ، وذلك أنه أخذ ذلك عن جده لأنه كان كاتب الانشاء ويعلم الوقائع ، وتولى هو الانشاء أيضا ، فاستعان بعلم الاخبار الواردة على ما جمعه . ثم يتلوه كتاب ولده غرس النعمة محمد بن هلال وهو كتاب حسن الى بعد سنة سبعين وأربعمائة ... »[1] .

ولدى تفحصنا لمواد مخطوطة الاستاذ لويس نلاحظ أمرا مدهشا ، حيث أن الكتاب يروي أخبار القرامطة ابتداء من « سنة مائتين وثمان وسبعين من الهجرة » حتى « سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة » بشكل كامل التسلسل سنة تلو أخرى ، ثم يقفز فيبدأ بأخبار « سنة ستين وثلاثمائة » .

ولا ندري بشكل مؤكد سبب هذا ، لكن لدى قراءة المواد الاخيرة ومقارنتها بالمواد الاولى ، نجد أن المواد الاولى تولي قرامطة البحرين والعراق الاهتمام الاكبر ، في حين أن المواد الاخيرة موقفة على نشاط القرامطة في الشام وصراعاتهم مع الخلافة الفاطمية في الشام ومصر .

ان هذا يدفعنا الى الافتراض أن الذي جمع مواد مخطوطة الاستاذ لويس جمعها من مجلدة كان فيها كتابين لعلهما : تاريخ ثابت بن سنان الذي ذيل به علـى

---

(1) القفطي (جمال الدين ابي الحسن علي بن يوسف) تاريخ الحكماء . ط. ليبسك ١٣٢٠ هـ ص ١٠٩ - ١١١ . ابن خلكان (أحمد) وفيات الاعيان ١٤٨/١ ط. باريس ١٨٣٨ . ياقوت الحموي، ارشاد الاريب الى معرفة الاديب(معجم الادباء) حققه د. س. مرجليوث القاهرة ١٩٠٩ : ٣٩٧/٢ . الذهبي (ابو عبد الله محمد ابن أحمد بن عثمان) تاريخ الاسلام ٨١ ط. مخطوطة المتحف البريطاني رقم ٤٨ . ومما يفيد معرفته ان سبط ابن الجوزي (يوسف بن قزا أوغلي) قد اكثر في كتابه مرآة الزمان من النقول من تاريخ آل الصابىء حتى انه نسخ في احدى المرات جميع تاريخ غرس النعمة وضمنه في احد مجلدات كتابه ! انظر مقالنا في مجلة مجمع اللغة العربية عدد نيسان ١٩٧٠ . هذا وقد قمت بانتزاع نصوص آل الصابىء الواردة في المرآة والحقتها بكتابنا هذا .

تاريخ الطبري ، وكتابه الاخر الذي أوقفه على تاريخ الشام ومصر ، ويبدو أن الكتاب الاول كان مبتورا ، فهو بالأصل « مسودة المؤلف »،وأن الذي تولى عملية الاختصار لم ينته الى الخرم الكبير ، ولا الى طبيعة المواد المروية والاختلاف الذي لحقها ، أو أنه تنبه لكنه لم يخبرنا •

ومهما يكن الحال يلاحظ أن المواد المتأخرة من مخطوطة الاستاذ لويس تتوافق، لا بل تتطابق تماما مع محتويات تاريخ دمشق لابن القلانسي : الذي شهر باسم « الذيل » أو « المذيل على تاريخ دمشق » ، ويتألف كتاب ابن القلانسي من قسمين رئيسين هما « الاساس » و « المذيل » ، ويبدأ الاساس بحوادث سنة ٣٦٠، ويقف مع بداية حوادث سنة ٤٤٨ •

وبات من المؤكد أن مواد قسم الاساس كانت بالاصل من تصنيف هلال بن المحسن[1] وربما صنف مطلعها ثابت بن سنان ، فقد كتب هلال ذيلا على تاريخ ثابت بدأه بأخبار سنة ٣٦٠ ، وهكذا تداخلت منه حوادث السنوات ٣٦٠ ــ ٣٦٥ مع كتاب ثابت،وتطابقت المواد في هذا التداخل وجاء الاختلاف في بعض التفاصيل فقط، وهذا ما تخلص اليه لدى عقد مقارنة بين مواد مخطوطة الاستاذ لويس ومطلع كتاب ابن القلانسي ، ومثل هذا الاختلاف بالتفاصيل هو أمر طبيعي نلاحظ ما يشبهه حين نقارن مواد السنوات المتداخلة بين تاريخ ثابت بن سنان وتاريخ الطبري •

وانتزع النص الثاني من كتاب « سيرة الهادي الى الحق يحيى بن الحسين » وهو كتاب قد كنت قد تعرفت اليه للمرة الاولى عام ١٩٦٩ حيث رأيت احدى مخطوطاته في استانبول ، وقد قمت بنشر هذا المخطوط عام ١٩٧٢ في بيروت ، ويتحدث هذا الكتاب عن سيرة وأعمال الهادي الى الحق الذي خرج الى اليمن عام ٢٨٠ هـ ، وفيها عمل على تأسيس الدعوة الزيدية مع امامة شيعية معتدلة ، وفي اليمن حقق الهادي بعض النجاحات ، حيث استطاع دخول صنعاء لفترة قصيرة ، واصطدم الهادي خلال نشاطاته في اليمن بالقرامطة في منطقة نجران مع قبائل بلحارث ويام، كما اصطرع مع قرامطة علي بن الفضل ومنصور اليمن في الجنوب •

---

(١) انظر وفيات الاعيان لابن خلكان : ٣٧٨/٢ (ترجمة صلاح الدين الايوبي) حيث ذكر صراحة ان ابن القلانسي جعل كتابه ذيلا على تاريخ هلال بن المحسن الصابىء

وقد قام مدون سيرته بتقديم تفاصيل ممتازة عن ذلك ، وأفرد فصلا خاصا من الكتاب أوقفه على القرامطة ، وذلك اضافــة للمعلومات المتناثرة في ثنايا الكتاب ، ومدون السيرة وروايتها هو علي بن محمد بن عبيد الله العباسي العلوي . وكان من أبناء عم الهادي ورفاقه في اليمن ، وعلى هذا كان شاهد عيان للاحداث ، ومادتــه بذلك على درجة عالية من الاهمية ، تحمل الطابع الوثائقي ، لكن مع الانتباه الى أنها تروي الحدث وتصور الخبر من جانب واحد .

ان مادة سيرة الهادي الى الحق ، أقدم ما عرف حتى الان عن تاريخ القرامطة، ومن خلالها ذهبنا فيما مضى الى القول بأن حركة القرامطة بدأت في شبه الجزيرة العربية لا بالعراق ، هذا ولم نستطع الوصول الى ترجمة لمصنف السيرة ، انما من خــلال دراسة نص الكتاب نعرف بأن والد المصنف وهو محمد بن عبيد الله كان من أوائل من تلقى دعوة الهادي الى الحق ، قبل خروجه الى اليمن ، فآمن بها كما آمن بامامته، وقام بمرافقته الى اليمن ، وهكذا كان من أوائل رجالات دعوة الهادي وأعظمهـم مكانة لديه ، فلقد اعتمد الهادي عليه اعتمادا كبيرا وولاه جليل الاعمال ، وكلفــه بخطير المهام ، وظل في خدمة الهادي حتى استشهد أثناء تأديته لواجبه ، وكان ذلك في الصراع مع القرامطة .

وكان محمد بن عبيد الله عندما قرر الهجرة الى الهادي ، ومرافقته الى اليمن قد أعلم ولده عليا بذلك ، وأمره أن يلحق به ، وكان علي آنذاك « غلاما لم تجب لله عليه حجة » ، و « وفي ذي الحجة من سنة خمس وثمانين ومائتين » هاجر علي بن محمد بن عبيد الله الى الهادي ، والتحق بخدمته في اليمن ، وبقي معه حتى لقي ربه .

وبرغم أنه قد سلف لي نشر سيرة الهادي ، فلقد أعدت النظر بالنص المنتزع منها حول القرامطة ضبطا وتحشية ، آخذا بعين الاعتبار مــا رسمته لنفسي أثناء جمـع نصـوص هذا الكتاب بجعل هذه النصوص تشرح بعضها بعضا،وتقدم فهما متداخلا ومتعاونا في الوقت ذاته .

والنص الثالث هو عبارة عن مذكرات أملاها ــ أوكتبها ــ أحد رجالات البلاط الفاطمي أيام المعز لدين الله [٣٤٠ ــ ٣٦٥ هـ/٩٥٣ ــ ٩٩٥ م] وكان اسمه أحمد بن ابراهيم (أو ابن محمد) النيسابوري ويبدو أنه احتل مكانة رفيعة في قصر المعز ،

وكان واسع الاطلاع على أخبار الدعوة الفاطمية، ولربما شارك في العديد من أحداثها المبكرة ، نقول ذلك بسبب أنه لم يصلنا ترجمة له ، على الرغم من أن رسالته كانت معروفة نقل عنها عدد من الكتاب الاسماعيليين .

ومادة هذه الرسالة على درجة كبيرة من الاهمية ، منها نسمع أصداء اسماعيلية فاطمية رسمية تتحدث عن الانشقاق الذي ألم ببيت الامامة الاسماعيلي،بعد استقرار هذا البيت في السلمية ، حيث يبدو أن هذا الانشطار كان من وراء اندلاع نشاط القرامطة في الشام وهو يساعد على تعليل قضية ادعاء قادة قرامطة الشام للنسب الاسماعيلي ، ومنه نرى ما صنعه الفاطميون بعد انتصار فرعهم ، وسيطرته على أطراف الدعوة الاسماعيلية والدعاة فيما يختص بقضية تحريف أنساب أئمة القرامطة.

وقد سبق أن تم نشر هذا النص ثانية سنة ١٩٣٧ في مجلة كلية الاداب لجامعة القاهرة المجلد الرابع [٨٩ ــ ١٠٧] اعتمادا على مخطوطة وجدت لدى جماعات البهرة المستعلية في الهند ، وجاء نشره جافا خلوا من أية تعليقات ، محشوا بالاخطاء والتصحيفات ، ولقد أعدت النظر فيه وتلافيت الاخطاء وقمت بضبطه ووضع بعض الحواشي الضرورية لــه .

أما النص الرابع فهو عبارة عن فصلة من كتاب اسمه التراتيب من تصنيف أحد رجالات الدعوة الاسماعياية ، ويبدو أن تاريخ التصنيف مبكر ربما يعود الى ما قبل قيام الخلافة الفاطمية أو معاصر لها ، وهذا الكتاب قد أتيح لي الوقوف عليه مع مجموعة أخرى من الرسائل الاسماعياية في احدى المكتبات الخاصة التي كانت موجودة في القدموس في سورية ، وهو مثل سابقه يقدم مادة تساعدنا على فهم النزاعات داخل البيت الاسماعيلي في السلمية وبذلك تسهل علينا مهمة معالجة أمر العلاقة بين قرامطة الشام والبيت الاسماعيلي الذي نجح في اقامة الخلافة الفاطمية ، ولقد جهدت في سبيل التعرف الى مصنف الكتاب فأخفقت ، انما هذا لا يؤثر كثيرا على قيمة محتوياته ، وهو بحيث ينشر للمرة الاولى فيه الهام جديد في معالجة قضايا الماضي ، وخاصة تاريخ القرامطة والاسماعيلية .

أما النص الخامس فقد انتزعته من « كتاب تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد » لقاضي القضاة عبد الجبار الهمذاني ، الفقيه المعتزلي الشهير المتوفى سنة ٤١٥ هـ أو ٤١٦/١٠٢٤ أو ١٠٢٥ م ، وقد وقفت على هذا النص للمرة الاولى سنة ١٩٦٩ ،

وقمت بتصويره من نسخة الكتاب الفريدة الموجودة الآن في مكتبة شهيد علي باشا في استانبول ، وكان في نيتي حين صورتها العمل على نشرها ، لكن حال دون ذلك العديد من المشاغل ، ثم أقدم المرحوم الدكتور عبد الكريم عثمان على نشر الكتاب في قسمين تحت عنوان : « تثبيت دلائل النبوة » .[بيروت ـ دار العربية] .

وكتاب « تثبيت دلائل النبوة » من أعظم ما كتبه القاضي عبد الجبار شيخ المعتزلة في وقته ، حيث حوى مادة لا نكاد نجد لها نظيرا في كتاب آخر ، فيها تجلت سعة ثقافة القاضي عبد الجبار ، وعقله ومنطقه ، وفيها تجلى تعصبه الشديد للاسلام على الرغم من اعتزاله،ومن المؤسف أن هذا التعصب حرف القاضي عن جادة الصواب والحق ، وجعله يروي الاحداث ويصورها لا بصفته العالم الاعتزالي الكبير ، بل بصفته الفقيه المتعصب الذي ألغى تعصبه أدوات المنطق والحياد لديه .

وبرغم هذا فان القاضي عبد الجبار قد عاصر الخلافة الفاطمية ، وشهد بعض فصول الصراع بين هذه الخلافة وقرامطة الاحساء ، فقدم لنا مادة تاريخية تكاد أن تكون وثائقية ، انما من وجهة نظر محددة ، هي بلا شك معادية، لابل شديدة العداء، وهذه المادة يمكن أن نرى فيها صورة تعكس بكل أمانة موقف أهل السنة من الدعوة الاسماعيلية والخلافة الفاطمية في مطلع القرن الخامس للهجرة ، وهي فترة على غاية من الاهمية ، لانها مرحلة متقدمة في اليقظة الاسلامية المعادية للاسماعيلية التي كانت لتوها تستفيق من أزمات خطيرة شطرتها على نفسها ، وكان على رأسها ما تم في عصر الحاكم بأمر الله وقيام الديانة الدرزية .

اذا عاصر القاضي عبد الجبار بداية تقهقر الفكر الاسماعيلي وتحول مدءه الى جزر ثم انحساره بشكل سريع ومريع للغاية .

لقد كان المرحوم الدكتور عبد الكريم عثمان مختصاً بالاعتزال وبالقاضي عبد الجبار وفكره بشكل خاص ، لكن مما يؤسف له ، أنه على الرغم من هذا الاختصاص اقد أخفق في قراءة كتاب تثبيت الدلائل،وهكذا عجز عن تقديم متن صحيح منه للقارىء، ولعل أحد أسباب ذلك ، أنه اعتمد على نسخة خطية واحدة للكتاب ، ثم أنه رحمه الله زين متن الكتاب بمجموعة من الحواشي والتعليقات تدل على أن خلفياته في التاريخ

الاسلامي كانت في غاية الضعف ، لكن هذا كله لا يغمط ما بذله من جهد في سبيل احياء هذا الكتاب الهام .

أما النص السادس فقد انتزعته من كتاب سفر نامه لناصر خسرو ، الرحالة الايراني المشهور ، وناصر خسرو كان قد ولد في احدى مدن خراسان لاسرة متوسطة الحال وكان ذلك سنة ٣٩٤ هـ/١٠٠٣ م ، ونشأ مسلما سنيا وتثقف ثقافة جيدة ، وفي مقتبل شبابه التحق بخدمة الادارة الغزنوية ، وكانت هذه الدولة قد شهد عصرها تطور اللغة والثقافة الايرانية الجديدة جنبا الى جنب مع اللغة العربية والثقافة العربية الاسلامية ، لذلك أجاد ناصر خسرو العربية والايرانية ،وفي أيام ناصر خسرو انتزع التركمان بزعامة السلاجقة خراسان من الغزنويين ، وهكذا انتقل ناصر خسرو الى الادارة السلجوقية ، والتحق بخدمة جغري بك في مرو ، وكان جغري بك من أبرز زعماء السلاجقة وأخا لطغرلبك أول سلاطنة السلاجقة .

وقد شهدت خراسان في بداية القرن الخامس نشاطاً دينياً كبيراً تجلى في الصراع بين مختلف المذاهب والفرق ، وتأثر ناصر خسرو بهذا الصراع فعايش الشكوك فترة من الزمن ، ثم تحول من السنة الى الشيعة لكن ذلك لم ينه حالة الشك لديه ؛ فقد احتار الى أي فرق الشيعة ينتمي ، وهنا قرر الرحلة نحو العراق وغيرها بحثاً عن الحقيقة .

وهكذا بدأ رحلته الطويلة التي استغرقت سبع سنوات ، بدأت سنة ٤٣٧ هـ/ ١٠٤٥ ، ومرت بثلاث مراحل : وقد انتهت المرحلة الاولى سند ٤٣٩ هـ/١٠٤٧، وهو تاريخ وصوله الى القاهرة حيث مكث حتى عام ٤٤٢ هـ/١٠٥٠ م وخلال هذه الاقامة حدث تحوله الى الاسماعيلية ، وصار واحدا من كبار دعاتها ، وغادر مصر ليبدأ المرحلة الثالثة والاخيرة من رحلته : وزار خلال ذلك الحجاز ، وقضى فريضة الحج ، وبعد هذا توجه نحو الاحساء فزار عاصمة القرامطة ، وقدم لنا وصفا لمشاهداته فيها، ومن الاحساء ذهب الى البصرة ومن هنالك الى خراسان ، وكان على ذلك عام ٤٤٤هـ /١٠٥٢ م تاريخ نهاية رحلته .

وبعدما استقر في خراسان بدأ نشاطه الدعوي ، وقد كسب الى صفه جماعات كبيرة ، وكان ناصر خسرو شاعرا كبيرا ومصنفا ، خلف لنا تراثا غنيا ، أوسعه شهرة، رحلته التي يعتقد أنها فقدت ، وكان ما وصلنا منها مختصر لها ، وقد نشر هذا

المختصر وترجم الى أكثر من لغة من بينها العربية ، وقام بالترجمة الى العربية الدكتور يحيى الخشاب وتمت طباعة الترجمة أولا في القاهرة ثم أعيدت طباعتها ثانية عام ١٩٧٠م في بيروت .

وقد انتزعت من هذه الترجمة وصف ناصر خسرو للاحساء ، والتزمت الى أبعد الحدود بهذه الترجمة مع تعديلات طفيفة قمت بها نتيجة لمقارنتها بترجمات أخرى خاصة الى الانكليزية ، ويكاد يكون وصف ناصر خسرو للاحساء أهم وثيقة تصل الينا تتعلق بحياة دولة قرامطة البحرين ونظامها .

وجرى انتزاع القسم السابع من كتاب حمل عنوان « الفرق والتواريخ » لمؤلف يماني من أهل القرن الخامس اسمه أبو محمد ، والكتاب كبير الحجم توجد منه نسختان خطيتان ، وكان قد أوقفني عليه منذ عقد من الزمن الدكتور محمد جواد مشكور ، وهو بحاثة ايراني وأستاذ جامعي معروف .

وجرت نسبة هذا الكتاب على صفحة الغلاف الى الامام أبي حامد الغزالي ، ولعل السبب في ذلك غزارة المعلومات المتضمنة فيه ، وقدرة صاحبه العظيمة في ميادين علم الكلام واطلاعه الواسع وشدته في الرد على رجالات الملل والنحل .

ويحوي القسم الثامن « كتاب كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة » من تصنيف محمد بن مالك بن أبي الفضائل الحمادي، ومحمد بن مالك هذا لانعرف الكثير عن حياته الا ما نستخلصه من كتابه ، ذلك لعدم وصول ترجمة منفردة له في أي من المصادر اليمنية المعروفة ، ومن خلال الكتاب يبدو أن المصنف كان من أهل الفقه والمعرفة ، عاش في أوائل القرن الخامس ، وعاصر قيام الدولة الصليحية في اليمن ، وقد تأثر بالدعوة الصليحية الاسماعيلية ، وصار واحدا من رجالاتها ، ثم ما لبث أن انقلب عليها ، فصنف كتابه في الرد على الاسماعيلية ، وجاء هذا الرد تاريخيا على درجة كبيرة من الاهمية ، والمعلومات التي وردت فيه تكمل المواد التي أوردها صاحب سيرة الهادي الى الحق ، واذا قلنا بأن مادة سيرة الهادي الى الحق دونت من وجهة نظر زيدية، فان مادة الحمادي على الرغم من طابعها الردي، فاننا يمكن أن نعتبرها قد دونت من وجهة نظر صليحية اسماعيلية لشدة صلة المصنف بهذه الدعوة في السابق.

ولقد نشر هذا الكتاب للمرة الاولى في القاهرة عام ١٩٣٩ ، وجاء هذا النشر

دونما تحقيق ، لذلك ألم بالنص العديد من التصحيفات ، قمت بتقويمها جميعا ، كما حليت النص بالحواشي الضرورية ، وقمت بضمه الى مجلدنا هذا ، ميسرا من جديد وصوله الى القارىء والباحث .

أما القسم التاسع فهو عبارة عن فصل من فصول كتاب المنتظم لابن الجوزي ، أوقفه خصيصا للحديث عن القرامطة من الجانب العقائدي وابن الجوزي هو الامام أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن جعفر الجوزي ، ولد في بغداد حوالي سنة ٥١٠ هـ وفيها نال ثقافته على كبار علماء عصره .

كان ابن الجوزي قرشي النسب ، تيمي القبيلة ، بكري النسبة ، يعتز بذلك ويفاخر بأنه حفيد الصديق الخليفة الاول في تاريخ الاسلام وقد تأثر بفقه مدرسة الامام أحمد بن حنبل ، وصار واحدا من أعلامها في عصره .

اشتهر بقوة الحجة وسرعة البديهة ، والقدرة النادرة في الوعظ ، لذلك كان عظيم التأثير في الناس ، وصلنا جزء كبير من مواعظه ، فيها نرى صورة واضحة لمكاناته ولعصره ، وللعربية الدارجة آنذاك .

لقد كان ابن الجوزي غزير الانتاج واسع التصنيف، من أهم ما كتبه في التاريخ كتاب « المنتظم في تاريخ الملوك والامم » جاء في عشر مجلدات نشر منها خمس في حيدر أباد الدكن في الهند ، وأعيدت طباعة هذه المجلدات بالتصوير ، لكن لم يقدم أحد بعد على اعادة النظر فيما نشر والعمل على نشر الكتاب بجميع مجلداته ، برغم العثور على مخطوطة كاملة منه تم تصويرها في معهد المخطوطات التابع لجامعة الدول العربيـــة .

اعتمد ابن الجوزي في الفصل الذي أوقفه على القرامطة اعتمادا مطلقا على كتاب « فضائح الباطنية » للامام الغزالي ، ويمكن اعتبار عمله مختصرا لكتاب الغزالي .

هذا وقد لاقى هذا الفصل عناية خاصة في أيامنا هذه فقام الاستاذ محمدصباغ بنشره أولا عام ١٩٦٥ ، وجاء هنا في خمسين صفحة ثم أعاد نشره ثانية عام ١٩٦٨ في ثمانين صفحة ذات حجم صغير ، جعل منها سبع وعشرين صفحة مقدمة والباقي أثبت فيه النص مع فهارس محدودة .

وعلى الرغم من عناية الاستاذ المحقق بنص الكتاب من حيث الضبط ، فانه تجاوز المعقول في تضخيم حجمه ، ثم جاءت مقدمته والحواشي التي ألحقها بالنص تنادي بأن صاحبها يرى الماضي من منظار التعصب الديني ، وهو على هذا يطلب من الماضي أكثر من الماضي ويعلل حوادثه طائفيا ، ويغمض ناظريه عن كل شيء الا ماهو سلبي ، ولعل لـه عـذره في ذلك ، فهو بالاصل اختصاصه بالادب العربي وليس بالتاريخ الاسلامي وحضارته ، فهو على هذا يمكن تصنيفه بين الذين يقبلون على العمل في التاريخ بدافع الهواية لا الاحتراف ، ومقرر أن الهاوي يقود في عمله نحو الهاوية لانه يعتمد الاثارة العاطفية ، دون تقدير للمسؤولية ، وبـلا التزام بشرط الحياد والعلمية والمنطق ، في حين أن المؤرخ المحترف ، يلتزم بقوانين علم التاريخ ، ويعتمد على الاقناع، ويبتعد عن كل ما يثير العواطف لان الحضارات لم يتم تشييدها بالعواطف بل بالعقول المفكرة بمنطق واتزان .

أما القسم العاشر فهو منتزع من كتاب « أخبار الدول المنقطعة » لعلي بن ظافر الازدي ، وذلك اعتمادا على مخطوطتي المتحف البريطاني في لندن ومكتبة غوطا في ألمانية الشرقيـة .

وعلـي بن ظافر الازدي ولـد في القاهرة سنة سبع وستين أو تسع وستين وخمسمائة ، وكان أبوه من كبار الفقهاء الاصوليين ، لذلك تفقه علي على والده ، ونال ثقافة عالية ، مما أهله لتسلم أسنى المناصب في الدولة الايوبية في القاهرة ، وقد تقلب في المناصب من الوزارة الى بيت المال الى غير ذلك،وظل في الخدمة مدة طويلة، لكن ليس الى تاريخ وفاته الذي كان‌سنة٦١٣هـ،فقد كان قد اعتزل الاعمال في أواخر أيامه وانصرف نحو التصنيف ، فاهتم بالتاريخ والسـياسة والادب كما أنه نظم الشعر وكان شعره رقيقا ، ويعتبر كتابه أخبار الدول المنقطعة من أهم ما صنف في التاريخ ، حيث جعله في فصول متوالية أوقف كل منها للتأريخ لدولة من الدول التالية:العبيدية الفاطمية ، والنـاجية في الجبال ، والاخشيدية في مصر ، والطولونية في مصر أيضا ، والحمدانية في حلب ، والخلافة العباسية ، والصنهاجية في افريقية ...

ومعلومات هـذا الكتاب مفيدة في كثير من الجوانب وهي وان دلت على أن مصنفها لم يكن مؤرخا الا أنها تدل على أنه كان قليل التعصب ولديـه أحاسيس سياسية جيدة ، وهذا الكتاب ما زال مخطوطا ، توجد منه أكثر من نسخة جيدة ،

وهو جدير بالنشر ، وجاء اهتمامي به من خلال واحد من الاعمال التي قطعت شوطا بعيدا فيها ، حيث جمعت أخبار الدولة الفاطمية من عدد من المصادر غير المنشورة ، على نية تحقيقها ودفعها الى النشر ، بتوفيق الله وعونه[1] .

وقد انتزع القسم الحادي عشر من كتاب « بغية الطلب في تاريخ حلب » لابن العديم (كمال الدين عمر بن أحمد المتوفي سنة ٦٦٦ هـ/١٢٦٧ ــ ١٩٦٨ م) .

ولد ابن العديم الذي كان سليل أسرة مرموقة جدا في حلب ، في ذي الحجة سنة ٥٨٨ هـ [كانون الاول ١١٩٢ م] وتحدث ابن العديم في سيرته لنفسه وأسرته ــ كما رواها ياقوت ــ بأنه عندما كان في السابعة من عمره ، أرسل الى المدرسة ، وأنه وهو في التاسعة كان قادرا على قراءة القرآن .

وعلى العموم لقد تلقى ابن العديم ثقافة جيدة، ونال حظا وافيا من علوم عصره، كما أن والده حرص على أن ينال ابنه تدريبا جيدا في الخط،وهكذا غدا خط ابن العديم واحدا من أجمل الخطوط ، وأكثرها دقة وصوابا، ومن الاطلاع على المجلدات العشر المتبقية من كتابه بغية الطلب ، والتي هي جميعا بخط ابن العديم ، يمكن الحكم بأن ابن العديم كان واحدا من أعظم النساخ وأكثرهم ضبطا في تاريخ الخط العربي .

وعندما بلغ ابن العديم الخامسة عشر من عمره زار القدس ودمشق التي زارها ثانية عندما أصبح في التاسعة عشر ، وعند بلوغه التاسعة والعشرين عين مدرسا في احدى مشاهير مدارس حلب،ومنذ ذلك الحين ترقت به المناصب حتى غدا الشخصية الاولى بين أهالي حلب ، ونال درجة وزارة مملكة حلب . وكشخصية مرموقة زار ابن العديم في أكثر من مناسبة العراق ومصر وكثيرا من مدن بلاد الشام وذلك غالبا كمبعوث موفد من قبل مملكة حلب .

لقد كان تحت تصرف ابن العديم تراث أسرته العلمي ، ومكتبات حلب الغنية ، ووثائق ومدونات المملكة ، يضاف الى ذلك أن رحلاته الكثيرة ومكانته الرفيعة قد مكناه من مقابلة علماء عصره في مصر وبلاد الشام والعراق ، وهؤلاء الذين زاروا

---

(١) انظر معجم الادباء لياقوت الحموي . ط. القاهرة ١٩٢٨ . التكملة اوفيات النقلة للمنذري . ط. بغداد ١٩٧١ ــ ٢٣٧/٤ ــ اعلام للزركلي .

حلبا أو مروا بها ، كما مكناه من الاطلاع على مكتبات هذه الاقاليم وجمع المعلومات منهـــا

ولقد أفرغ ابن العديم المعلومات التي جمعها أو شاهد أحداثها مع تجاربــه كلها في كتابه بغية الطلب ، وبالاضافة الى بغية الطلب فقد كتب ابن العديم عددا من الكتب الاخرى التي تحوي مواضيع مختلفة ، لكن برغم هذا ان الطبيعة التاريخية تسيطر عليها جميعا •

ولقد قيل بأن كتاب بغية الطلب كان يحوي أربعين مجلدة في كل واحدة منها ما قد يزيد على الثلاثمائة ورقة • ومن سوء الحظ فقد وصلنا عشر فقط من هذه المجلدات الاربعين ، كلها كما سبق لي أن أشرت بخط ابن العديم نفسه ، وتحوي هذه المجلدات العشر : الاول من الكتاب ، وكذلك المجلد الاخير من الاربعين ، وبهذا فان فحص هذه المجلدات المتبقية يبين طريقة ومذهب ابن العديم في تصنيف كتابه •

لقد كتب ابن العديم أولا حول الجزء الشمالي من بلاد الشام من الناحيـــة الجغرافية ومن ناحية الفضائل ، وخصص فصلا تحدث فيه عن القبائل العربية التي توطنت شمال بلاد الشام وخص بالذكر قبيلة كلاب ، وبعد ذلك بدأ يسرد تاريخ هذه المنطقة على طريقة الحوليات ، وعند فراغه من هذا قام بوضع معجم ألف ــ بائي ترجم فيه لكل من نشأ أو اجتاز بجزء من الشام الاعلى من الشخصيات السياسية أو العلمية أو الثقافية سواء أكان ذلك قبل الاسلام أو بعده •

لقد صرح عدد من المؤرخين المتأخرين بأن ابن العديم لم ينه كتابة كتابه بغية الطلب وانما كتب مسودته فقط ، وهذا في الحقيقة وهم ناتج عن سوء فهم لطريقة ابن العديم ، وبتصوري طريقة أي انسان متقدم جمع كتابا ضخما كبغية الطلب • ان وصول المجلد الاول والاخير من الكتاب يبرهن على أن ابن العديم قد أنهاه قبل موته ، لا بل ان بعض السماعات التي دونت في حواشي الكتاب ــ وهي سماعات أولاد ابن العديم على أبيهم ــ تشير الى أن الكتاب ربما أنجز تأليفه قبل وفاة ابن العديم على الاقل بعشر سنوات • وربمـــا أن الاسباب التي قادت بعض المؤرخين المتأخرين الى قولهم هي : أن ما من أحد منهم كان قادرا على رؤية أو قراءة الكتاب جميعه ، ثم وجود بعض أوراق بيضاء لم يكتب عليها في ثنايا بعض المجلدات • ويبدو

أن كتاب ابن العديم قد عانى بعض ما عاناه صاحبه وبلاد الشام من الغزو المغولي فتبعثرت مجلداته ولم يتهيأ له من يقوم بنسخه ونشره بين الناس ، يضاف الى هذا أن الاوراق البيض قد تكون قد تركت عن قصد لاضافة معلومات جديدة • ومن المفيد الذكر أن ولد ابن العديم قد قام بتدوين بعض ما لم يتمكن والده من اضافته في بعض هذه الفراغات •

ومهما كانت الحال فانكتاب بغية الطلبهو عبارة عن منجم غني جدا بالمعلومات التاريخية وغيرها مما يتعلق مباشرة بالشام الاعلى كجزء ، وبالشام جمعيه ككل ، ثم بالعالم الاسلامي كوحدة دينية وثقافية وحضارية • في هذا الكتاب معلومات حول حياة وتاريخ الثغور الاسلامية البيزنطية ليس لها نظير في التفصيل والشمول والجدة، حيث يمكن أن يقام عليها لوحدها دراسة رائعة • وفي الحقيقة انه لمن المستحيل أن أستطيع أن أقدم هنا في هذه المقدمة السريعة وصفا كاملا ، أو دراسة وافية لهذا الكتاب ، حيث أن ذلك يحتاج لاطروحة كاملة أو لمجلد منفصل •

لم ينشر من المجلدات الباقية من بغية الطلب سوى تنف يسيرة ، ولأهمية الكتاب وحاجة المكتبة العربية والباحثين اليه أقوم الان بالعمل على نشرد ، وقد دفعته للطباعة ، وأملي كبير بخروجه قريبا •

ان من بين التراجم البالغة الاهمية التي تحويها هذه المجلدات الباقية ترجمة لصاحب الخال القرمطي • وتحوي هذه الترجمة معلومات على غاية من الخطورة نقلها ابن العديم من تواريخ ومؤلفات عدد من المتقدمين الذين لم تصلنا معظم كتبهم ، وهـم :(١) •

ان جميع مخطوطات المجلدات العشرة المتبقية من بغية الطلب موجودة في مكتبات استانبول . واحد (وهو الاول) في مكتبة ايـاسوفيا برقم ٣٠٣٦ وثمانية في احمد الثالث في طوب قبو سراي برقم ٢٩٢٥ . وواحد في فيض الله برقم ١٤٠٤ . هذا ويوجد نسخة عن المجلد الثالث لاحمد الثالث في المكتبة الوطنية في باريس برقم ٢١٣٨ وهي لا باس بها،انما لا قيمة كبيرة لها طالما ان‌نسخة المؤلف موجودة. ويوجد في المتحف البريطاني في لندن نسخة سيئة عن المجلد الثامن من نسخة أحمد الثالث وهي برقم Add 23,354 وهناك كما اخبرت نسخة عن المجلد الاول لاحمد الثالث في مكتبة المرحوم داود جلبي في الموصل ! لقد تمكنت من الحصول

أ ـ أبو عبد الله محمد بن يوسف الانباري الكاتب • ولعله هو الذي ذكره الخطيب البغدادي في تاريخه (٣/٣٩٣) ولكن دونما اشارة الى حياته وعمله أو سنة وفاته • واذا صح وكان هو المقصود فان في تاريخ الخطيب نفسه (١٤/٦٥) ما يوحي بأنه كان من رجال القرن الثالث للهجرة التاسع للميلاد •

ب ـ أبو محمد عبد الله بن الحسين القطربلي ومحمد بن مزيد (أو بن أحمد بن مزيد) ابن محمود المعروف بابن أبي الازهر • وهما قد اجتمعا وكان (من الزوّل اجتماعها على تأليف كتاب ، وقل ما يعرف مثل ذلك) • وكان هذا الكتاب كتاب تاريخ كان (أهل بغداد وأهل مصر يزعمون أنه لم يصنف في معناه مثله لصغر حجمه وكبر علمه) •

ولد ابن أبي الازهر كما نقل الذهبي في سنة ٢٣٢/٨٥٦ وتوفي في جمادي الاخرة في سنة ٣٣٥ [كانون الثاني ٩٤٧] • وقد صنف في حياته بالاضافة الى الكتاب الانف ذكره الذي عمله مع القطربلي ، عددا من الكتب منها أخبار الهرج والمرج في أخبار المستعين والمعتز وكتاب أخبار عقلاء المجانين وكتاب قدماء البلغاء •

وفي حين أنني تمكنت من الاهتداء الى أكثر من ترجمة لابن أبي الازهر أخفقت في الوقوف على واحدة للقطربلي • وقد وهمت الدكتورة عائشة عبد الرحمن حين ظننته أنه هو الذي ذكره النديم في الفهرست [ص ١٨٦ • ط القاهرة] • فهذا اسمه : أحمد بن عبد الله بن الحسين بن سعيد القطربلي وكان يكنى بأبي الحسن في

على مصورات العشر مجلدات الموجودة في استانبول ومجلد باريس لكنني اخفقت في الحصول على مصورة مجلد داود جلبي ولم أر فائدة في تصوير مجلد المتحف البريطاني ذلك انني طالعته مباشرة وقارنته مع النسخة الام . لقد انتزعت النصوص التي اقوم اليوم بنشرها من المجلد الثالث لاحمد الثالث ١٢٩ ظ ـ ١٤٢ ـ و . ومن المجلد الخامس لنفس المكتبة ٢٣١ ظ ـ ٢٣٣ و .

انظر معجم الادباء ١٩/٦ ـ ٤٦ . زبدة الحلب ، تحقيق سامي الدهان . دمشق ١٩٥١ ، ١/١٣ـ٧٩ . اعلام النبلاء للطباخ (محمد راغب) حلب ١٩٢٣ ـ ١٩٢٥، ٤/٨٠ ـ ٥١٢ الاعلام للزركلي (عمر بن احمد بن العديم) ٥٦٨ .

Brock, I, 404(332) : S.1.568.

Historian of The Middle East, Edited by Bernard Lewis snd P.M. Holt. London 1964 : PP. 111-113.

حين أن اسم صاحبنا كما ذكر ابن العديم ونقل حاجي خليفة عن ابن خلكان : عبد الله ابن الحسين القطربلي وكان يكنى بأبي محمد والذي ذكره ابن النديم أشبه بأن يكون ابنا له من أن يكون هو نفسه[1] .

ت ـ أبو عبد الله محمد بن داود بن الجراح الكاتب عم علي بن عيسى الوزير العباسي الشهير ، ولد سنة ٨٥٧/٢٤٣ وتوفي مقتولا في شهر ربيع الاخر لسنة ٢٩٦/ كانون الثاني ٩٠٩ . تقلد بعض أعمال الدواوين للخلافة وتورط في مشاكلها مما سبب فقدان حياته . كان محمد بن داود « فاضلا عارفا بأيام الناس وأخبار الخلفاء والوزراء وله في ذلك مصنفات معروفة»من مصنفاته كتاب الورقة في أخبار الشعراء. كتاب الشعر والشعراء . كتاب من اسمه عمرو من الشعراء. كتاب الوزراء . وكتاب الاربعة على مثال كتاب أبي هفان « الاربعة في أخبار الشعراء» . وكتاب أخبار القرامطة[2] .

ث ـ أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله الصولي المتوفي سنة ٩٤٧/٣٣٦ . وهو أيضا كان من مشاهير كتاب الدولة العباسية وشغل عددا من المناصب وألف

(١) مروج الذهب للمسعودي. ط. القاهرة ١٩٥٨ ، ١/٦ . الفهرست للنديم ط. القاهرة في ٢١١ . رسالة الغفران لابي العلاء المعري ط. ١٩٦٩ : ٤٢٩،٤٢٤. تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ـ ط. القاهرة ١٩٣١ : ٢٨٨/٣ . تاريخ الاسلام للذهبي مخطوطة المتحف البريطاني OR ٤٨ : ١٧١ و. بغية الوعاة لجلال الدين عبد الرحمن للسيوطي ـ ط : القاهرة ١٣٢٦ هـ. ص ١٠٤. الاعلان بالتوبيخ للسخاوي ـ ط. بغداد ١٩٦٣ ، ص ٦٩٤ . كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة ط. ليبزغ ١٨٣٧ : ١١٠/٢ ، ١٣٧ .

(٢) طبع كتاب الورقة في القاهرة بتحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام وعبد الستار احمد فراج . ووصف الاستاذ حمد الجاسر مخطوطة لكتاب من اسمه عمرو من الشعراء وبدأ بنشره وذلك في مجلته « العرب » عدد كانون أول وما بعده من اعداد سنة ١٩٧٠ . انظر أيضا الفهرست للنديم ط. ليبزغ ١٨٧١ ، ١٢٨/١ . تاريخ بغداد ٢٥٥/٥ . المنتظم لابن الجوزي ـ ط . حيدر اباد سنة ١٣٥٧ هـ : ٧٩/٦ . والوافي بالوفيات للصلاح الصفدي ، تحقيق هلموت ريتر ١٩٦١ : ٣/ ٦١ـ١٢. وفوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبي ـ ط. بولاق الثانية:٢٠٢/٢.

عددا من الكتب ، منها كتاب الاوراق • وأدب الكتاب وكتاب الوزراء وعددا آخر عددهم النديم في الفهرست وكذلك فعل آخرون ممن ترجم له[١] •

ج ـ أبو غالب همام بن الفضل بن جعفر بن المهذب من أهالي معرة النعمان كتب كتابا في التاريخ أكثر ابن العديم النقل منه • ولم أقف لابن المهذب على ترجمة انما ابن العديم قد ذكره بين تلاميذ أبي العلاء المعري الذي توفي سنة ٤٤٩/١٠٥٧ ، وهذا يعني أنه كان من رجال القرن الخامس/الحادي عشر • ومن المحتمل أن نسخة من تاريخ ابن المهذب قد كانت موجودة في العصر العثماني ذلك أن حاجي خليفة قد ذكر الكتاب في كتابه كشف الظنون[٢] •

ج ـ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر صاحب تاريخ دمشق • ولد ابن عساكر في دمشق سنة ٤٩٩/١١٠٥ وتوفي سنة ٥٧١/١١٧٥ • ان ابن عساكر أشهر من أن يعرف به في هذه المقدمة ويكفي أن أحيل على مقدمة المجلدة الاولى من تاريخه التي صنعها الدكتور صلاح المنجد حيث أنها شاملة ووافية[٣] •

خ ـ ثابت بن سنان وقد سبق وترجمنا له •

أما القسم الثاني عشر فقد تم انتزاعه من « كتاب نهاية الأرب » للنويري من الجزء الخامس والعشرين من كتابه ومن المجلدة الخاصة التي أوقفها للحديث عن تاريخ الخلافة الفاطمية ، وهذه المجلدة هي واحدا من الكتب التي عزمت على نشرها

---

(١) مروج الذهب للمسعودي: ٥/١ . الفهرست للنديم ـ ط. القاهرة ص ٢٢١ . تاريخ بغداد ٤٢٧/٣ . المنتظم ٣٥٩/٦ـ٣٦١ وفيات الاعيان. ط، باريس ١٨٣٨: ٧١٤/١، ٧١٦. البداية والنهاية : ٢١٩/١١ ـ ٢٢٠ .

(٢) بغية الطلب ، احمد الثالث : ١٩٦/١ و. الانصاف والتحري في تعريف القدماء بأبي العلاء . ط. القاهرة ١٩٤٤ ص ٥١٧. ومن المفيد ذكره أن الاستاذ حمد الجاسر قد اخبرني بأن أحد احفاد ابن العديم قد كتب كتابا اسمه سوق الفاضل في ترجمة القاضي الفاضل وانه قد نقل النص الكامل للانصاف والتحري وضمنه كتابه هذا ، ومخطوطة هذا الكتاب موجودة في مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمت في المدينة برقم /٤١٠/ قديم او /١١٨/ جديد ، وهناك نسخة مصورة عن هذا الكتاب في معهد المخطوطات في القاهرة . انظر كشف الظنون ١٠٥/٢ .

(٣) تاريخ مدينة دمشق . ط. دمشق ١٩٥١ ، ٥/١ ـ ٤٠ .

ضمن مجموعة أخبار الدولة الفاطمية ، وكان قد سبق لي الحصول على مصورة لها في عام ١٩٦٧ عن مخطوطة محفوظة في دار الكتب المصرية ، ثم حصلت مؤخرا على فصل القرامطة في المجلدة الخامسة والعشرين .

والنويري هو أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري ، عرف بلقب شهاب الدين ، وشهر بالنويري نسبة الى نويرة ، وهي قرية من قرى بني سويف في مصر ، كانت ولادته سنة ٦٧٧ هـ وحسب بعض الروايات ٦٨٢ هـ ، ذلك أنه توفي سنة ٧٣٢ هـ وهو من أبناء الخمسين[١] .

نال النويري ثقافة جيدة ، ويبدو أنه عمل في الوراقة ، بحيث كان ينسخ بخط يده الكتب ويبيعها ، حتى أنه نسخ صحيح البخاري ثماني مرات ، وكان خطه من الجودة والضبط بمكان ، وهو يأتي على رأس الموسوعيين العرب ، ونال شهرته من خلال تصنيف كتابه « نهاية الأرب في علم الأدب » وجاء في هذا الكتاب في ثلاثين مجلدة كبار ، وقد نشر حتى الآن قسم كبير من هذا الكتاب العملاق ، والأمل كبير بأن يتم نشر بقيته خاصة بقية الاقسام التاريخية منه .

هذا وقد سبق لأكثر من باحث الاستفادة القصوى مما كتبه النويري وضمنه في موسوعته من معلومات ، خاصة فيما يتعلق بالقرامطة حيث أوقف فصلا خاصا من كتابه على هذا الموضوع ، لحسن الحظ أنني تمكنت من الحاقه بهذه الطبعة .

وتم انتزاع القسم الثالث عشر من كتابي « اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا » « والمقفى الكبير في تراجم أهل مصر والوافدين عليها » لمؤرخ مصر الاسلامية المقريزي .

والمقريزي هو تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ولدفيالقاهرة سنة ٧٦٦ هـ من أسرة تنتمي بالاصل الى بلدة بعلبك ، قيل أنها كانت تقطن في حي من أحياء بعلبك عرف باسم حي المقارزة ، زالت الآن معالمه ولم يعد أحد يعرفه .

---

(١) انظر المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لابي المحاسن بن تغري بردي ــ ط . القاهرة ١٩٥٦ ــ ١/٣٦١ ــ ٣٦٢ . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي ــ ط. القاهرة ٩/٢٩٩ . البداية والنهاية لابن كثير ــ ط. القاهرة: ١٤/١٦٤ . الاعلام للزركلي .

نشأ المقريزي في كنف جـده لأمه ، ويعرف بابن الصائغ ، وكان من علمـاء الحنفية ، لهذا تأثر الحفيد بالجد ، فكان حنفيا حتى غدا شابا فتحول الى المذهب الشافعي •

حصل المقريزي على ثقافة عالية ، والتحق بعدد من الوظائف السامية كما قام بزيارة عدد من بلدان العرب خاصة مكة ودمشق، حيث أقام في كل منهما فترة طويلة، وقد انتهت حياته في القاهرة سنة ٨٤٥هـ •

كان المقريزي غزيـر الانتاج ، وخاصة في ميادين التاريخ ، وقـد عاصر ابن خلدون وقد تأثر به كثيرا أثناء اقامته في القاهرة ، وقامت بينهما وشائج من القربى ، ويمكن تصنيف نتاج المقريزي الى قسمين : المؤلفات الكبيرة ، والرسائل الصغيرة ، وقد أوقف مؤلفاته الكبيرة اما على موضوع من مواضيع التاريخ الاسلامي العام،أو تاريخ مصر الاسلامية السياسي والعمراني ، عبر عدة مراحل أولها منذ الفتح حتى قيام الخلافة الفاطمية ، وثانيها تاريخ لهذه الخلافة حتى سقوطها ، وثالثها منذ نهاية العصر الفاطمي وحتى أيامـه •

أما الرسائل الصغيرة فقد عالج فيها المقريزي عددا من المواضيع الهامة للغاية ، وفي هذه الرسائل تظهر أصالة المقريزي وعبقريته العظيمة وصورة المقريزي في رسائله هي معاكسة لصورته في مؤلفاته الكبيرة ، حيث أنه في غالبية هذه المؤلفات الكبيرة هو كحاطب ليل يغير على مصنفات الذين سبقوه فينقل عنها ما شاء له الحظ أن يفعل دون أن يشير الى مصادره ، وهنا اذا حدث وورد ذكر مصدر من المصادر في نص من كتب المقريزي فهو في الغالب مصدر اعتمده صاحب الكتاب الذي أغار عليـه المقريزي دون أن يسميه •

وعلى الرغم من هذا فان كتب المقريزي على اختلاف أحجامها في غاية الاهمية لأن المصادر التي اعتمدها هي محجوبة عنا الآن وتعتبر في حكم المفقود •

لقد تجمع لدى المقريزي مادة تاريخية كبيرة للغاية أراد في أواخر أيامه تصنيفها في كتاب تاريخ كبير يؤرخ به لمصر والوافدين عليها يجعله في ثمانين مجلدة كبيرة مثل تاريخ دمشق لابن عساكر ، وقد لحق المقريزي بربه قبل أن يتاح له اكمال مشروعه الكبير هذا ، الذي بوبه حسب حروف المعجم ، وقد قيل بأنه كتب منه ست عشرة مجلدة قبل أن يتوفى •

لاندري مدى صحة هذه الرواية،وفي الوقت نفسه لاندري حجم المجلدة لدى المقريزي ، والذي أعرفه الان هو أنني وقفت على خمس مجلدات من هذا الكتاب لدي مصورة لها جميعا ، أربع منها بخط المقريزي ، وهذه المجلدات واحد منها أعتقد أنه الاول محفوظ الآن في مكتبة برتو باشا في استانبول ، وهو كما صرح ناسخه قد نسخه عن نسخة بخط المقريزي وهو مجلد كبير للغاية ، أما المجلدات الاربع فثلاثة منها في ليدن وواحد في باريس وقد قمت باستعراض مواد هذه المجلدات واستخرجت منها ما يختص بالخلافة الفاطمية ، كما استخرجت منها كتابا كاملا يؤرخ للدولة العباسية ، أنا في المراحل الاخيرة من تحقيقه ، وأطمع أن أدفعه للطباعة الصيف المقبل بعونه تعالى .

من مجلدة برتو باشا قمت بانتزاع ترجمتي بدر الحمامي والحسن الاعصم زعيم قرامطة الاحساء الذي تصدى للخلافة الفاطمية في بداية طورها المصري الشامي،ومن مجلدة باريس ترجمة طغج بن جف وأبي المنجا القرمطي ، وفي مجلدات ليدن ترجمة أبي بكر النابلسي وبعض ترجمة محمد بن سليمان الكاتب ، كما سبق وأخرجت منه تراجم لكل من جوهر الصقلبي وجعفر بن فلاح وسواهما ، وقد سبق لي نشر هذه التراجم في ملاحق كتابي « مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية » و « تاريخ أخبار القرامطة » الذي هو أصل كتابنا الذي نقدم له اليوم .

كما سلف القول بأن المقريزي أوقف كتابه « اتعاظ الحنفا » على الخلافة الفاطمية ، وهذا الكتاب اعتبر فيما مضى وما زال يعتبر أفضل مصادر التاريخ الفاطمي ، وقد أثار هذا الكتاب جدلا حول المقريزي وميوله المذهبية ، عالجها أكثر من باحث من بينهم المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال ، والدكتور محمد مصطفى زيادة(١) .

وقد تم التعرف أولا الى هذا الكتاب عبر نسخة خطية ناقصة عثر عليها في مكتبة غوطا بالمانية، وقد نشرت هذه القطعة أولا سنة ١٩٠٩ بعناية المستشرق الالماني هوجر بونز ، وقد أعاد المرحوم الشيال نشر هذه القطعة ثانية بعناية أكبر سنة ١٩٤٨ في القاهرة .

---

(١) انظر اتعاظ الحنفا . ط. القاهرة : ١٩٦٧ : ١/١١ — ٢٣ .

وبعد هذا بوقت قصير تم التعرف الى نسخة كاملة من الكتاب تقع في مائـة وسبعون ورقة ، وهي محفوظة الان في مكتبة أحمد الثالث في طوب قبو سراي في استانبول •

واهتم المرحوم الدكتور الشيال مجددا بالكتاب واستطاع قبل وفاته نشر قسم من الكتاب عام ١٩٦٧ في القاهرة ، وفي هذا القسم أفرد المقريزي فصلا خاصا أوقفه على الحديث عن القرامطة،ومادةهذا الفصل غنية جدا وعظيمة الفائدة وهي مع مانعرفه من نصوص أخرى تكمل صورة تاريخ القرامطة وتزيده وضوحا •

وأثناء عملي بتاريخ حركات القرامطة عدت مرارا الى هذا الفصل ، ولاحظت أثناء عودتي لطبعـة المرحوم الشيال الاخيرة ، أنه رحمه الله برغم تخصصه بكتب المقريزي لم يحالفه الحظ تماما في قراءة فصل القرامطة،لهذا جاء محشوا بالتصحيفات خاصة أسماء العديد من المدن والقرى في سواد العراق ، حيث ذكر في الحواشي أنه لم يقف لها على ذكر ، لهذا عمدت الى اعادة النظر في تحقيق هذا الفصل وأدخلته ضمن كتابي هذا واعتمدت في عملي على مطبوعة عام ١٩٦٧ مع النسخة الخطيـة الكاملة للكتاب والمحفوظة في مكتبة أحمد الثالث تحت رقم ١٠١٣،حيث أنني أمتلك نسخة مصورة عنها ، ما زلت أنوي اعادة نشرها ضمن مجموعـة تاريخ الخلافـة الفاطمية ، والله هو الموفق والمعين •

أما القسم الرابع عشر فقد تم انتزاعه من كتاب « العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك » تصنيف علي بن الحسن الخزرجي •

ولد الخزرجي سنة ٧٣٢ هـ في مدينة زبيد ، وفيها نشأ ونال ثقافته وقد عاش في ظل الدولة الرسولية ، ولربما التحق بخدمة هذه الدولة ، وظل يعيش في كنفها حتى وفاته سنة ٨١٢ هـ •

يعتبر الخزرجي كبير مؤرخي اليمن المتأخرين ، كتب في تاريخ اليمن العام كما كتب في التاريخ الخاص ، خاصة تاريخ الدولة الرسولية التي أوقف على أخبارهـا « العقود اللؤلؤية » •

ولعل أهم كتبه في تاريخ اليمن العام كتابه الموسوم « بالعسجد المسبوك » ويبدو أنه أرخ به لليمن ، منذ ما قبل الاسلام وحتى أيامه ، وأن تصنيفه له قد مر

بعدة مراحل في كل مرحلة عرف فيها باسم خاص ، لهذا تعددت أسماء نسخ هذا الكتاب ، انما يبدو أن آخر عنوان اعتمده هو « العسجد المسبوك فيمن ولي اليمن من الملوك ».

لقد أوقف الخزرجي فصلا خاصا من فصول كتابه هذا على تاريخ قرامطة اليمن وقدم في هذا الفصل مادة على درجة كبيرة من الاهمية ونص الخزرجي هذا هو ثالث نصوص كتابنا الذي نقدم له اليوم عن قرامطة اليمن ، ويمكن القول بأنه كتب من وجهة نظر يمانية محافظة والى حد ما محايدة .

واطلعت على هذا النص لاول مرة منذ سنوات بوساطة عالم العرب والجزيرة الاستاذ حمد الجاسر ، حيث كان لديه مأخوذا عن نسخة الحرم المكي من الكتاب ، ومنذ عدة سنوات جرى تكليفي من قبل وزارة الاعلام في صنعاء بالعمل على تحقيق هذا الكتاب ، وأرسل الي مصورة مخطوطة الجامع الكبير في صنعاء ، واعتمادا على نسختي الحرم المكي والجامع الكبير قمت بتحقيق هذا الفصل وألحقته بكتابي هذا[1].

(1) انظر راضي دغفوس « اليمن في عهد الولاة » منشورات الجامعة التونسية ١٩٧٩: ٥ - ٢٣ .

الجامع

في

أخبار القرامطة

في

الأحساء - الشام - العراق - اليمن

دراسة وتحقيق لما جاء في مصنفات :

ثابت بن سنان بن قرة الصابئ وآله - علي بن محمد بن عبيد الله العباسي العلوي

الداعية الإسماعيلي أحمد بن ابراهيم النيسابوري - داعية إسماعيلي قديم مجهول

القاضي عبد الجبار الهمذاني - ناصر خسرو - أبو محمد اليماني - محمد بن مالك اليماني

عبد الرحمن بن الجوزي - علي بن ظافر الأزدي - كمال الدين بن العديم

أحمد بن عبد الوهاب النويري - أحمد بن علي المقريزي - علي بن الحسن الخزرجي

تاريــخ اخبــار القرامطــة

تصنيف حجة المؤرخين،الثقة، جهبذ[1] عصره،ثابت بن سنان ابن كرة الصابيء، صاحب التاريخ الشهير ، المتوفى في سلخ [ذي] الحجة سنة خمس وستين وثلاثمائة هجريــة[2] .

---

(1) في الاصل جهبذة .

(2) اضيف هذا بخط مخالف لخط الاصل ، وعلى ورق مخالف ايضا ، وربما اثنــاء تجليد النسخة هذه من قبل احد الذين امتلكوها .

بيان مبتدىء ظهور القرامطة

في سنة ثمان وسبعين ومائتين

اول ظهورهم بالكوفة .

ثم أبي سعيد الجنابي بهجر .

ثم القرمطي الذي كان يعبر عن نفسه أنه اذا أشار الى ناحية عدوه انهزم .

ثم أبي الشامة .

ثم ابن زكرويه .

ثم أبي طاهر .

ثم أبي الحسن .

والحسين بن بهرام .

ثم الحسن بن أحمد .

وبدء ظهورهم كان في عصر الخليفة المعتضد

والخليفة المقتدر .

وابن المعتز

وخلافة القاهر .

وخلافة الراضي .

وخلافة المتقي .

ومعز الدولة .

والمعز لدين الله بمصر وولده العزيز[١] .

---

(١) وقعت هذه الصفحة مقابل صفحة (٥٢) من الاصل .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبــه نقتــي ومنـــه العـون

الحمد لله جل جلاله ، منشيء الخلائق من العدم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآلــه ، سيد العرب والعجم .

وبعد فهذا كتاب توخيت في تدبيجه ، أخبار طائفة ، مما مضى مــن البشر ، تدعى بالقرامطة ، وأوضحت فيها ما كانوا عليها من النحلة والعقيدة ، مما كانوا عليه الى زمن انقراضهم ، واضمحلال أمرهم ، وهلاكهم وقطع دابرهم ، معتمدا في ذلك على آراء معاصريهم من المؤرخين الحجة الثقة ، والله ولي التوفيق

باب بدء ظهور القرامطة ومنزلتها من التاريخ

في سنة مائتين وثمان وسبعين من الهجرة .

فيها : تحرك بسواد الكوفة ، قوم يعرفون بالقرامطة .

وكان ابتداء أمرهم ـ فيما ذكر ـ أن زعيم هذه الطائفة قدم من بلدة من خوزستان الى[1] عاصمة الكوفة فنزل بموضع يقال له النهرين ، وتظاهر بالزهد والورع والتقشف و [كان] يسف الخوص[2] ، ويأكل من كسب يده ، ويكثر من الصلاة، وأقام على ذلك زمنا كبيرا[3] . وكان اذا جاءه شخص، وجلس معه ، تحدث معه في أمر الدين،وزهده في الدنيا، وأخبره أن الصلاة المفروضة على الناس خمسون صلاة في كل يوم وليلة ، حتى فشا ذلك بموضعه ، ثم أعلمهم أنه يدعو الى امام من أهل البيت[4] . فأقام على الدعاية حتى اجتمع حوله جمع كبير .

واصطحب برجل بقال وكان يكثر الجلوس على بـاب حانوته ، فجاء يوما[5] قوم الى البقال وطلبوا منه رجلا يحفظ عليهم ما صرموا من نخلهم ، فدلهم عليه ، وقال لهم : « ان أجابكم الى حفظ ثمركم[6] فانه بحيث تحبون » فكلموه في ذلك فأجابهم الى ذلك بأجر معلوم ، فكان يحفظ لهم ، ويصلي أكثر نهاره ويصوم، ويأخذ عند افطاره رطلا[7] من التمر من البقال فيأكله ، ويجمع النوى ويعطيه البقال .

فلما حمل التجار تمرهم حاسبوا أجيرهم عند البقال ودفعوا اليه أجرته ، وحاسب الاجير البقال على ما أخذه من التمر ، ودفع له ثمن النوى[8] . فسمع أصحاب التمر محاسبته للبقال بثمن النوى ، فضربوه ، وقالوا له : « لم ترض بأكل تمرنا حتى بعت النوى » فقال لهم البقال « لا تفعلوا »[9] وقص عليهم القصة ، فندموا على ضربه ، واستحلوا منه ففعل .

---

(١) في الطبري ٢١٢٤ ـ سواد الكوفة ـ .

(٢) الخوص : ورق النخل ، وسف الخوص : نسجه . القاموس .

(٣) في الاصل ـ زمن كبير ـ والزيادة مما اقتضاه السياق .

(٤) الطبري ٢١٢٤ ـ من أهل بيت الرسول ـ .

(٥) في الاصل ـ يوم ـ (٦) الطبري ٢١٢٥ ـ ثمرتكم ـ (٧) في الاصل ـ رطل ـ

(٨) الطبري ٢١٢٥ ـ وخط من ذلك ثمن النوى ـ .

(٩) في الطبري ٢١٢٥ ـ لا تفعلوا فانه لم يمس ثمركم وقص ـ .

وازداد بذلك [نبلا][1] عند أهل القرية لما وقفوا عليه من زهده ، ثم مرض ، فمكث على الطريق مطروحا ، وكان في القرية رجل يدعى « كرميته » لحمرة عينيه ـ وهو بالنبطية [أحمر العينين][2] ـ يحمل على أثوار له ، فكلم البقال[3] في حمل المريض الى بيته ، فحمله وأقام حتى برىء .

ودعا أهل القرية الى اعتناق مذهبه فأجابوه وكان يأخذ من كل رجل دينارا ؛ ويزعم أنه للامام . واتخذ منهم اثني عشر نقيبا ، وأمرهم أن يدعو الناس الى نحلته، وقال لهم : أنتم كحواريي عيسى . فاشتغل أهل كور [تلك الناحية][4] عن أعمالهم، بما رسم لهم[5] من الصلوات ، وكان للهيصم [في تلك الناحية][6] ضياع فرأى تقصير أهل القرية في عمارتها ، فسأل عن ذلك ، فأخبر بخبر القرمطي ، فأخذه وحبسه وحلف أن يقتله لما اطلع على مذهبه، وأغلق باب البيت عليه، وجعل مفتاح البيت تحت وسادته ، واشتغل بالشرب ، فسمع بعض من في الدار من الجواري [بقصته][7] فرقت للرجل، فأخذت المفتاح ـ حين نام سيدها ـ وفتحت الباب وأخرجته ، ووضعت المفتاح مكانه[8]

---

(1) زيادة من الطبري ـ ٢١٢٥ ـ .

(2) زيادة من الطبري ـ ٢١٢٥ ـ والمقصود بالنبطية اللهجة المحلية لسكان سواد العراق ، فقد عرفوا في الماضي باسم النبط . وهي ذات صلة وثيقة بالارامية كما هو معتقد .

(3) الطبري ٢١٢٥ ـ فكلم البقال كرميته هذا في أن يحمل هذا العليل الى منزله ويوصي اهله بالاشراف عليه ، والعناية به ، ففعل .

(4) الاضافة من الطبري ـ ٢١٢٦ ـ .

(5) في الطبري ـ ٢١٢٦ ـ بما رسم لهم من الخمسين صلاة التي ذكر انها مفترضة عليهم .

(6) زيادة من الطبري ـ ٢١٢٦ ـ ولم تحدد المصادر هوية شخصية الهيصم .

(7) زيادة من الطبري ـ ٢١٢٦ ـ .

(8) في الطبري ـ ٢١٢٦ ـ اخذت المفتاح من تحت وسادته وفتحت الباب واخرجته، واقفلت الباب وردت المفتاح الى موضعه ـ .

فلما سمع الهيصم فتح الباب ليقتله فلم يجده . وشاع ذلك في الناس فافتتن به خلق كثير من تلك القرية ، وقالوا : رفع ، ثم ظهر في ناحية أخرى واجتمع بأصحابه وغيرهم ، وسألوه عن أمره فأخبر أنه لا يمكن أحدا أن يصل اليه بسوء ، فعظم في ذاك الوقت في أعينهم ، ثم خاف على نفسه ، فخرج الى ناحية الشام ، فلم يوقف له على أثر ، وسمى نفسه باسم الرجل الذي كان في داره « كرميته » ، صاحب الاثوار، ثم خفف فقيل قرمط . هكذا ذكر[1] أصحاب زكرويه عنه .

وقيل ان قرمط لقب رجل بسواد الكوفة ، كان يحمل غلة على أثوار له واسمه حمدان[2] .

ثم فشا مذهب القرامطة بسواد الكوفة ، ورأس[3] الطائي أحمد بن محمد على أمرهم ، فجعل على الرجل منهم دينارا في العام ، فقدم قوم من الكوفة فرفعوا أمر القرامطة والطائي الى السلطان ، وأخبروه أنهم أحدثوا ما ليس في دين الاسلام ، وأنهم يرون السيف على أمة محمد ﷺ الا من بايعهم[4] ، فلم يلتفت اليهم ولم يسمع لهم

وفيما حكي عن القرامطة عن مذهبهم أنهم جاؤوا بكتاب فيه « بسم الله الرحمن الرحيم يقول الفرج بن عثمان — وهو من قرية يقال لها نصرانة — داعية المسيح ، وهو عيسى ، وهو الكلمة ، وهو المهدي ، وهو أحمد بن محمد بن الحنفية ، وهو جبريل » . وذكر أن المسيح تصور له في جسم انسان وقال له : « أنت الداعية وإنك الحجة ، وانك الناقة ، وانك الدابة ، وانك يحيى ، وانك روح القدس » ، وأخبره أن الصلاة أربع ركعات ، ركعتان قبل الشروق وركعتان بعد[5] الغروب ، ويقيم الاذان في كل صلاة ، يكبر الله ثلاثا « أشهد أن لا اله الا الله » مرتين « أشهد أن

---

(١) في الاصل ذكره .

(٢) الطبري ٢١٢٧ — كان يحمل غلات السواد على أثوار له يسمى حمدان ، ويلقب بقرمط — .

(٣) في الطبري ٢١٢٧ ووقف .

(٤) في الطبري ٢١٢٧ — بايعهم على دينهم وان الطائي يخفي أمرهم على السلطان — .

(٥) في الطبري ٢١٢٨ — قبل — .

آدم رسول الله » ، « أشهد أن إبراهيم رسول الله »،« أشهد أن موسى رسول الله»، « أشهد أن عيسى رسول الله » ، « أشهد أن محمدا رسول الله » ، وأشهد أن أحمد ابن محمد بن الحنفية رسول الله » ، ويقرأ في كل ركعة الاستفتاح[1] المنزل علـى أحمد بن محمد بن الحنفية ، والقبلة الى بيت المقدس[2] ، وأن الجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيه شيء، والسورة « الحمد لله بكلمته وتعالى باسمه المتخذ لأوليائه بأوليائه، قـل ان الاهلة مواقيت للناس[3] ظاهرها ليعلم عـدد السنين والحساب والشهور والايام ، وباطنها أوليائي الذين عرفوا عبادي سبيلي ، اتقوني يا أولي الالباب وأنا الذي لا أسأل عما أفعل ، وأنا العليم الحكيم ، وأنا الذي أبلو عبادي وأمتحن خلقي، فمن صبر على بلائي ومحنتي واختباري ألقيته في جنتي ، وأخلدته في نعمتي ، ومن زال[4] عن أمري ، وكذب رسلي ، أخلدته مهانا في عذابي ، وأتممت أجلي، وأظهرت أمري على ألسنة رسلي ، وأنا الذي لم يعل علي جبار الا وضعته ولا عزيز الا أذللته، وليس الذي أصر على أمره[5] ودام على جهالته وقالوا : لن نبرح عليه عاكفين وبه موقنين[6] « أولئك الكافرون » ثم يركع ويقول في ركوعه : « سبحان ربي رب العزة وتعالى عما يصف الظالمون » يقولها مرتين ، فاذا سجد قال « الله أعلى » مرتـين « الله أعظم » مرتين . ومن شريعته الصوم يومين في السنة ، وهما المهرجان، والنيروز، والنبيذ حرام ، والخمر حلال، وألا يغتسلوا من الجنابة الا الوضوء كوضوء الصلاة، وأن من حاربه وجب قتله ، ومن لم يحاربه ممن خالفه وجب عليه الجزية ، ولا يأكل كل ذي ناب ولا كل ذي مخلب .

---

(1) الطبري ٢١٢٨ ـ وهي من المنزل على احمد ..

(2) زاد الطبري ٢١٢٨ ـ والحج الى بيت المقدس .

(3) انظر سورة البقرة ٢ : ١٨٩ .

(4) في الاصل ـ نزل ـ والتصحيح من الطبري ٢١٢٩ .

(5) في الاصل ـ عليه امري ـ والتصحيح من الطبري ٢١٢٩ .

(6) في الطبري ٢١٢٩ ـ مؤمنين ـ .

وكان مسير[1] قرمط الى سواد الكوفة قبل قتل صاحب الزنج . فسافر قرمط اليه وقال له : اني على مذهب ورأي ، ومعي مئة ألف ضارب سيف ، فتناظرني[2] ، فان اتفقنا على المذهب ملت اليك، وان تكن الاخرى انصرفت عنك، فتناظرا فاختلفت آراؤهما ، فانصرف قرمط عنــه .

---

(1) في الطبري ــ ٢١٢٩ مصير ــ ومن اجل ثورة الزنــج انظر كتابي تاريــخ العرب والاسلام : ٣٠٨ ــ ٣١٠ .

(2) في الطبري ــ ٢١٣٠ ــ اني على مذهب وورائي مائة الف صيف فناظرني .

باب ذكر ابتداء أمــر القرامطة بالبحرين

وفي سنة ست وثمانـين ومائتـين :

ظهر أبو سعيد الجنابي القرمطي بالبحرين ، فاجتمع اليه خلق كثير وجماعة من الاعراب والقرامطة ، وقوي أمره فقتل من[1] حوله من أهل القرى ، ثم سار الـى القطيف[2] فقتل [من][3] بها ، وظهر أنه يريد البصرة ، فكتب محمد بن يحيى الواثقي ــ وكان متولي البصرة ــ الى المعتضد[4] بذلك ، فأمره ببنـاء سور عـلى البصرة ، وكان مبلغ الخراج عليه أربعة عشر ألف دينار .

وكان ابتداء القرامطة بناحية البحرين أن رجلا يعرف بيحيى بن المهدي قصد قطيف ، فنزل على رجل يعرف بعلي بن المعلى بن حمدان ، مولى الزياديين ــ وكـان يغالي في التشيع ، فأظهر له يحيى أنه رسول المهدي[5] ــ وكان ذلك سنة احـدى وثمانين ومائتين ــ وذكر أنـه خرج الى شيعته في البلاد يدعوهم الى أمره ، وأن ظهوره قد قرب ، فأخبر علي بن المعلى الشيعة من أهل القطيف ، وقرأ عليهم الكتاب الذي مع يحيى بن المهدي اليهم من المهدي ، فأجابوه وأنهم خارجون معه اذا ظهر أمره ، ووجه الى سائر قرى البحرين بمثل ذلك فأجابوه . وكان فيمن أجابه أبو سعيد الجنابي ، وكان [يبيع] للناس الطعام ويحسب لهم بيعهم . ثم غاب عنهم يحيى بن المهدي مدة ، ثم رجع ومعه كتاب يزعم أنه من المهدي الى شيعته فيه : « قد عرفني

---

(1) في الاصل ــ ما ــ والتصحيح من الطبري ــ ٢١٨٨ .

(2) قصبة البحرين واعظم مدنها في الاسلام . معجم البلدان .

(3) زيادة من الطبري ــ ٢١٨٨ ــ وفيه : ثم صار الى موضع يقال له القطيف بينـه وبين البصرة مراحل فقتل من بها وذكر انه . . .

(4) امتدت خلافة المعتضد من : ٢٧٩ ــ ٢٨٩ هـ/٨٩٢ ــ ٩٠٨ م .

(5) يرجح ان المقصود به هو المهدي الفاطمي الذي سيكون ظهوره في افريقية سنة ٢٩٧ هـ حيث سيكون المؤسس الفعلي لحكم الخلافة الفاطمية .

رسولي يحيى بن المهدي مسارعتكم الى أمري فليدفع الي كل منكم ستة دنانير وثلثين » فدفعوا ذلك ، ثم غاب ، وعاد ومعه كتاب فيه « أن ادفعوا ليحيى خمس أموالكم » فدفعوا اليه الخمس ، وكان يحيى يتردد في قبائل عبد القيس ويورد اليهم كتبا يزعم أنها من المهدي ، وأنه ظاهر فكونوا على أهبة .

وحكى انسان منهم يقال له ابراهيم الصائغ ، وأنه كان عند أبي سعيد الجنابي، وأتاه يحيى ، فأكلوا طعاما ، فلما فرغوا خرج أبو سعيد الجنابي من بيته ، وأمر امرأته أن تدخل الى يحيى[1] ، وألا تمنعه ان أراد فانتهى هذا الخبر الى الوالي ، فأخذ يحيى فضربه وحلق رأسه ولحيته ، وهرب أبو سعيد ، وسار يحيى الى بني كلاب وعقيل والحريش ، فاجتمعوا معه ومع أبي سعيد ، فعظم أمر أبي سعيد وكان منه ما يأتي ذكره .

ومن أخبارهم في سنة سبع وثمانين ومائتين في ربيع الاخر،عظم أمرهم بالبحرين، وأغاروا على نواحي هجر[2] وقرب بعضهم من نواحي البصرة .

---

(١) غالبا ما تشير المصادر المعادية للقرامطة الى حوادث من هذا القبيل ، هي لا شك مخترعة استهدفت التشهير والضرب على النغمة الحساسة لدى شعوب المشرق الاسلامي .

(٢) الهجر بلغة حمير : القرية ، وفي بلاد العرب أكثر من هجر ، وهجر البحرين قاعدتها ــ معجم البلدان .

ذكر الحرب بين القرامطة وعسكر المسلمين وهــي اول موقعــة

ففي سلخ ربيع الآخر : كتب محمد الواثقي الى الخليفة يسأل المدد فسير اليه سميريات[1] فيها ثلاثمائة رجل ؛ وأمر المعتضد باختيار جيش[2] لينفذه الى البصرة ، وعزل العباس بن عمرو الغنوي عن بلاد فارس ، وأقطعه اليمامة والبحرين ، وأمره بمحاربة القرامطة وضم اليه زهاء ألف[3] رجل ، فسار الى البصرة واجتمع اليه جمع كبير من المطوعة ، والجند، والخدم، ثم سار منها الى أبي سعيد الجنابي فلقوه مساء، وتناوشوا القتال ، وحجز بينهم الليل ، فلما كان الليل انصرف عن العباس من كان معه من أعراب بني ضبة ــ وكانوا ثلاثمائة ــ الى البصرة، وتبعهم مطوعة البصرة فلما أصبح العباس باكر الحرب ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، ثم حمل نجاح ــ غلام أحمد بن عيسى بن الشيخ ــ صاحب ميسرة العباس ــ في مئة رجل على ميمنة أبي سعيــد فوغلوا فيهم ، فقتلوا عن[4] آخرهم ، وحمل الجنابي ومن معه على أصحاب العباس فانهزموا ، وأسر العباس ، وأخذ الجنابي ما كان في عسكره .

فلما كان من الغد أحضر الجنابي الاسرى وقتلهم عن بكرة أبيهم وحرقهم . وكانت الواقعة آخر شعبان[1] .

---

(١) في الطبري ٢١٩٢ ــ بثماني شذوات ــ وهي نوع من السفن التي كانت مستعملة تلك الايام .

(٢) في الاصل ــ برجل ينفذه ــ والتصحيح من الطبري ــ ٢١٩٢ ــ .

(٣) الطبري ٢١٩٣ ــ الفي ــ .

(٤) في الاصل ــ من ــ والتصحيح من الطبري .

(٥) في الطبري ١٢٩٦ ــ وكانت هذه الوقعة فيما ذكر في آخر رجب وورد خبرهــا بغداد لاربع خلون من شعبان ــ .

ثم سار الجنابي الى هجر بعد الواقعة فدخلها وأمن أهلها،وانصرف من سلم من المنهزمين الى البصرة ـ وهم قليل بغير زاد ـ فخرج اليهم من البصرة نحو أربعمائة رجل على الرواحل ، ومعهم الطعام والكسوة والماء ، فلقوا المنهزمين ، فخرج عليهم بنو أسد ، فأخذوا الرواحل ، وما عليها ، وقتلوا من سلم من المنهزمين[1] ، فاضطربت البصرة لذلك ، وعزم أهلها على الانتقال منها ، فمنعهم الواثقي[2] وبقي العباس عند الجنابي أياما ثم أطلقه ، وقال له : « امض الى صاحبك وعرفه ما رأيت » . وحمله على رواحل ، فوصل الى بعض السواحل ، وركب البحر فوافى الابلة[3] ، ثم سار منها الى بغداد ، فوصلها في سابع رمضان ودخل على الخليفة المعتضد فخلع عليه .

وبلغني أن عبيد الله بن طاهر قال « عجائب الدنيا ثلاث : جيش العباس بن عمرو يؤسر وحده ، وينجو وحده ويقتل جميع جيشه ، وجيش عمرو بن الصفار يؤسر وحده ، ويسلم[4] جميع جيشه ، وأنا أنزل في بيتي » وتولى ابن أبي العباس الجسرين ببغداد .

ولما أطلق أبو سعيد العباس ، أعطاه درجا ملصقا وقال له : أوصله الى المعتضد فان لي فيه أسرارا ، فلما دخل على المعتضد عاتبه ، فأعطاه الكتاب فقال : والله ليس فيه شيء ، وانما أراد أن يعلمني أني أرسلتك اليه في عدد كبير ، فرجعت الي فردا .

وفي ذي القعدة : أوقع بدر ـ غلام الطائي ـ بالقرامطة على غرة منهم بنواحي ميسان[5] وغيرها وقتل منهم مقتلة كبيرة ، ثم تركهم خوفا على السواد أن يخرب[6] وكانوا فلاحيه ، فطلب رؤساءهم ، فقتل من ظفر به منهم .

---

(1) في الطبري ٢١٩٧ ـ وقتلوا جماعة ممن كان مع تلك الرواحل ومن افلت من اصحاب العباس ـ .

(2) في الطبري ٢١٩٧ ـ فمنعهم احمد بن محمد الواثقي المتولي لمعاونها من ذلك ـ .

(3) الابلة : بلدة كانت على شاطىء دجلة البصرة في زاوية الخليج الذي يدخل الى مدينة البصرة ، وهي اقدم من البصرة ـ معجم البلدان .

(4) في الاصل ـ ينام ـ ولعل الصواب ما اثبت .

(5) في الطبري ٢٢٠٢ ـ رودميسان ـ وميسان اسم كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط . معجم البلدان .

(6) في الاصل ـ خوفا ان تخرب السواد ـ والتقويم من الطبري ٢٢٠٢ .

وفي سنة تسع وثمانين ومائتين :

ظهر بالشام رجل من القرامطة ، وجمع جموعا مـن الاعراب ، وأتى دمشق ، وأميرها طغج بن جف من قبل هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون، وكانت بينهما وقعات ، وكان ابتداء حال هذا القرمطي ان زكرويه بن مهرويه الذي ذكرنا[١] أن داعيته قرمط لما رأى أن الجيوش من المعتضد متتابعة الى من بسواد الكوفة مـن القرامطة،وان القتل قد أبادهم،سعى في استغواء من قرب الكوفة من الاعراب أسد وطيء[٢] وغيرهم ، فلم يجبه منهم أحد ، فأرسل أولاده الى كلب بن وبرة[٣] فاستغووهم فلم يجبه منهم الا الفخذ المعروف ببني العليص بن ضمضم بن عدي بن جناب ومواليهم خاصة ، فبايعوا في سنة تسع وثمانين ومائتين بناحية السماوة[٤] ابن زكرويه، المسمى بيحيى المكنى أبا القاسم ، فلقبوه الشيخ وزعم أنه محمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب[٥] ــ وقيل لم يكن لمحمد بن اسماعيل ولد اسمه عبد الله ــ وزعم أن له بالبلاد مائة ألف تابع ، وأن ناقته التي يركبها مأمورة ، فاذا تبعوها في مسيرها نصروا ، وأظهر عضدا له ناقصة ، وذكر أنه آيته . وأتاه جماعة من بني الاصبغ ، وسموا الفاطميين ودانوا بدينـه ، فقصدهم شبل غلام المعتضد[٦] ، من ناحية الرصافة[٧] فاغتروه فقتلوه ، وأحرقوا مسجد الرصافة،واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتى بلغوا ولاية هارون بن خمارويه التي قوطع عليها طغج بن جف ، فأكثروا القتل بها والاغارة ، فقاتلهم طغج فهزموه غـير مرة .

---

(١) اي في الكتاب الذي وصلنا مختصره .

(٢) في الطبري ٢٢١٧ ــ وتميم وغيرهم ــ .

(٣) كانت مساكن كلب في جنوب الشام .

(٤) أطلق اسم السماوة على البادية ما بين الكوفة والشام ، وغالبا ما كانت السيطرة: بها لكلب . معجم البلدان .

(٥) يتفق هذا مع رواية ابن العديم في ترجمة صاحب الخـال . ولا شك ان اظهاره لعلامة فارقة في جسده على انها آيته هي مسألة استعيرت من فكرة خاتم النبوة.

(٦) في الطبري ــ ٢٢١ ــ سبك الديلمي مولى المعتضد . وكذا في الكامل ٨ : ٥ .

(٧) الرصافة في الشام في مواضع كثيرة ، اشهرها رصافة هشام بن عبد الملك في غربي الكوفة بينهما اربعة فراسخ على طرف البرية ــ معجم البلدان .

وفيها انتشر القرامطة بسواد الكوفة فوجه المعتضد اليهم شبلا ــ غلام أحمد بن محمد الطائي ــ وظفر بهم وأخــذ رئيسا لهم يعرف بأبــي الفوارس[1] فسيره الى المعتضد ، فأحضره بين يديه ، وقال له : « أخبرني هل تزعمون أن روح الله تعالى وأرواح أنبيائه تحل[2] في أجسادكم فتعصمكم من الزلل وتوفقكم لصالح العمل ؟» فقال له : « يا هذا ان حلت روح[3] الله فينا فما يضرك ، وان حلت روح ابليس ، فما ينفعك ، فلا تسأل عما لا يعنيك واسأل عمــا يخصك » ، فقــال : « ما تقول يخصني ؟ » قال : « أقول ان رسول الله ﷺ مات وأبوكم العباس حي ، فهل طلب الخلافة ، أم هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك ؟ ثم مات أبو بكر ، فاستخلف عمر ، وهــو يرى موضــع العباس ، ولــم يوص اليــه ، ثــم مات عمر ، وجعلها شورى في خمسه أنفس ، ولم يوص اليه ولا أدخله فيهم ، فبماذا تستحقون أنتم الخلافة وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنها ؟ » فأمر الخليفة بتعذيبه بعد تقطيع يديه ورجليه وخلع عظامه ، وشنع بــه .

وفي سنة مائتين وتسعين :

استفحل أمر القرامطة بعد وفاة الخليفة المعتضد .

ففي ربيــع الآخر : سير طغج بن جف جيشا من دمشق ، وأمر عليه غلامه بشيرا ، فهزمه انقرمطي ، وقتل بشيرا

وفي سلخ جمادى الاولى : حصر القرمطي مدينة دمشق ، وضيق على أهلهــا ، وقتل أصحاب طغج ولم يبق منهم الا القليل ، وأشرف أهلها على الهلاك فاجتمــع جماعة من أهل بغداد[4] وأرسلوا الى الخليفة ، فوعدهم بالنجدة ، وأمد المصريون أهل دمشق ببدر وغيره من القواد فقاتلوا الشيخ مقدم القرامطة وقتلوه على بــاب دمشق ، رماه بعض المغاربة بمزراق[5] منفط وملتهب ، فاحترق به شيخ القرامطة ،

---

(١) في الطبري ٢٢٠٦ ــ ابن ابي خوارس ــ .
(٢) في الاصل ــ تعمل ــ وما اثبت هو ما يقتضيه السياق أيضا .
(٣) في الاصل ــ جاءت ــ وما اثبت هو ما يقتضيه السياق ايضا .
(٤) في الطبري ٢٢٢٠ ــ من تجار بغداد ــ .
(٥) المزراق : رمح قصير ــ القاموس ــ .

وقتل منهم خلق كثير ، وكان هذا القرمطي يزعم أنه اذا أشار بيده الى الجهة التي فيها محاربوه انهزموا ، وكان يكنى بأبي القاسم ويسمى يحيى المعروف بالشيخ[1] •

ولما قتل هو ومن معه ، اجتمع من بقي منهم على أخيه الحسين وسمى نفسه أحمد ، وكناها أبا العباس ، ودعا الناس اليه ، فأجابه أكثر أهل البوادي وغيرهم ، فاشتدت شوكته ، وأظهر شامة في وجهه وادعى أنها آيته •

فسار الى دمشق ، فصالحه أهلها على خراج يدفعونه ، فانصرف عنهم وسار الى أطراف حمص فغلب عليها ، وخطب له على منابرها وكانت الخطباء في الخطبة تقول : « اللهم اهدنا بالخليفة الوارث المنتظر المهدي صاحب الوقت ، أمير المؤمنين المهدي • اللهم املأ الارض به عدلا وقسطا ، ودمر اللهم دمر أعداءه » ، فلما بلغه ذلك أصدر أمره بأن لا يدعي عليهم ، بل يدعى[2] لهم بالهداية ، والطاعة لامره ، وان يجعل أعداءه له خاضعين ، وينصره على كل من يعاديه ، وكان ذلك في سلخ رجب سنة مائتين وتسعين •

وفي مستهل شعبان : حضر لديه ابن عمه عيسى بن المهدي المدعو عبد الله بن محمد بن اسماعيل ، فكناه بالمدثر وعهد اليه بالقيام بالامر من بعده وزعم أنه المدثر المذكور في القرآن • ولقب غلاما له بالمطوق[3] ، وقلده قتل أسرى المسلمين •

ولما أطاعه أهل حمص وفتحوا له بابها خوفا منه، سار الى حماة، ومعرة النعمان وغيرهما فقتل أهلها ، وقتل النساء والاطفال ، ثم توجه الى بعلبك فقتل أهلها ولم يبق منهم الا القليل ، ثم سار الى سلمية فمنعه أهلها ، ولم يقدر على مقاومتهم ، فصالحهم وأمنهم ، ففتحوا له بابها ، وكان ذلك في مستهل رمضان ، فبدأ بمن فيها من بني هاشم ، وكانوا جماعة فقتلهم ولم يبق منهم أحدا ، وقتل الصبيان والفقهاء والشيوخ والبهائم ، وخرج منها وليس بها عين تطرف ، ودخل في القرى المجاورة لها يسبي ويقتل وينهب ويقطع السبيل ويأتي من المنكرات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت •

---

(1) كذا في الاصل والافضل ان يقال ـ ويعرف بالشيخ ـ والذي جاء في الطبري
(2) ٢٢٢٤ ـ هو ـ يحيى بن زكرويه الملقب بالشيخ ـ .
في الاصل يدعو ، وهو تصحيف الاصوب منه ما ابتنا .
(3) سنرى في النصوص المقبلة استعمال قادة قرامطة اليمن لاعوان حملوا الالقاب ذاتها

ومما يذكر عن متطبب بباب المحول[1] يدعى أبا الحسين قال : جاءتني امرأة بعدما أدخل[2] القرمطي صاحب الشامة بغداد ، وذلك في سلخ ذي الحجة . وقالت المرأة : أريد أن تعالج لي جرحا في كتفي ، فقلت ها هنا امرأة تعالج النساء ، فانتظرتها وقعدت وهي باكية مكروبة ، فسألتها عن قصتها فقالت : « كان لي ولد طالت غيبته عني ، فخرجت أطوف عليه في البلاد فلم أره ، فسرت من الرقة في طلبه ، فوقعت في عسكر القرمطي أطلبه ، فوجدته ، فحدثته عن حالي وحال اخوته ، فقال : دعيني من هذا وأخبريني ما دينك ؟ فقلت له : يا ولدي الاسلام ، كما تعلم فقال : يا أماه اتركي هذا الدين ، وادخلي معي في هذه الدعوة ، والدين ما نحن فيه اليوم ، فتعجبت من ذلك ، وخرج وتركني ، وحضر لي بخبز[3] ، فلم أمسه ، وأتاه رجل من أصحابه ، فسألني هل أحسن من أمر النساء شيئا ؟ فقلت : نعم ، فأدخلني دارا ، فاذا امرأة تطلق ، فقعدت بين يديها ، وجعلت أكلمها ، ولا تكلمني حتى ولدت غلاما ، فأصلحته وتلطفت بها حتى كلمتني ، فأخبرتني عن حالها أنها امرأة من بني هاشم أخذها هؤلاء القوم « بعد ذبح عشيرتي جميعا ، وأخذني زعيمهم فجلست عنده خمسة أيام ، ثم أمر بقتلي ، فطلبني منه أربعة من رجاله فوهبني لهم ، فأقمت معهم فوالله لا أدري ممن هـذا الولـد » .

ودخل علينا أحدهم فأشارت الي أن أهنيه بالمولود ، فقلت له : «مولود مبارك» وهنيته فأعطاني قطعة فضة ، وجاء آخر فأشارت الي ، فهنيته ، فأعطاني قطعة من الفضة ، ودخل آخر ففعلت معه مثل الاول ، فأعطاني ثم حضر الرابع ومعه جمع ، فهنيته فاعطاني ألف درهم ، وبت عندها تلك الليلة ، فلما أصبحت ، قلت للمرأة : قد وجب حقي عليك فالله الله خلصيني ، قالت : ممن أخلصك ؟ فأخبرتها عن ابني فقالت : عليك بالرجل الذي أعطاك الالف درهم ، فأقمت عندها اليوم كله فلما كان آخر النهار حضر الرجل ، فقمت اليه وقبلت يديه ورجليه ، ووعدتـه أني أعود[4]

---

(١) محلة كبيرة من محال بغداد ، انفردت الى جانب الكرخ ـ معجم البلدان .

(٢) في الاصل ـ دخل ـ والتقويم من الطبري ـ ٢٢٢٦ ـ .

(٣) في الطبري ـ ٢٢٢٨ ـ ثم وجه الي بخبز ولحم وما يصلحني .

(٤) في الطبري ٢٢٢٩ ـ فان اذنت لي ان امضي فاجيئك ببناتي حتى يخدمنك ويكن بـين يديك .

بعدما أعطي بناتي ما معي ، فأمر غلمانه بحملي الى مكان ذكره لهم ، فساروا بي عشرة فراسخ[١] فلحقني ابني ، وضربني بسيفه فجرحني هذا الجرح ، ومنعه القوم من أن يصل الي ، وساروا بي الى المكان الذي سماه لهم سيدهم ، ثم تركوني وجئت الى هــا هنــا ٠

وقالت لما قدم الامير بالقرامطة وبالاسرى ، رأيت ابني فيهم على جمل وعليـه برنس ، وهو يبكي ، فقلت : لا خفف الله عنك ولا خلصك ٠

وفي هذا الزمن وصل الى المكتفي[٢] كتب أهـل الشام ومصر ، وفيهـا بث شكواهم ، وما يلقونه من القرامطة من القتل والسبي والاسر وتخريب البلاد ، فأمر الجند بالتأهب ، وخرج من بغداد في سلخ رمضان ، وسار الى الشام وجعل طريقه على الموصل ، وقدم بين يديه أبا الأغر[٣] بعشرة آلاف رجل ، فنزل قريبا من حلب ، فكبسهم القرمطي صاحب الشامة ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، وسلم أبو الاغر ، فدخل حلب ومعه ألف رجل ، وكانت هذه الواقعة في مستهل شوال ، وتقدم القرمطي الى باب حلب فحاربه أبو الاغر ، وأعانه أهل البلد ، فـرد القرمطي[٤] ، ونزل المكتفي بالرقة ، وبعث الجيش ، وجعل أمره الى محمد بن سليمان الكاتب ٠

وفيها في شوال : وقعت محاربة بين القرمطي صاحب الشامة ، وبدر مولى ابن طولون ، فانهزم القرمطي ولم يقدر أن يقاومه لشدة بأس جيوش مصر وجبارتهم وصبرهم على القتال ، وما أظهروه من الشجاعة ، ففتكوا بالقرامطة فتكا ذريعا ، ومزقوهم كل ممزق ، وهرب من سلم منهم نحو البادية ، فأرسل المكتفي في أثرهم الحسين بن حمدان ، وغيره من القواد ٠

وفيها كبس ابن بانو أمير البحرين حصنا للقرامطة ، فظفر بمن فيه ووقع بينه

---

(١) في الطبري ٢٢٢٩ — وقال يا فاعلة زعمت انك تمضين وتجيئين ببناتك .
(٢) كانت خلافة المكتفي من سنة ٢٨٩ وحتى ٢٩٥ هـ/٩٠٢ — ٩٠٨ م .
(٣) انظر ترجمته فيما يلي من نصوص .
(٤) أورد الطبري — ٢٢٣١ — هـذا الحدث في تفصيلات اكبـر ، انظر ايضا النص المقتبس من بغية الطلب .

وبين[1] أبي سعيد الجنابي ، فهزمهم ابن بانو ــ وكان مقامه بالقطيف ــ ثم قتل في هذه المعركة ولي عهد الجنابي وأخذت رأسه وفتح القطيف •

وفي سنة احدى وتسعين ومائتين :

سار محمد بن سليمان بأمر الخليفة المكتفي لمحاربة صاحب الشامة ، فالتقى به في مكان قبل حماة بعشرة أميال، وذلك في مستهل المحرم فقدم القرمطي أصحابه لهم، وبقي في جماعة من جنده ليحتفظ بمال جمعه ، ووقعت موقعة عظيمة بين جند الخليفة والقرامطة ، واشتدت رحى الحرب بينهما ، فانهزمت القرامطة شر هزيمة وأسر منهم الجم الغفير ، وتفرق من بقي منهم في البوادي ، وتبعهم جند الخليفة •

فلما رأى صاحب الشامة ما حل بأتباعه حمل أخاه أبو الفضل مالا ، وأمره أن يلحق بالبوادي الى أن يظهر بمكان فيسير اليه ، وسار بابن عمه المدثر ، والمطوق [صاحبه[2]] وغلام له رومي الى الكوفة عرضا في البرية فانتهى الى الدالية وأرسل بعض من كان معه ليأخذ ما يحتاجون اليه فدخل الدالية المعروفة بدالية [ابن طوق][3] ليشتري لهم بعض حوائج فاشتبه فيه بعض أهل الناحية ، وأنكروا أمره ، وأخذوه الى الوالي المدعو بأبي خبزة خليفة أحمد بن محمد بن كشمرد ، فسأله عن حالـه فأخبره أن القرمطي صاحب الشامة وراء رابية خارج البلد ، ومعه الثلاثة فأرسل اليهم ابن كشمرد جنده ، فأحضرهم لديه ، وأرسلهم الى الخليفة بالرقة[4] ورجعت الجيوش من طلبهم •

وكان الحسين بن حمدان أشجع الفرسان في قتال القرامطة واستئصال شأفتهم من قتل وأسر ، وتتبعهم في كل مكان حتى ضرب به المثل ، فكتب محمد [بن]سليمان

---

(١) في الطبري ــ ٢٢٣٢ ــ قرابة لابي سعيد الجنابي وولي عهده من بعده على اهل طاعتـــه .

(٢) الاضافة من الطبري ــ ٢٢٣٨ ــ .

(٣) الاضافة والتقويم من الطبري ــ ٢٢٣٨ ــ والداليه مدينة على شاطىء الفرات في غربيه بين عانه والرحبة . معجم البلدان .

(٤) في الطبري ــ ٢٢٣٨ ــ « فمضى اليهم فاخذهم . وصار بهم الى صاحبه، فتوجه بهم ابن كشمرد وابو خبزة الى المكتفي بالرقة » . وهو الاصح .

للخليفة يثني عليه ، وعلى بني شيبان فانهم اصطلوا نار الحرب ، وهزموا القرامطة ، وحكموا السيف في أعناقهم، وزحفوا عليهم وشتتوا شملهم ،وأسروا منهم، ومزقوهم كل ممزق ، حتى لم ينج الا القليل .

وفي يوم الاثنين لاربع بقين من المحرم : أدخل صاحب الشامة الرقة راكبا جملا ذا سنمين ، ومعه المدثر والمطوق ، وسار بهم الخليفة الى بغداد ، وأدخل القرمطي بغداد راكبا فيلا ، وأصحابه على جمل ، وبعد أن طاف بهم المدينة أمر بحبسهم

وقدم بغداد محمد بن سليمان ومعه الجند ، ومعهم من ظفروا بـه من أعيان القرامطة ورؤوسهم ، وأخرج أبا الشامة أصحابه من السجن فشنع بهم ، وضرب أبو الشامة مائة سوط ، وقطعت يداه ، وكوي فغشي عليه ، فأحرقوا خشبا ، وجعلوه على خواصره فصار يفتح عينيه ويغمضها ، فلما خشوا موته ضربوا عنقه ، ورفعوا رأسه على خشبة ، فكبر الناس حين رأوها وهللوا ونصبوها على الجسر[1] .

وفيها قدم اسماعيل بن النعمان ، من أعيان القرامطة ــ ولـم ينج من رؤساء القرامطة غيره ــ فحضر بأمان من المكتفي ومعه مائة وستون نفرا فأحسن اليهـم الخليفة، ووصلهم بمال ، وسيرهم مع القاسم [بن سيما][2] الى رحبة مالك بن طوق، فأقاموا معه مدة ثم أرادوا الغدر بالقاسم وائتمروا على أن يفتكوا به[3] يوم الفطر وقت صلاة العيد ، فعلم بذلك القاسم فقتلهم ، فارتدع من بقي منهم ، وذلوا الى أن جاءهم كتاب من الخبيث ابن زكرويه[4] ، وفيه يخبرهم بأنه أوحى اليه أن صاحب الشامة وأخاه المعروف بالشيخ يقتلان،وأن امامه الذي هوحي[5] يظهر بعدها ويظفر.

---

(١) من اجل تفصيلات اكثر انظر. الطبري ــ ٢٢٤٣ ــ ٢٢٣٦ .

(٢) الاضافة من الطبري ــ ٢٢٤٧ ــ وكان ابن سيما آنذاك متوليا احد اعمال طريق الفرات . وذكر الطبري ان الداعي القرمطي كان يكنى ــ أبا محمد ــ وان الذين قدموا معه كانوا نيفا وستين رجلا ، وتقع بقايا الرحبة الان قرب بلدة الميادين السورية على الفرات قرب الحدود السورية العراقية .

(٣) في الاصل بهم .

(٤) في الطبري ــ ٢٢٤٨ ــ الخبيث زكرويه ، وهو اقوم .

(٥) في الطبري ــ ٢٢٤٧ ــ الذي يوحي اليه .

وفي سنة ثلاث وتسعين ومائتين :

أنفذ زكرويه بن مهرويه بعد قتل صاحب الشامة نصر بن عبد الله بن سعيد(١) ويكنى أبا غانم ، معلم الصبيان [بقربه تدعى] الزابوقة(٢) فدار على أحياء العرب من كلب وغيرهم يدعوهم الى رأيه ، فلم يقبله منهم أحد الا رجل من بني زياد يسمى مقدام بن الكيال ، واستغوى(٣) طوائف من الاصبغين المنتمين الى الفواطم وغيرهم من العليصين وصعاليك من سائر بطون كلب .

وقصد ناحية الشام والعامل بدمشق والاردن أحمد بن كيغلغ ، وهو بمصر يحارب الخلنجي ، فاغتنم ذلك نصر بن عبد الله بن سعيد ، وسار الى بصرى وأذرعات والبثنية(٤) فحارب أهلها ، ثم أمنهم ، فلما استسلموا اليــه قتل مقاتليهم ، وسبى ذراريهم ، وأخذ أموالهم .

ثم قصد دمشق ، فخرج اليه نائب ابن كيغلغ المدعو صالح بن الفضل فهزمــه القرامطة [وعسكره] وفتكوا فيهم فتكا ذريعا ، ثم أمنوهم وغرروا بهــم وقتلوا صالحا ، وقضوا على عسكره ، وأرادوا دخول دمشق فمنعهم أهلها ورموهم بقوارير النفط من : القلاع ، والحصون ، وسور المدينة ، فلم يتمكنوا من دخول دمشق .

فقصدوا طبرية ، وانضم اليهم جماعة من أطراف البوادي المجاورة لدمشق ، فتنهم القرمطي ، وعند وصولهم طبرية خرج اليهم يوسف بن ابراهيم بن بغامردي ، خليفة أحمد بن كيغلغ بالاردن ، فهزموه شر هزيمة ثم آمنوه وغدروا به وقتلوه ، ونهبوا طبرية وأعملوا في أهلها السيف ، وسبوا النساء ، وقتلوا الشيوخ والاطفال .

فوصلت الاخبار الى الخليفة ، فأنفذ أمره الى الحسين بن حمدان وبعض من القواد [للشروع] في قتال القرامطة واستئصال شأفتهم ، فقصدوا دمشق ، فلما علم

---

(١) في الطبري ـ ٢٢٥٦ ـ عبد الله بن سعيد ، ثم تسمى بعد انفاذه « نصرا » .

(٢) في الاصل ـ الراقوقة ـ والتقويم من الطبري ـ ٢٢٥٦ ـ وفيه انها : كانت من عمل الفلوجة ، وهذا ما أورده ياقوت في معجم البلدان .

(٣) في الطبري ـ ٢٢٥٦ ـ استغوى له .

(٤) بصرى ما تزال تعرف بهذا الاسم في جنوب سورية ، واذرعات هي درعا الحالية في سورية واطلق اسم البثنية على المنطقة الواقعة الى جنوب دمشق ودرعا .

القرامطة ، انسحبوا راجعين نحو السماوة ، وتبعهم الحسين وجنده الى السماوة ، فوجدهم يسدون العيون ويغورونها ، ويردمون البرك حتى لجئوا الى ماءين يعرف أحدهما بالدمعانة والآخر بالحالة[1] فرجع ابن حمدان الى الرحبة .

وأسرى القرامطة مع نصر الى هيت وأهلها غافلون فنهبوها ، فتحصن أهل المدينة بسورها فنهبوا السفن وقتلوا من أهل المدينة ما يربو عن مئة نفس ، ونهبوا الاموال والمتاع ، وأخذوا ثلاثة آلاف راحلة من الحنطة .

وبلغ الخبر الى الخليفة المكتفي فبعث اليهم محمد بن اسحق بن كنداج فلم يقيموا[2] لمحمد وانسحبوا الى الماءين ، فتبعهم محمد واقتفى أثرهم، فوجدهم سدوا العيون والابار وردموها بالرمال والأحجار ، فوصل اليهم من بغداد الامداد ، وكتب الى ابن حمدان بالمسير اليهم لينضم الى جيش محمد ، فساروا حتى التقوا ، فلما أحس الكلبيون بأخبار[3] الجيوش اليهم قاموا الى نصر زعيم القرامطة فقتلوه ، وسار برأسه رجل منهم يدعى الذئب بن القائم الى الخليفة المكتفي ، وطلب الامان والقرب ، فأمر الخليفة بذلك ، وأجازه بجائزة وأمر[4] بالكف عن قتال قومه .

وحصلت موقعة بين القرامطة ، بعد مقتل نصر ، حتى صارت الدماء بينهم ، وافترقت فرقة منهم الى بني أسد بنواحي عين التمر[5]،وقدموا معذرتهم الى الخليفة المكتفي فعفا عنهم ، وبقي على الماءين فرقة ممن له بصيرة في دينه ، فأرسل الخليفة الى ابن حمدان بقتلهم جميعا حتى لا يبقى ــ منهم ديار ولا نافخ نار ــ ، فأرسل اليهم زكرويه بن مهرويه واعية له [يسمي[6]] القاسم بن أحمد ، ويكنى بأبي محمد [فأعلمهم][7] أن فعل الذئب قد نفره منهم ، وأنهم قد ارتدوا عن الدين ، وأن وقت

(١) في الاصل ــ الحبالة ــ والتقويم من الطبري ــ ٢٢٥٨ ــ وياقوت مادة ــ الحالة ــ

(٢) الاصوب أن يقال ــ يقوموا ــ ولكن ما جاء في الطبري ــ ٢٢٥٩ ــ فلم يقيموا بها الا ثلاثا حتى قرب محمد بن اسحق منهم فهربوا منه نحو الماءين .

(٣) في الطبري ــ ٢٢٥٩ ــ فلما حس الكلبيون باشراف الجند عليهم ــ وهو أفضل.

(٤) في الاصل ــ اواصر ــ .

(٥) بلدة قرب الانبار غربي الكوفة ــ معجم البلدان .

(٦) الاضافة من الطبري ــ ٢٢٦٠ ــ .

(٧) الاضافة من الطبري ــ ٢٢٦٠ ــ .

ظهوره قد حان ، وقد بايع له بالكوفة أربعون ألفا ، وأن يوم موعدهم الذي ذكره الله في شأن موسى صلوات الله عليه وعدوه فرعون وهو يوم الزينة (وأن يحشر الناس ضحى)(١) ، وأوصى أن يخفوا أمرهم ، وأن يسيروا حتى يصلوا الكوفة يوم النحر في عام ثلاث وتسعين ومائتين فلا يجدون مانعا منها ، ووعدهم بظهوره لهم ، وأن يأتوا اليه بالقاسم بن أحمد ، فأطاعوا أمره ، ودخلوا الكوفة وقت أن انصرف الناس عن مصلاهم ، وعاملها اسحق بن عمران ، وكانوا ثمانمائة فارس مدرعين بالالات الحسنة ، وضربوا مخيما على القاسم بن أحمد ، قبة من الديباج المزركش ، ونادوا حوله : هذا ابن رسول الله ﷺ ، وطلبوا بأخذ الثأر للحسين ، ويعنون بذلك الحسين بن زكرويه المصلوب ببغداد ، وينادون يا أحمد يا محمد ، يعنون بذلك أبناء زكرويه المقتولين ، ورفعوا أعلامهم البيض ، قصدوا بذلك استفزاز رعاع الناس والتفافهم حولهم ، فلم يلتفت اليهم أحد فأخذوا السلاح وأعملوا القتل في أهل الكوفة فقتلوا أكثر من عشرين نفسا ، فبادر أهل الكوفة بأخذ السلاح ، وقدمهم اسحق ، ودخل مدينة الكوفة مائة فارس من القرامطة ، فقتل منهم عشرين شخصا ، وخرجوا منها هاربين ، فهزمهم اسحق فتقهقروا نحو القادسية ، وكان فيمن يقاتل مع اسحق جماعة من الطالبية .

وأرسل اسحق الى الخليفة يطلب المدد ، فأنفذ أمره الى وصيف بن صوار تكين التركي ، والفضل بن موسى ، وبشر الخادم والافشين ، وغيرهم من الغلمان فساروا في سلخ ذي الحجة ، ووافوا القادسية ونزلوا بالصوان(٢) ، فلقيهم زكرويه .

وأما القرامطة فانهم أخرجوا زكرويه من جب في الارض كان منقطعا فيه سنين كثيرة بقرية الردية(٣) ، وكان على الجب باب حديد محكم العمل وكان زكرويه اذا خاف الطلب جعل تنورا هناك على باب الجب ، وقامت امرأة تسجره فلا يفطن اليه ، وكان ربما أخفي في بيت خلف الدار التي كان بها ساكنا ، فاذا انفتح باب الدار ،

---

(١) سورة طه ٢٠ : ٥٩ .

(٢) في الطبري ـ ٢٢٦٢ ـ الصوار ـ والصحيح ما ورد هنا انظر ص١ من نص ابن العديم .

(٣) كذا في الاصل وفي الطبري ـ ٢٢٦٤ ـ الدرية ـ ولم يذكرياقوت أيا من الاسمين.

انطبق على باب البيت ، فيدخل الدار فلا يرى شيئا ، فلما استخرجوه حملوه وسموه ولي الله ، ولما رأوه سجدوا له .

وحضر معه جماعة من دعاته وخاصته ، وأعلمهم أن القاسم بن أحمد من أعظم الناس عليهم ذمة ومنة ، وأنه ردهم الى الدين بعد خروجهم عنه ، وأنهم ان امتثلوا أوامره أنجز موعدهم ، وبلغوا آمالهم ، ورمز لهم رموزا ، ذكر فيها آيات من القرآن ، نقلها عن الوجه الذي نزلت فيه فاعترف له من رسخ حب الكفر في قلبه أنه رئيسهم وكهفهم ، وأيقنوا بالنصر ، وبلوغ الامل . وسار بهم وهو محجوب ، يدعونه السيد ، ولا يبرزونه ، والقاسم يتولى الامور ، وأعلمهم أن أهل السواد قاطبة خارجون اليه ، فأقام بسقي الفرات عدة أيام ، فلم يصل منهم الا خمسمائه رجل ، ثم وافته الجنود المذكورة من عند الخليفة ، فلقيهم زكرويه بالصوان ، وقاتلهم ، واشتد الحرب بينهم وكانت الهزيمة أول النهار على القرامطة ، وكان زكرويه قد كمن لهم كمينا من خلفهم ، فلم يشعر رجال الخليفة الا والسيف فيهم من ورائهم ، فانهزموا أقبح هزيمة ، ووضع القرامطة السيف فيهم فقتلوهم كيف شاءوا ، وغنموا سوادهم ، ولم يسلم من رجال الخليفة الا من دابته قوية ، أو من أثخن بالجراح ، فوضع نفسه بين القتلى ، فتحاملوا بعد ذلك .

وأخذ للخليفة من هذا المعسكر أكثر من ثلاثمائة جمازة عليها المال والسلاح ، وخمسمائة بغل ، وقتل سوى الغلمان ألف وخمسمائة رجل .

وقويت القرامطة ، ولما وصل خبر هذه الواقعة الى بغداد أعظمها الخليفة والناس ، وندب الى القرامطة محمد بن اسحق بن كنداج ، وضم اليه من الاعراب بني شيبان وغيرهم ، أكثر من ألفي رجل ، وأعطاهم الارزاق ، ورحل زكرويه من مكانه الى نهر المثنية لنتن القتلى .

وفي سنة اربع وتسعين ومائتين في المحرم :

ارتحل زكرويه من نهر المثنية يريد الحج ، فبلغ السلمان[1] وأقام ينتظرهم ، فبلغت القافلة الاولى واقصة[2] سابع المحرم ، فأنذرهم أهلها وأخبروهم بقرب القرامطة ، فارتحلوا لساعتهم ، وسار القرامطة الى واقصة فسألوا أهلها عن الحاج ،

---

(١) ماء على الطريق الواصلة بين تهامة والعراق، وهو قديم جاهلي ــ معجم البلدان.
(٢) منزل على طريق العراق مكة ــ معجم البلدان .

فأخبروهم أنهم ساروا ، فاتهمهم زكرويه ، فقتل العلافة وأحرق العلف ، وتحصن أهل واقصة في حصنهم فحصرهم أياما ، ثم ارتحل عنهم نحو زبالة[١] وأغار في طريقه على جماعة من بني أسد ، ووصلت العساكر بأمر الخليفة من بغداد الى عيون الطف[٢] فبلغهم مسير زكرويه من السلمان ، فانصرفوا وسار غيلان بن كشمرد [مع قطعة من فرسان الجيش][٣] جريدة فنزل واقصة بعد أن جازت القافلة الاولى ، ورأى زكرويه القرمطي قافلة الخراسانية بعقبة الشيطان راجعين من مكة فحاربهم حربا شديدا فلما رأى شدة بأسهم وأنه لا طاقة له بهم سألهم هل فيكم نائب السلطان ؟ فأجابوه : ما معنا أحد ، فقال : لست أريدكم ، وقد اطمأنوا لقوله ، وساروا ، فكر عليهم في سيرهم ، وأعمل فيهم السيف ، فلم ينج منهم أحد الا الشريد ، وغنم ما كان معهم من زاد ومال ، وسبى النساء ، وشنع بالشيوخ والاطفال ولقي بعض المنهزمين غيلان بن كشمرد ، فأخبره بالواقعة ، وقالوا ما بينك وبينهم الا القليل ، ولو رأوك لقويت نفوسهم فالله الله فيهم فأجاب :لاأعرض جيش الخليفة للقتل ، وكر راجعا مع أصحابه، وأرسل من نجا من الحجاج الى رؤساء القافلة الثالثة يحذرونهم[٤] ، وأعلموهم بما جرى لهم من القرامطة وأن[٥] يعدلوا عن المجيء من هذا الطريق ، والرجوع الى فيد[٦] والمدينة الى أن تأتي جيوش الخليفة ، فلم يتعظوا بذلك وساروا لقضاء الله وقدره . « تهم الهمم ، ويسعى القدم ، لعمر دنا أو رزق قسم ، والمكتوب ما منه مهروب وما قدر كان »[٧] .

وسارت القرامطة من العقبة بعد قتل الحجاج وما غنموه وسبوه من النساء ، فسدوا الابار التي[٨] على الطرق ، والبرك بالجيف والرمال والاحجار بواقصة

---

(١) قال ياقوت : منزل معروف بطريق مكة من الكوفة فيها حصن وجامع لبني غاضرة من بني أسد .

(٢) هي الارض التي وقعت فيها كارثة كربلاء وقتل الحسين بن علي،سبط النبي ﷺ ـ انظر معجم البلدان .

(٣) في الطبري ـ ٢٢٧٠ ـ ملان . والاضافة من الطبري نفس الصفحة .

(٤) في الاصل ـ يحذووهم .

(٥) في الاصل ـ وانهم ـ .

(٦) قال عنها ياقوت : بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة .

(٧) يبدو ان هذه الجملة قد اقحمت في الاصل .

(٨) في الاصل ـ الذي ـ .

والثعلبية والعقبة ، وغيرها من المسالك في جميع طرقهم وأقام بالهبير[1] ينتظر في القافلة الثالثة فلما حضرت قاتلها ثلاثة أيام وهم على غير ماء ، ولم يجدوه من قبل مسيرهم بأيام ، فاضطروا للتسليم لشدة ما بهم من العطش ، فوضع فيهم السيف ، وقتلهم عن بكرة أبيهم ولم ينج منهم أحد ، وجمع القتلى كقمة جبل ، وأرسل خلف من انهزم يبذل لهم الامان ، فلما حضروا ، قتلهم وغدر بهم لعنه الله ، وكان في القتلى مبارك القمي وولده [وأسر][2] أبو العشائر بن حمدان وكانت نساء القرامطة يطفن بالماء على القتلى ، فمن رأينه حيا قتلوه ، وعدد القتلى في الموقعة عشرون ألفا ، ولم ينج منهم الا من هرب وقت اشتغال القرمطي بالحرب ، أو من نام بين القتلى ، ولم يفطن لـه .

وجملة ما غنموه من هذه الموقعة مائة ألف دينار ، وكان في جملة ما أخذوه أموال الطولونية ، فانهم لما عزموا على الانتقال من مصر الى بغداد ، خافوا أن يستصحبوها فتؤخذ منهم ، فعملوها سبائك وجعلوها في حدائج الجمال ، وجميع ما لهم من الحلي والجواهر ، وأرسلوا الجميع الى مكة سرا ، وكان جميع ما لهم في هذه القافلة فأخذت .

وبعث زكرويه يستطلع جند الخليفة الذي كان بالقادسية ، وأقام ينتظر وصول من كان في الحج من عسكر الخليفة وأصحابه،وكانوا مقيمين بفيد ومنتظرين الاخبار، هل القرمطي تعرض للحجيج ؟ وكان معهم جماعة من التجار وأرباب الاموال ، فلما بلغهم خبر من قبلهم ، وما جرى من القرامطة ، جلسوا ينتظرون وصول النجدات من عند الخليفة . فسار الملعون الخبيث زكرويه لعنه الله ــ وسد الابار وردم البرك في الطريق والمياه ــ الى فيد فاحتمى وتحصن أهل فيد ومن بها من الحجيج بالحصنين اللذين بفيد ، وحاصرهم القرمطي وضيق عليهم ، وأرسل الى أهلهما يأمرهم بالتسليم

(١) قال ياقوت : الهبير : رمل زرود في طريق مكة .

(٢) الاضافة من الطبري ــ ٢٢٧٢ ــ وفيه أن ابن مبارك القمي كان يسمى المظفر .

ويؤمنهم على ذلك ، فلم [يجيبوه][1] ، وهددهم بالقتل والسلب والنهب ، فازداد امتناعهم،فأقام محاصرا لهم عدة أيام،ثم رحل الى النّباج ثم الى حَفَر أبي موسى[2].

(١) زيادة من الطبري ـ ٢٢٧٥ ـ

(٢) في الاصل ـ الساج ثم الى جعفر ـ والتقويم من بلاد العرب ص ٣٣٩ ، تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي،ط . بيروت ١٩٦٨،وياقوت مادتي ـ حفر والنباج ـ وكتاب المناسك ص ٥٧٩ ، تحقيق حمد الجاسر ، ط . بيروت ١٩٦٩ . وهو يدعى الآن حفر الباطن .

خبر مقتل الملعون زكرويه

ولما تطايرت الاخبار الى الخليفة المكتفي ، وعلم بما جرى للحجيج عظم ذلك عليه ، وعلى كافة المسلمين ، فأنفذ أمره بتجهيز الجيوش ، وسيرها في ربيع الاول بقيادة وصيف بن سوارتكين ، مع بقية القواد وعلى طريق خفان[1] ، فلقيهم زكرويه ومن معه من القرامطة في ثامن ربيع الاول ، ونشب بينهم الحرب يومهم الى أن حال بينهم الظلام ، وباتوا يتحارسون ويحتاطون شدة الاحتياط ، فلما أصبحوا نشب الحرب بينهم ، ووقعت موقعة قتال عنيف ، قتل فيها من القرامطة ما لا يحصى عدده حتى وصلوا الى الملعون الخبيث زكرويه ، فضربه بعض الجند ــ وهو منهزم ومول الهرب ــ على رأسه ضربة شديدة بسيفه أفضت الى دماغه[2] ، فوقع على الارض مضرجا بدمائه ، فحملوه أسيرا ، وأخذوا من هو خليفته، وخواصه، وأقرباؤه وكاتبه، وزوجته وابنه ، واحتوى العسكر على كل ما كان عند زكرويه ، ومات [و] هلك الملعون زكرويه بعد مضي خمسة أيام ، فأرسلت جثته والاسرى الى بغداد ، وفــر جماعة من أصحابه الى الشام ، فلقيهم الحسين بن حمدان فقتلهم جميعا ، وأخذوا جماعة من النساء والصبيان . وحملوا رأس زكرويه الى خراسان لئلا ينقطع الحج ، وأخذ الاعراب رجلين من أصحاب الملعون أحدهما يعرف بالحداد والثاني بالمنتقم ، وهو أخو امرأة زكرويه ، سارا اليهم يدعوانهم الى[3] اعتناق مذهبهم ، والخروج معهم ، فلما أخذوهما سيروهما الى الخليفة فقتلهما . وتتبع الخليفة القرامطة بالعراق، فقتل منهم وحبس البعض ومنهم من مات في سجن الخليفة .

---

(1) موضع قرب الكوفة ، كان يسلكه الحاج احيانا ، وهو فوق القادسية ــ معجم البلدان .

(2) في الاصل ــ راسه ــ والتقويم من الطبري ــ ٢٢٧٥ ــ

(3) في الاصل سار اليهم يدعوهم والتقويم من الطبري ــ ٢٢٧٩ ــ

وفي سنة احـدى وثلاثمائـة :

في هذه السنة قتل كبير القرامطة أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي[1] قتلـه خادمه في الحمام ، فلما قضي عليه وهنك خرج خارج الحمام وهمس في أذن رجل عظيم من رؤسائهم يستدعيه بأن مولاه يريده ، فدخل معه الحمام فقتله ، وخرج ودعا آخر من عظماء القرامطة ، وفعل معه فعلته الاولى الى أربعة منهم ، فلمـا استدعى الخامس ، فطن لذلك ، فمسك يد الخادم وصاح ، فاجتمع النساء والرجال ، وحصل بينهم وبين الخادم مناظرات ، وقتلوه .

وكان أبو سعيد الجنابي [قد][2] عهد لابنه الاكبر سعيد ، فعجز عن القيام بالامر ، فغلبه أخوه الاصغر أبو طاهر سليمان ، وكان شجاعاً شهماً ، وسيرد مـن أخباره فيما بعد .

وكان أبو سعيد استولى على الاحساء والقطيف وهجر (والطائف) وسائـر بلاد البحرين . وكان المقتدر كتب له كتابا لينا بشأن من عنده من أسرى المسلمين ، ويناظره ويقيم الدليل على فساد مذهبه ، وأنفذ معه الرسل فلما وصلوا الى البصرة بلغهم خبر موته ، فأرسلوا الى الخليفة فأمرهم بالتوجه الى ولده ، فأتوا أبا طاهر ، فأكرم الرسل ، وأطلق الاسرى ، وأرسلهم الى بغداد ، وأجاب عن العتاب[3] .

وفي حوادث القرامطة

في سنة إحدى عشرة وثلاثمائة :

تقوى أبو طاهر ، وفيها قصد البصرة فدخلها ليلا في ألفي[4] وسبعمائة رجل ، ومعه السلالم الشعر ألقاها علـى السور ، وصعد اليها ، وفتح الباب وقتـل النفر الموكلين بالحراسة، وكان ذلك في ربيع الآخر ، وكان والي البصرة سُبْك المُفلحي ، فلم يشعر بهم الا سحرا ، ولا علم أنهم القرامطة وكان معتقده أنهم أعراب تجمعوا ،

---

(١) الى هنا انتهى ما اورده الطبري ـ انظر المجلد الرابع . طبعة برل سنة ١٨٩٠ م.
(٢) الاضافة من الكامل ٨ : ٦٣ ط ، برل ١٨٢٦ م ـ .
(٣) مرد هذا ليس لحداثة عهد ابي طاهر ، ولكن لقيام الخلافة الفاطمية ، وموقف قرامطة البحرين واليمن هنا .
(٤) كذا في الاصل،والافضل أن يقال: ـ الفين ـ.وجاء في الكامل ٨: ١٠٥ ـ الف ـ.

فركب اليهم فقتلوه ووضعوا السيف في أهل المدينة ، وهرب الناس الى الكلاء[1] ، وحاربوا القرامطة عشرة أيام بلياليها ، فظفر بهم القرمطي وقتلوا خلقا كثيرا ، وطرح الناس أنفسهم في الماء فغرق أكثرهم •

وأقام أبو طاهر بالبصرة ثمانية عشر يوما ، يحمل منها ما يقدر على حمله من الاموال ، والامتعة ، والنساء ، والصبيان ، ورجع الى بلده • وولى المقتدر على البصرة عاملا محمد بن عبد الله الفارقي ، فانحدر اليها ، وقد رحل عنها أبو طاهر •

وفي سنة اثني عشرة وثلاثمائة :

تحرك أبو طاهر القرمطي الى الهبير ، ومعه جيش عرمرم ليلقى الحج في رجوعه في مكة ، فأوقع بقافلة تقدمت معظم الحاج ، وكان فيها خلق كثير من أهل بغداد وغيرهم ، فنهبهم ، واتصل الخبر بباقي الحجاج وهم بفيد ، فأقاموا بها حتى فني زادهم ، فارتحلوا مسرعين ، وكان أبو الهيجاء بن حمدان قد أشار عليهم بالعود الى وادي القرى ، وأنهم لا يقيمون بفيد ، فاستبعدوا الطريق ولم يقبلوا منه — وكان الى أبي الهيجاء طريق الكوفة — وكثر الحاج ، فلما فني زادهم ساروا على طريق الكوفة فاوقع بهم القرامطة وأخذوهم،وأسروا أبا الهيجاء وأحمد بن كشمرد ونحرير، وأحمد بن بدر ، عم والدة المقتدر ، وأخذ أبو طاهر جمال الحجاج جميعها ، وما أراد من الامتعة والاموال والنساء والصبيان،وعاد الى هجر وترك الحجاج في مواضعهم[2] فمات أكثرهم جوعا وعطشا من حر الشمس • وكان عمر أبي طاهر حينئذ سبع عشرة سنة •

وانقلبت بغداد واجتمع حرم المأخوذين الى حرم المنكوبين الذين نكبهم ابن الفرات وجعلن ينادين : القرمطي الصغير أبو طاهر قتل المسلمين من الحاج في طريق مكة والقرمطي الكبير ابن الفرات قتل من في بغداد من المسلمين ، وكانت صورة شنيعة وكسر العامة منابر الجوامع وسودوا المحاريب يوم الجمعة[3] لست خلون من صفر ، وضعفت نفس ابن الفرات وحضر عند المقتدر ليأخذ أمره فيما يفعله ، وحضر نصر الحاجب المشورة ، فانبسط لسانه على ابن الفرات ، وقال له : الساعة تقول أي

(1) في ياقوت : — مادة الكلاء — اسم محلة مشهورة وسوق البصرة أيضا — .
(2) في الاصل — مواضع — والتقويم من الكامل ٨ : ١٠٨ ومسكويه ١ : ١٢١ .
(3) في الاصل — الجميع — والتقويم من الكامل ٨ : ١٠٨ .

شيء نصنع ، وما هو الرأي ، بعد أن زعزعت أركان الدولة وعرضتها للزوال : في الباطن بالميل مع كل عدو يظهر ، ومكاتبته ومهادنته ، وفي الظاهر بابعادك مؤنسا ، ومن معه الى الرقة،وهم سيوف الدولة ، فمن يدفع الآن هذا الرجل ان قصد الحضرة أنت أو ولدك ؟! وقد ظهر الان أن مقصودك بابعاد مؤنس، وبالقبض علي وعلى غيري أن تستضعف الدولـة ، وتقوي أعداءها ، فتشفي غيظ قلبك ممن صادرك وأخـذ أموالك ، ومـن الذي سلم الناس الى القرمطي غيرك لما يجمع بينكما مـن التشيع والرفض، وقد ظهر أيضا أن ذلك الرجل العجمي[1] كان من أصحاب القرمطي، وأنت أوصلته . فحلف ابن الفرات أنه ما كاتب القرمطي ولا هاداه، ولا رأى ذلك الاعجمي الا تلك الساعة ، والمقتدر معرض عنه ، وأشار نصر على المقتدر أن يحضر مؤنسا ومن معه ، ففعل ذلك وكتب اليه بالحضور ، فسارع الى ذلك ، ونهض ابن الفرات فركب في طياره فرجمته العامة حتى كاد يغرق

وتقدم المقتدر الى ياقوت بالمسير الي الكوفة ليمنعها من القرامطة فخرج في جمع كثير ومعه ولداه : المظفر ، ومحمد ، فخرج على ذلك العسكر مال كثير . وورد الخبر بعود القرامطة فعطل مسير ياقوت ، ووصل مؤنس المظفر الى بغداد . ولما رأى المحسن ابن الوزير ابن الفرات انحلال أمورهم ، أخذ من كان محبوسا عنده مـن المصادرين فقتلهم ، لانه كان قد أخذ منهم أموالا جليلة ، لم يوصلها الى المقتدر ، فخاف أن يقروا عليه .

ثم ان الارجاف كثر على ابن الفرات ، فكتب الى المقتدر يعرفه ذلك ، وانمـا عادوه لنصحه وشفقته وأخذ حقوقه منهم ، فأنفذ المقتدر اليه يطيب قلبه ، فركب هو وولده الى المقتدر،فأدخلهما اليه،ولما خرجا من عنده،منعهما نصر الحاجب من الخروج ووكل بهما ، فدخل مفلح على المقتدر وأشار اليه بتأخير عزله ، فأمر باطلاقهما ،فخرج هو وابنه المحسن . فأما المحسن فانه اختفى ، وأما الوزير فانـه جلس عامة نهاره يمضي الاشغال الى الليل ، ثم بات مفكرا ، فلما أصبح سمعه بعض الخدم ينشد :

وأصبـح لا يدري وان كان حازما أقدامه خـير لـه أم وراؤه

فلما أصبح الغد ــ وهو الثامن من ربيع الاول ــ أتاه نازوك وبليق في عـدة

---

(1) لم ترد الاشارة الى هذا الرجل من قبل لنحدد هويته .

من الجند ، فدخلوا الى الوزير ، وهو عند الحرم فأخرجوه حافيا مكشوف الرأس وأخذ الى دجلة ، فألقى عليه بليق طيلسانا غطى به رأسه ، وحمل الى طيار فيه مؤنس المظفر ، ومعه هلال بن بدر ، فاعتذر اليه ابن الفرات وألان كلامه ، فقال له : أنا الآن الاستاذ ، وكنت بالامس الخائن الساعي في فساد الدولة ، وأخرجتني والمطر علـى رأسي ، ورؤوس أصحابي ، ولم تمهلني • ثم سلم الى شفيع اللؤلؤي فحبس عنده ، وكانت مدة وزارته هذه عشرة أشهر وثمانية عشر يوما ، وأخذ أصحابه وأولاده ، ولم ينج منهم الا المحسن ، فانه اختفى ، وصودر ابن الفرات على جملة على المـال مبلغها ألف ألف دينار •

ولما تغير حال ابن الفرات سعى عبد الله بن محمد بن عبيد الله (بن)[1] يحيى بن خاقان ، أبو القاسم بن علي الخاقاني في الوزارة ، وكتب خطه يتكفل ابن الفرات وأصحابه بمصادرة ألف ألف دينار ، وسعى له مؤنس الخـادم وهارون بن غريب ــ الخال ــ ونصر الحاجب ، وكان أبو علي الخاقاني والد أبي القاسم مريضا شديد المرض ، وقد تغير عليه لكبر سنه فلم يعلم بشيء من حال ولده • وتولى أبو القاسم الوزارة تاسع ربيع الاول وكان المقتدر يكرهه ، فلما سمع ابن الفرات وهو محبوس بولايته قال[2] : الخليفة هو الذي نكب لا أنا ، يعني أن الوزير عاجز لا يعرف أمـر الوزارة •

ولما وزر الخاقاني شفع اليه مؤنس الخادم في اعادة علي بن عيسى من صنعاء الى مكة ، فكتب الى جعفر عامل اليمن في الاذن لعلي بن عيسى في العود الى مكة ، ففعل ذلك ، وأذن لعلي في الاطلاع على أعمال مصر والشام ، ومات أبو علي الخاقاني في وزارة ولده هـذه •

وكان المحسن ابن الوزير ابن الفرات مختفيا كما ذكرنا ، وكان عند حماتـه حنزابة[3] ، وهي والدة الفضل بن جعفر بن الفرات ، وكانت تأخذه كل يوم الـى

---

(١) الاضافة من الكامل ٨ : ١١٠ .

(٢) في الاصل قال له . والتقويم من الكامل ٨ : ١٠٠

(٣) في الكامل ٨ : ١١١ ــ حزانة ــ وعند مسكويه ١ : ١٣١ ــ جنزابة ــ والصحيح ما اثبتناه ، والحنزابة هو جزر البر ، شبهت به لقصرها . انظر القاموس مادة حنزب .

المقبرة ، وتعود به الى المنازل التي يثق بأهلها عشاء[1] وهو في زي امرأة ، فمضت يوما الى مقابر قريش ، وأدركها الليل ، فبعد عليها الطريق ، فأشارت عليها امرأة معها أن تقصد امرأة صالحة تعرفها بالخير تختفي عندها ، فأخذت المحسّن ، وقصدت تلك المرأة ، وقالت لها : معنا صبية بكر نريد بيتا تكون فيه ، فأمرتهم بالدخول الى دارها ، وسلمت اليهم قبة في الدار ، فأدخلن المحسن اليها ، وجلست النساء اللواتي معه في صفة بين يدي باب القبة ، فجاءت جارية سوداء فرأت المحسن في القبة، فعادت الى مولاتها فأخبرتها أن في الدار رجلا ، فجاءت صاحبتها ، فلما رأته عرفته ، وكان المحسن قد أخذ زوجها ليصادره ، فلما رأى الناس في داره يجلدون ويشقضون ويعذبون مات فجأة ، فلما رأت المرأة المحسّن وعرفته ، ركبت في سفينة وقصدت دار الخليفة وصاحت : « معي نصيحة لامير المؤمنين » ، فأحضرها نصر الحاجب فأخبرته بخبر المحسن ، فأنهى ذلك الى المقتدر ، فأمر نازوك صاحب الشرطة أن يسير ويحضره ، فأخذها معه الى منزلها ، ودخل المنزل وأخذ المحسن وعاد به الى المقتدر ، فرده الى دار الوزير ، فعذب أنواع العذاب ليجيب الى مصادرة يبذلها ، فلم يجبهم الى دينار واحد ، وقال : لا أجمع لكم بين نفسي ومالي ، واشتد العذاب عليه بحيث امتنع عن الطعام ، فلما علم بذلك المقتدر أمر بحمله مع أبيه الى دار الخلافة فقال الوزير أبو القاسم لمؤنس وهارون بن غريب ــ الخال ــ ونصر الحاجب : ان نقل ابن الفرات الى دار الخلافة ، بذل أمواله ، وأطمع المقتدر في أموالنا ، وضمننا منه ، وتسلمنا فأهلكنا ، فوضعوا القواد والجند حتى قالوا للخليفة : انه لا بد من قتل ابن الفرات وولده ، فاننا لا نأمن على أنفسنا ما داما[2] في الحياة ، وتردد[3] ورود الرسائل في ذلك ، وتشاور [الخليفة] مع مؤنس وهارون ونصر الحاجب ، فوافقوا على قتلهما ، فجيء بهما[4] وذبحوهما كذبح الغنم .

وكان ابن الفرات قد أصبح يوم الاحد صائما فأتوا اليه بطعام فلم يأكله ولم يفطر ، وقال : رأيت أخي العباس يقول لي : أنت وولدك عندنا يوم الاثنين ، ولا شك

---

(١) في الاصل ــ غشاة ــ والتقويم من الكامل ٨ : ١١١ .
(٢) في الاصل ــ ما داموا ــ انظر الكامل ٨ : ١١٢ .
(٣) في الاصل ــ وترددت ــ .
(٤) في الاصل ــ على قتلهم فجيء بهم ــ انظر الكامل ٨ : ١١٢ .

أننا نقتل ، فقتل ابنه المحسن [يوم الاثنين][1] لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر • وحمل رأسه الى أبيه فارتعش واقشعر بدنه وأغمي عليه ، ثم عرض على أبيه السيف فقال : راجعوا في أمري ، فان عندي أموالا طائلة ، وجواهر كثيرة ، فقيل له : جل الامر عن ذلك ، وقتلوه وعمره يومئذ نيف وسبعون سنة ، وابنه ثلاث وثلاثون سنة، وحمل رأساهما[2] الى المقتدر فأمر بتغريقهما •

وقال أبو الحسن بن الفرات في بعض مجالسه : ان المقتدر بالله يقتلني فصح ذلك ، ومما يروى عنه أنه رجع يوما من عند المقتدر ، وهو مفكر كثير الهم فقيل : ما بالك ؟ فقال : كنت عند المقتدر فما خاطبته بكلمة ، الا أجاب ، نعم • فقلت له : الشيء ، وضده ، أجاب ، نعم ، فقيل له : هذا لحسن ظنه بك ، وثقته بما تقول ، واعتماده على شفقتك ، فقال : لا والله [ولكنه] أذن[3] لكل قائل ، وما يؤمني اذا قيل له : نقتل الوزير ، فيقول : نعم ، والله انه لقاتلي •

ولما قتل ركب هارون الى الخاقاني ، وأخبره فأغمي حتى ظن من حضر أنه مات ، وصاح أهله وذووه وبكوا وولولوا عليه ، فلما أفاق من غشيته لم يفارقه هارون حتى أخذ منه ألفي دينار •

وأما أولاد ابن الفرات فشفع فيهم مؤنسا المظفر ــ وهما عبد الله وأبو نصر ــ فأطلقا من السجن ، فخلع عليهما ووصلهما بمال ، وصودر ابنه الحسن على عشرين ألف دينار ، وأطلق الى منزله • وكان الوزير أبو الحسن بن الفرات كريما ذا رئاسة وكفاية[4] في عمله ، حسن الخطاب والجواب ولم يكن له سيئة الا ولده المحسن •

ومن محاسنه أنه جرى ذكر أهل الادب والحديث وماهم فيه من الفقر والقلة[5] فأعانهم بعشرين ألف درهم ، وكذا الشعراء والادباء وكذا الفقهاء والصوفية لكل عشرين ألفا • وكان اذا ولي الوزارة ارتفعت أسعار القراطيس والشمع والثلج لكثرة استعمالها ، ولم يكن فيه عيب سوى أن ولده وأصحابه كانوا يفعلون الرذائل ، ويظلمون ، ولا يمنعهم من ذلك أبدا ، « وعلى رأي المثل دار الظالمين خراب ودولة

---

(١) الاضافة من الكامل ٨ : ١١٢ .
(٢) في الاصل ــ راسهما ــ .
(٣) في الاصل ــ بشفقتك فقال:لاوالله اذن ــ.والتقويم والاضافة من الكامل٨:١١٣.
(٤) في الاصل ــ كفوا ــ والتقويم من الكامل ٨ : ١١٣ .
(٥) زاد ابن الاثير ٨ : ١١٣ ــ والتعفف ــ .

الظلم لا تدوم »[1]، فمن ذلك أن رجلا من أصحابه اغتصب أرضا من امرأة،فكتبت له غير مرة فلم يرد لها جوابا ، فوقفت له يوما في طريقه ، واستحلفته بالله أن يرثي لحالها ، ويسمع منها ، فوقف لها ، فقالت : كنت كتبت لك في ظلامتي غير مرة ، فلم تجبني ، وقد تركتك ، ورفعتها الى الله تعالى ، فلما كان بعد أيام و [رأى][2] تغير حاله ، قال: ما أظن الا جواب رقعة تلك المظلومة قد خرج ، فكان كما قال !

وفي هذه السنة دخل أبو طاهر القرمطي الكوفة، وسبب ذلك أن أبا طاهر أخلى سبيل من كان عنده من الاسرى من الحجاج وغيرهم ، وفيهم ابن حمدان وغيره ، وطلب من المقتدر البصرة والاهواز ، فلم يجبه الى ذلك فارتحل من هجر يريد الحج، وكان جعفر بن ورقاء الشيباني واليا على الكوفة ، وطريق مكة ، فلما سار الحجاج من بغداد سار جعفر من بين أيديهم خوفا من أبي طاهر ، ومعه ألف رجل من بني شيبان ، وسار مع الحجاج ثمل صاحب البحر ، وجني الصفواني ، وطريف السكري وغيرهم في ستة آلاف رجل، فلقي أبو طاهر جعفر ، وحصل بينهما موقعة قتال شديدة يشيب لها الولدان ، فبينما هو في المعركة ، واذا بفريق من القرامطة طلع له عن يمينه، فانهزم من بين أيديهم شر هزيمة فلقي القافلة الاولى وقد انحدرت من العقبة ، فردهم الى الكوفة ، ومعهم عسكر الخليفة ، وتبعهم أبو طاهر الى باب الكوفة ، واشتبك معهم في قتال عنيف ، فانهزم جند الخليفة وأعمل فيهم السيف ، ومكنه من أعناقهم فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

وأسر جنيا الصفواني وهرب الباقون والحجاج من الكوفة ، ودخلها أبو طاهر وأقام ستة أيام يدخلها نهارا ويجلس في المسجد الى ما بعد العشاء ويخرج يبيت في عسكره ، وحمل منها الغنائم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت من أموال ، وجواهر غوال وثياب من خز وديباج ، وغير ذلك ، وعاد الى وطنه هجر ، ودخل المنهزمون بغداد ، فأنفذ الخليفة أمره الى مؤنس المظفر بالخروج الى الكوفة ، فرحل اليها ودخلها وقد عاد القرمطي راجعا الى وطنه ، فاستخلف عليها ياقوتا وسار مؤنس الى واسط خوفا من أبي طاهر وخاف أهل بغداد ، وانتقل الناس الى واسط خوفا من أبي طاهر وخاف أهل بغداد ، وانتقل الناس الى الجانب الشرقي ولم يحج في هذا العام من الناس أحد .

---

(1) يبدو أن هذه الجملة قد اقحمت في الاصل .
(2) الاضافة من الكامل ٨ : ١١٤ .

وفي سنة اربع عشرة وثلاثمائة :

أمر الخليفة بتقليد يوسف بن أبي الساج نواحي المشرق ، وأذن له في جباية أموالها وصرفها على قواده وأجناده ، وسيره الى واسط ليسير الى هجر لمحاربة أبي طاهر القرمطي . فدخلها وواليها يومئذ مؤنس المظفر ، فسار الى بغداد ليقيم فيها ، وجعل له أموال الخراج ببلدان : همذان وساوة ، وقم ، وقاشان وماء البصرة ، وماء الكوفة ، وماسبذان ، ليجري منها النفقات على جنده ويستعين بها على محاربة القرمطي ، وذلك من تدبير الخصيبي[1] .

وفي سنة خمس عشر وثلاثمائة :

وصلت الاخبار الى الخليفة المقتدر بمسير أبي طاهر القرمطي وجنده الى الكوفة ، ثم وردت الاخبار من البصرة بأنه اجتاز قريبا منهم نحو الكوفة ، فأرسل الخليفة الى يوسف بن أبي الساج بالتوجه لمحاربة القرمطي ، فسار الى الكوفة من واسط في آخر شهر رمضان ، واعدوا له الانزال ولعسكره ، فلما وصلها أبو طاهر القرمطي ، هرب نواب السلطان عنها ، فاستولى على ذلك كله أبو طاهر القرمطي ، وكان فيها العلوفات والزاد ، وقد نفد زاد أبي طاهر فغنم تلك الغنائم .

ووصل الكوفة يوسف بن [أبي] الساج ثاني يوم وصول القرمطي الى الكوفة، وكان يوم الجمعة ثامن شوال ، فكتب للقرمطي بطاعة الخليفة ، فرد عليه : « لانطيع الا الله والحرب بيننا وبينك غدا » ، فلما أصبحا ابتدأ أوباش العسكر بالسب والشتم وقذف الحجارة ، ورأى يوسف قلة القرامطة فاحتقرهم ، وقال : « ان هؤلاء لشرذمة قليلة بعد ساعة في يدي » . وتقدم بأن يكتب كتاب الفتح والبشارة بالظفر .

ما كل ما يتمنى المرء يدركه ... تجري الرياح بما لاتشتهي السفن[2]

وزحف الناس بعضهم الى بعض فسمع أبو طاهر أصوات البوقات والزعقات ، فقال لصاحب له : ما هذا ؟ فقال : فشل ، قال : أجل ! لم يزد على هذا ، فاقتتلوا ضحوة النهار يوم السبت الى غروب الشمس ، وصبر الفريقان فلما رأى ذلك أبو طاهر باشر الحرب بنفسه ، ومعه جماعة يثق بهم ، فطحن أصحاب يوسف ودقهم ،

---

(1) هو أبو العباس الخصيبي وكان وزير المقتدر آنذاك، مسكويه : /١٤٢، الكامل: ١١٩/٨ .

(2) يبدو أن هذا حشو ، وليس من الاصل .

فانهزموا بين يديه ، ووقع يوسف أسيرا ، وكثير من أصحابه ، وذلك وقت غروب الشمس ، فحملوه الى عسكرهم ، ووكل به أبو طاهر طبيبا يداوي جراحه ، وطار الخبر الى بغداد فارتعد الناس ، وخافوا عاقبة أمر القرامطة ، وارتاعوا وخافوا خوفا شديدا ، وعزموا على الهرب الى حلوان وهمذان ، ودخل المنهزمون أكثرهم حفاة عراة « يدعون بالويل والثبور وعظائم الامور مما حل بهم ونكبهم »[1]،فبرز مؤنس المظفر ليسير الى الكوفة ، وأتاهم الخبر أن القرامطة قد ساروا الى عين التمر ، فأنفذ من بغداد خمسمائة سميرية فيها المقاتلة لتمنعهم من عبور الفرات ، وسير جماعة من الجيش الى الانبار ، فقطع أهلها الجسر ، ونزل القرامطة غربي الفرات ، وأنفذ أبو طاهر أصحابه الى الحديثة[2] فأتوه بسفن ، ولم يعلم أهل الانبار ، وعبر فيها ثلاثمائة رجل من القرامطة ، وقاتلوا عسكر الخليفة ، فهزموهم وقتلوا منهم جماعة ، واستولى القرامطة على مدينة الانبار ، وعقدوا الجسر ، وعبر أبو طاهر جريدة ، وخلف سواده بالجانب الغربي ، فوصل الخبر بعبور أبي طاهر الى الانبار ، وخرج نصر الحاجب في عسكر جرار ولحق بمؤنس ، فاجتمعا في نيف وأربعين ألف مقاتل ، سوى الغلمان ، ومن يريد النهب ، وكان ممن معه : أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان ، ومن اخوته أبو الوليد ، وأبو السرايا في أصحابهم ، فوصلوا نهر زبارا على فرسخين من بغداد عند عقرقوف ، فأشار أبو الهيجاء بقطع القنطرة التي عليه ، فقطعوها وسار أبو طاهر ومن معه [نحوهم][3] ، فبلغوا نهر زبارا ، وفي أوائلهم رجل أسود فما زال يدنو من القنطرة حتى وجدها مقطوعة ، فعاد والنشاب يأخذه وهو مثل القنفذ .

وأراد القرامطة العبور فلم يتمكنوا من ذلك ولما أشرفوا على عسكر الخليفة هرب منهم خلق كثير الى بغداد من غير أن يلقوهم ، فلما رأى ابن حمدان ذلك ، قال لمؤنس : كيف رأيت ما أشرت به عليكم ؟ فوالله لو عبر القرامطة النهر لانهزم كل من معك ولاخذوا بغداد ، ولما رأى القرامطة ذلك كروا راجعين الى الانبار ، وسير مؤنس صاحبه بليق[4] بستة آلاف مقاتل الى عسكر القرامطة غربي الفرات، ليغنموه

---

(١) يبدو ان هذه الجملة ليست من الاصل بل افحمت فيه من قبل احد النساخ .

(٢) في الاصل ــ وامر ابو طاهر اصحابه الحديثة ــ والتقويم من الكامل : ١٢٥/٨ .

(٣) الاضافة من الكامل : ١٢٥/٨ .

(٤) عند مسكويه : ١٧٨/١ ــ يلبق حاجبه ــ وكذا في اتعاظ الحنفا ــ ص ٢٤٢ ط . الشيال الاولى .

ويخلصوا ابن أبي الساج ، فبلغوا اليهم وقد عبر أبو طاهر الفرات في زورق صياد وأعطاه ألف دينار ، فلما رآه أصحابه قويت قلوبهم ، ولما أتاهم عسكر مؤنس ، كان أبو طاهر عندهم فقاتلوهم قتالا شديدا فانهزم عسكر الخليفة ، ونظر أبو طاهر ابن أبي الساج وهو قد خرج من الخيمة ، ينظر ويرجو الخلاص ، وقد ناداه أصحابه أبشر بالفرج ، فلما انهزموا أحضره وقتله ، وقتل جميع الاسرى من أصحابه . وسلمت بغداد من نهب العيارين ، لان نازوك كان يطوف ليلا ونهارا وكل شخص يجده [بعد العتمة][1] يقتله ، فامتنع العيارون واكترى كثير من أهل بغداد سفنا ، ونقلوا فيها متاعهم وأموالهم ، ومنهم من هاجر الى حلوان وخراسان والى واسط وكان عدة القرامطة ألفين وسبعمائة رجل منهم خمسمائة فارس[2] .

وقصد القرامطة مدينة هيت ، وكان المقتدر سير اليها سعيد بن حمدان وهرون ابن غريب . فلما بلغها القرامطة وجدوا عسكر الخليفة سبقهم اليها فقاتلوهم على السور فقتل من القرامطة جماعة كثيرة فرجعوا عنها .

ولما علم[3] أهل بغداد عودتهم من هيت سكنت قلوبهم ولما بلغ الخليفة عدد جنده وجند القرامطة،قال: لعن الله نيفا وثمانين ألفا، يعجزون عن ألفين وسبعمائة[4].

وحضر شخص الى علي بن عيسى ، وأخبره أن في جيرانه رجلا[5] على مذهب القرامطة ، يكاتب أبا طاهر بالاخبار ، فأحضره وسأله ، فأقر ، وقال : ما عرفت أبا طاهر الا لما صح عندي مذهبه وأنه حق ، وأنت وصاحبك كفار تأخذون ما ليس لكم، ولا بد لله من حجة في أرضه ، وامامنا المهدي محمد بن فلان بن فلان بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب ، ولسنا كالرافضة والاثني عشرية ، الذين يقولون بجهلهم ، ان لهم اماما ينتظرونه ، ويكذب بعضهم لبعض ويقول : «رأيته وسمعته وهو يقرأ » ، ولا ينكرون ذلك لجهلهم وغباوتهم أنه لا يجوز أن

---

(١) الاضافة من الكامل : ١٢٦/٨ .

(٢) في الكامل : ١٢٦/٨ ــ الف رجل وخمسمائة رجل منهم سبعمائة فارس وثمانمائة راجل وقيل كانوا الفين وسبعمائة ــ. وهذا ماأورده مسكويه ــ ١٧٩/١ ــ ايضا.

(٣) في الاصل ــ علموا ــ وفي الكامل : ١٢٧/٨ ــ بلغ ــ .

(٤) في الاصل وثمانمائة ــ والتقويم بما تقدم آنفا ومن الكامل : ٢٧/٨ .

(٥) وفي الكامل : ١٢٧/٨ ــ رجلا من شيراز ــ. وكذا قال مسكويه : ١٨١/١ .

يعطى من العمر ما يظنونه ، فقال [له][1] : قد خالطت عسكرنا وعرفتهم فمن فيهم على مذهبك[2] ؟ فقال : وأنت بهذا العقل ، كيف أسلم ناسا مؤمنين لقوم كافرين يقتلونهم ؟ لا أفعل ذلك أبدا ، فأمر بتعذيبه فضرب ضربا مبرحا ، ومنع الطعام والشراب ، فهلك بعد ثلاثة أيام .

وكان ابن أبي الساج قبل قتاله القرامطة قبض على وزيره محمد بن خلف البيرماني[3] ؛ وجعل مكانه أبا علي الحسن بن هرون ، وصادره على خمسمائة ألف دينار . وسبب ذلك أن البيرماني كثر ماله وعظم شأنه ، فطمع أن يكون وزيرا للخليفة ، فكتب بذلك لنصر الحاجب يخطب الوزارة ، ويسعى بابن أبي الساج ، ويقول انه قرمطي يعتقد امامة العلوي الذي بافريقية ، وانني ناظرته على ذلك فلم يرجع وانه لا يسير الى قتال أبي طاهر ، وانما يأخذ المال بهذا السبب ، ويقوى به على قصد حضرة السلطان وازالة الخلافة من بني العباس ، وطول في ذلك وعرض ، وكان لمحمد بن خلف أعداء قد أساء اليهم من أصحاب ابن أبي الساج ، فأخبروا يوسف وأطلعوه على جوابات جاءت من بغداد من نصر الحاجب في هذا المعنى ، وفيها الوعد له بالوزارة ، وعزل علي بن عيسى الوزير ، فلما علم ذلك يوسف بن أبي الساج ، قبض على محمد بن خلف ، فلما أسر ابن أبي الساج تخلص من السجن ، وكان ابن أبي الساج يدعى بالشيخ الكريم، لما جمع الله فيه من خلال الكرم والكمال، رحمه الله تعالى .

وفي سنة ست عشر وثلاثمائة :

سار القرامطة من الانبار ، ورجع مؤنس الخادم الى بغداد ، فدخلها في ثالث المحرم ، وسار أبو طاهر القرمطي الى الدالية من طريق الفرات فلم يجد فيها شيئا ، فقتل من أهلها جماعة ، ثم سار الى الرحبة ، فدخلها ثامن المحرم بعد أن حاربه أهلها فأعمل فيهم السيف بعد أن ظفر بهم ، فأمر مؤنس بالمسير الى الرقة ، فسار اليها في صفر ، وجعل طريقه على الموصل ، فوصل اليها في ربيع الاول ، ونزل [بها][4]

---

(١) الاضافة من الكامل ٨ : ١٢٧ .
(٢) في الاصل ــ وعرفت من فيهم على مذهبك ــ والتقويم من الكامل ٨ : ١٢٧ .
(٣) في الكامل ٨ : ١٢٧ ــ ومسكويه ١ : ١٨٤ ــ النيرماني ــ .
(٤) الاضافة من الكامل ٨ : ١٣٢ .

وأرسل أهل قرقيسيا[1] يطلبون من أبي طاهر الامان ، فأمنهم وأمرهم ألا يظهر أحد منهم بالنهار ، فأجابوه الى ذلك ، وسير أبو طاهر سرية الى العرب بالجزيرة فنهبوهم، وأخذوا أموالهم ، فخافه الاعراب ، وهربوا من بين يديه ، وقرر عليهم[2] أتاوة : على كل رأس دينار يحملونه الى هجر .

ثم صعد أبو طاهر من الرحبة الى الرقة ، فدخل أصحابه الربض وقتلوا منهم ثلاثين رجلا ، وأعان أهل الرقة أهل الربض ، وقتلوا من القرامطة جماعة ، فقاتلهم ثلاثة أيام ، ثم انصرفوا آخر ربيع الآخر . وبعث القرامطة سرية الى رأس عين كفرتوثا[3] ، فطلب أهلها الامان فأمنوهم ، وساروا الى سنجار ، فنصبوا الحبال ، ونازلوا سنجار ، فطلب أهلها الامان فأمنوهم .

وكان مؤنس قد وصل الى الموصل ، فبلغه قصد القرامطة الى الرقة فجد السير اليها ، فسار أبو طاهر عنها ، وعاد الى الرحبة ، ووصل مؤنس الى الرقة ، بعد انصراف القرامطة عنها . ثم ان القرامطة ساروا الى هيت ، وكان أهلها قد أحكموا سورها : فقاتلوهم فعادوا عنهم الى الكوفة ؛ فبلغ الخبر الى بغداد ، فأخرج هارون ابن غريب ، وبني بن نفيس ، ونصر الحاجب اليها ، ووصلت خيل القرمطي الى قصر ابن هبيرة[4] فقتلوا منه جماعة .

ثم ان نصرا الحاجب حم في طريقه حمى حادة، فتجلد وسار ولما قاربهم القرمطي لم يكن في نصر قوة على النهوض والمحاربة ، فاستخلف أحمد بن كيغلغ ، واشتد مرضه وأمسك لسانه ، فردوه الى بغداد ، فمات في الطريق أواخر شهر رمضان ، فجعل مكانه على الجيش هارون بن غريب ، ورتب ابنه أحمد بن نصر في الحجبة للمقتدر مكان أبيه ، فانصرف القرامطة الى البرية ، وعاد هارون الى بغداد في الجيش فدخلها لثمان [بقين][5] في شوال .

---

(1) هي بلدة البصيرة الحالية في سورية حيث يلتقي الخابور بالفرات .
(2) في الاصل ـ اليهم ـ والتقويم من الكامل : ١٣٢/٨ ، ومسكويه : ١٨٢/١ .
(3) في الاصل ـ كفر قوثا ـ والتقويم من الكامل : ١٣٢/٨ وياقوت ـ مادة كفر ـ .
(4) بناه قرب الكوفة على طرف الفرات يزيد بن عمر بن هبيرة في اواخر العصر الاموي، وقد سكنه في بداية العصر العباسي كل من السفاح والمنصور ـ معجم البلدان .
(5) الاضافة من الكامل : ١٣٣/٨ .

وفي هذه السنة تحرك أبو طاهر واجتمع معه السواد الاعظم ، ودخل في مذهبه خلق كثير بربو على عشرة آلاف رجل ، وأمر عليهم رئيسا حريث بن مسعود بواسط، ودخل في مذهبه أيضا من في عين التمر ونواحيها، وأمر عليهم عيسى بن موسى، وهو ممن كان يدعو للمهدي ، فسيره أبو طاهر الى الكوفة فنزل بظاهرها وجبى الخراج، وصرف العمال عن أهلها ، وسير حريثا الى أعمال الموفقي ، فبنى بها دارا سماها دار الهجرة ، واستولى على تلك الناحية، فكانوا يسبون وينهبون ويقتلون وكان بواسط ابن تفيس فقاتله فهزمه •

فسير الخليفة المقتدر بالله هارون بن غريب الى حريث ، وصافيا[1] الى عيسى ابن موسى فهزمهم هارون وصافي ، ودارت الدائرة على القرامطة فأسر منهم جمع كبير ، وقتل منهم ما لا يحصى عدده ، وأخذت أعلامهم فكانت مكتوبة « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين[2] » ، فأدخلت بغداد منكسة ، واضمحل أمر القرامطة في هذه الواقعة وكفى الله الناس شرهم •

وفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة خرج بالناس الىالحج من بغداد منصور الديلمي أميرا للحاج بأمر الخليفة ، ليحج الناس ، فسلموا في الطريق من بغداد الى مكة • فلحقهم أبو طاهر القرمطي بمكة يوم التروية أي قبل طلوعهم عرفات بساعات قليلة ، فقاتلهم أمير مكة ومن معه، ولم يكن الا القليل حتى هزمهم[3]، وأعمل فيهم السيف، ونهب الحجيج وقتل الحجاج حتى في المسجد الحرام ؛ وفي البيت نفسه ، ورمى القتلى في بئر زمزم حتى امتلأت بجثث القتلى ، وخلع باب الكعبة ووقف يلعب بسيفه على باب الكعبة وينشد ويقول :

أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا

وأصعد رجلا ليخلع ميزاب البيت ، فوقع صريعا ميتا ، ودفن باقي القتلى في المسجد الحرام بدون تكفين ، ولا صلى عليهم ، وأخذ كسوة الكعبة فقسمها بين أصحابه ، ونهب دور أهل مكة ، وخلع الحجر الاسود من البيت « فوضعه على

---

(١) جاء اسمه في نص النويري ص ٥٩٦ « صافي النصري » .
(٢) سورة القصص ـ الاية : ٥ .
(٣) اي ابو طاهر القرمطي .

سبعين جمل[1] فسيرهم به ، وهم يضرطون من ثقله الى هجر »[2] . فلما بلغ ذلك المهدي أبا محمد عبد الله[3] العلوي الفاطمي بافريقية ، كتب اليه ينكر عليه فعله ، وقال له : سجلت علينا في التاريخ نقطة سوداء لا تمحوها الليالي والايام ، ويلومه ويلعنه ، ويقول له : قد حققت على دولتنا وشيعتنا ودعاتنا اسم الكفر والزندقة والالحاد بفعالك الشنيعة هذه ، وان لم ترد على أهل مكة والحجاج ما نهبته منهم . وترد الحجر الى موضعه ، وترد كسوة الكعبة كما كانت ، والا أتيت اليك بجنود لا قبل لك بها ، وأنا بريء منك كما برئت من الشيطان الرجيم في الدنيا والآخرة ، وأعوذ بالله من فعالك السوء،وان لم تفعل ما آمرك به لا يكن بيني وبينك الا السيف والبراءة منك يا عدو الله والناس أجمعين .

فرد الحجر الى مكانه « فرجع به جمل واحد بدلاً من سبعين جملا وكان يمر به مر السحاب في رجوعه الى مكة ، وقيل ان الجمل كان مهزولا ومريضا فعوفي عند مسيرة بالحجر الى مكة »[4] واستعاد ما أمكنه من الاموال الى أهل مكة ، وقال يعتذر للامام العلوي : « ان الناس اقتسموا كسوة الكعبة وأموال الحجاج ولا أقدر على ردها منهم » .

وفي سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة :

خرج الناس للحج ، فلما بلغوا القادسية ، اعترضهم أبو طاهر القرمطي ثاني عشر [ذي] القعدة ، فلم يعرفوه ، فقاتلهم جند الخليفة وأعانهم الحجاج ، ثم التجؤوا الى القادسية فخرج جماعة من العلويين بالكوفة ، الى أبي طاهر ، فسألوه أن يكف عن

---

(1) كذا في الاصل ، والصواب « جملا » بالنصب .

(2) لم ترد هذه الجملة في اي اصل آخر ويبدو انها اقحمت في الاصل .

(3) في الاصل عبيد الله ، وهو المتداول عند كتاب المشرق ، وهو خطا متعمد ، فاسمه بالاصل عبد الله ، بعدما طعنوا في نسبه ، لان في التصغير تحقير ، وقد ورد اسم المهدى « عبد الله » في الكتابات الاسماعيلية ، وقد رايت في القيروان دينارين من دنانيره تاريخ أولهما ٣٠٢ هـ والثاني ٣٠٤ هـ ، وجاء اسمه عليهما « عبد الله » ، انظر أيضا كتاب عيون الاخبار وفنون الاثار للداعي ادريس . خاصة السبع الخامس منه .

(4) لم ترد هذه الجملة في اي اصل آخر ويبدو انها حشيت في الاصل .

الحجاج ، فكف عنهم وشرط عليهم أن يرجعوا الى بغداد ، فرجعوا ولم يحج في هذا العـام أحـد .

وسار أبو طاهر الى الكوفة فأقام فيها أياما ورحل عنها .

وفي سنة ست وعشرين وثلاثمائة :

اختل أمر القرامطة ، وبدأ فساد حالهم ، وقتل بعضهم بعضا « يخربون بيوتهم بأيديهم »[1] . وسبب ذلك أن رجلا منهم يدعى ابن سنبر مـن خواص أبي سعيد [والمطلعين على سره][2] له عدو من القرامطة اسمه أبو حفص الشريك ، فقصد ابن سنبر الى أصبهان[3] لصاحب له هناك يدعى الصفوي ذو النور ، فتكلم معه وقال له: بما إني واقف على أسرار أبي سعيد، وغوامض أحوال القرامطة وعلومهم واشاراتهم، أريد أن أرشدك الى ذلك كله ، حتى أجعلك سيدا عليهم يطيعونك فيما تأمر وينتهون بنهيك ، بشرط أن تقتل عدوي أبا حفص الشريك ، فأجابه الى ذلك فجلس اليه يعلمه ويرشده ، حتى اذا أتم وصار أستاذا ماهرا في دلائل القرامطة وأحوالهم ومعارفهم ، وعلامات كان يذكرها في صاحبهم الذي يدعون اليه ، فحضر عند أولاد أبي سعيد ، وذكر لهم ذلك وأشار اليهم بما يعرفونه من علامات وعلوم ومعارف ، وارشادات عالية في علومهم ، وأحوالهم الباطنة ، فقال أبو طاهر : هذا الذي ندعو اليه ، فأطاعوه ودانوا له ، حتى كان يأمر الرجل بقتل أخيه فيقتله ، وكان اذا كره أحدا يقول إنه مريض ــ يعني قد شك في عقيدتهم ــ[4] ويأمر بقتله .

وبلغ أبا طاهر أن الصفوي يريد يأمر بقتله لينفرد بالملك بعده ، فجمع اخوته وتشاور معهم في أمره وقال : لقد أخطأنا في اعتمادنا هذا الرجل ، وجعلنا له السلطة المطلقة في أمرنا ، ولا بد من أن أكشف أمره ، وأقف على حقيقة حاله ، فأحضره وقال له : ان لنا مريضا فانظر اليه ليبرأ فحضروه الى منزلهم ، وكانوا مدبرين حيلة لـه ،

---

(١) سورة الحشر ٥٩ : ٢ .

(٢) الاضافة من الكامل : ٢٦٣/٨ . هذا وقام بنو سنبر بوظيفة الوزراء في دولـة قرامطة الاحساء .

(٣) في الكامل : ٢٦٤/٢ ــ فعمد ابن سنبر الى رجل من أصفهان ــ ولم يورد ابـن الاثير الخبر بالتفاصيل التي جاءت هنا .

(٤) في الكامل : ٢٦٤/٨ ــ في دينه ــ .

وهو أنهم أضجعوا والدتهم ، وغطوها بإزار ، فلما دخل ورآها على هذه الصورة ، نظر نحو المريض ، وقال : ان المريض لا يبرأ بنظري ، فاقتلوه ، فقالوا : قد كذبت ، وهذه والدتنا ، وقاموا اليه وأوثقوه وقتلوه بعد أن أهلك منهم خلقا كثيرا من عظمائهم وفرسانهم،وكان هذا سبب تمسكهم بهجر وترك قصد البلاد والافساد فيها.

وفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة :

أعادوا الحجر الاسود الى مكة بعد مكثه عندهم اثنتين وعشرين حجة . وقد بذلت لهم الاموال في رده فلم يجيبوا الى ذلك لولا تهديد المهدي العلوي لأبي طاهر . ويروى أنهم علقوه في مسجد في الكوفة ، فرآه الناس فحملوه الى مكة وكانوا خلعوه من ركن البيت الحرام في سنة سبع عشرة وثلاثمائة[1] .

وفي سنة ستين وثلاثمائة :

في ذي القعدة وصل القرامطة الى دمشق ، ونصبوا على أسوارها السلالم ، وتعلقوا بها وفتحوها قصدا، وأوقعوا بأهلها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، وشنعوا بأهلها وقتلوا واليها جعفر بن فلاح ، وسبب ذلك أنهم لما رأوا أن جعفرا استولى على الشام أهمهم أمره وأزعجهم وقلقوا ، لانهم كانوا قرروا مع ابن طغج أن يحمل اليهم في كل عام ثلاثمائة ألف دينار ، فلما ملكها جعفر علموا أن المال يفوتهم ، فعزموا على المسير الى الشام،وصاحبهم وقتئذ الحسن بن أحمد بن بهرام القرمطي فأرسل الى عز الدولة بختيار يستمد منه المعونة بالسلاح والمال ، فأجابه الى ذلك واستقر الحال أنهم اذا ساروا الى الكوفة سائرين الى الشام حملوا الذي استقر ، فلما وصلوا الكوفة أوصل اليهم ذلك وساروا الى دمشق ، وبلغ خبر وصولهم الى جعفر ، فاحتقرهم واستهان بهم « ولم يدر المخبأ له ولم يصل اليه قول القائل : اذا كان عدوك نملة

---

(1) جاء في مرآة الزمان ـ مخطوطة أحمد الثالث ـ ٢١/١١ـو : وفيها ـ٣٣٩ هـ ـ رد الحجر الاسود الى موضعه الى مكة من البيت،بعث به اخو ابي طاهر الجنابي، مع محمد بن سنبر الى المطيع ، وكان بجكم قد دفع فيه خمسين الف دينار ، وما اجابوا ، وقالوا : اخذناه بأمر ، وما نرده الا بامر ، فلما كان في هذه السنة ردوه وقالوا : رددناه بامر من اخذناه بأمره ، وقد ذكرناه في سنة سبع عشرة وثلاثمائة ، فاقام عندهم اثنتين وعشرين ، فأعطاهم المطيع مالا ، وبعث به الى مكة ، وحج الناس وتمت مناسكهم .

فلا تنام له ، وقد تقتل النملة الثعبان والاسد »[1] ولم يحتط [2] ويحترز منهم ولم يعمل لهم حسابا ، فكبسوه بظاهر دمشق[3] وقتلوه من حيث لا يشعر بهم وغنموا ماله وأنعامه من ناطق وصامت[4] .

---

(١) يبدو ان هذه الجملة حشيت في الاصل .

(٢) في الاصل — يحتاط — .

(٣) في مرآة الزمان — مخطوطة احمد الثالث — ١/٨٨ — و : وفيها [٣٦٠هـ] توفي جعفر بن فلاح ، احد قواد المصريين ، وأول امير ولي لهم دمشق ، وكان فيمن خرج مع جوهر من المغرب ، وشهد معه فتوح مصر ، ثم بعثه جوهر الى الشام ، فتغلب على الرملة سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، واقام بدمشق .
ولخمس خلون من صفر من هذه السنة ، أمر المؤذنين بجامع دمشق ان يؤذنوا بحي على خير العمل ، وكذا بالمساجد ، وكان ينزل بمكان يقال له الدكة بين نهري يزيد وتورا ، وقيل هي فوق يزيد تقريبا من دير مران ، فجاء أبو محمد الحسن ابن احمد القرمطي الى دمشق ويلقب بالاعصم ، وكان جعفر مريضا ، فخرج فقاتله فقتله القرمطي في ذي القعدة وقيل في شوال .

(٤) اصطدم الفاطميون أثناء فتحهم لدمشق بجماعات الاحداث فيها ، الذين شكلوا نوعا من انواع الميليشيات الشعبية البلدية ، وكان محمد بن عصودا من بين زعماء احداث دمشق الذين تصدوا لجعفر بن فلاح ، وعندما اخفق بالمقاومة غادر دمشق الى الاحساء حيث استنجد بقرامطتها ، ومن حسن الحظ أن المقريزي حفظ لنا في كتاب المقفى تراجم لجعفر بن فلاح والحسن الاعصم زعيم القرامطة ، وترجمة الاعصم بين نصوص هذا الكتاب . أما ما جاء عن علاقة جعفر بن فلاح بالقرامطة فهاكم هو : (من مخطوطة مجلد برتو باشا في استانبول : ٣٠١ — ٣٠٢) .
.... واما محمد بن عصودا فانه لما انهزم ، سار الى الاحساء ، هو وظالم بن مرهوب العقيلي ، وحثا القرامطة على المسير الى الشام ، فوافق ذلك منهم الغرض ؛ لان الاخشيدية كانت تحمل في كل سنة الى القرامطة مالا ، فلما اخذ جوهر مصر ، انقطع المال عن القرامطة فاخذوا في الجهاز للمسير الى الشام ... وكثرت الاخبار بمسير القرامطة الى الشام ، وانهم نزلوا على الكوفة ، وكتبوا الى الخليفة ببغداد ، فانفذ اليهم خزانة سلاح ، وكتب لهم باربعمائة الف درهم على ابي تغلب عبد الله بن ناصر الدولة بن حمدان، من مال الرحبة، وانهم ساروا من الكوفة الى الرحبة واخذوا من ابن حمدان المبلغ ، فكتب جعفر الى غلامه فتوح وهو على انطاكية يأمره بالرحيل فوافاه الكتاب مستهل شهر رمضان ، فشرع في شد احماله ، ونظر الناس اليه فجفلوا ورموا خيمهم، واراقوا طعامهم، واخذوا في السير مجدين الى دمشق ، فلما وافوا جعفر اراد ان يقاتل بهم

وبعد ملكهم لدمشق أمنوا من بقي من أهلها ، وعزموا المسير الى الرملة واستولوا على جميع ما بينهما ، فلما سمع من بها من المغاربة خبرهم ساروا منها الى يافا ، فتحصنوا بها ، وملك القرامطة الرملة بعد قتال شديد وخسائر جمة . وبعد استتباب الامر لهم قصدوا المسير الى مصر وتركوا على يافا من يحصرها .

وعند دخولهم مصر اجتمع عليهم خلق كثير من العرب وغيرهم من الجند والاخشيدية والكافورية ، فنزلوا بفناء مدينة الشمس على مقربة من مصر قريبا من قرية البلسم أو البيلسان وتعرف (بعين) شمس ، واجتمع جند جوهر الصقلبي قائد

القرامطة ، فلم يقفوا ، وطلب كل قوم موضعهم ، ولم يبالوا بالموكلين على الطرق.
وعندما نزل القرامطة على الرحبة أكرمهم ابو تغلب ، وبعث الى الحسن بن احمد ابن ابي سعيد الجنابي ، المعروف بالاعصم ، كبيرهم يقول له : هذا شيء أردت ان اسير فيه بنفسي لكني مقيم في هذا الموضع الى أن يرد الي خبرك، فان احتجت الى سيري سرت اليك ، ونادى في عسكره من اراد السير من الجند الاخشيدية وغيرهم الى الشام مع الحسن بن احمد فلا اعتراض لنا عليه ، وقد اذنا له في المسير والمعسكران واحد ، فخرج الى القرامطة كثير من الاخشيدية الذين كانوا بمصر وفلسطين ، ممن فر من جوهر وجعفر بن فلاح ، وكان جعفر لما اخذ طبرية بعث الى ابي تغلب بن حمدان بداع يقال له ابو طالب التنوخي ، يقول له إنا سائرون اليك فتقيم لنا الدعوة ، فلما قدم الداعي على ابي تغلب وهو بالموصل ، وادى الرسالة ، قال له : هذا ما لا يتم لاننا في دهليز بغداد ، والعساكر منا قريبة ، ولكن اذا قربت عساكركم من هذه الديار ، أمكن ما ذكرته ، فانصرف بغير شيء .
ثم ان الحسن بن احمد القرمطي ، سار عن الرحبة الى ان قرب من دمشق ، فجمع جعفر خواصه واستشارهم ، فاتفقوا على أن يكون لقاء القرامطة في طرف البرية قبل ان يتمكنوا من العمارة ، فخرج اليهم ولقيهم ، فقاتلهم قتالا شديدا، فانهزم عنه عدة من اصحابه ، فولى في عدة ممن معه ، وركب القرامطة اقفيتهم ، وقد تكاثرت العربان من كل ناحية ، وصعد الغبار ، فلم يعرف كبير من صغير ، ووجد جعفر قتيلا لا يعرف له قاتل ، وكانت هذه الوقعة في يوم الخميس لست خلون من ذي القعدة سنة ستين وثلاثمائة .
فامتلأت ايدي القرامطة بما احتووا عليه من المال والسلاح وغيره ، وخرج محمد ابن عصودا الى جثة جعفر بن فلاح ، وهي مطروحة في الطريق . فاخذ رأسه وصلبه على حائط داره ، اراد بذلك اخذ ثار اخيه اسحق بن عصودا ، وملك القرامطة دمشق،وورد الخبر بذلك على جوهر القائد، فاستعد لحرب القرامطة.

المعز لدين الله ، وخرجوا اليهم ، فاقتتلوا غير مرة فلم يظفروا بهم في جميع تلك الايام، وما حصل منهم من الفظائع من قطع الطريق والنهب والسلب وسطوهم على القرى وهتكهم الاعراض يعجز القلم عن وصفه لعنهم الله .

ثم انهم تقدموا وزحفوا وحصروا عسكر جوهر وضايقوهم وحصروهم حصارا شديدا ، ثم ان جند جوهر خرجوا يوما من مصر وحملوا على القرامطة من الميمنة فانهزم من بها من العرب وغيرهم ، وقصدوا خيام القرامطة فنهبوها وكبسوهم فيها فاضطروا الى الهزيمة ، وولوا الادبار راحلين الى الشام ، فنزلوا الرملة ثم حصروا يافا حصارا شديدا وضيقوا على من بها،فسير القائدجوهر نجدة من عسكره لأصحابه المحصورين بها ، ومعهم ميرة في خمسة عشر مركبا ، فأرسل القرامطة مراكبهم اليها فأخذوا مراكب جوهر ولم ينج منها غير مركبين ، فغنمهما مراكب الروم .

وللحسن بن بهرام زعيم القرامطة شعر فمنه في المغاربة أصحاب المعز لدين الله العلوي الفاطمي الافريقي يقول :

زعمت رجال الغرب أني هبتها فدمي اذا ما بينهم مطلول
يا مصر ان لم أسق أرضك من دمي يروي ثراك فلا سقاني النيل

وفي صباح الغد أخذ جند جوهر يرمون القرامطة بقوارير النفط ، وأعملوا فيهم السلاح حتى اضطروهم الى الجلاء عن الحصار ، ورحلوا الى الشام فتبعوهم ، وواصلهم المعز وجوهر بالنجدات حتى أجلوهم عن بعض القرى والمدن[1] .

وفي سنة ثلاث وستين وثلاثمائة تقوى القرامطة ، وعزموا أن يعودوا لمحاربة

---

(١) جاء في ترجمة جوهر الصقلبي ، في كتاب المقفى للمقريزي ـ مجلد برتو باشا : ٣١١ ، مزيدا من التفاصيل هاكم هي :

... ورد الخبر بقدوم الحسن بن الاعصم القرمطي الى دمشق ، وقتل جعفر بن فلاح ، واستيلاء القرامطة على دمشق ، وقصدهم مصر ، فتاهب جوهر لقتالهم، وحفر جوهر خندقا، وعمل عليه بابين من حديد، وبنى القنطرة على الخليج ظاهر القاهرة ، وحفر الخندق السري بن الحكم ، وفرق السلاح على العساكر ، فوجد رقاعا في الجامع العتيق فيها التحذير منه فجمع الناس ووبخهم ، فاعتذروا له فقبل عذرهم، ونزل القرامطة عين شمس في المحرم سنة احدى وستين، فاستعد جوهر وضبط الداخل والخارج .

المعز الفاطمي العلوي صاحب مصر وافريقية، فتجمعت جموعهم،وساروا من الاحساء، وفي مقدمتهم زعيمهم الحسن بن أحمد قاصدين ديار مصر فنزلوا بها وحصروها . فلما سمع المعز لدين الله قصد القرامطة قبل وصولهم الى مصر ، كتب اليهم كتابا[1] ، يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته ، وأن دعوة القرامطة كانت له وآبائه من قبله ، وتوعدهم وهددهم وسير الكتاب اليهم ، فكتبوا اليه[2] جوابك : وصل الذي قل تحصيله ، وكثر تفصيله ، ونحن حاضرون اليك على أثره والسلام . وساروا حتى وصلوا عين شمس فخيموا بها ، وأنشب القتال ، وحصروا مصر حصرا شديدا ، وأفسدوا ونهبوا القرى وقطعوا السبيل ، وكثرت جموعهم، والتف حولهم من العرب وقطاع الطريق جمع كبير ، وكان ممن حضر معهم وانضم اليهم الامير حسان بن الجراح الطائي أمير العرب ببادية الشام ، ومعه جمع عظيم ، فلما رأى ذلك المعز استعظم الامر ، وتحير وارتبك في أمره ، فجمع حاشيته ووزراءه وعقد مجلسا خاصا، فأشار عليه وزيره ابن غنام بأنه ليس حيلة أعظم من العمل على تفريق هذه الجموع من حوله ، وذلك يأتي بالسعي في تفريق كلمتهم ووقوع الخلاف بينهم ، ولا يكون ذلك الا بواسطة أمير العرب ابن الجراح . فراسله المعز لدين الله واستماله بالمال ، وبذل له مائة ألف دينار ، ووعده بأكثر منها اذا تم له النصر على القرامطة ، فأجابه ابن الجراح الى ما طلب منه ، وعاهده على ذلك ، فحلف اليمين أنه اذا وصل اليه المال المقرر انهزم بالناس ، وأوقع بالقرامطة الفشل ، فأحضروا المال فلما رأوه استكثروه ، فسكبوه من صفر وألبسوه الذهب ، ووضعوها في أسفل الأكياس وجعلوا الذهب الخالص على وجوهها وحملوها اليه ، فأرسل الى المعز أن يخرج بعسكره يوم كذا ، ويقاتلونه فسينهزم بمن معه وهو في الجهة كذا ، فخرج المعز على

وفي مستهل ربيع الاول التحم القتال بين القرامطة وبينه على باب القاهرة ، فقتل من الفريقين جماعة وأسر كثير ، ثم استراحوا في ثانيه ، والتقوا ثالثه ، فاقتتلوا قتالا كثيرا قتل فيه ما شاء الله من الخلق ، وانهزم القرمطي يوم الاحد ثالث ربيع الاول ، ونهب سواده ، ومر على طريق القلزم ـ السويس حاليا ـ ونودي في مدينة مصر : من جاء بالقرمطي او براسه فله ثلاثمائة الف درهم وخمسون خلعة وخمسون سرج محلى على دوابها ، وثلاث جوائز . . .

(1) انظره في نص المقريزي في اتعاظ الحنفا .

(2) كذا في الاصل والاحسن : وصل جوابك .

حسب اشارته ، فانهزم وتبعه العرب وكافة من تطوع معهم،فلما رآه الحسن القرمطي منهزما تحير في أمره ، وثبت وقاتل بعسكره ، الا أن جند المعز تابعوا الهجمات عليه من كل جانب فأرهقوه فولى منهزما ، فاتبعوه وأخذوا ، آثره وظفروا بمعسكره ، وأخذوا من فيه أسرى ، وكانوا نحو ألف وخمسمائة أسير ، فضربت رقابهم وأخذوا ما في معسكره غنيمة لهم ، وأرسل المعز لدين الله القائد أبا محمود بن ابراهيم بن جعفر[1] في عشرة آلاف مقاتل ، وأمره باقتفاء أثر القرامطة ، واستئصال شأفتهم وقتلهم ، وتخريب ديارهم واخراجهم من أرض الشام ، وضمها لمصر ، فاقتفى أثرهم وتثاقل في سيره خوفا أن ترجع القرامطة اليه .

وأما القرامطة فان من بقي منهم ساروا الى بلدهم الاحساء ، ويظهرون أنهم يعودون ، فكتب أبو محمود القائد للخليفة المعز لدين الله الفاطمي يخبره بانهزام القرامطة من الشام ، وعودتهم الى بلادهم ، فأمر المعز بتجهيز جيش تحت قيادة ظالم ابن موهوب[2] العقيلي ، وولاه دمشق فسار اليها ودخلها وعظم أمره وكثرت جموعه وأمواله وعدته،لأن ابن أبي المنجا وابنه صاحبي القرمطي كانا بدمشق ومعهما جماعة، فأخذهم ظالم وحبسهم وغنم أموالهم وجميع ما يملكونه ، ثم ان القائد أبا محمود الذي كان سيره المعز يتبع القرامطة وصل الى دمشق بعد وصول ظالم اليها بأيام قليلة ، فخرج ظالم متلقيا له مسرورا به لأنه كان شاعرا بعودة القرامطة ، « فطلب منه أن ينزل بعسكره بظاهر دمشق،فسلم اليه أبا المنجا وابنه ورجلا آخر يعرف بالنابلسي، وكان هرب من الرملة وتقرب الى القرمطي وأسر بدمشق أيضا ، فحملهم أبو محمود الى مصر فسجن أبا المنجا وابنه ، وقيل للنابلسي : أنت الذي قلت : لو معي عشرة أسهم لرميت تسعة في عسكر المعز ، وواحدا في الروم ؟ فاعترف ، فسلخ جلده ، وحشوه تبنا وصلبوه .

ولما نزل أبو محمود بظاهر دمشق ، امتدت أيدي أصحابه بالعبث والفساد وقطع الطريق ، فاضطرب الناس وخافوا ، ثم ان صاحب الشرطة أخذ انسانا من أهل البلدة فقتله ، فثار به الغوغاء والاحداث وقتلوا أصحابه ، وأقام ظالم بين الرعية

---

(1) وقع هذا الاسم في الاصل عدة مرات ــ كابي محمد ــ واخرى ــ كابي محمود وهو الذي جاء في الكامل : ٨/٤٧٠ ــ ٤٧٢ ــ لذلك اثبتناه بهذه الصورة .

(2) يقع احيانا في المصادر « مرهوب » ولا نملك من المصادر ما يمكن من الترجيح .

بداريهم ، وقد نزح أهل القرى منها لشدة نهب المغاربة أموالهم وظلمهم لهم ودخلوا [البلد][1]، فلما كان نصف شوال من السنة وقعت فتنة كبيرة بين عسكر أبي محمود وبين العامة ، وجرى بين الطائفتين قتال شديد ، وظالم مع العامة يظهر أنه يريد الاصلاح ، ولم يكاشف أبا محمود وانفصلوا، ثم ان أصحاب أبي محمود أخذوا قفلا من الغوطة من حوران ، وقتلوا منه ثلاثة نفر ، فأخذهم أهلوهم وألقوهم في الجامع ، وأغلقت الاسواق وزحف الناس وزحف بعضهم الى بعض ، فقوي المغاربة وانهزم العامة الى سور البلد ، فصبروا عنده وخاف الناس ، وأرادوا القتال فنصحهم عقلاؤهم ، ثم ان المغاربة أرادوا نهب قينية واللؤلؤة[2] ، فوقع الصائح في أهل البلد فنفروا وقاتلوا المغاربة في السابع عشر من ذي القعدة ، وركب أبو محمود في جموعه، فخرج للعامة من تخلف عنهم ، وكثر النشاب على المغاربة فأثخن جراحهم فعادوا وحملوا على العامة فانهزموا وتبعوهم الى البلد ، فخرج ظالم من دار الامارة ، وألقى المغاربة النار من ناحية باب الفراديس وحرقوا تلك الناحية ، فأخذت النار الى القبلة فأحرقت من البلد كثيرا ، وهلك فيها كثير من الناس وما لا يحد من الاثاث والرجال والاموال ، وبات الناس في اضطراب وقلق شديد على أقبح صورة ، ثم اصطلحوا هم وأبو محمود ، ثم انتقضوا ولم يزالوا كذلك الى ربيع الاخر سنة أربع وستين وثلاثمائة ، ثم استقر الرأي بين الدمشقيين والقائد أبي محمود على اخراج ظالم من البلد ويخلفه جيش بن الصمصامة وهو ابن أخت أبي محمود واتفقوا على ذلك ، وخرج ظالم ووليه جيش وسكنت الفتنة .

ثم ان المغاربة بعد أيام عاثوا وأفسدوا باب الفراديس،فثار الناس عليهم وقاتلوهم وقتلوا من لحقوه منهم،وصاروا الى القصر الذي فيه جيش،فهرب منه هو ومن معه من الجند المغاربة ولحق بالعسكر ، فلما كان من الغد وهو [أول جمادى الاولى من السنة][3] زحف الى البلد ، وقاتل أهلها وأعمل فيهم السيف وهزمهم ، وشنع بهم أكثر مما جرى لهم من القرامطة ، وحرق ما سلم منها ، ودام القتال بينهم أياما كثيرة وذلك في جمادى الاولى ، فاضطرب الناس ودب فيهم الخوف وانزعجوا وهرب

(١) الاضافة من الكامل : ٤٧١/٨ .
(٢) من محلات دمشق .
(٣) في الاصل وهو راكب وزحف والاضافة والتقويم من الكامل : ٤٧٢/٨ .

بعضهم وهاجروا ، وخربت المنازل ، وانقطعت المواد وانسدت المسالك ــ اللهم نجنا من المهالك يا مالك الممالك ــ وبطل البيع والشراء والاخذ والعطاء ، وقطع الماء عن البلد وبطلت القنوات والحمامات ومات كثير من الفقراء على قارعة الطريق من شدة الهلكة والضيق والضنك ، ومن عناء ألم الجوع وشدة البرد ، فأتاهم الفرج بعزل أبي محمود .

ولما وصل الخبر الى الخليفة المعز الفاطمي بما حصل أنكر ذلك ، وقال : ان هذه أعمال جنون واستعظم الامر « ورمى بطيلسانه على الارض وأرغى وأزبد وزمجر ووعد »[1] وأصدر أمره بانصراف أبي محمود عن دمشق و [أن] يصحب جيشا[2] معه،وأرسل أمره الى ريان الخادم والي طرابلس بالتوجه الى دمشق لاستتباب الامن فيها ومواساة أهلها ورد المظالم عنهم ، فدخل ريان دمشق وصرف أبا محمود وجيشا عنها ، وعمل بما أمر امتثالا لأمر الخليفة ، وكشف أمور أهلها وأمنهم وواساهم ، وعوض عليهم ما أخذ منهم وبدل مكان السيئة الحسنة ، وكتب للخليفة بما ذكر واستتب له الامر الى سنة أربع وستين وثلاثمائة ، فوافاه ألبتكين[3] التركي مولى معز الدولة ابن بويه من مولاه بختيار بن معز الدولة حينما انهزم في فتنة الاتراك ، فسار في طائفة صالحة من الجند والترك ، فنزل بظاهر دمشق ، وكان الاحداث تغلبوا عليها ، وليس للاعيان عليهم حكم ولا للسلطنة عليهم طاعة ، فخرج أشرافها وشيوخها اليه ، وأظهروا له السرور بقدومه ، وطلبوا منه أن يقيم عندهم ، وله منهم الطاعة ويملكوه بلدهم ويزيل عنهم حكم المغاربة ، فانهم لا طاقة لهم بهم [لأنهم] يجبرونهم على التشيع ، ولمخالفتهم عقيدة أهل السنة ، ولما هم فيه من الزيغ والضلال والكفر والزندقة والالحاد ولظلم عمالهم،ويكف عنهم الاحداث فأجابهم الى ذلك واستحلفهم على الطاعة والمساعدة « وحلف لهم على الحماية وكف الاذى عنهم منه ومن غيره » ، ودخل .

---

(١) يبدو ان هذا مما حشي بالاصل .

(٢) اي جيش بن الصمصامة .

(٣) يرد رسم هذا الاسم في المصادر باشكال مختلفة منها : هفتكين، والفتكين، بفتكين وغير ذلك ، والصحيح ما اثبتناه « الب تكين اي عبد جلد » انظر الكاشغري ، ديوان لغات الترك : ١/٣٤٦ ــ ٣٤٧ . من ط الاستانة ١٣٣٣ هـ .

فدخل البلد وأخرج منها ريان الخادم،وقطع خطبة المعز ، وأعاد الخطبة للخليفة الطائع لله في شعبان ، وقمع أهل العيث والفساد ، وملأ البلد عدلا وقسطا ورفع عنها المظالم ، وهابه كافة الناس ، وأصلح كثيرا من أمورهم ، فقد كانت العرب استولت على سواد البلد وما يتصل به ، فقصدهم وأوقع بهم ، ورد جميع ما أخذوه « وأبان عن شجاعة وقوة نفس ، وحسن تدبير ، فأذعنوا له وأقطع البلاد ، وكثر جمعه وتوفر مالــه وثبت قدمــه .

وأرسل للمعز بمصر يداريه ويظهر له الانقياد والطاعة ، فأرسل اليه يشكره وطلب منه الحضور اليه ليخلع عليه ويعيده واليا من عنده ، فلم يثق بقوله وامتنع من المسير اليه، فتجهز المعز وجمع العساكر لقصده ، فمرض ومات على مـا نذكره في سنة خمس وستين وثلاثمائة ، وولي بعده ابنه العزيز بالله فأمن ألبتكين

ثم ان ألبتكين قصد بلاد العزيز التي بساحل الشام ، فعمد الى صيدا فحصرها وبها ابن الشيخ ومعه جماعة من رؤساء المغاربة وظالم بن موهوب ، فقاتلهم وكانوا في كثرة ، فطمعوا فيه وخرجوا اليه ، فاستجرهم حتى أبعدهم ، ثم عاد عليهم فقتل منهم أكثر من أربعة آلاف رجل ، وطمع في أخذ عكة ، فوجه جيشه اليها ، وقصــد طبرية ففعل فيها من القتل والنهب مثل صيدا ، ورجع الى دمشق .

فلما بلغ العزيز ذلك استشار وزيره يعقوب بن كلس فيما يفعل ، فأشار اليه بارسال جوهر يقود العسكر [الى][(١)] الشام . فجهزه وسيره فلما بلغ ألبتكين ذلك، جمع أهل دمشق وتكلم معهم ، وقال : أنا وليت أمركم برضاكم ، وطلب كبيركـم وصغيركم لي ، وانما كنت مجتازا ؛ وأنا سائر عنكم لئلا ينالكم أذى بسببي ، فقالوا: لا نمكنك من فراقنا فاننا ما نجد خيرا منك يولى علينا ، ونحن نبذل كل غال مـن الاموال والانفس في نصرتك ونقوم معك فاستوثق منهم فحلفوا له وأقام معهم .

ووصل جوهر الى البلد في سلخ شوال[(٢)] سنة خمس وستين وثلاثمائة فحصر دمشق ، وقد رأى من قتال ألبتكين وأصحابه ما استعظمه ودامت الحرب أكثر من شهر قتل فيها خلق كثير من الطائفتين . فلما رأى أهل دمشق ذلك ، وطول حصار

---

(١) الاضافة من الكامل: ٢/٨٤٤ .

(٢) في الكامل : ٨/٨٤٤ ـ ذي القعدة ـ .

المغاربة لهم عقدوا مجلسا وشاوروا ألبتكين بمكاتبة الحسن بن أحمد القرمطي لينجدهم ، ففعل ذلك فسار القرمطي اليه من الاحساء ، فلما قرب منه رحل جوهر عن دمشق، وذلك في مستهل [ذي] القعدة، خوفا من الوقوع بين عدوين وبين نارين.

ووصل القرمطي واجتمع هو وألبتكين ، وساروا في اثر جوهر ، فلحقوه وقد نزل بالرملة، وسير أثقاله الى عسقلان . وكان رجال[1] ألبتكين والقرمطي كثير العدد نحو من خمسين ألف فارس ، فنزلوا على نهر الطواحين ، وقطعوا الماء عن البلد فاضطروا جوهر للشرب من ماء الصهاريج ، وهو قليل لا يكفيه ، فاضطر الى التوجه الى عسقلان ، فتبعاه : ألبتكين والقرمطي ، وحاصراه حصارا شديدا ، وطال الحصار وقلت الميرة وغلت الاقوات واضطروا الى أكل الميتة ، وارتفع سعر الخبز الى دينار ، وراسل جوهر ألبتكين يعده ويمنيه ويستجلب رضاه ويبذل له العطاء ، ويعده اذا وافقه الى الطاعة بالبذول الكثيرة ، فهم أن يفعل فمنعه القرمطي وأخافه عاقبة الامر ، فاشتد على جوهر ومن معه فعاينوا الهلاك ، وكان الوقت شتاء ولا يقدر على حمل الذخائر في البحر من مصر وغيرها ، فأرسل الى ألبتكين يطلب منه أن يجتمع بـه ، فتقدم اليه واجتمعا راكبين ، فقال جوهر : قد علمت ما يجمعنا من عصمة الاسلام وحرمة الدين ، وقد طالت هذه الفتنة ، وأريقت فيها الدماء ، ونهبت الاموال ، ونحن المؤاخذون بها عند الله تعالى ، وقد دعوتك للصلح والطاعة والموافقة[2] ..

---

(1) في الكامل ٤٨٥/٨ – جمع – .

(2) ترجم المقريزي في كتاب المقفى – مجلد برتو باشا : ٣٠٦ – ٣١٢ ، ترجمة وافية لجوهر الصقلبي ، وقد جاء بها عن علاقته بالبتكين ما يلي :

واقام – جوهر – بالقاهرة حتى مات المعز في ربيع الآخر سنة خمس وستين ، واستخلف بعده ابنه العزيز بالله ابو منصور نزار ، فانتدبه للخروج الى الشام ، وحول اليه خزائن السلاح والاموال ، وسار من القاهرة في عسكر لم يخرج الى الشام قبله مثله ، بلغت عدتهم عشرين الفا .

فبلغ البتكين الشرابي ، وهو على عكا مسير جوهر ، والقرامطة على الرملة، فولت القرامطة منهزمين عجزا عن مقاومته ، وسار البتكين الى دمشق ، وجوهر في اثره الى ان نزل بين داريا وبين الشماسية ، ظاهر دمشق يوم الاحد لثمان بقين من ذي القعدة سنة خمس وستين ، وحفر على عسكره خندقا عظيما ، وجعل له ابوابا ، وبنى البيوت من داخل الخندق ، وكان قد انضم اليه ظالم بن موهوب

العقيلي ، فانزله خارج الخندق ، وجمع البتكين الدعار ، وحمال السلاح من عوام دمشق ، وقدم عليهم قسام السناط التراب « السناط : الذي لا لحية له » واجرى له الارزاق ، واخرجه الى قتال جوهر ، فاستمرت الحرب بين جوهر والبكتين من يوم عرفة ، فجرى بينهم اثنتا عشرة وقعة الى سلخ ذي الحجة ، ولم تزل الحرب الى يوم الخميس حادي عشر ربيع الاول سنة ست وستين وثلاثمائة ، فانهزم البتكين ، وعزم على الفرار الى انطاكية ، ثم ثبت عندما بلغه قدوم الحسن بن احمد القرمطي اليه فاستظهر .

وبلغ ذلك جوهر فدعا الى الصلح ، وكان الشتاء قد هجم عليه ، وهلك اكثر ما معه من الكراع ، وصار معظم أصحابه رجالة بغير خيل ، وقلت الغلات عنده ، واشتد وقوع الثلوج ، فامتنع البتكين من اجابته ، ثم اذعن وانفذ الى جوهر بجمال ، ورحل عن دمشق بعدما احرق ما عجز عن حمله من الخزائن والاسلحة، وسار يوم الخميس ثالث جمادى الاولى مجدا لخوفه ان يدركه القرمطي ، فهلك كثير من عسكره لشدة الثلج ، واخذ القرمطي يسير خلفه من طبرية الى الرملة ، فتحصن جوهر بزيتون الرملة ، وخرج البتكين من دمشق ، ولحق بالقرامطة ، واجتمعوا على قتال جوهر ، فجرت بينهم حروب طويلة شديدة آلت الى التجاء جوهر الى عسقلان ، وقد فني معظم عسكره ، ونهبت القالسه ، فنزل البتكين وحصره حتى بلغ منه الجهد الشديد ، وغلت عنده الاسعار بعسقلان ، فبلغ قفيز القمح أربعين دينارا ، وتنكر عليه من معه من الكتاميين ، واحتقروه وتنقصوه وشتموه ، وكانوا قبل ذلك تخاذلوا ولم يصدقوا في القتال ، وكايدوا القائد جوهر ، فضاقت بجوهر ومن معه الارض ، ولاذ الى الصلح ، فبعث اليه البتكين : ان اردت الخروج بمن معك فأنا اؤمنك حتى تنصرف الى صاحبك ، فتعاقدوا على ذلك ، وصالح البتكين على مال ، وخرج وقد علق البتكين سيفه على باب عسقلان حتى يخرج جوهر ومن معه من تحت سيفه ، فسار الى القاهرة ، وقد بلغ العزيز ما هو فيه من الجهد ، فبرز يريد السفر الى الشام فسار معه، وكانت مدة قتال القرامطة والبتكين لجوهر على الزيتون ظاهر الرملة وعلى عسقلان سبعة عشر شهرا ، فلما قدم جوهر على العزيز ، وبلغه تخاذل الكتاميين غضب من ذلك غضبا شديدا ، وعذر جوهر ، واظهر له انه قد تنكر له ، وعزله عن الوزارة ، وصير مكانه يعقوب بن كلس .

والى هنا انقطع المؤلف لمرضه وتوفي في هذه السنة تغمده الله برحمته آمين والحمد لله رب العالمين .

تم نسخ هذه النسخة من نسخة منقولة عن مسودة المؤلف برسم الشريف أبي القاسم العلوي في سلخ جمادى الاولى سنة سبع وسبعين وخمسمائة .

وكان الفراغ من كتابة هذه النسخة في سلخ شوال سنة ألف وسبع وخمسين على يد كاتبها الضعيف الفاني أحمد بن عمر بن خطاب بن رمضان الخاني ، أدخله الله دار التهاني وبلغه في الدارين الاماني وغفر له . آمين . آمين[1] .

---

(1) اذا كان تاريخ ثابت بن سنان قد جاء على شكل ذيل على تاريخ الطبري ، فقد قام ـ كما سلف ـ بعض آل الصابىء بالتذليل على تاريخ ثابت ، وأهم هؤلاء : هلال ابن المحسن ثم ابنه محمد بن هلال ، ولم يصلنا من هذه الذيول الا قطعة نشرت منسوبة الى عبد الملك الهمذاني الذي ذيل ايضا على تواريخ آل الصابىء ، لكن فقد ما كتبه هو وبقي بعض ما نقله ، ولحسن الحظ نجد سبط ابن الجوزي ، قد اعتمد في كتابه مرآة الزمان على تواريخ آل الصابىء ، ونقل منها الكثير حتى انه نقل تاريخ محمدبن‌هلال كاملا،وقد حقق باشرافي وقدم رسالة لنيل الماجستير في دمشق .

ومما نقله سبط ابن الجوزي عن موضوع القرامطة من تاريخ هلال بن المحسن في حوادث سنة ٣٦١ هـ ما يلي : « مخطوطة احمد الثالث المجلدات ١١ ـ ١٣ » .

ومن ها هنا نبتدىء بشيء مما ذكره أبو الحسين هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابىء ، فانه ذكر « مع ابنه » تاريخا من اول سنة احدى وستين وثلاثمائة الى سنة اربع وسبعين واربعمائة ، سلك فيه أسلوب خاله ثابت بن سنان .

قال ابن الصابىء : في جمادى الآخرة ، ورد الخبر ، بأن ابا علي الحسن بن ابي منصور احمد القرمطي ، سار الى مصر ، ونزل بعين شمس ، وجرت بينه وبين جوهر القائد وقعة ، وكان الاستظهار فيها لجوهر ، وانهزم القرمطي .

قال ابن الصابىء : لما دخل جوهر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، ووطىء الامور للمعز ، واقام له الخطبة ، سير القائد جعفر بن فلاح الى الشام ، فأسر الحسن ابن عبيد الله بن طغج ، وبعث به الى مصر ، ونهب الرملة ، وقصده النابلسي الزاهد ، واستكف جعفرا عن النهب فكف ثم استخلف ابنه على الرملة ، وسار الى طبرية ، وبلغه أن ابن أبي يعلي الشريف قد اقام الدعوة بدمشق للمطيع ، فسار الى دمشق فعصوا عليه ، وقاتلوه ، فظهر عليهم ، وهرب ابن أبي يعلي الى البرية ، وجيء به اليه ، فأحسن اليه ، وبعث به الى مصر مع جماعة من الاحداث الذين قاموا معه .

وعرف القرامطة استيلاء المغاربة على الشام ، واخذهم ابن طغج ، فانزعجوا من ذلك ، لما يفوتهم من المال الذي كان قرره ابن طغج لهم ، وهو في كل سنة ثلاثمائة الف دينار ، فبعثوا ابا طريف عدي بن محمد بن الفمر صاحبهم الى عز الدولة بختيار الوزير ، والوزير يومئذ ابو الفرج محمد بن العباس ، يطلبون المساعدة على المغاربة بالمال والرجال، فاستقر ان عز الدولة يعطيهم الف الف دينار، والف جوشن ، والف سيف ، والف رمح ، والف قوس ، والف جعبة ، وقال : اذا وصل ابو علي الجنابي الى الكوفة ، حمل اليه جميع ذلك .

ولما وصل الجنابي الى الكوفة ، وكان في عدد كثير من أصحابه ، ومن الاعراب ، فبعثوا اليه بالمال والسلاح ، وسار يريد الشام ، وبلغ جعفر بن فلاح خبرهم ، فاستهان بأمرهم ، ثم لم يشعر بهم حتى كبسوه بدمشق بمكان يقال له الدكة ، فقتلوه ، واحتووا على سواده وامواله وكراعه ، وملك ابو علي دمشق ، وامن اهلها ، واحسن السيرة فيهم ، وغلب على الشام ، واجتمعت اليه العرب، وسار الى الرملة ، وبها سعادة بن حيان ، فخرج الى يافا . وتحصن بحصنها ، ودخل ابو علي الرملة ، وقتل من وجد من المغاربة ، ثم رحل طالبا مصر ، وخلف بالرملة ابا محمد عبد الله بن عبيد الله الحسيني، ومعه دغفل بن الجراح الطائي، وجماعة من الاخشيدية والكافورية ، وجاء فنزل عين شمس على باب مصر .
واقتتلوا اياما ، وظهر القرمطي على المغاربة ، وقتل منهم زهاء خمسمائة رجل ، وغنم اموالهم وأسلحتهم ، ودوابهم .

فلما كان يوم الاحد لثلاث خلون من ربيع الاول وقف الهجري على الخندق ، وحملوا على الهجري ، فاندق عسكره لا يلوي على احد — وجعل يردهم ، وهم منهزمون ، فما وقفوا الى الرملة ، وظن جوهر ان هزيمة القرمطي مكيدة ، فلم يتعرض لما كان في عسكره الى ثلاثة أيام ، حتى تحقق الخبر ، فاستولى على الجميع ، ونادى جوهر في الاخشيدية ، ثم قبضهم وقيدهم وحبسهم ، وكانوا الفا وثلاثمائة مقاتل ، وقال القرمطي في هذه الوقعة :

زعمت رجال الغرب اني هبتها ... فدمي اذا ما بينهم مطلول
يا مصر ان لم اسق ارضك من دم ... يروي ثراك فلا سقاني النيل

وقال :

زعموا انني قصير لعمري ... ما تكال الرجال بالقفزان
انما المرء باللسان وبالقلـ ... ـب وهذا قلبي وهذا لساني

ثم عاد الهجري الى بلده ، وتفرقت الاعراب في البرية ... وفيها عاد الهجري الى الشام ، فلما وصل الازرق ، انصرفت المغاربة الى مصر ، ونزل الهجري الى الرملة في آخر شعبان ، وصرف عنه اهل البادية ، واقام في اصحابه الهجريين ..

وفي وفيات حوادث سنة ٣٦٦ هـ :

الحسن بن احمد بن ابي سعيد

ابو علي ، وقيل ابو محمد القرمطي الجنابي ، ولد بالاحساء في رمضان سنة ثمان وسبعين ومائتين وغلب على الشام سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ، وقتل جعفر ابن فلاح، واستخلف على دمشق ظالم بن موهوب العقيلي ثم عاد الى الاحساء، وفي سنة اثنتين وستين وثلاثمائة ، توجه الى مصر ، ونزل بميسول الطواحين ، ذلك ان المعز كان يصافيه لما كان بالمغرب، ويهاديه فلما وصل الى مصر قطع ذلك عنه، فوافى القرمطي بغداد ، وسأل المطيع على لسان عز الدولة أن يمده بمال ورجال، ويوليه الشام ومصر ، ليخرج المعز منها ، فامتنع المطيع ، وقال : كلهم قرامطة ، وعلى دين واحد، اما المصريون فأماتوا السنن ، وقتلوا العلماء، واما هؤلاء فقتلوا الحاج ، وقلعوا الحجر الاسود ، وفعلوا وفعلوا ، فقال عز الدولة للقرمطي : اذهب فافعل ما تراه ، وذكروا انه أعطاه سلاحا ومالا ، فسار الى الشام ، ومعه أعلام سود ، واظهر ان المطيع ولاه وعلى الاعلام اسم المطيع ، وتحته مكتوب : « السادة الراجعين الي الحق » وملك الشام ، ولعن المعز على منبر دمشق وآباءه ، وقال : هؤلاء من ولد القداح كذابون ممخرقون ، أعداء الاسلام ، ونحن اعلم بهم ، من عندنا ظهر القداح . ثم اقام الدعوة لبني العباس ، وسار الى مصر ، وحصر المعز في القاهرة فأرضاه بمال ، فرجع الى الاحساء ، ثم عاد الى الشام فنزل الرملة ، فمات بها في رجب ، وهو يظهر بطاعة عبد الكريم الطائع وجده ابو سعيد الجنابي اول القرامطة ، وقد ذكرناه .

وكان ابو علي الحسن صاحب هذه الترجمة شاعرا فصيحا ، قال الحسين ابن عثمان الحرمي الحنبلي ، كنت بالرملة سنة ست وستين وثلاثمائة فوردها ابو علي الحسن القرمطي القصير الثياب، ويلقب بالاعصم، فاستدعاني، فحضرت عنده ليلة ، واحضر الفراشون الشموع ، فقال لكاتبه ابي نصر بن كشاجم : يا ابا نصر ما يحضرك في صفة هذه الشموع فقال : ان من يحضر مجلس الامير يستفيد منه ، فقال القرمطي بديها :

ومجدولة مثل صدر الفتاة — تعرت وباطنها مكتسي
لها مقلة هي روح لها — وتاج على هيئة البرنس
اذا غازلتها الصبا حركت — لسانا من الذهب الاملس
وان رنقت لنعاس عرا — رقطت من الراس لم تنعس
وتنتج في وقت تلقيحها — ضياء يجلي دجى الحندس
فنحن من النور في اسعد — وتلك من النار في انحس

فقام ابن كشاجم ، فقبل الارض بين يديه ، وساله أن ياذن في اجازتها ، فأذن ، فقـــال :

وليلتنـــا هـــذه ليلـــة ... تشاكـل أشكـال اقليـدس
فيا ربـة العـود حثـي الغنـا ... ويـا حامـل الكـاس لا تحبسي

فخلع عليه وعلى الحاضرين ، ووصلهم بصلات ، ومن شعر القرمطي :

يا ساكن البلـد المنيف تعـززا ... بقلاعـه وحصونـه وكهوفـه
لا عـز الا للعزيـز بنفسـه ... وبخيلـه وبرجلـه وبسيوفـه
وبقبـة بيضـاء قـد ضربت الـى ... جنب الخيـام لجـاره وحليفـه
قرم اذا اشتد الوغى أردى العدى ... وشفى النفوس بضربـه ووقوفـه
لم يرض بالشرف التليـد لنفسـه ... حتـى أشـاد تليـده بطريفـه

وقـال لمـا فل جيشـه بعين شمس :

ولـو اني ملكت زمـام امـري ... لمـا قصرت في طلب النجـاح
ولكنـي ملكت فصـار حالـي ... كحـال البدن في يوم الاضاحـي
يقـدن الى الردى فيمتن كرهـا ... ولـو يستطعن طرن مـع الرياح

وقـــال :

لـه مقلـة صحت ولكن جفونهـا ... مـراض بها تسبي القلوب وتتلف
وخد كلون الورد يجنى بأعـين ... وقـد عز حتى انـه ليس يقطف
وعطفـه صدغ لـو تعلم عطفهـا ... لكـان عـلى عشاقـه يتعطف

وقـال : وكتب بها الى جعفر بن فلاح والي دمشق قبل لقائه :

الكتب معذرة والرسـل مخبـرة ... والحق متبـع والخـير موجـود
والحرب ساكنـة والخيل صافنة ... والسلم مبتـذل والظل ممـدود
وان انبتـم فمقبـول انابتكـم ... وان ابيتـم فهـذا الكور مشدود
علـى ظهـور المطايا او يردن بنـا ... دمشق والبـاب مهـدوم ومردود
اني امرؤ ليـس من شاني ولا اربي ... طبل يـرن ولا نـاي ولا عـود
ولا اعتكـاف على خمـر ومجمرة ... وذات دل لهـا دل وتغنيـد
ولا ابيت بطـين البطن من شبـع ... ولي رفيق خميص البطن مجهود
ولا تسامت بـي الدنيا الى طمـع ... يومـا ولا غرنـي فيهـا المواعيد

وفي وفيات حوادث سنة ٣٦٨ هـ

ذكر حال البتكين الى ان توفي

وحقيقة شرح الجملة التي ذكرنا بها حصوله بدمشق ، واستقراره فيها وكان يكاتب المعز ويطيعه ، فلما مات المعز كاتبه العزيز ، ووعده الاصطناع ورفع المنزلة ، والبقاء على ما هو عليه ، ان وطيء بساطه ، فكتب اليه هذا البلد اخذته بسيفي ، وما ادين لاحد فيه بطاعة ، فغاظ العزيز جوابه واستشار يعقوب بن كلس وزيره ، فأشار عليه بأن يجهز القائد جوهر في العساكر الى الشام ، وبلغ البتكين، فجمع وجوه الدماشقة وشيوخها، وقال لهم: قد عرفتم انكم سألتموني ان اتولى امركم ، وما تصرفت الا على وفق مرادكم . وقد طلبني من لا طاقة لي به ، وانا داخل بلاد الروم ، وابصر مكانا اكون مقيما فيه لئلا يلحقكم بسببي ضرر ممن يقصدني ، وكان الدمشقيون يكرهون المغاربة ، لمخالفتهم اياهم في الاعتقاد ، ولاجل ما عاملهم به امراؤهم وولاتهم فقالوا له : اقم ونفوسنا [نبذلها في نصرتك] .

وسار جوهر في عسكر كثيف بعد ان أخذ من العزيز امانا لالبتكين وخاتما من ثيابه ، وكتابا اليه بالعفو عنه ، فلما حصل جوهر بالرملة كاتب البتكين بالرفق والملاطفة ، ودعاه الى السلم والطاعة ، ووعده ان يبلغه ما يريد ، واعلمه بما معه من الامان، فأجابه بالجميل والشكر على مابذله وغالطه بأن أحال على اهل دمشق، وسار جوهر ، وقرب من دمشق ، فخرج اليه البتكين في اصحابه ومن معه من العرب ، واقامت الحرب بينهم شهرين ، وقتل من الفريقين عدد كثير ، وظهر من شجاعة البتكين والغلمان الذين معه ما عظموا به في النفوس ، وتقررت لهم الهيبة في القلوب،واشار عليه اهل دمشق بمكاتبة الحسن بن احمد القرمطي واستدعائه وعرف جوهر خبره ، فعلم انه متى حصل بين عدوين خيف عليه ، فرجع الى طبرية ، ووصل القرمطي الى البتكين ، واجتمعا وتعاهدا على قتال جوهر،وسارا خلفه من طبرية الى الرملة ، فاقام بها ، وبعث باثقاله الى عسقلان ، وكتب الى العزيز يعرفه الصورة ، ويستأذنه ان دعته الضرورة قصد عسقلان ، ووافى البتكين والقرمطي ، فنزلا على الرملة ونازلا جوهرا ، وكان معهما خمسون الفا

من الفرسان والرجالة ، وكان القتال على نهر الطواحين ، بينه وبين الرملة ثلاثة فراسخ ولا ماء لهم الا منه فقطعاه عن جوهر ، فتضرر عسكره ، فسار الى عسقلان في اول الليل ، فوصل اليها في آخره ، فدخلها واغلق ابوابها ، وتحصن بها ، وتبعه البتكين والقرمطي، وحاصراه فيها، وضاقت به الميرة، وغلت الاسعار وكان الوقت شتاء ، فلم يمكن حمل الاقوات في البحر ، واشتدت الحال بجوهر، واكل اصحابه الدواب والميتة، وكان يخرج فيقاتل، فاذا وجد فرصة من البتكين دعاه الى الطاعة وارغبه، فيسترجع البتكين شجاعته، ويهم أن يقبل منه، فيثنيه القرمطي، وكاتب البتكين رجلا يقال له ابن الجمار،وكان يخالف اعتقاد المصريين، ويقول : هؤلاء كفار ويجب قتالهم .

واشتد الامر بجوهر، فاحتال في الخلاص ، فراسل البتكين، وساله القرب منه، فأجابه ووقفا على فرسيهما سرا ، وقال له جوهر : قد علمت ما يجمعني واياك من عصمة الاسلام ، وحرمة الدين ، وهذه فتنة قد طالت واريقت فيها دماء ، نحن المؤاخذون بها عند الله ، وقد دعوتك الى الصلح والموادعة ، وضمنت لك ما اردت فأبيت ، فقال : معي في الراي القرمطي ، وبيني وبينه ايمان ، فقال : اذا كان الامر كذا ، فأنا التمس منك أن تأذن لي في الخروج من عسقلان الى مصر بمن معي ، ونسير تحت ذمامك ، وسوف ترى ما أفعل ، فقال بشرط ، وهو ان اعلق سيفي على باب عسقلان ورمح القرمطي،وتخرج انت واصحابك من تحتهما، فقال جوهر : جزاك الله خيرا ، قد تفضلت واحسنت لآخذن به وعاد البتكين فأخبر القرمطي ، فقال : ما فعلت مصلحة ، ارجع عن هذا فانها خديعة ، ودعهم يموتون جوعا ، أو تأخذهم بالسيف ، فانما جوهر صاحب مكر وخديعة، فقال : قد كان وحلفت له ، وما اغدر به ، واصبح جوهر واصحابه ، فخرجوا من تحت سيف البتكين ورمح القرمطي ، وساروا الى مصر، واجتمع جوهر بالعزيز وشرح له الحال ، فقال له : ما الراي ؟ فقال : أن تخرج بنفسك والا فانهم واردون على اثري .

ففتح العزيز بيوت الاموال ، وبرز بالعساكر واستصحب الذخائر ، وتوابيت آبائه وسار جوهر على مقدمته الى الرملة، والبتكين والقرمطي بها، فنزل العزيز، وبينهما مقدار فرسخ ، والتقى الصفان ، والبتكين يلعب بين الصفين بسلاحه ، فقال العزيز لجوهر : ارني البتكين ، فاراه اياه ، وعليه كزاغند أصفر ، وهو تارة يضرب بالسيف ، وتارة باللت ، وتارة يطعن بالرمح ، والناس يتحامونه ،

فاعجب العزيز ما رآه من فروسيته فانفرد العزيز وصعد على رابية، وعلى راسه المظلة ، وارسل ركانبيا الى البتكين ، وقال له : انا العزيز ، وقد ازعجتني من سرير ملكي واحوجتني الى مباشرة الحرب ، وقد عفوت عنك ، فاترك ما انت عليه ، ولك علي عهد الله وميثاقه ان اصطنعك واجعلك اسفهسلار عسكري ، واهب لك الشام باسره ، فجاء الركابي اليه وادى الرسالة ، فخرج من العسكر بحيث يراه الناس ، وترجل ، وقبل الارض مرارا ، ومرغ خديه ، وقال : قل له : يامولاي لو تقدم هذا القول منك لسارعت الى أمرك، فالان فليس الا ماترى، فابلغه ذلك ، فاعاد الركائبي اليه ، وقال : قل له : يقرب ، يقرب مني بحيث أراه ويراني ، فان استحققت منه ان يضرب وجهي بالسيف ، فليفعل ؟ فقال : قل لمولاي : ما كنت ممن اشاهد طلعته واناباده الحرب ، وقد خرج الامر عن يدي ، ثم حمل على ميسرة العزيز فهزمها ، فارسل العزيز الى الميمنة فامرها بالحملة، وكان هو في القلب ، وحمل وعلى راسه المظلة، فانهزم البتكين والقرمطي وقتل من أصحابهما نحوا من عشرين الفا ، وقال من جاءني بالبتكين والقرمطي ، فله مائة الف دينار .

وكان البتكين يميل الى المفرج بن دغفل بن الجراح الطائي ، وكان امردا وضيء الوجه ، فاتفق أن البتكين لما انهزم ، قصد ساحل البحر ومعه ثلاثة انفس ، وقد اجهده العطش ، فلقيه المفرج في سرية من الخيل ، فسقاه ماء ، فقال له: احملني الى أهلك ، فجاء به الى قرية يقال لها يبنى(١) ، فاجلسه هناك ووكل به جماعة ، وجاء الى العزيز ، فتوثق منه في المال ، ثم اخبره أن البتكين قد حصل في يده ، ومضى وجاءه به، فأمر العزيز بأن يضرب له مضرب من مضاربه الخاص، وفرش فيها فرشة ، واحضر جميع ما يحتاج اليه ، وانزله في المضرب ، ولم يشك انه مقتول ، وامر بأصحابه الاسرى ، فضربت لهم المضارب وحملت اليهم فنون الفرش والاطعمة ، وبعث له العزيز دستا من دسوته ، فقام وقبل الارض، وبكى وعفر خديه في التراب ، وقال : ما استحق الا القتل ، ولكن يأبى مولانا الا ما تقتضيه اعراقه الشريفة ، ولم يقعد في الدست ، وبعث له الخلع والثياب والتحف مع الخدم ، واعلموه أن العزيز قد عفا عنه ، فلما كان الليل جاء العزيز الى مضربه بنفسه ، فقام وقبل الارض ، وحثا التراب على راسه ، وجعل يبكي

(١) بلدة قرب الرملة ـ معجم البلدان .

وينتحب ، فقال له العزيز : ما نقمت عليك الا كوني دعوتك الى مشاهدتي لعلك ان تستحي مني ، فأبيت ، والان فقد عفوت عن ما جرى ورضيت عنك ، وسوف ترى ما افعل معك ، ثم انزل اصحابه على مقاديرهم واسنى ارزاقهم ورفع منازلهم ،واستحجبه العزيز ، وجعله من خاصته ثم بعث العزيز النجائب بالكتب ، فلحقوا الحسن بن احمد القرمطي بطبرية ، فأعادوا عليه الرسائل ، وان العزيز قد عفا عن ما جرى ، ويسأله ان يطأ البساط ، فامتنع ، وتقرر الحال على انه يدخل في طاعة العزيز ، وان يحمل اليه في كل سنة سبعون الف دينار ، فرضي ، وعجل له برزق سنة ، فاخذه وعاد الى هجر ، ورجع العزيز الى القاهرة ،وانزل البتكين في دار عظيمة ،ونقل اليها الآلات والمال والتحف ، وسلم اليه بابه وحجابه ؛ وشرع البتكين في التكثير على وزير العزيز يعقوب ، ولم يلتفت عليه ، فدس اليه الوزير من سقاه السم ، فمات فحزن عليه العزيز ، واعتقل الوزير نيفا واربعين يوما ، فاتكسرت الاموال فاطلقه .

وفي حوادث سنة ٤٥٨ هـ

[قال غرس النعمة محمد بن هلال بن المحسن الصابىء]

وورد الخبر بانه قد ملكت جزيرة اوالي ، المسماة بالبحرين ، وهي من اعمال القرامطة ، غلب عليها اهلها ، وامروا عليهم ابا البهلول ، عوام بن محمد بن يوسف ابن الزجاج ، فخطب بها للقائم ، وكان يخطب بها لصاحب مصر ، وبعث اليهم القرامطة جيشا فهزموه .

وكان ابو البهلول ، واخوه ابو الوليد من اهل الدين ، فانفوا من القرامطة ، واجتمع اهل الجزيرة عليهما ، وبذلوا للقرامطة ثلاثة آلاف دينار حتى يمكنوهم من بناء جامع يأوي اليه المسافرون ، والغرباء ، ويصلون فيه الجمعة ، فأجابوهم ، فلما تكامل الجامع ، صعد ابو الوليد المنبر ، فخطب للخليفة القائم ، فقال من يهوى القرامطة : هذه بدعة ، ويجب أن نمنع بني الزجاج من الخطبة ، ويصلون بغير خطبة ، وتقدموا اليهم بذلك ، فقالوا : ما بذلنا ما بذلنا الا ليجلب الينا التجار والمسافرون فان كرهتم ذلك ، فادفعوا الينا ما بذلناه ، فمعيشتنا من هذا الباب ، وكوتب القرامطة بذلك ، فجاء الجواب بان لا يعترض عليهم ، فمال اليهم اهل تلك النواحي ، فلما اخرج الخليفة من بغداد نوبة البساسيري(١) قال

(١) انظر كتابي مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية : ٩٦ ـ ١٢٠ .

المخالفون لهم : الخليفة الذي كنتم تخطبون له زالت ايامه ، والخطبة لصاحب مصر ، فلم يمتنعوا من الخطبة للقائم(١) ، وبعثوا الى القرامطة هدية وسالوهم ان لا يعترضوا عليم ، فجاء جوابهم أن يجروا على عادتهم في الخطبة لمن ارادوا ، وقوي امر ابي البهلول ، ثم كتب القرامطة الى نائبهم بأن يصادر أهل البلد، وكان عاقلا ، فامتنع ، وعلم بنو الزجاج بذلك فولوا عليهم ابا البهلول ، وكانوا ثلاثين الفا ، وقدم وال جديد فعزم على القبض على ابي البهلول ، ومن وافقه ، فبادروه بالقتال ، وكان بالجزيرة رجل يقال له ابن ابي العريان ، كبير القدر ، فوافقهم ، وانحاز الى ابي البهلول ، وزحفوا الى الوالي الجديد، فقتلوا من اصحابه جماعة، وهرب، وكان الوالي العتيق الذي لم يصادرهم يقال له ابن عزهم ، فجاء الجواب بأن لا نرده والعساكر واصلة ، وبعث ابو عبد الله بن سنبر وزير القرامطة ، احد اولاده ، لحمل مال وسلاح منها ، وعرف ابو البهلول ، وابن أبي العريان ذلك ، فكتماه ، وكمنا له في الطريق عند عوده ، فقتلاه واربعين رجلا معه صبرا ، واخذا ما كان معه ،وهو خمسة آلاف دينار ، وثلاثة آلاف رمح ، ففرقا المال والسلاح على اصحابهما ، وبلغ الخبر ابن سنبر ، فمال الى ابن أبي العريان ، وكاتبه سرا وبذل له الاموال ، وان يوليه الجزيرة ، فمال الى قوله ، واجابه الى الفتك بأبي البهلول ، وانه اذا بعث عسكرا في البحر الى الجزيرة ، وقرب منها ، وثب على ابي البهلول فقتله ، وقتل اصحابه ، ثم قال لاهله وعشيرته : هذا الذي نحن فيه امر لا يتم ، وما لنا بالقرامطة قدرة ، ويجب ان ندبر امرنا معهم ، فقالوا : افعل ما تراه فنحن نتبعك ، وبدأ في نقض ما اتفقوا عليه .

وعرف ابو البهلول ذلك ، فانزعج وجمع اهله وعشيرته ، واطلعهم على الحال ، وقال : ما لنا قدرة بابن ابي العريان ، هو اقوى ، واكثر رجالا ومالا ، فاطلبوا قتله غيلة بوجه لطيف ، والا يتقرب بنا الى القرامطة ، فرصدوه حتى نزل الى عين ، تسمى عين ثور ، يغتسل ، فنزل اليه رجل فقتله ، وقيل بل قتله احد بني اعمامه ، وجاء اصحابه فراوه قتيلا ، فجاؤوا الى ابي البهلول واتهموه بقتله ، فحلف لهم انه ما قتله ، فصدقوه .

---

(١) امتدت خلافة القائم من سنة ٤٢٢ وحتى ٤٦٧ هـ/١٠٣١ ـ ١٠٧٥ م ، وقد شاب هذه الفترة الطويلة توقف لمدة سنة بعدما سيطر البساسيري على بغداد ، واعلن الغاء الخلافة العباسية ، ودعا للمستنصر الفاطمي .

وجاء ابن سنبر ، وزير القرامطة بالعسكر ، على ما كان استقر بينه وبين ابي العريان ، في مائة وثمانين شداه(١) ، من عامر وربيعة وغيرهم فخرج اليهم أبي البهلول في مائة شداه ، وجاء على فرسه ، فوقع فانكسرت ساقه ، فاقسم عليه اخوه ابو الوليد،ان يرجع، فأبى، ونزل على حاله في شداه، وامر بضرب الدبادب والبوقات ، ونشر الاعلام ، واتفق لابن سنبر من السوء انه ان كان معه في الشداة خمسمائة غلام وفرس ، لعامر وربيعة، تصوروا منه ان يدخل البلد من غير حرب، ولم يشعر بقتل ابن ابي العريان ، فلما ضربت البوقات والطبول ، وسمعتهما الخيل ، ورات المطارد نفرت وغرق بعض الشداه، ووقع العرب في البحر، وهرب ابن سنبر الى الساحل ، واستولى ابو البهلول على باقي الشداه ، فاخذ منها نحو مائتي فرس وسلاحا كثيرا ، واستأمن اليه من كان فيها من اهل السواد ، وحلفوا أن ابن سنبر اخذهم قهرا ، وظفر باربعين رجلا من القرامطة ، فقتلهم صبرا ، وعاد وقد برئت ركبته ، وقوي أمره ، وانتظم حاله ، واستوزر أخاه ابا الوليد ، وكتب الى بغداد بالفتح ، وشرح الحال الى أبي منصور بن يوسف .

وقال محمد بن هلال الصابيء : حدثني ابو حفص الريحاني أحد المتفقهة حديث القرامطة ، وكان قد اجتاز بهم ، قال : ان جزيرة اوالي ثلاثة عشر فرسخا ضياعا ، ومزارعا ونخيلا واشجارا، ونفس البلد لطيف، وعدد قراه مائة وثلاثون قرية ، منها قرية تشتمل على مائة وثلاثين مسجدا، تسمى تستر، وهم يخطبون قديما لبني العباس .

والقرامطة من بعدهم في بلد يعرف بالقطيف ، على ساحل البحر ، وجميع السواد الى الاحساء ، ولا يخطب فيها لاحد ، ولا يصلى فيها جمعة ولا جماعة ، الا صلاة التراويح تعظيما لابي سعيد الجنابي المدفون بها ، وفيها قوم يعرفون بالسادة ، من أولاد القرامطة ، من ظهر ابي سعيد ، كلما نقص من عددهم واحد ، اقاموا واحدا مكانه ، وهم على سنن من العدل يقيمون الحدود ، ويحافظون على الصلوات ، ويبطلون المذاهب الفاسدة ، ولهم ستة وزراء من [بني] سنبر ، ولا يستبدلون بهم ، لان ابا سعيد لما ظهر عاضدوه ، وشرطوا عليه ان تكون الوزارة فيهم ، والرئاسة فيه .

ومن مذهبهم اسقاط الجزية عن أهل الذمة، ويصلون على ابي سعيد، ولايصلون على النبي ﷺ ، وان صلى احد عليه صفعوه ، وقالوا : لا تأكل رزقنا ورزق ابي سعيد ، وتصلي على أبي القاسم ، واعتقادهم ان ابا سعيد يعود اليهم ، ويخرج من قبره عليهم اذا طار طائر من حصن معمول في راس قبة على ضريحه من دارهم بالاحساء، وعند القبر فرس مشدود،وخلعة ثياب، ودست سلاح معد لخروجه.

(١) من انواع السفن .

السنة التاسعة والستون والاربعمائة :

وفيه [ربيع الآخر] سار ارتق بك التركماني وابوه اكسك فقطع حلوان الى القطيف ومر على البصرة فنهب مامروا به فأغلقت اسواقها وسدت ابواب دروبها وعدم الناس الماء ثلاثة أيام وخرج اليها أعيان اهلها وقبحوا عليه ما فعل وطلب منهم الجمال والروايا والزاد والمال ليذهب الى الاحساء فأعطوه بعض ما طلب وسار منها في رجب الى القطيف فوجد يحيى بن العباس الخفاجي صاحبها قد اخلاها ومضى الى جزيرة اوال وتجشم ارتق الى الاحساء فنهبها وكان بقلعتها جماعة من القرامطة فراسلوه وخدعوه وقالوا : نحن نعطيك عشرة آلاف دينار ونخطب للخليفة والسلطان فاجابهم، فقالوا : ابعد عنا مدة قريبة ليتراجع الناس ونجمع المال واعطوه رهائن فرحل عنهم فخرجوا الى آبار غامضة في بساتينهم مملوءة طعاما فنقلوها الى البلد وعلم ارتق انهم خدعوه فعاد اليهم وقتل من الرهائن عدة واحتبس منهم من رأى عنده رايا واخرب السواد ونهب القرى وامتلأت أيدي من معه من النهب ، وقاسوا من شدة الحر ما حملهم على طلب نفورهم وكان هناك رجل يقال له عبد الله بن علي الغنوي عدوا للقرامطة فأخذ ارتق ولده معه رهينة ورتب معه مائتي فارس من التركمان واقام على حصار الاحساء وكان للغنوي في تلك الارض حصن يعرف بالمحصنة وهو من بني أبي البهلول المتغلب على جزيرة أوال ؛ والحصن قريب من الجرعاء ، وقلت الغلال بها ولا يعرف اهلها القوت الا من التمر والسمك ويطعمون بهائمهم ذلك والحنطة متعذرة عندهم ، فاشتد الغلاء ، وبلغ رطل السمك الجرعاني مائتي درهم رصاصا ، ومعاملتهم بالرصاص يبلغ الدينار الى ثمانية عشر الف درهم والى عشرين الفا بدينار ، وعاد باقي التركمان الى البلاد .

ســيرة الهـادي الى الحــق

يحيى بن الحسين عليــه السلام

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبالله أستعين ؛ وبرسوله وآله الطاهرين .

سنة اربـــع وتسعين ومائتين :

ومما كان من أخبار الهادي الى الحق صلوات الله عليه ــ يحيى بن الحسين بن رسول الله صلى الله عليه وعلى أهل بيته وسلم :

انه لما كان في سنة الاربع وتسعين ومائتين : ظهر الفساد بنجران وظهر القرامطة، وهمت بنو الحارث بالخلاف على عامل الهادي، محمد بن عبيد الله العلوي،وساعدهم في ذلك الباميون(١) ، وكان القائم في ذلك الحارث بن حميد الخثيمي ، ومرزوق بن محمد المري ، وعلي بن الربيع المداني، ويزيد بن الاسود الكعبي، ومنصور بن هشام الدهمي.والذي حمل ياما على الدخول مع بني الحارث ماكان من قتلهم لرجل مصري وفد على الهادي الى الحق عليه السلام ، فلما ظهر اجتماعهم على الحدث والفساد ، كتب محمد بن عبيد الله الى الهادي الى الحق ــ أعزه الله تعالى ــ يعلمـــه بالخبر ، ويحضه على الخروج الى البلد لاصلاحه ، واصلاح أهله ... [٧٥ ــ ظ] .

ثم أمر الهادي الى الحق عليه السلام محمد بن عبيد الله بأخذ القرامطة، وطلبهم في كل موضع ، فركب علي بن محمد ، وأخوه القاسم بن محمد ، من الغد في السحر، ومعهم مائة من العرب ، فتوجه علي بن محمد الى موضع يقال له محضر(٢) ، وكان فيه كل من تنسب اليه القرامطة وكان داعيهم رجل يقال له حسين بن حسن من حاشد، من موالي بني أمية ، وكان نازلا بقرية من نجران يقال لها رجلاء ، فمضى القاسم بن محمد ، فأحاط بمنزله ؛ فلم يجده هناك وأحاط علي بن محمد بمحضر ، فأخذ خمسة عشر من القرامطة ، وانصرف هو وأخوه الى الهادي الى الحق ــ أعزه الله ــ ووجدا

---

(١) ما تزال يـــام حيث كانت في الماضي وهـــي أيضا محتفظة بعقائدهـــا القرمطية او الموروثـــة عنهـــا .

(٢) من اوطان قبائل بلحارث في منطقة نجران ــ صفة الجزيرة : ٣١٨ .

أباهما محمد بن عبيد الله ، وقد أخذ نفرا من القرامطة ممن بقرية الهجر[1] ، منهم رجل يقال له ابن غبراء من آل حاشد ، من كبار القرامطة ودعاتهم ، فأخذ ابن بسطام نفرا من أهل قرية ميناس[2] ، من بني عمه ومواليه ، وصار بهم الى الهادي الى الحق عليه السلام فأمر بهم فصيروا في الحبس ، ثم عزم الهادي الى الحق أيده الله على الخروج الى صعدة ، وأمر خمسين فارسا ، ومائة راجل فيهم سعيد بن موسى بن أبي سورة ، وأمرهم بالمقام مع محمد بن عبيد الله بنجران ، وأمر بقبض الجباية الحسن بن أحمد البغدادي ، ومحمد بن أبي سعيد العصار ، وأمر محمد بن عبيد الله بتقوى الله، وايثار طاعته ، والقيام في بلده ، والاحسان الى رعيته ، مع الشدة على السفيه ،والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأخذ القرامطة ، وأوصاه بوصايا غير ذلك مما يحتاج اليها ، وخرج الهادي الى الحق يوم الثلاثاء ... [٧٧ ــ ظ] .

ثم بلغ أبا جعفر [محمد بن عبيد الله] أن نفرا من القرامطة بحصن ثلا[3] عند نفر من بني الحارث ، يقال لهم بنو قطن يأوون اليهم ، ويبيتون عندهم ، فلما كان مع طلوع الفجر أمر العسكر فحضروا الى بابه ، فلما اجتمعوا أمر ابنيه عليا والقاسم ابني محمد بالمسير الى حصن ثلا عند طلوع الشمس ، فظفر برجلين من القرامطة ، يقال لأحدهما محمد بن عبد الله ، فأخذهما وانصرف الى الهجر ، ثم ذكر له من بعد ذلك أن نفرا آخرين بموضع يقال الموفجة[4] ، من قرى نجران ، فأمر ابنه علي بن محمد بالمسير اليهم ، فسار حتى هجم على الموفجة ... [٧٨ ــ ظ] .

وكانت القرامطة قد ظهرت باليمن وملكوا الشرف[5] وطمام[6] ، وجبل

---

(١) الهجر بلغة حمير والعرب العاربة القرية ، وهجر نجران هي المعنية هنا .

(٢) من قرى قبائل بلحارث في منطقة نجران ــ صفة الجزيرة : ٣١٨ .

(٣) قرية وحصن للمراثيين من همدان ، عامرة فيها ينابيع نبغ فيها عدد من العلماء . صفة الجزيرة : ٢٣٣ .

(٤) عدها الهمداني في صفة الجزيرة : ٣١٨ بين أوطان بلحارث .

(٥) الشرف هو الموضع العالي الذي يشرف على ما سواه ، وحين يطلق عاما بالنسبة لليمن يقصد به شرف حجة،وقد قال عنه الهمداني في صفة الجزيرة:١١٣ــ١١٤: « جبل الشرف المطل على تهامة ، وهو جبل واسع وفيه قرى كثيرة » ومفيد ان نلاحظ أن العرب حملوا هذا المصطلح معهم الى الاندلس فأطلقوه على سواد اشبيلية، وهو عند الاسبان Ajarafe انظر الروض المعطار ــ ط. بيروت . مادة شرف .

(٦) كان سوقا شهيرا في منطقة لاعة . انظر صفة الجزيرة : ١١١ ، ٢٤٨ .

مسور[1]. وحاربوا جعفر بن ابراهيم المناخي، وأخرجوه من بلدهم، وملكوها في النصف من شهر ربيع الاول سنة اثنين وتسعين ومائتين ، وهرب هو وولده وأهل بيته الى موضع يقال له القرتب[2] بناحية زبيد ، فسأل ابراهيم بن محمد على أن ينصره فلم يفعل ، فعاد الى طرف بلاده خشية واتقاء أن يكون آويا عند أحد من الناس ، فصار الى موضع يقال له وادي نخلة ، فحاربهم ، وعامل عليه بعض من كان معه ، وأدخل عليه الحصن الذي كان فيه ، فهزم عسكره وقتل هو وابن عمه أبو الفتوح بن أبي سلمة .

وثبتت القرامطة في بلده ، حتى اذا كان مستهل المحرم مدخل سنة ثلاث وتسعين ومائتين خرج علي بن فضل وكان مولده الجند وأصله من الرحبة[3] من رقيق الاحماس ، وقد استجاش[4] بأهل المخاليف ممن صار معه وأعانه على كفره ، حتى صار بمنكث[5] ، أو بالقرب منها ، وكان اليافعي بذمار[6] مقيما بها ، فوجه عساكره في وجوههم ، فانهزم أصحاب اليافعي ، واستأمن ابنه الى ابن فضل ، وساروا يريدون اليافعي فانهزم وجميع من كان معه الى صنعاء واستأمن اليافعي عيسى بن المعان الى القرمطي، وصاروا قصد صنعاء فنزلوا بظبوة[8] ، وخرج اليهم أسعد بن أبي يعفر ، فحاربهم وهم نيف على أربعين ألفا ، وذلك ليوم الثلاثاء لست ليال خلت من المحرم ، هذا وقاتلهم قتالا شحيحا ، وقتل منهم أربعمائة رجل ، وانصرف أسعد آخر يومه الى صنعاء ، وسار القرامطة في ليلتهم حتى لزموا جبل نقم[9] ، فأقاموا بنقم ثلاثة

---

(1) مسور المنتاب، يطل على بلاد حجة وتهامة . صفة الجزيرة: ١١١ . الاكليل : ٨٠/٢ .

(2) بلدة في الضاحية الجنوبية لزبيد . صفة الجزيرة : ١٢٠ .

(3) انظر صفة الجزيرة : ١٥٦ . الاكليل : ١٥٣/٢ . معجم البلدان : رحبة صنعاء على ستة ايام منها .

(4) في ص « وقد كان استجاش » .

(5) في حاشية الاصل : « عروج علي بن فضل الى منكث » . وتقع منكث الى الشرق من يحصب بحيث تبعد عن بلدة يريم حوالي ٢٠ كم . صفة الجزيرة : ٧٩ .

(6) من مدن اليمن المعدودة ، تقع الى الجنوب من صنعاء . صفة الجزيرة : ٧٩ . تاريخ المستبصر : ١٩٠ .

(7) في شرقي صنعاء . صفة الجزيرة : ١٥٣ .

(8) جبل مطل على صنعاء . معجم البلدان .

(9) جبل مطل على صنعاء . معجم البلدان .

أيام لا ينزلون ، فلما كان يوم الجمعة احتركوا ، وبان عسكرهم ، وخرج اليهم أسعد ابن أبي يعفر فلم ينزلوا ، فلما كان ليلة السبت سار علي بن فضل في خمسة آلاف من مقاتلتهم ورجالتهم ، فدخلوا صنعاء ليلا من ناحية سكة الشهابيين أدخله مهلب الشهابي ، فأصبحوا قد أموا غمدان ، ومسجد الجامع ، وذلك يوم عاشوراء ، فقاتلهم أسعد في عسكره ونفر من أهل صنعاء ، وهرب أهل صنعاء لما داخلهم من الفشل والخوف ، بحرمهم وصبيانهم ، وخلوا منازلهم وأموالهم[1] ، فلم يزل أسعد يقاتلهم الى بعد صلاة العصر يوم السبت .

ثم خرج من صنعاء واستباح القرامطة صنعاء ، فنهبوا جميع الاموال والاثاثات، واستخرجوا ما كان تحت الارض ، فأقاموا خمسة عشر يوما وكفوا عن القتل ، فلم يقتل الا نفر قليل،وفر[2] أهل صنعاء ، وكان أسعد قد صار الى شبام[3] عند خروجه من صنعاء ، وصار ابن كياله الى ظهر ، وكاتب ابن فضل ، واستأمن اليه ، وتحرك القرمطي الكوفي[4] من ناحية بيت ذخار ، فخاف أسعد فخرج من شبام بحرمه الى بلد همدان وخلى ابن عمه من الحبس ، ومضى معه ، فأقاموا عند الدعام بن ابراهيم بغرق ونواحيها[5] .

ثم كف ابن فضل أصحابه يوم الاحد لخمس باقية من المحرم عن النهب ،وخرج من صنعاء في ذلك اليوم الى بلد قدم[6] ، فأقام في حربهم نيفا وخمسين يوما لم يظفر بهم ، ولم يقربوه ، وقتل ابن اليافعي[7] ومعه جماعة بها (٨٨ ــ ظ) وصار الى

---

(١) في « ص » نسخة صنعاء : وصبيانهم .

(٢) في « ص » : وقهر .

(٣) شبام حمير هو الان موضع قرية في الشمال الغربي من صنعاء . كان يعرف باسم جبل ذخار ، فيه حصن كوكبان . تاريخ اليمن لعمارة : ٦٥ ــ ٦٦ ، ابن المجاور: ١٨٤ ــ ١٨٥ . صفة الجزيرة : ٢٣١ ــ ٢٣٤ . تاريخ صنعاء : ٥٦٦ .

(٤) اي المنصور الذي قدم مع علي بن الفضل ، وسيأتي ذكره .

(٥) غرق موضع بالجوف الاعلى ، عرف باسم سوق الدعام ، انظر صفة الجزيرة : ١٦١ . الاكليل : ١٠/١٧٧ ــ ١٨٦ .

(٦) قدم قبيلة معروفة من حاشد ، وبلدها شرقي حجة ، ولعله قصد بلدة الكلابح ، ففيها كان القتال . صفة الجزيرة : ١١٢ ــ ١١٣ .

(٧) في حاشية الاصل : قتل اليافعي في بلد قدم .

شبام ، فالتقى هو وصاحبه ، وأقام عنده نحو شهر ، ثم صار الى المغرب ، ونزل ببيت خولان[1] ، واستباحوا المغرب ، فنهبوه ، وسبوا النساء ، وأخذوا الاموال •

ثم خرج في عساكره يوم الاثنين لثلاث ليال من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين ومائتين يريد الى تهامة ، فلما صار في نقيل السود[2] تخلف عنهم ابن كيالة وعاد الى صنعاء وصعد غمدان،وأرسل الى محمد بن الحسين الحسني يسأله المظافرة على الوثوب بالقرامطة ، على أن الدعوة للهادي الى الحق صلوات الله عليه ، فظافره، وقاتلوا من كان بصنعاء من دعاة القرامطة ، وقتلوا منهم ، وأخذوا ما كان لهم ،وذلك في يوم الثلاثاء لليلتين بقيتا من هذا الشهر ، وحبسا أيدي الناس ، وكتبا الى الدعام، فبعث ابنه الحسين اليهم في عسكره ، وكتبوا الى الهادي صلوات الله عليه يعلمونه بما كان منهم ، ويستدعونه ، ويسألونه النصر لهم ، فأجابهم ، وبعث ابنه القاسم صلوات الله عليه فصار الى صنعاء في جمادى الاولى ، وخرج جماعة من أهل صنعاء الى الهادي الى الحق صلوات الله عليه ، يستنهضونه ، فخرج معهم ، ودخل صنعاء يوم الاربعاء لاربع ليال من جمادى الآخرة ، سنة ثلاث وتسعين ومائتين ، ودخل معه آل يعفر والدعام ، وولده وابنا الروية ، وولد جعفر بن ابراهيم ، ووجوه اليمن مطيعين له ، وكان ابن جعفر محمد بن الحسين وابن كيالة قد حاربا القرامطة في قلعة ظهر[3] ، ودخلا عليهم ، وحارباهم بشبام ، ودخلا وأخذا ما كان بها •

وبعث الهادي الى الحق صلوات الله عليه ابنه أبا القاسم عليه السلام الى ذمار وولي القضاء أحمد بن يوسف الحداقي ، فكان محمد بن يحيى صلوات الله عليه يحارب القرامطة في تلك الناحية ، وصار ابن فضل الى جبل واقر[4] يحارب ابراهيم

---

(1) ما زال معروفا بهذا الاسم في اليمن في جبل حضور الذي يعرف باسم جبل النبي شعيب ، وذلك الى الغرب من صنعاء . انظر صفة الجزيرة : ١٠٨ . الاكليل : ٢٥٨/١ ــ ٢٨٦ . تاريخ اليمن لعمارة : ١١١ ــ ١١٣ .

(2) على بعض يوم من صنعاء الى ما بين جنوبها ومغربها ، والنقيل عند اهل اليمن العقبة . صفة الجزيرة : ١٢٢ . تاريخ صنعاء : ١٨٩ .

(3) في ص جبل ظهر ، ويعرف اليوم جبل الظهرة . صفة الجزيرة : ١٢٢ ــ ١٢٣ .

(4) ليس ببعيد من زبيد بينه وبين الكدراء القديمة قرابة ٣٠كم . صفة الجزيرة : ١٢٢ ــ ١٢٣ .

ابن محمد بن علي على نحو شهرين ، ثم انهزم عنه ابن علي فصار الى بلد حكم[١] في جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائتين ، ودخل الكدراء[٢] والمهجم[٣] واستباحهما .

وخرج في حرب أحمد بن محمد بن علي الى زبيد ، فأجلى عنه ، فدخلها القرمطي، وخالفه ابن علي الى الكدراء، فقتل من كان بها من أصحابه، وقتل القرمطي من ظفر به بزبيد ، وانصرف غضب الله عليه ولعنه الى المذيخرة[٤] ، وعاد ابن علي الى زبيد ، وعاد أخوه الى الكدراء، وقوي أمر القرامطة، وأعانهم عيسى اليافعي،وساروا يريدون الى ذمار، فخرج محمد بن يحيى صلوات الله عليه فلحق بأبيه الهادي صلوات الله عليه الى صنعاء .

وصار أبو العشيرة أحمد بن محمد بن الروية الى ثات[٥] ورداع ، والتفت اليه جماعة من عشيرته ، وانحاز معه عسكر كثير من أهل البلد، فسار اليه ابن ذي الطوق وعيسى اليافعي وحاربوه بثات ، وقتل أبو العشيرة بن الروية ، واستبيح البلد ، وانحاز الناس الى المسجد وأحرق[٦] بمن كان فيه من الرجال والنساء والاطفال ،على القرمطي والقرامطة لعنهم الله ، وكان ذلك لتسع ليال خلت من ذي الحجة سنة ثلاث وتسعين ومائتين .

وكان أسعد قد خرج الى بلد همدان ، فأقام بورور[٧] ، فلما كان يوم عاشوراء من المحرم مدخل سنة أربع وتسعين ومائتين ، وثب ابن كيالة على الهادي الى الحق صلوات الله عليه يحاربه ، فلم يقاتله يحيى بن الحسين صلوات الله عليه ، وخرج عنه

---

(١) انظر صفة الجزيرة : ٣٤٦ . تاريخ اليمن لعمارة : ٥٢ .
(٢) مدينة كانت ذات مكانة وشهرة. انظرها في صفة الجزيرة : ٧٤. الاكليل :٢/٢٣٨.
(٣) انظرها في صفة الجزيرة : ٢٥٨ ــ ٢٥٩ . معجم البلدان .
(٤) كانت مقر الملوك المناخبين من حمير ، ثم غدت مقر ابن الفضل . انظرها في صفة الجزيرة: ١٠٢-١٠٣. تاريخ اليمن لعمارة : ٦٤. تاريخ ابن المجاور: ١٨٣-١٨٤.
(٥) مخلاف رداع وثات من مخاليف اليمن المعروفة . صفة الجزيرة : ٢٢٠ .
(٦) في ص : واحدق .
(٧) شعاب وواد مشهور في الجوف . صفة الجزيرة : ١٥٧ .

من صنعاء الى صعدة[1] ، وأقام ابن كيالة بصنعاء ، وكان جراح بن بشر[2] بشبام فأخرجه القرمطي الكوفي عنها ، وانهزم الى صنعاء وكتب جراح وابن كيالة الى أسعد ابن أبي يعفر أن تقدم[3] الى صنعاء ، ففعل ، وأقاموا بها جميعا ، وأقروا أحمد بن يوسف الحداقي على القضاء .

وصار ابن ذي الطوق القرمطي ، وعيسى اليافعي (٨٩ ـ و) الى المغرب ، فأقاموا بمجيب ومسيب[4] وخرج اليهم جراح وابن كيالة في أهل صنعاء وعسكرهم فقاتلوهم ، وانهزموا عنهم ، وقتل من أهل صنعاء ومن غيرهم أربعمائة .

وعادوا الى صنعاء والقرامطة في المغرب ، فلما كان يوم النصف من هذه السنة وثب ابن ذي الطوق على عيسى اليافعي فقتله ، وجماعة من أصحابه غدرا ، واستأمن أصحاب اليافعي الى صنعاء ثم نهض ابن فضل من المذيخرة في آخر جمادى ، فسار يريد صنعاء حتى صار بحرير[5] فخرج اليه أسعد ومن معه فقاتلوه ، وقتلوا من أصحابه نحو ستين رجلا وأرجأ عليه جراح ومن معه الى صنعاء فالتقى ابن فضل وصاحبه ابن ذي الطوق ، وبعث عسكرا الى جبل نقم ، فلم يكن للقوم بهم طاقة[6] فخرجوا من صنعاء وخرج أهلها[7] الا نفرا[8] أقاموا في منازل العلويين ، ودخل القرامطة صنعاء أول يوم من رجب سنة أربع وتسعين ومائتين يوم السبت ، فاستباحوها : وقتلوا جميع من كان بها في دور العلويين وغيرهم ، وأنالوا من أهلها منالا عظيما ، وصار أسعد وابن كيالة الى بلد قدم ، وجراح الى عثر[9] ، وأقام

---

(١) في ص « من صنعاء هذا اليوم الى صعدة » .
(٢) في حاشية الاصل : جراح وابن كياله من موالي بني يعفر ، واسم كيالة الحسن .
(٣) في ص « يقدم » .
(٤) قريتان متجاورتان من منطقة حضور في مخلاف بني عياش . صفة الجزيرة : ١٥٥ ـ ١٥٦ .
(٥) جبل كبير عداده من الجنوب اليمني فيه قرى ومزارع . صفة الجزيرة : ١٤١ .
(٦) في ص « طريق » .
(٧) في س « اليهما » .
(٨) في ص « فاقاموا » .
(٩) لعلها عثر محرم التي سترد في نصي كشف اسرار الباطنية ، والعسجد المسبوك ، وهي في جبل شبام . انظر تاريخ ابن المجاور : ١٨٤ .

القرامطة بصنعاء، ونواحيها ثلاث سنين الا أحد عشر يوما، يخربونها ويقتلون الناس، وأصابتهم علة فمات منهم من لا يحصى ، والحمد لله كثيرا .

فلما كان في صفر سنة سبع وتسعين ومائتين ، نهض القرمطي من المذيخرة ، ونهض ابن ذي الطوق يريدون الى زبيد ، فظفروا بابن حاج وانهزم عنهم الى المهجم واستباحوا زبيد وقتلوا بها خلقا عظيما ، وسبوا منها فيما بلغنا خمسة وثلاثين ألف امرأة ، وأقاموا بزبيد سبعة أيام ، ثم عادوا الى المذيخرة وخلفوا أحمد بن علي بزبيد، فسار اليه ابن حاج فأخرجه منها ولحق بالقرامطة ، فلما صاروا الى المذيخرة أظهر ابن فضل لعنه الله المجوسية ، وأمرهم بنكاح الامهات والاخوات ، وشرب الخمر وحرم جميع الحلال ، وأحل جميع الحرام وكفر بمحمد ﷺ ، وبما جاء به من عند الله عز وجل ، وتسمى برب العالمين ، عليه سخط الله ، ولعنة اللاعنين ، وأمر من كان معه أن يسلموا الاموال والحرم ، ويخرجوا اليه من جميع ما في أيديهم ، فشذ منهم جماعة ، ولحقوا ببلدانهم ، وثبت هو ومن أقام معه على كفرهم فكان جميع من عنده من النساء في دار .

فاذا كان ليلة الجمعة جمع الرجال فأرسلهم على النساء فتقع الام للابن والاخت مع الاخ فيفجروا بهن في ليلتهن تلك ، فمن امتنع من ذلك قتله ، وأباح حرمته لمن كان معه ، تمردا وكفرا وجرأة على الله عز وجل[1] وعتوا وفجورا

فلما كان ذلك بعث الهادي الى الحق أعزه تعالى رجلا عباسيا ، من ولد العباس ابن علي عليه السلام يقال له علي بن محمد بن عبيد الله في جماعة من أصحابه ، وكتب الى الدشام أن يخرج معه ، ففعل ذلك ، وساروا حتى أتوا الى صنعاء ، وكان بها صاحب للقرامطة في عسكر فحاربوهم ، وأخرجوهم من صنعاء ، ودخلوها يوم الخميس لاحدى عشرة ليلة باقية من شهر رجب سنة سبع وتسعين ومائتين ، فأقاموا بها أياما ، وآمن أهلها .

ثم بعث الهادي الى الحق عليه السلام ابنه أبا القاسم عليه السلام الى صنعاء

---

(١) في حاشية الاصل اظهار ابن فضل المجوسية ، وامرهم بنكاح الامهات ، لعنة الله عليه . ولعل ما فعله ابن فضل هو اعلان للقيامة وهو امر سنزيده تعريفا فيما يلي من نصوص .

في جماعة من خولان وهمدان ، فدخلوا صنعاء يوم الاثنين ، لعشر ليال خلت من شعبان سنة سبع وتسعين ومائتين ، فأقام بصنعاء ، وبعث الى مقراء وألهان وحراز وهوازن ، فدخلت جميعا ، وقتلت من دعاة القرامطة جماعة ، وأمنت العشائر وتألفت الرعية ، وبلغ ابن كيالة الخبر وهو بتهامة مع مظفر بن حاج ، فقدم حتى صار الى ألهان[1] ، فمال اليه كثير من الناس رغبة (٨٩ ــ ط) في الشراب والفساد،وانصرف محمد بن يحيى اليه ، فأرسل ابن كيالة الى حزار[2] من اخرج من أصحاب محمد بن يحيى منها ، وقبضها ، فكتب أبو القاسم الى أبيه الهادي الى الحق عليهما السلام يعلمه بما كان منه ، وتقدم ابن كيالة ومن مال اليه ، فكتب الهادي الى الحق الى ابنه أبي القاسم يأمره بالانصراف عن البلد ولا يحارب ابن كيالة ، فيجمع عليه حرب ابن كيالة وحرب القرامطة ، فخرج من صنعاء ، وخرج معه جميع من كان بها يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من شوال سنة سبع وتسعين ومائتين ، حتى اذا صار بورور نهض الى صعدة ، ولحق بأبيه صلوات الله على أرواحهما ، وتخلف عنه من خرج من صنعاء معه ، وأتى من كان بشبام من القرامط ، فدخلوا صنعاء ، وأقاموا بها أربعة عشر يوما ، ولم يجدوا بها أحدا .

ثم قدم جراح بن بشر من تهامة لما بلغه خبر ابن كيالة، فوافق خروج محمد بن يحيى عليهما السلام من صنعاء ومصير القرامط بها ؛ فوصل الى ناحية منها ، وخرج القرامط عنها لانهم كانوا قليلا ، وذلك في آخر شوال ، وعاد اليها كثير من أهلها ، ثم نهض أسعد بن يعفر من بلد قدم[3] ، فدخل صنعاء ليلة النحر من ذي الحجة سنة سبع وتسعين ومائتين ، وولى القضاء والخطبة أبا القاسم عبد الاعلى بن محمد بن الحسن بن عبد الاعلى بن ابراهيم بن عبد الله الانباري في هذا الشهر ، وكان معه جراح في صنعاء ، ومخالفيها بيده ، وابن كيالة بذمار وبيده مخالفيها ثم خرج أسعد في حرب القرمطي الذي كان بشبام في شهر ربيع الاول من سنة ثمان وتسعين ومائتين، فوقع بينهم حرب شديد على درب شبام وانهزم عنه القرامطة ودخل شبام، وأقام أياما

---

(١) من جبال حمير كان كثير السكان انظره في صفة الجزيرة : ١٠٧ .

(٢) سياتي التعريف بها . انظر صفة الجزيرة : ١٥٨ .

(٣) بلاد قدم نسبة الى قدم من حاشد ، هي الآن مقاطعة غربي حجة . صفة الجزيرة: ١١٢ .

ثم أتى القرامطـ فنزلوا عليهم في بيت ذخار ، فخرجوا عنهم ، وقتل عبد القهار بن أحمد بن يعفر ، وقدم ابن كيالة مادة لاسعد بن أبي يعفر ، فعادوا الى شبام فدخلوها وصعدوا عليهم الجبل وطردوهم عن الناحية ، وأقام ابن كيالة أياما ، ثم انصرف وثبت أسعد بن أبي يعفر ومعه جراح يحارب القرامطـ في الجبل وقتا، وتوفي مظفر بن حاج بزبيد في شهر ربيع الآخرفي هذه السنة وحمل في صندوق حتى دفن بمكة ، وتولى الامر بعده ابنه محمد بن مظفر ، وأقام بزبيد ، وانصرف أسعد من الجبـل الى صنعاء من غير حرب ولا هزيمة ، وعاد القرامطـ الى شبام فخربوها ، وأقام أسعد بصنعاء ومعه جراح بن بشر ، ثم قدم ابن كيالة الى صنعاء يوم الاثنين لعشر باقيـة من شعبان من هذه السنة فأخرج جراح بن بشر عنها طردا ، فصار الى بلد قدم فأقام بياري[1] ، وانصرف ابن كيالة الى ذمار . وأقام ابن أبي يعفر بصنعاء، ثم عزل محمد ابن مظفر عن تهامة ، وشخص الى عمه عج بن حاج الى مكة ، وتولى الامر قائد كان مع أبيه يقال له ملاحظ بن عبد الله الرومي ، وذلك في شوال من هذه السنة ، فأقام بزبيد ثمانية عشر يوما، ثم قدم اليه ابراهيم بن محمد بن علي في ذي القعدة، فاستأمن اليه العسكر ، ودخل زبيد فانهزم عنه ملاحظ ، فصار الى عثر الى بني طريف ،وكاتب علي القرمطي ابن الفضل فأمده بالمال والرجال ، وأقام بزبيد .

وتوفي الهادي الى الحق ، يحيى بن الحسين صلوات الله عليه ، بصعدة يـوم الاحد لعشر باقية من ذي الحجة ، آخر سنة ثماني وتسعين ومائتين ، ودفن يـوم الاثنين قبل الزوال[2] ، وبايع الناس لابنه أبي القاسم محمد بن يحيى صلوات الله عليه يوم الخميـس مستهل المحرم ، مدخل سنة تسع وتسعين ومائتين ، وأقام بصعدة وفي يده بلد همدان ، وخولان ونجران .

ثم خرج أسعد بن أبي يعفر من صنعاء الى شبام في حرب القرامطة يوم الخميس لثمانية أيام باقية من ذي الحجة سنة ثمان وتسعين ومائتين ، فدخلها وصعد عليهم[3]

---

(1) كتب فوقها في الاصل بادي ، والصواب ماأثبتناه. انظرها في صفة الجزيرة:١١٣ .

(2) في حاشية الاصل : وفاة الهادي الى الحق صلوات الله عليه .

(3) في الاصل « عليها » والتقويم من ص .

الجبل فطردوهم ، ودخل (عليهم)[1] حصن شريب[2] قهرا ، وأقـام أياما ، فبلغه أن ابن فضل (٩٠ ـ و) قد نهض من المذيخرة يريد صنعاء ، وانصرف[3] ابن كيالة من ذمار ، فدخل صنعاء يوم السبت لثلاث ليال خلت من المحرم مدخل سنة تسع وتسعين ومائتين ، وقدم ابن فضل لعنه الله يوم الخميس لتسع من المحرم ، فانهزم عنه الناس، ودخل صنعاء ليلة الجمعة ليلة عاشوراء فأقام بها أحد عشر يوما ، وصار أسعد وابن كيالة الى الكلابح[4] من بلد قدم ، فأقاما بها أياما ، وخرج ابن فضل من صنعاء ، فصار الى مدر[5] ، فأقام بها أياما ، ثم عاد الى شبام ، وطلع بيت ذخار ، وأظهر حرب صاحبه الكوفي ، فدخل شريب فأقام فيه أياما ، ثم سار يريد حرب صاحبه ، فنهب تلك البلد ، وصار الى موضع يقال له الظلمة يحارب صاحبه ، ويحاصره في جبلـه ثم نهض أسعد من قدم ، ومعه ابن كيالة يوم الجمعة لثمانية أيام باقية من صفر من تلك السنة ، فصار الى ذمار ، فقام بها ، ولقيه ابن الروية وجميع مذحج ، ووعدوه المناصرة على حرب القرامطة ، وأصيب ابن كيالة ، لا رحمه الله تعالى ، ولعنه لعنة الدرك الاسفل من النار ـ فما كان أشد عداوته لله ولرسوله ولاهل بيته[6] ـ بذمار يوم الثلاثاء لعشر ليال خلت من شهر ربيع الاول لسنة تسع وتسعين ومائتين ، وثبت أسعد في البلد ، وفرق عماله في النواحي ، وأقام بذمار .

ثم نهض ملاحظ من عثر في شهر ربيع الآخر في هذه السنة ، ونهض معه القاسم ابن طريف في رجال بلد حكم ، وصار اليه جراح بن بشر[7] ، وسار حتى دخل المهجم والكدراء وطرد من كان فيها لابن علي ، ثم سار بمن معه الى زبيد ، فطرد عنهـا ابراهيم بن علي ، وقتل بها خلقا كثيرا ، ونهبت البلد ، وصار ابن علي الى المعافر هاربا .

---

(١) زيد ما بين الحاصرتين من ص .

(٢) هو احد جبلي كوكبان . صفة الجزيرة : ١٢٣ .

(٣) في ص « وانهزم » .

(٤) سبق ذكرها . انظرها في صفة الجزيرة : ١١٣ .

(٥) أكثر بلاد همدان قصورا . انظرها في صفة الجزيرة : ١٥٨ .

(٦) في ص « بيت نبيه » .

(٧) في الاصل « ابن جراح بن بشر » والتقويم من ص .

ثم خرج أسعد من ذمار الى قلعة كحلان[١] ، وذلك أنه بلغه أن نفرا من أهل البلد كاتبوا ابن ذي الطوق (واستدعوه)[٢] ، فأخذهم وأقام بكحلان وقتل هؤلاء النفر المفسدين ، ثم عاد الى ذمار في آخر جمادى الآخرة ، وصنعاء في هذه المدة خالية ، والقاضي عبد الأعلى بن محمد يحضر لاقامة الخطبة والصلاة والتشديد في الاوقات ، ويخرج الى قرية آدكة في بلد خولان .

وولي ملاحظ جراح بن بشر الكدراء ، فصار اليها ، ثم خالف على ملاحظ ، وخرج الى المهجم ، فطرد واليا كان بها لملاحظ ، ونهبها في جمادى الآخرة من هذه السنة ، وبعث أسعد جماعة من الفرسان مع قائد من قواده ، فأقاموا بصنعاء ، ثم بعث علي بن الحسن الاقرعي ، واليا على صنعاء ، فقدم من ذمار في آخر رجب من هذه السنة ، ثم انصرف ابن فضل عن صاحبه لما لم يقو[٣] عليه في حصنه ، فكاتبه وجامله ، والتقيا وبعث معه الكوفي ابنه ، فدخل صنعاء وبها الاقرعي ونفر يسير من أهل صنعاء يوم الاثنين لسبع[٤] ليال خلت من شهر رمضان من هذه السنة، فلم يعترض بأحد منهم ، ونزل المسجد الجامع فذبحوا وشربوا الخمر في رمضان[٥] .

ثم سار يريد المذيخرة فانتزح عنه أسعد الى عامل[٦] ، ثم صار الى المذيخرة مقيما على كفره وفجوره ، وأظهر في أسعد قولا جميلا ، وكتب اليه في حوائج ،

---

(١) حصن في مخلاف ذي رعين ، اتخذه اسعد بن ابي يعفر مقرا لملكه واستمر في ايدي اسرته حتى زالت . صفة الجزيرة : ٢١٦ — ٢١٧ .

(٢) زيد ما بين الحاصرتين من ص .

(٣) في الاصل « يقيم » والتقويم من ص. وصاحب ابن فضل كما راينا هو المنصور ابو القاسم الحسن بن فرح بن حوشب بن زادان الكوفي ، وقد قدم المنصور هذا مع علي بن الفضل الى اليمن . انظر رسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان بن محمد . تحقيق وداد القاضي ، بيروت ١٩٧٠ ص ٣٢ — ٥٤ ، وانظر ايضا نص العسجد المسبوك لابي الحسن علي بن الحسين الخزرجي الزبيدي المتوفى سنة ٨١٢ (نسخة مكتبة الحرم المكي ص ٣٦ — ٤٨ مع نسخة الجامع الكبير في صنعاء) .

(٤) في ص « لتسع » .

(٥) زاد في ص « من هذه السنة ».

(٦) بلد على فرسخين من ذمار الى الجنوب منها . صفة الجزيرة : ٢٤٣ .

فرأى أن يدفع شره ، ويداري عن الاسلام وأهله ، ثم صار أسعد الى صنعاء يوم الاربعاء لسبع[1] باقية من هذا الشهر ، فأقام بها ، وأثبت عماله في جميع مخاليفه ، ولم يعترض له ابن فضل ، ولا أحد ممن تحت يده ، وأصيب البرعي بن خيار ومن كان معه من بني عمه يوم الاحد لسبع عشرة ليلة خلت من شوال من هذه السنة ، ولما كان يوم الخميس لاحدى وعشرين ليلة خلت من ذي القعدة من هذه السنة جمع أبو القاسم محمدبن يحيى بن الحسين صلوات الله عليهم وجوه العشائر قبله ، فبعث[2] عليهم أسبابا كرهها منهم ، وتخلى عن[3] الامر وصرف عماله من بلد نجران وهمدان وغيرهما ، ولزم منزلة بصعدة وأقام الامر على حاله ببلد خولان ، لم يظهروا له خلافا ولا كراهية ، لأمره ، وأقام بصعدة بعض بني عمه يصلح بين الناس

حتى اذا كان آخر ذي الحجة (٩٠ ــ ظ) من سنة ثلاثمائة ، قدم أحمد بن الهادي الى الحق صلوات الله عليه من الحجاز ، فأقام مع أخيه الى أن كان يوم الاحد لثمان ليال خلت من صفر من سنة احدى وثلاثمائة[4] ، اجتمع اليه وجوه خولان ، فاستعانوا به على أخيه أن يقوم فيهم معه ، فكره ذلك ، فسألوا أحمد بن يحيى صلوات الله عليه القيام فيهم على ما كان والده ، فأجابهم الى ذلك ، وأقام فيهم ، وأعطوه على طاعتهم له العهود والمواثيق ، وعلى القيام معه لكل من نابذه ، وقام بالامر وتولاه ، وأتاه رجال همدان وأهل نجران فبايعوه على ذلك ، وبعث قواده وعماله الى[5] جميع مخاليفه .

وبعث ابن فضل صاحبه ابن ذي الطوق الجيشاني وكان عظيم البلاء مظهرا للكفر والردة ، فظفر به عبد الله بن أبي الغارات المحتدى بأخيه المعافى[6] فقتله يوم الجمعة لثلاث عشر خلت[7] من ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين ، فبعث ابن

---

(١) في ص : لتسع .
(٢) في ص « فنعى عليهم اشياء » . وهذا اقوم .
(٣) في ص « من » .
(٤) في حاشية الاصل : ذكر قدوم الناصر لدين الله احمد بن يحيى الهادي الى الحق عليهما السلام من الحجاز الى صعدة .
(٥) في الاصل « على » والتقويم من ص .
(٦) في ص « ناحية المعافر » .
(٧) في ص « عشر ليلة خلت » .

فضل عسكره الى أبي الغارات يحاربونه فهزمهم[1] ونصره الله عليهم ، وقتل منهم جماعة كثيرة ، وذلك في صفر من سنة ثلاثمائة .

وبعث ابن فضل محمد بن درهم الجيشاني وحسن بن أبي الملاحف الصنعاني الى مكة، فظفر بهما عج بن حاج، فضربهما بالسياط حتى ماتا ، وصلبهما ولله الحمد.

وبعث ابن فضل عبد الرحمن بن درهم الرا[2] وابن هارون الى بلد بني حبيش ليفسدا أهلها فقتلا جميعاً، ثم ان ابن فضل خرج يريد ملاحظ قصد زبيد وكان جراح قد جرى بينه وبينه مراسلة ، ودخل في كفره ، فبعث اليه ابن فضل أن يخرج في لقائه[3] ، فخرج جراح من الشرف حتى صار الى موضع يقال له المور[4] بتهامة ، وصار ابن فضل الى زبيد ، فخرج ملاحظ من زبيد بجميع من معه ، وبأهل البلد ، فافترقوا بتهامة وصار ملاحظ الى المهجم ، ودخل القرمطي زبيد ، فلم يجد بها مالا ولا أحدا .

وخرج ملاحظ في حرب جراح بن بشر ، فظفر به ملاحظ فقتله ومعه أخ له يقال له محمد بن بشر ، وجماعة ممن كان معه ، وذلك يوم الثلاثاء ليومين باقيين من شهر ربيع الاول سنة ثلاثمائة ، وانصرف ابن فضل الى المذيخرة ليوم بقي من هذا الشهر . وعاد ملاحظ الي زبيد وخلف بالمهجم والكدراء من يقوم فيهما .

وانتثرت النجوم ليلة الاربعاء لثمانية أيام باقية من جمادى الآخرة من هذه السنة ، وكثر ذلك ، حتى أشفق الناس[5] .

وبعث أسعد بن أبي يعفر في عسكر من صنعاء في أول يوم حتى صار الى ثات ورداع ، وقبضهما ، والولي[6] في هذه المدة عبد الاعلى بن محمد .

وخرج ابن فضل من المذيخرة يوم الخميس لست باقية من شوال من هذه

---

(١) في الاصل وفي ص « فهزموهم » وهو خطأ صوابه ما اثبتناه .

(٢) كذا في الاصل وفي ص ولم تسعف المصادر المتوفرة في معرفة المقصود .

(٣) في ص « امانة » .

(٤) انظر صفة الجزيرة ص : ٧٢ .

(٥) في حاشية الاصل « ذكر انتثار النجوم » .

(٦) في ص « والموالي » .

السنة حتى صار الى جيشان وهو يظهر أنه يريد حرب مدحج،ثم سار الي السرو[١] وتزل في قلعة صناع[٢] ، وبها كان مقامه أول مرة ، وحاربه رزام المدحجي ومن أجابه من مدحج ، ثم جرت بينهم هدنة على أنه لا يطأ لهم بلدا ، وأقام حتى اذا كان آخر صفر من سنة احدى وثلاثمائة بلغ ابن فضل أنملاحظا قد جهز عسكرا يريد المذيخرة فخرج من السرو سرا في الليل ، ولم يعلم به غير عسكره ، فسار يريد المذيخرة ، فوجد القوم قد نهبوا القرية وما حولها وافترقوا ، ولم يصب الا خمسة نفر وأقام بالمذيخرة على كفره وردته .

وقتل محمد بن الدعام بغرق قتله ابن عمه ابراهيم بن ابراهيم على شراب ليلة السبت لثلاث عشرة ليلة باقية من ذي الحجة سنة ثلاثمائة .

وهلك القرمطي المقيم بجبل مسور يوم السبت لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الاخرة سنة اثنتين وثلاثمائة وثبت ابنه أبو الحسن في موضعه هو واخوته لم ينازعهم أحد فيما كان في أيديهم[٣] .

وتوفي ملاحظ بزبيد في أول شهر ربيع سنة ثلاث وثلاثمائة (٩١ ـ و) وأقام من بعده عبد الله بن أبي الغارات ، فأقام بزبيد خمسين يوما .

ثم تولى الامر ابراهيم بن محمد الحرملي ، وهو من قواد السلطان مع ملاحظ، فأقام بزبيد ، وانصرف الى بلده في آخر شهر ربيع الآخر من هذه السنة .

وأصاب ابن فضل لعنه الله مرض في بدنه ، فتفجر من أسفل بطنه ، وأماته الله على أسوأ حال لعنه الله ، وكانت وفاته يوم الاربعاء للنصف من شهر ربيع الآخر من هذه السنة[٤] ، وقام من بعده ابنه لعنهما الله تعالى بالمذيخرة ، وقتل نفرا كثيرا من أصحاب أبيه .

---

(١) كتب الى جانبها في حاشية الاصل «بلاد يافع». انظر تاريخ اليمن لعمارة: ٤٧ـ٥١ .
(٢) من قلاع يافع . صفة الجزيرة : ٢٠١ .
(٣) ذكر الخزرجي ان الامور آلت بعد المنصور الى رجل من اصحابه يقال له عبد الله الشاوري ، انظر تفصيلات ذلك فيما يأتي .
(٤) في حاشية الاصل : ذكر وفاة علي بن الفضل لا رحمه الله . ولقد اورد الخزرجي في العسجد المسبوك كما اورد غيره من المؤرخين ان ابن فضل مات غيلة بالسم اثناء فصده . انظر تفصيلات ذلك فيما يأتي .

ثم خرج أسعد بن أبي يعفر من صنعاء يوم الخميس لتسع من رجب من هذه السنة حتى صار الى ذمار وكاتبه أهل المخلاف واستدعوه ، وقدم اليه وجوه أهل البلد ، ثم نهض من ذمار الى كحلان ، فأقام بها أياما قبل أن يبني فيها شيئا ، ثم سار الى مخلاف جعفر[1] ، واجتمعوا اليه ، وحلفوا له ، ونهض في حرب الكفر مجـدا مجتهدا ؛ فكان الحرب بينهم سجالا ، ولزموا الحصون ، وأقاموا ، وهو يحاربهـم ويحاصرهم ، وجعل يدخل حصونهم وهو يبذل نفسـه ومن أطاعه ؛ وأعطى الظفر ، فدخل جميع[2] الحصون ، وقتل بشرا كثيرا ، وألجأهم الى دار المذيخرة ، وحصرهم فيها ، وفيها غيرهم .

فلما كان يوم الخميس لتسع من رجب سنة أربع وثلاثمائة ، دخل الدار قهرا ، وأخذ الكفرة أسرا واستولى على جميع ما كان هنالك ولله الحمد ؛ وأجاز أسعد أصحابه ومن معه الجوائز الكثيرة ، وانصرف فدخل صنعاء يوم الفطر مستهل شوال سنة أربع وثلاثمائة ، واستخلف في البلد ابراهيم بن اسماعيل بن العباس المخائي .

ولما كان في ذي القعدة من هذه السنة أمر أسعد بابن علي بن فضل وأخيه ومن كان أسر من الكفرة فضرب أعناقهم جميعا ، وبعث برؤوسهم الى العراق ، وكانوا نيفا وعشرين رجلا ، ووقع بين أهل مسور وبين القدميين حرب شديد ، حتى دخلت الكلابـح وحرقت ونهبت ، واستغاثوا بأحمـد بن الهادي صلوات الله عليهمـا ، واستنصروه ، فوجه معهم[3] قائدا له مع عسكر ، حتى لزموا[4] باري ، وانحازت القرامط ، فانهزموا عنهم ، وعادوا الى جبل مسور ، وذلك في شهر ربيع الاول من هذه السنة ، وصارت بلدة قدم في يده الى الشرف والجريب[5] ، وبعث اليهم من قام فيهم وذلك في جمادى الآخرة من هذه السنة ، وكان أسعد بن أبي يعفر عند وصوله الى كحلان أمر بعمارتها وتحصينها ، ثم صار[6] اليها في شوال سنة ست

---

(١) المخلاف هو المنطقة، ومخلاف جعفر معروف باليمن. انظر تاريخ عمارة: ٤٨-٤٩.

(٢) في ص « الحصون » .

(٣) في ص « اليهـم » .

(٤) في ص « نزلوا ».

(٥) كانت مدينة عظيمة شهرت بزراعة الموز . صفة الجزيرة : ١١٤ .

(٦) في ص « صاروا » .

وثلاثمائة ، واستخلف أخاه عبد الله بن أبي يعفر بصنعاء ، وأقام أسعد بكحلان حتى توفي يوم الاحد لاحدى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة .

ولما كان في شعبان من سنة سبع وثلاثمائة وجه أحمد بن يحيى بن الحسين صلوات الله عليهم عسكرا في حرب القرامط ...[1] وكان من أهل مسور فالتقوا في الظاهر في موضع يقال له نعاش يوم الثلاثاء مستهل شهر رمضان ، فاقتتلوا قتالا شديدا ، ووقعت الدائرة على القرامط فقتل منهم ألف وخمسمائة رجل ، وهزموهم هزيمة عظيمة ، وأخذوا ما كان معهم والحمد لله ، واستأمن اليه كبير بلدهم وبعث القواد معهم وبث العساكر في وجوههم ، وحاربوهم في حصنهم حتى أيقنوا بالهلكة ، فكاتبوا الحرملي ، وأرسلوا اليه بمال ، فبعث عسكرا في نصرتهم ، فلما بلغ ذلك أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما ، كره حربه لئلا يقع عند السلطان أنه مُحارب قائده[2] ، فينقطع الموسم عمن في بلده من التجار ، وأخل عليه بعض البلد فصرف عساكره (٩١ ــ ظ) وخلى البلد وعاد الى بلده سنة ثمان وثلاثمائة .

وتوفي أبو القاسم محمد بن يحيى صلوات الله عليهما بصعدة يوم الاحد لسبع[3] ليال خلت من المحرم مدخل سنة عشر وثلاثمائة[4] ، ودفن يوم الاثنين ضحى النهار .

وقام أحمد بن يحيى صلوات الله عليهما بالامر ، وتولاه[5] ، وطلب القرامطة الهدنة ، وكتبوا الى جماعة من همدان ، فوقعت الهدنة بينهم في شعبان من سنة عشر وثلاثمائة .

---

(١) فراغ في الاصل وفي ص ، وفي غاية الاماني ٢١١/١ : وفي هذه السنة كانت وقعة نعاش المشهورة ، وسببها ان القرامطة لما اشتدت شوكتهم في ناحية مسور ، وعم منهم على من حولهم الضرر ، اجمع الناصر ــ احمد بن يحيى بن الحسين ــ أجناده ، وحشد قواده ... واجتمعت القرامطة الى قائدهم عبد الحميد بن محمد المسوري (وكان من اهل مسور) فنهض بهم .. الخ .

(٢) في ص « يحارب قائده » واراد بالسلطان اسعد بن أبي يعفر .

(٣) في ص « لتسع » .

(٤) في حاشية الاصل : ذكر وفاة المرتضى محمد بن يحيى الهادي الى الحق عليهما السلام .

(٥) في الاصل « وتولي » والتقويم من ص .

ودخل القرمطي[1] صاحب البحرين مكة في موسم سنة سبع عشرة وثلاثمائة يوم الاثنين لست[ليال خلون]من ذي الحجة،فقتلوا في المسجد الحرام من المسلمين خلقا، وفي مكة،وسبوا النساء،وأخذوا الاموال،وقلعوا الركن وكسوة البيت وباب الكعبة، وحملوا ذلك ، وأسروا من المسلمين خلقا عظيما وأقاموا بمكة ثمانية أيام، ثم انصرفوا يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من ذي الحجة .

وقد كان في أيام أسعد بعد موت ابن فضل رجلان من ناحية السرو من دعاة القرامط وتبعهما خلق[2] ، وصارا الى قلعة تسمى شكم[3] فقتل داعيي الكفر ، وأخذت رؤوسهما[4] « وحملت » الى كحلان ، وغنم المسلمون ما كان معهم ، وذلك يوم الجمعة ليومين باقيين من شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلاثمائة ...[٩٢ ـ و].

وقد كان في أيام أسعد خرج بالسرو رجل يدعي النبوة ، كاذبا ، عليه لعنة الله ، فمال اليه من بقي من أصحاب ابن فضل ، فوجه الأمير أسعد العساكر والقواد الى رداع ، وكاتب العساكر فاستأمن اليه الناس ، وعمل في المدعي النبوة حتى أخذوه أسيرا من غير عهد ولا أمان ، فأتى به اليه أسيرا ذليلا ، قد أخلف الله أمله ، وأذهب حيله ، يوم الفطر سنة أربع وعشرين وثلاثمائة ، فصيره في الحبس ، فهلك بالنعط[5] [٩٢ ـ ظ] .

★ ★ ★

(1) ابو طاهر الجنابي مضى ذكره وسياتي المزيد عنه .
(2) في الاصل « وتبعها خلق وصار » والتقويم من ص .
(3) حصن وقرية من يافع السلفى . صفة الجزيرة : ١٤٢ .
(4) اضيفت « وحملت » من ص .
(5) النعط هو الشبق .

كتــاب

استتــار الامـام عليــه السلام

وتفرق الدعاة في الجزائر لطلبه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله كثيرا كما هو أهله ومستحقه ، وصلى الله على سيدنا محمد سيد رسله وأبرار عترته الطاهرين وسلم كثيرا .

اعلم علمك الله الرشد أنه أول ما فقد الامام عايه السلام ، بقي الدعاة متحيرين فاجتمع وجوههم بمدينة عسكر مكرم ، وهم سبعة نفر : منهم أبو غفير ، وأبو سلمة، وأبو الحسن بن الترمذي ، وجياد بن الخثمي وأحمد بن الموصلي ، وأبو محمد الكوفي،وهو والد أبي مهزول،الذي قتل موالي موالينا أهل البيت صلوات الله عليهم .

ولما اجتمع هؤلاء النفر المذكورون قالوا : قد فقدنا امامنا ، ولا صلاة لنا ولا صوم الا بامام ، ولا نعرف من نعطي زكاتنا ، واجتمعوا مع الاولياء والمحبين ، فجمعوا نفقات ، وقالوا لهؤلاء الدعاة المذكورين في صدر الكتاب : أمضوا فافترقوا على عمل خراسان ، والعراق وجزيرة حران ، واليمن ، واطلبوه . فخرجوا فتفرقوا مع كل واحد صفته وحليته ، وخرجوا في هيئة الطوافين على دوابهم ، وأخرجوا فيها الفلفل والريحان والمغازل والمرايا واللبان ، وما يصلح للنساء من أصناف البقط[1] ، وجعلوا بينهم موعدا يجتمعون فيه في كل اقليم على أقسام ، لكل واحد منهم قسم يمضي اليه ، فاذا فرغوا من الاقليم أتوا الى الميعاد ويسأل بعضهم بعضا : هل أصبتم شيئا ، فاذا لم يجدوا في ذلك الموضع شيئا انتقلوا الى اقليم آخر ، فيتواعدوا الى موضع آخر يجتمعون فيه .

وكان اذا اجتمع عليهم النساء والصبيان يسألونهم : هل وقع عندكم رجل في صفته كذا وكذا ؟ وكان هذا حالهم في كل موضع دخلوه ، فداروا حلب واقليم الجزيرة وغيرها فلم يجدوا شيئا ، فدخلوا اقليم حمص فنزلوا بمعرة النعمان وجعلوا

---

(1) البقط : قماش البيت ، وجميع المتاع . القاموس .

الميعاد بينهم في الجامع ، وكان الامام ع م قد وقع في معرة النعمان في جبل السماق في دير يقال له دير عصفورين عند كفر قوم[1] .

فخرج أبو غفير ومعه جياد الى معرة النعمان في جبل السماق ، وهو ينادي مغازل لبان مرايا ، فاجتمع اليه النساء والصبيان فسألهم : هل وقع عندكم رجل صفته كذا وكذا ؟ فقال له صبي وامرأة هب لنا مما معك ونحن ندلك على هذه الصفة ، فوهب لهم مصطكا[2] ولبان وما يصلح للنساء والصبيان وقالوا له : الساعة جزنا بدير عصفورين وغلامه واقف على رأسه ، فقال لهم أبو غفير : الله الله دلوني على الطريق الى هذا الدير ، فركب حماره ومضى حتى وصل الدير ، وأخرج الكتاب الذي معه فيه الصفة والحلية ، ولم يكن له به معرفة قبل ذلك ، ولما وقف عليه عرفه بالصفة ، فنزل وخر لله ساجدا شكرا له ، اذ وقع عليه وقبل الارض بين يديه ، فقال له : من تكون ؟ فقال : أنا فلان بن فلان ونحن سبعة من الدعاة ، لنا اليوم سنة ندور عليك لما فقدناك ، ودعاتك في جميع البلدان افتقدوك وبقوا حائرين . فقال له : يا هذا انما جئت الى هذا الموضع لأستر نفسي فيه ، فجئتم لتكشفوني ، ولكنك بعد اذ جئت واجتمعت معي فارجع وعرف أصحابك ليجيئوا الي بأجمعهم ، فاجتمع معكم لأعقد عليكم ما ترجعون به ان شاء الله تعالى .

فخرج أبو غفير فرحا مسرورا، فاجتمع مع أصحابه وفرحوا بذلك فرحا شديدا، فمضوا بجماعتهم الى دير عصفورين ، فاجتمعوا معه صلوات الله عليه . فقال لهم : ارجعوا وقولوا لدعاتي : انا قد أصبناه في موضع كذا ، فمضى هؤلاء السبعة فاعلموا جميع الدعاة في جميع الافاق، وقدم اليه جماعة منهم بعد برهة فسلموا عليه، وحمدوا الله عز وجل اذ جمع بينهم وبينه . فالتفت الى الدعاة المذكورين فقال لهم : سكنت هذا الموضع فلا أجد فيه دواءا ولا فصدا في أوانه ، ولا حماما ، فداروا مدينة شيزر ومدينة حماة وكفر طاب[3] ، ثم أتوا الى سلمية وكانت مدينة محدثة بناها محمد بن

(١) في هذه المنطقة الآن قريتان واحدة اسمها : كفر جوم ، والاخرى : كفر حوم . انظر التقسيمات الادارية للجمهورية العربية السورية . ط . دمشق ١٩٦٨ ص: ٢٦٥ ، ٣٠٧ .

(٢) علك رومي له منافع طبية ــ القاموس .

(٣) تقع خرائبها على بعد حوالي ثلاثة كيلومتر الى الغرب من خان شيخون الواقعة الى شمالي حماه على الطريق الواصل بين حماه والمعرة .

عبد الله بن صالح لما أخرجه الخليفة من بغداد[1] وقال له : ارحل عني واطلب لنفسك مدينة تبني بها وتسكن بها . وكان بها أربعة وعشرون ديرا للنصارى ، فبنى عليها رسوما وسكن بها مع عبيده وأخرج أهلها منها ، وبعث الى الخليفة ابن عمه ببغداد وقال له : اني قد وقعت في مدينة في طرف الدنيا ، ولكن أحب عمارتها فتأمر لي بالنداء في الامصار والتجار أن يحضروا سوقها ــ يعني سلمية ــ حتى تعمر فجعل السوق يعمر ثلاثة أشهر لا يفتر عنه كل يوم ، فكان التجار يأتون اليه ويتسوقون فيه ، وهي مدينة كثيرة الخيرات ، وكان التجار اذا أتوها لا يحبون الزوال منها ، ويسألون صاحبها أن يسكنوا بها ويأذن لهم ، فيقيمون ويوجهون بياعهم وعبيدهم يحملون اليهم بضائعهم ويسألون المقام معه ، فحصلت سلمية قطائع لاولئك التجار . فقال لهم اختطوا ، فاختط أهل بلخ ، وأهل مدينة الرسول ﷺ ، وأهل حلب ، وأهل الرقة ، وأهل كل ناحية .

وأتى هؤلاء الدعاة الى محمد بن عبد الله بن صالح ، فقالوا له : ان ها هنا رجلا بصريا من التجار يسألك فيما يسألك به هؤلاء التجار ، فأمرهم أن يطلبوا موضعا يصلح له ، وفرح به ، وأنزله في مجرى المدينة في ناحية سوقها فاشتروا له دار أبي فرحة ونزل ع م بسلمية كسائر التجار ، فلما نزل بها زاد دورا كثيرة وهدم وبنى وتأهل وأتى اليه طوائفه ، ودعاته وأحدث قصرا شامخا .

وهو عبد الله الاكبر[2] ، وبعث دعاته الى جميع البلدان سرا ، وعزل وولى على أنه رجل تاجر ، وولد له بها أحمد وابراهيم ، وتوفي وكانت الامامة بعده لأحمد دون ابراهيم ، وولد لاحمد بن عبد الله الامام الحسين وهو والد المهدي ، وسعيد الخير ، وأقام الحسين الى أن ولد له المهدي ع م ، فلما أتت نقلته استودع له أخاه سعيد الخير اذ كان ولده يومئذ في حال الطفولية ، واستبد سعيد بالامامة ونص بها على ولده فهلك الولد ، ثم نص على ولده الثاني فهلك ، وكان له عشرة أولاد فلم يزل ينص على كل واحد منهم الى أن هلكوا بأجمعهم ، فعلم حينئذ سعيد الخير أن الحق لا يفارق أهله ، فتاب وأناب الى الله تبارك وتعالى، وجمع دعاته وأعلمهم أنه مستودع للمهدي صلوات الله عليه ، وسلم الامامة واعترف له بالوديعة ، وتنصل اليه مما

(١) في معجم البلدان لياقوت : اتخذها صالح بن علي بن عبد الله بن عباس منزلا ، وبنى هو وولده فيها الابنية ، ومن المعتقد أن ذلك كان في عصر الرشيد .

(٢) يتوافق هذا مع ما ذكره الداعي ادريس القرشي ــ انظر عيون الاخبار ٤/٣٦٥ــ٣٦٦ .

تقدم منه قبل ذلك ، وصارت الامامة الى المهدي ع م فقال الشاعر :

الله أعطاك التي لا فوقها وكم أرادوا منعها وعوقها
عنك ويأبى الله الا سوقها اليك حتى طوقوك طوقها

فأول ما عمل المهدي ع م بعث في طلب أبي الحسين بن الاسود الى مدينة حماة، وكان رجلا عاقلا ، فقال : يا أبا الحسين قد قدمتك على جميع الدعاة ، فمن قدمت فهو المقدم ، ومن أخرت فهو المؤخر ، وأنت على طريق النصر . وكان الدعاة يأتون الى أبي الحسين ويؤدون اليه زكواتهم وهداياهم ، فيوجه بها أبو الحسين الى المهدي بالله صلوات الله عليه .

فأول ما عمل أبو الحسين من تغيير الاحوال لما مات أبو محمد داعي الكوفة ، وكان قد خلف ثلاثة أولاد، هم : أبو القاسم، وأبو مهزول، وأبو العباس، وكان معهم زوج أختهم فقتلوه ، وقالوا له : أنت مبغض لنا ، ومخالف على مولانا ، وصاحت أختهم وقالت : قتلتم زوجي، فقالوا : نعم لانه منافق ، فخلع أبو الحسين، أبا القاسم ابن أبي محمد عن دعوة الكوفة ، فغضب أبو القاسم وأخوته غضبا شديدا ، وكتبوا الى المهدي صلوات الله عليه كتابا يقولون فيه : لم نزع منا أبو الحسين دعوة الكوفة بلا ذنب ولا خيانة ؟ فلم يرد عليهم المهدي جوابا ، واجتمع الاخوة الثلاثة وتحالفوا وتعاقدوا على أنهم ينحدرون الى سلمية فيقتلون ابن البصري[1] هذا الذي كلف أبا الحسين أن يفعل بنا هذا الفعل ، ولا نتركه ، وقالوا حتى ينقطع ذكر علي بن أبي طالب من الدنيا ، ونقتل بعده أبا الحسن ان قدرنا عليه ، والا وشينا بذلك الى عمال الشام .

فاتصل ذلك بدعاة بغداد وهم : حامد بن العباس وابن عبد وجماعة من الشيعة، فكتبوا الى المهدي ع م : إن بني أبي محمد قد عزموا على قتلك وقتل أهلك ، فان كنت قاعدا فقم ، فانهم قد زحفوا اليك ، وهم عازمون على قتلك فان لم يجدوا الى ذلك سبيلا وشوا بك الى أحمد بن طولون ، وهم يقولون انك مخالف للمذهب ، ويشهرون أمرك ، فاعمل على خلاص نفسك ولا تقم ساعة واحدة .

فأمر المهدي ع م في الوقت الذي وصل اليه هذا الخبر بالرحيل ، فأخذ معه أبا القاسم ولده وجعفر الحاجب وابن بركة الحاضن لا غير ، وترك القصر كما هو

(١) اي الامام المهدي لان اباه عندما استقر في السلمية ادعى انه تاجر من اهل البصرة.

بفرشه وستوره وأمواله وعبيده وبني عمه وبني أخيه الذكور والاناث وأولاد ابراهيم وأوصى على جميع ماخلفه في القصر من النعمة والرباع والمتاع والمستغلات حسن بن معاذ ، وخرج وقت صلاة العصر ، ولم يعرف به أحد ، وأسلم جميع الاشياء .

فلما خرج وصار الى ظاهر المدينة قعد ساعة يشاور نفسه ويستخير الله ربه ، فبعث الى غيلان الرياحي، وكان رجلا من العرب مذكورا كان في قرية يقال لها سلهب ، وكان مطاعا في بني عمه ، فقام اليه غيلان ، ومعه ثلاثون فارسا ، فمشى معه الليل كله حتى وصل الى حمص صلاة الغداة ، ورجع عنه غيلان ، وتمادى هو يومه ذلك حتى وصل طرابلس الشام ، فأقام بها يوما واحدا ، ثم توجه الى فلسطين الرملة فأقام بها ثم اتصل به أن أولاد أبي محمد وصلوا الى سلمية وطلبوه فلم يجدوه .

فبعد سنة كاملة قاموا يدورون عليه ، فجاؤوا الى أخيه محمد ، فقالوا : هو صاحبنا ، فقال لهم أهل سلمية : ليس هو صاحبكم وقد خرج صاحبكم وهو هربة ، وهو مستخف بالرملة، فاستقصوا على ذلك فأصابوا الخبر صحيحا حقا،وأنه بالرملة، فرجع واحد من أولاد أبي محمد وهو محمد الى العراق ، وبقي أبو القاسم ، وأبو مهزول بسلمية ، وكانا يكثران الاختلاف الى أبي الحسين الى حماة سرا يستقصون عليه ، ويرجعون الى سلمية ، فلما يئسوا منه ، وعلموا أنهم لا يجدونه ، وأنه قد فاتهم ، خرج أبو القاسم وكان معه دفاتر وكان غلاما شيطانا ، وبقي أبو مهزول بسلمية . فتوجه أبو القاسم بن أبي محمد الى العليصيين[1] ووقع اختياره عليهم دون القبائل ، وكانت الدعاة تدعو فيهم وكانوا من دعوة أبي الحسين ، قد دعا مشايخهم سعدون بن دعلج من بني مالك ، وبني معرش ، وبني هجيني ، وبني البلوي ، وبني فخداش ، وبني هذيل ، وبني زياد ، فعاقده هؤلاء القبائل وحالفوه ، وثاروا معه الى طغج والي دمشق[2] ، وكان طغج قد طغى وجار في دمشق جورا عظيما ، فبعثهم الله نقمة عليه وقاتلوه بقرية يقال لها مزة الافاعي ، فهزموا طغج هزيمة فاضحة ، وقتلوا رجاله وحصروه بدمشق . ثم اجتمعوا أيضا مرة أخرى بموضع

---

(١) من قبيلة كلب .

(٢) في هذا اشارة لثورة صاحب الجمل زعيم قرامطة الشام ، انظر ترجمة صاحب الخال فيما يلي .

يقال له المزة على باب المدينة ، فهزموه أيضا ، وردوه الى دمشق وضيقوا عليه، فبعث طغج الى بدر الحمامي الى مصر يستنصره ، وقال له : ان هذا الرجل قد ضيق علي ، فجاءه بدر الحمامي بعسكر مصر فدخل بدر الحمامي دمشق، ولم يعرف به القرامطة.

وكان أبو مهزول اللعين قد خرج من سلمية حتى وصل الى الرملة، وأبو القاسم اخوه مقيم على دمشق ، والقتال في كل يوم ، فلما وصل أبو مهزول الى الرملة رأى جعفر الحاجب في السوق يشتري حوائج،فقال له انسان ممن يعرفه هذا غلام صاحبك الذي تسأل عنه ، فتبع جعفرا حتى دخل الدار معه ، وقعد له في الدهليز ، وقال له : أبلغ مولانا السلام ، وقل له اني قد جئت أنا أبو مهزول بن أبي محمد ، ولا بد لي من الاجتماع به ، والا صحت وأشهرت أمره ، فدخل اليه جعفر الحاجب ، وعرفه بذلك ، فقال له المهدي عم : بعد أن رآك ، ووصل الينا فاصعد به والا فهو يشهرنا.

وكان المهدي عم يسكن بالرملة دورا كثيرة يستتر من دار الى دار ، فصعد اليه فلما رآه قبل الارض بين يديه ، فرحب به وعظم شأنه ، فقال : يا مولانا خرجنا من بلدنا واخوي ندور عليك، فالحمد لله الذي جمع بيننا وبينك، أخي قدم بالعسكر وحصر دمشق وتركته على أخذها فارجع فقد استقام لك الامر ، فما جئنا من بلدنا الا لترضى عنا ولا تكن ساخطا علينا ، وهذا من فعـال أبي الحسين الذي أقلقنا وأقلقك، فان كنت لا تمضي أنت فاكتب كتابا الى أخي ليرضى عني، فانه ساخط علي.

فكتب له كتابا الى أخيه أن ارض عنه، ولا تؤذه بشيء، وأنا قادم في اثر كتابي، وكتب له الى أبي الحسين كتابا ، وأمره أن يدفع اليه خمسمائة دينار من المال الذي له عنده ، فخرج أبو مهزول من عند مولانا المهدي عم ، فمضى حتى وصل الى أبي الحسين فدفـع اليه الكتاب ، وقال له : ادفـع الي ما أمرك به ، فقال أبو الحسين يا ملعون وأين أصبته فقال : بالرملة ، فدافعه ولم يعطه شيئا .

ورجع أبو مهزول الى أخيه ، وهو على بلد دمشق ، فقال له : جئت يا ملعون والله لأقتلنك، فدفع اليه الكتاب ، فلما رآه قبله وقرأه وقال له: أين أصبته يا ملعون؟ فقال له : بمدينة الرملة ، واجتمعت معه ، فقال : أو رأيته ؟ قال : نعم ، وكتب لي هذا الكتاب الى أبي الحسين بدفع خمسمائة دينار ، وأوصلته اليه فلم يدفـع الي شيئا ، وجئت اليك لأعرفك .

فعند ذلك جمع مشايخ العليصيين من بني زياد ، وقال لهم : هذا أخي قد قدم ، ونحن بالغداة نلتقي للقتال على باب المزة ، فبايعوا لأخي فاني غدا أطلع الى السماء أقيم بها أربعين يوما ، وآتي اليكم ، فبايعوا له على أربعين يوما لا غير ، وقال: أعطوا أخي خمسمائة فارس يكمن في هذا الجنان ، فاذا وقع القتال خرج عليهم ، فعقدوا ذلك ، وباتوا عليه وأصبحوا بالغداة الى القتال ، ومضى أبو مهزول بالكمين الى الجنان وزحف طغج وبدر الحمامي ، فقال أبو القاسم ، لا يتحرك أحد من العسكر للقتال حتى تروني ركبت ناقتي ، وأقعد ناقته وأوقف عساكره يمينا وشمالا ، وهو ينظر في دفتر وأبو محمدين الداعي يختلف اليه ، ويقول له العدو قد أشرف علينا وتقارب منا ، فيقول له : اصبر حتى أقوم ، فلما ألح عليه بالكلام ، وتقارب العدو منه دق التراب[1] ، وقال يا رب أحرق بالنار أبصارهم ، ثم قدمت اليه ناقته ، ثم قال: يا أحمد ، يا محمد ، يا نصر الله انزل ، فحمل العسكران بعضهما على بعض ، فما كان الا ساعة حتى ضرب بحربه ، ضربه بها رجل من عسكر بدر الحمامي ، فانقلب ، فصاح بدر الحمامي : انزلوا جزوا رأسه ، فهو يجز رأسه حتى جاءت زراقة نفط فأحرقت القاتل والمقتول والناقة ، فخرج أبو مهزول لعنه الله بالكمين فرد الهزيمة حتى رجع بدر الحمامي وطغج ، فقتلا قتلا عظيما •

فلما رجعوا ، اجتمعت جميع العساكر فقالوا : صاحبنا صعد الى السماء ، فافترقوا ، فقال لهم شيخهم أبو محمد الداعي : قد بايعنا لأخيه أربعين يوما ، فان هو نزل فنحن قادرون على أن نفترق ، فصبرهم أربعين يوما ، وكتب أهل حمص الى أبي مهزول أن اقدم علينا ، ودع دمشق ، فانا في طاعتك ، فقدم الى حمص بالعساكر وخلى عن دمشق •

ومولانا المهدي عم في هذا كله مقيم بالرملة ، والاخبار تتصل اليه فلما قدم أبو مهزول الى حمص أطاعوه وسمعوا له ، وقدم اليه أبو الحسين من حماة للسلام عليه مع مشايخ البلد ، فلما رأى أبا الحسين نظر اليه نظر مغضب ، ففزع وهرب واختفى عند رجل من أصحابه ، فلما أصبحوا دخل المشايخ اليه وسلموا عليه ، فافتقد أبا الحسين فلم يره ، فسأل عنه فقالوا : هرب ، فأمر بالنداء ، فنادوا : من

(1) يتشبه بفعله هذا بما كان النبي ﷺ يفعله في بعض مغازيه .

آوى أبا الحسين فقد حل ماله ودمه • فأقام المنادي ينادي سبعة أيام حتى ظهر أبو الحسين فجاؤوا به ، فقال : يا أبا الحسين قد تكاملت ذنوبك ، فقال أبو الحسين : لا يكون مع الله الا خيرا ، وضيق عليه وأركبه جملا مع ولده وشهرهما ، ونادى عليهما وأنزلهما بعد المناداة عليهما في فازته[1] مكبلين فأتاه مشايخ العليصيين ، فقالوا له : ان هذا الرجل الشيخ نحن من دعوته فلا تحدث فيه حدثا ، فقال لهم : ما يناله منا مكروه،ولا يرى الاخيرا ثم رحل من حمص الى سلمية ، ومعه أبو الحسين وولده•

فنزل بهما بقرية يقال لها فياحة ، ونزل العسكر بها ، وأمر الفراش أن يحفر في وسط الفازة حفرة ليدفن فيها أبو الحسين حيا ، فلم يمكن له في هذا المقام شيء ، فأصبح العسكر راحلا حتى وصل الى سلمية ، ونزل العسكر وأبو الحسين معه لم يحدث فيه حدثا ، وكان نزوله بالعسكر على باب الخندق فأقام بها ثلاثة أيام ، ثم قتل أبو الحسين

وخرج مشايخ الهاشميين فسلموا عليه ومعهم حسن بن معاذ وطوائف المهدي عم وأهل بيته وقراباته ، وكان أبو محمد أخو المهدي عليلا فتوفي ذلك اليوم الذي نزل فيه أبو مهزول لعنه الله ، فأقام فيها أياما كثيرة، ثم أخذ مشايخ الهاشميين فكبلهم وأخرجهم من دورهم الى العسكر ، وخلى طوائف المهدي لم يعترض لهم ، فلما رأى مشايخ العليصيين ما فعله بالهاشميين ، اجتمعوا اليه ، وقالوا : هؤلاء الهاشميين قرابة الخليفة ببغداد ، أطلق سبيلهم ، ففعل ذلك ، ثم رحل بالغداة الى حماة والى دار أبي الحسين ودور بني عثمان بن حجاز ، فنهب جميع ما كان فيها للمهدي عم ولابي الحسين ، ، وكانت دار أبي الحسين خزانة المهدي عم •

ثم أتى الخبر أبا مهزول لعنة الله عليه وهو بحماة أن أبا الاغر السلمي خرج بالعسكر من بغداد يريد اليه ، فعبأ عساكره وأخرج عليها عميطر المكني بالمطوق فتوجه العسكر الى أبي الأغر ، فوافاه على شاطىء الفرات فالتقوا هناك فانهزم أبو الاغر ، وأخذت فازته ، فاحتووا على جميع ما كان له ، وقتل ولد أبي الاغر ، ووجد في فازته ، كتب الهاشميين الذين بسلميه، كتبوها الى المعتضد ينتصرون به، ويقولون له : الحق اطفاء النار قبل أن تشتعل •

---

(1) كلمة بربرية يقصد بها الخيمة ، وفي استخدام هذه العبارة ما يوحي بان هذا النص كتب في تونس .

فلما أتوا الى أبي مهزول وبشروه بهزيمة أبي الاغر ونهب ما كان له في فازته فأخبروه بما أخذوا من الكتب فأصاب كتب الهاشميين ، وجمع مشايخ العليصيين وأوقفهم على ما فيها وقال لهم : هؤلاء الذين شفعتم فيهم هذه كتبهم كتبوها الـى المعتضد[1] ليبرزوا علينا وعليكم العساكر فيقتلونا ويقتلوكم معنا .

وفي ذلك كله المهدي ع م مقيم بالرملة ، وطيب الحاضن يختلف اليه من سلمية الى الرملة يعرفه الاخبار ، ووصلت اليه أم علي الى الرملة اذ كان أبو القاسم طلبها وبكى عليها ، فوصلت اليه ، وامرأة أخرى ، فوصلتا جميعا الى الرملة . وكان بالرملة ينتظر ما يكون من أخبار اللعين أبي مهزول وما يكون من فعله بعد رجوعه مـن دمشق ، ووصوله الى سلمية واتصل به ما فعل بأبي الحسين وولده ونهب مالـه واحراق داره .

ولما وصلت كتب الهاشميين التي كانت مع ابن أبي الاغر على أنه يوصلها الى المعتضد ، قال له جميع الدعاة : اذا كان الامر على هذا ، وقد فعلوا ما فعلوا فشأنك بهم . فوجه في طلبهم الخيل فأتوا بهم وهم أحمد بن محمد ، وابراهيم بن محمد ، وصالح بن محمد ، وفضل بن عبد الله ، وعباس بن عبد الله ، وبلهجـة بن عبد الله وجماعة الهاشميين ، وكان جملة عددهم خمسة وتسعين شيخا ، فوقفوا بين يديه ، وقالوا له : لأي شيء وجهت في طلبنا ؟ فدفع اليهم الكتب ، وقال : أليس هذه كتبكم وخطوطكم بأيديكم كتبتم بها الى المعتضد تنتصرون به يوجه الينا بالعساكر فقال أحمد بن محمد ، وكان لسان القوم : قد فعلنا ذلك ، ولكن عفوك يلحقنا ، قـال أبو مهزول لعنه الله : لا عفا الله عني ان عفوت عنكم ، وأمر بهم أن يجروا بكبولهم الى باب اليهود ، وأمر رجلا كان يهوديا أسلم على يديه من أهل تدمر أن يضرب رقابهم ، ولما كان من الغد بعث خيل العسكر الى دورهم فأحرقوا النساء والصبيان والبنات والاطفال ، وكان عدد من فعل ذلك به مائة واحدى وأربعين نفسا ، فقتلوا كلهم ، ونادى في جميع أهل سلمية أن لا يدفن منهم أحد ولا يستر ، ومن سترهم أو غطاهم لزمه عقوبة ، فبقوا كذلك حتى أكلتهم الكلاب والطير .

---

(1) توفي المعتضد سنة ٢٨٩ هـ/٨٠٢ م ، وخلفه المكتفي ، وهو الذي سير ابا الاغر ثم تولى القضاء على صاحب الخال المنعوت بابي مهزول هنا .

واجتمع أهل سلمية ، ومشى بعضهم الى بعض ، فقالوا : هذه الفعلة التي فعلها هذا الرجل في الهاشميين ، ولم يحدث في قصر المهدي ولا رجاله شيئا ، فهذا انما له قام ، فجعلوا أكثر قنيتهم ، وأكثر ماكان لهم في قصر المهدي ليستروا ويصونوا أموالهم .

وكان من مناظرة القرمطي مع الهاشميين ، قبل قتلهم ، أن قال لهم : انكم السبب في خروج ابن البصري من هذه المدينة ، وأخليتم قصره منه وتركتم أولاده وأولاد أخيه يتامى منه ، فلما سمع أهل سلمية كلامه معهم أيقنوا أنه لا يفعل في أهل بيت المهدي الا خيرا ، واطمئنوا ، وأخفوا أموالهم ، وأمتعتهم في القصر ، فعند ذلك بعث الى المهدي كتابا سرا يقول له : اني قتلت أعداءك الذين عملوا على خروجك ، ودفع ابن عمك وولده الى العراق في الأول ، فأقدم ولا تتأخر .

وكان في ذلك مكيدة منه ليطمئن المهدي اليه حتى يرجع ، فلما قرأ المهدي عم الكتاب ، كتب اليه قد أحسنت فيما عملته ، ولو لم تفعل هذا ما كنت من شيعتنا وأوليائنا ، وأنا قادم على أثر كتابي هذا ان شاء الله ، فلما قرأ الفاسق كتابه فرح به وأطمعه فيه ، وأبى الله أن يتم للفاسق أمله ، وأن يبلغ المهدي عم ما هو أهله .

وقرأ أبو مهزول اللعين كتاب الامام على جميع الدعاة وقال لهم ان صاحبكم قادم الى بلده وقصوره ونعمه التي أخرجه منها هؤلاء الفسقة ، ففرح الدعاة وسرهم ذلك . وأقام الفاسق منتظرا لقدوم المهدي عم أربعة أشهر من أول سنة احدى وتسعين ومائتين ، وهو منتظر لقدومه حتى وصل اليه الخبر أن محمد بن سليمان قد خرج من بغداد قادما اليه ، فأمر تلك الساعة بخروج العسكر في ثمانية آلاف فارس ، وستة عشر ألف راجل ، وقدم عليه عطير بن الكرش وقرميز بن السهم من بني الأحم ، فالتقوا عسكر محمد بن سليمان بموضع يعرف بقرية السيل ، وبقي الفاسق مقيما بسلمية . وكان الرجال الذين أخرجهم في العسكر محبين للمهدي عم وكانوا من دعوة أبي الحسين ودهمهم خروجهم ، فبقي مع جماعة منهم لم يخرجوا في العسكر .

وقال لأولئك الدعاة الذين بقوا معه: اني أحببت أدخل الحمام في مدينة سلمية ، ولم يكن دخل المدينة الا ذلك اليوم ، وانما كان نازلا بظاهرها ، وكان ذلك حيلة منه لعنه الله لما مضى عنه أولئك المحبون وأيس أن المهدي لا يصل ، وخاف أن يفوته ما يريده ، وحذر من محمد بن سليمان أن يخرجه من البلد ، ولم يخرج أهل بيت

المهدي عم ومن في قصره . فأمر له أن يطيب له الحمام فدخل على المدينة على بغلة مزورة من باب الشرقي ومعه نحو ألف فارس ، وكان طريق الحمام على باب المهدي عم ، فدخل الحمام ، وخرج وأرى أنه خارج الى العسكر حتى جاز ووقف على باب القصر . وكانت جارية المهدي عم معها ولد يقال له محمد ، فهربت مع داية هـذا الصبي لما أحست أن الفاسق دخل من باب القصر الكبير وخرجت من الخوخة بولدها، وكانت هذه الجارية يقال لها لعب ، قديمة بالقصر لأنها كانت للشيخ محمد بن أحمد، ثم صارت للمهدي عم من بعده . فهربت فرآها محمد بن عزيزة وكان عارفا بهـا ، فقال للذي معه : هذه جارية الشيخ هاربة خائفة، فتبعها ومعه خمسة نفر . فقال لها : أين تريدين يا لعب ؟ فقالت له : يا محمد انا ربيناك أنت وأباك ودخلت علينا ، وهذا الرجل قد دخل قصرنا وليس نعلم ما يريد منا ، فاسترنا فانه لم يعرف بي أحد غيرك فقال : هاتي جميع ما معك من الحلي وامضي لشغلك ، فأعطته جميع ما معها مـن الحلي ، ومضت حتى دخلت دار رجل من التجار يعرف بابن أبي مصحف ، فقالت له: يا محمد استرني ، فقال لها : ادخلي ان كان لم يرك أحد ، وعرفته أن الفاسق قـد دخل القصر . وكان قد تبعها أحد الخمسة فعاد الى أصحابه فخبرهم الموضع ، فلما دخل اللعين القصر نصب له كرسي جديد في فستقيته ، فقال الدعاة الذين كانوا في عسكر الفاسق لأبي محمد الداعي : أنت مدل على هذا الرجل ، فاعرف ما يريد بهذا القصر، وعرفه أن صاحب هذا القصر له في رقابنا بيعة وأبو الحسين دعانا لهذا القصر، ودخل اليـه أبو محمد فسلم عليه ، فقال له : يا هذا الرجل : أنا رسول الجماعـة اليك ، انهم يقولون لك : ان صاحب هذا القصر له في رقابنا بيعة ، فلا تحدث فيـه حدثا ولا تؤذهم بشيء ، فقال له الفاسق : لا يا أبا محمد لا نحدث فيه حدثا ، فاخرج وامض الى العسكر ، وأنا خارج خلفكم .

فخرج أبو محمد فعند خروجه أمر الصقالبة بطلب لعب لأنها أقدم من في القصر، وأعلم بمخابئه وأسبابه ، فداروا فلم يجدوها ، ووقعت الصيحة : لعب لعب ، فقال لهم محمد بن عزيزة : أنا أعرف موضعها وأنا أجيء بها ، فأدخلوه الى القرمطي ، فقال له : امض وجيء بها الساعة ، فمشى ابن عزيزة الى دار ابن أبي مصحف ، فدق الباب وقال أخرجي فانا قد أخذنا بك ، وأخرجها صاحب الدار خوفا على نفسه ، فأخذها محمد بن عزيزة مع ولدها ودايته حتى أوصلها الى القرمطي . فسلم عليها

سلام مودة ، ورحب بها وسألها عن مولاها ، فقال : كيف غبت عنا ونحن لا نستغني عنك ، وما بلغك عن مولاك الهارب منا ؟ فقالت له : هو قادم عن قريب ان شاء الله ، ولا يتأخر أكثر من هذا . ثم قال لها لما فرغ من كلامه معها : وأين مال محمد ، وأين مال مولاك الهارب منا ؟ وأقبل يتجنى عليها قليلا قليلا ، فقالت له : ما أعرف أين أموالهم وأنا محدثة في هذا القصر ، ثم قالت له : كم تطيل الخطاب وتتجنى علينا ، انما دخلت لتقتلنا وتلحقنا بالهاشميين ، وتقتل الصبيان والله بيننا وبينك ، ثم قالت : يا عدو الله ، يا لعين ، نسيت فضل مولاي عليك وعلى أبيك من قبلك ، وهجمت علينا ، وروعت أولادنا ، كفرا بما أنعم الله عليك ، وتفاقا على أوليائه ، وأسمعته ما يكره لما علمت أنه يريد قتلهم ــ لعنه الله ــ ثم قالت : يا عدو الله ، وعدو أوليائه ان عزمت على قتلنا ــ قتلك الله ولعنك ، ولا بد من ذلك فلا تدعنا كما تركت الهاشميين مكشوفين ، فليس نحن مثلهم ، واسترنا ولا تكشفنا . فقال لها : ان أنا قتلتك أين تريدين أدعك ؟ قالت : استرنا في هذا الصهريج ، وكان قدامه صهريج ، فأمر الصقالبة أن يدخلوا اليه ابن النداف السياف التدمري ، فدخل اليه وسيفه مجرد في يده ، فقال اضرب عنق هذه وارمها في هذا ، فرميت في ذلك الصهريج ، وقتل ولدها ومن كان معها . وفرق الصقالبة فأتوا اليه بجميع من في ذلك القصر من صغير وكبير من الرجال والنساء ، فقتلهم كلهم ورمى بهم في ذلك الصهريج ، وكانوا ثمان وثمانين نفسا ، فلما أتى عليهم قدموا اليه بغلته فركب ، ووكل بالقصر من يحفظه ويحوط ما فيه .

ومضى الى الاخبية فأقام بها سبعة أيام ، ففي اليوم الثامن جاءه عسكره منهزما هزمه محمد بن سليمان ، وقتل جميع من في عسكره من الرجالة وأكثر الخيل . فقيل له : قد قتل عسكرك ، وجاءنا ما لا قوام لنا به ، فارحل معنا ولا تقم ، فان محمد بن سليمان يأخذك ، فقال لهم : اقعدوا ، فقالوا له : لك في رقابنا ذمة ، وقد عرفناك ، فان كنت ترحل معنا فارحل ، والا فاقعد وحدك . فلما رأى الجد منهم رحل معهم ولم يرده راد عن ساقية تدمر ، ونزلوا ورحل من تدمر الى الأرك[1] .

---

(1) الارك ــ الورك ــ ذكرها ياقوت في معجمه . وما زالت تعرف بهذا الاسم ، حيث تقع في منطقة تدمر ، وتبعد عن حمص مسافة ١٩٥ كم انظر التقسيمات الادارية للجمهورية العربية السورية ط . دمشق ١٩٦٨ . ص : ٨١ .

فبعد هزيمته لستة أيام وافى محمد بن سليمان بعسكره الي مدينة سلمية فقال لهم : أين القرمطي ؟ فقالوا : قد رفع ، فقال قد أمرني المعتضد[1] اذا انهزم القرمطي أنّ أضع السيف في الحضر والبدو ، فقالوا : اتق الله قتلنا القرمطي وتقتلنا أنت أيضا ؟ فقال لهم : ما الدليل على هذا ، قالوا له تدخل الينا من تثق به لنوقفه على قتلانا ، فلما سمع ذلك منهم أشفق عليهم فقال : أغلقوا أبوابكم وحصنوا أنفسكم فان العسكر مقبل عليكم وأخاف أن ينهبكم ، وأنا أدخل اليكم من ينظر قتلاكم ان كان حقا ما قلتم فأدخل اليهم محمد بن الديرجي وكان شيخا ثقة فأوقفوه على القتلى، فنظر الى الاطفال والنساء فقال : قتل الله من فعل هذا . وسأل محمد بن سليمان : أين توجه القرمطي ؟ فقالوا له: الى ناحية تدمر ، فوجه في طلبه ألف فارس، فقالوا : انه دخل الصحراء فافترق عسكره عنه ، ونهبوا جميع ما معه ، وقال له مشايخ العليصيين : أنت مشؤمنا، فهرب على دابته ومعه مال ودخل في سواد العراق، على أنه يدخل موضعا لا يصاب فيه .

فكتب محمد بن سليمان الى المعتضد : ان القرمطي قد انهزم عسكره وقتل رجاله وهرب من كان معه وتفرقوا عنه ، وبقي وحده هاربا ، فمر بأمرك ، فكتب اليه يأمره بالرجوع الى بغداد ، فرجع بعد ذلك ، وكان بعده بأربعة أشهر أخذ اللعين القرمطي أبو مهزول على شاطىء الفرات في موضع يقال له قرقيسيا[2] ، وأخذ معه غلامان ، فرفع الى المعتضد الى بغداد .

واتصل بالمهدي ما فعل بالقصر وقتل جميع من كان فيه ، ثم انه اتصل به أن القرمطي وصل الى المعتضد ، فرحل من الرملة الى مصر فأقام مدة، ولما رجع القرمطي الى بغداد شهر ونودي عليه ونصبت الدكة للمعتضد ، وفرش له الزينة حتى يشرف على قتله ، وهو يضرب بالسوط ، فقد يقولون : من أنت ، وايش أصلك ، ولمن كنت تدعو؟ فقال لهم: ما أنا من أهل الرياسة ، ولا من أهل القرامطة ، انما أمرني بالخروج رجل وهو فلان بن فلان من مدينة سلمية يعني المهدي عم، وهو من صفته كذا وكذا بصفته وحليته ، وكتبت صفته على ما وصف الملعون ، ثم مات لعنه الله بالعذاب وأحرق بالنار .

---

(١) كذا والاصح : المكتفي .

(٢) قرقيسياء هي البصيرة حاليا في سورية،حيث يلتقي الخابور بالفرات، ومشهورا ان اعتقال القرمطي كان قد تم في منطقة الرقة .

وفرق حينئذ المعتضد البريد في جميع الافاق وأمر العمال أن يطلبوا هذه الصفة فلم يجدوه ، وكان قد خرج مع تجار بغداد ومع أبي العباس أخي أبي عبد الله الى طرابلس الغرب، فقطع عليهم الطريق بالطاحونة، وضرب أبو العباس أخو أبي عبد الله بسيف على وجهه ، فوصلوا الى طرابلس على ماحق البريد وهو فيها ، فلما وصل الكتاب داروا على الصفة ، ودخل التجار الذين قدموا من مصر ، ثم دخلوا عليه الدار التي كان بها ، فلما رأوه قالوا : هذه الصفة صفتك وأنت المطلوب لا شك ، ولكنا نخليك عن الغفلة ، فارحل عن بلدنا ولا تقم فيه ، وكان أبو القاسم بن حسان بها ، فرحل معه حتى وصل الى قسطيلية[1] ودخل الى سجلماسة[2] فأقام بها ثلاثة أشهر حتى لحقته الحرم مع يوسف القهرمان وطيب الحاضن ؛ ومع ذلك كتب أبي عبد الله تترى بطلبه حيث ما نزل ، فكتب اليه أن أقدم فقد استقامت لك العساكر ، فتأخر حتى قدم اليه أبو عبد الله سجلماسة ، وخرج المهدي عم وولده أبو القاسم محمد الامام عم وجعفر الحاجب وجميع من كان معه ، وكان من أمره ما هو مدون معروف . والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد وآله الطاهرين .

★ ★ ★

---

(١) في بلاد الجريد من المغرب الاوسط ـ معجم البلدان .

(٢) عاصمة دولة بني مدرار ، شغلت دورا كبيرا في تاريخ المغرب الاقصى خرائبها الآن قائمة في اقليم الراشدية في المملكة المغربية .

كتـــاب التراتيب

وهـــي

سبع تراتيب على التمـــام والكمـــال

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم يا أخي : الحمد لله المتعالي عن العلـة والمعلول والمبدع بأمره جواهـر النفوس والعقول ..

وقد جرى في مثل ذلك دور محمد ﷺ من انتساب الائمة عليهم السلام بالنبوة له لما أراد تشريفه وتعظيمه ، وذلك مثل جعفر الصادق عليه السلام، فانه قام بالامامة، وكان زمانه زمان فترة [مثل] دور الرسول عليه السلام ، وكان في عصره ضد عظيم وشيطان رجيم ، وهو المعروف بأبي جعفر الدوانيقي[1] ، وكان هذا الضد يدس على جعفر الصادق عليه السلام ليقتله ، وأراد أن يطفيء نور الله ، ويأبى الله الا أن يتم نوره ، وكان له عيون عند جعفر الصادق عليه السلام ، يطالعونه بخبره يوما بيوم وساعة بساعة ، فعلم الصادق عليه السلام ما في نفسه ، وما أضمره من كفره ونفاقه ، فأوجب ذلك أن يظهر منه تسليم الامامة الى ولده اسماعيل ، كيما تخمد نيران هذا اللعين ، فأحضر الصادق عند ذلك حججه ودعاته وأهل شيعته ، ومن يلوذ به ، وسلم الى ولده اسماعيل ، بمحضر منهم ، وأمرهم بالدعاء له في جميع الجزائر[2] والاقاليم، وأن يأخذوا العهود ، وأن آمر الدعوة بيده ، وكلها له .

فقام اسماعيل بذلك ، ورتب الدعاة ، ونصب الحجج ، وأمرهم بالدعاء لـه ، ورفع الاعمال والزكوات ، والفطر اليه ، ففعل الدعاة والحجج ذلك ، فانتشر خبره في جميع البلاد ، وعلم بتسليم الامر اليه عيون أبي جعفر الدوانيقي ، [فرفعوا اليه] بأن الصادق عليه السلام سلم الى ولده اسماعيل وأن الصادق قد صار صفرا مـن الامامة ، وأن الدعوة وأمرها كلها الى اسماعيل فلما بلغه الخبر ، قصد بالأذية الى اسماعيل عليه السلام ، ودس عليه من يقتله، كما أراد أن يفعل بالصادق عليه السلام،

(١) المقصود ابو جعفر المنصور ، وصف بهذا لشدة بخله .

(٢) قسم الاسماعيليون العالم الى عدة جزائر ، وكل جزيرة الى عدة اقاليم .

فأوجب ذلك نقلة[1] اسماعيل ، وأشهد الصادق عليه السلام بنقلته ، ولم يدفنه الى ثلاثة أيام ، وهو يأخذ خطوط جميع الحاج بموته ، وأنه بعد ثلاثة أيام دفنه ، ونزل ليلحده ، فقال عند لحده : ما أسفي على اسماعيل ، بل انما أسفي على وديعة أودعته اياهـا .

فعند ذلك أيضا كتبت عيون أبي جعفر الدوانيقي كتابا يخبروه به عن موت اسماعيل ، فعندما بلغه ذلك انسر سرورا عظيما ، واطمأن قلبه ، وسكن روعه ، وظن بجهله أن أمر أولاد الحسين قد انقطع ، وأنه لا بقية لهم ، فمما قليل بلغه ممن يتولاه ويركن اليه أن اسماعيل قد ظهر في البصرة ، وأنه مر بمزمن له أربعون سنة بتلك الزمن ، وهو في محفل من الناس ، وهم يسمونه ويكنونه ، فقال له : خذ بيدي يا بن بنت رسول الله أخذ الله بيدك ، فأقبل عليه ، وأخذه بيده ، وأقامه فبري من ساعته ، وفاق من علته ، فكان ذلك المزمن يقول لكل من سأله : من أبراك من علتك ؟ فيقول: هو أبراني ــ اسماعيل بن جعفر الصادق عليه السلام ــ وان أبا جعفر الدوانيقي لما بلغه ذلك ــ من ظهور اسماعيل ، وفعله ذلك الفعل ــ هاله وكبر عليه ، وبعث وراء الصادق عليه السلام ، فأحضره ، فلما حضر عنده قال له : تكتب لي بأن اسماعيل قد مات ، وأنك أخذت خطوط جميع الحاج بموته ، وبعد ذلك يبلغني أنه قد ظهر ، فكيف هذا الامر ؟ فعند ذلك أحضر الصادق عليه السلام الاوراق ، فيها شهادات جميع الحاج بموت ولده اسماعيل ، وكان في مجلسه من حضر ذلك ، ولـم يزل الصادق عنده الى أن سكن ما به ، ولم يدر عدو الله كيف يجري سر الله في أوليائه ، ولا كيف سياستهم للعالـم !

وبيان ذلك أيها الاخ الفاضل أن الامامة المرضية ، والكلمة الالهية قام بصورتها الامام الحق اسماعيل[2] في حياة الصادق ، وهو الظاهر بالبصرة ، والمبرىء لذلك

---

(١) اي وفـاة اسماعيـل .

(٢) جـاء عرض هـذا النص في سرده لاسماء الائمة بعـد جعفر الصادق مضطربا ، فاقتضى الحال ان يقرأ بشكل تأويلي ، ثم ان قائمة الائمة فيه تختلف عن غيرها مما جاء في غالبية المصادر الاسماعيلية وغير الاسماعيلية . انظر عيون الاخبار للداعي المطلق ادريس ــ السبع الرابع ــ ط بيروت ١٩٧٣ ص ٣٣٢ ــ ٤٠٤ . أصول الاسماعيلية لبرناد لويس الترجمة العربية ص : ٢٠٧ .

المؤمن ، وأن موسى الكاظم نسب هذه الفضيلة لابن[١] أخيه اسماعيل ، وأضافها اليه لكيما يرد كيد الضد العين وبيان عجزه وضعفه وكثرة جهله ، وأن اسماعيل عليه السلام ستر على نفسه حجابا لعظم الفترة ، وتغلب الضد ، وانتسب الامـام الحق [بعد][٢] اسماعيل الى ابن أخيه ، وهو محمد لشدة تعاظم الفترة وظهور الاضداد، وأن محمدا لما حضرته النقلة سلم الامر لولده الرضي عليه السلام ، وهو أول الائمة المستورين ؛ فقام أحمد[٣] عليه السلام بالامامة ، وكان حجابه الذي احتجب بـه ، وستره الذي ستره ، والذي نصبه ، وأقامه مقامه ميمون القداح ، وأمره الامام عليه السلام أن يأخذ العهود لنفسه ، أعني لميمون القداح ، ففعل ما أمره به الامام ، ولم يزل قائما بالامر الى أوان نقلة أحمد عليه السلام ، فلما حضرته النقلة أحضر ولده محمدا عليه السلام وسلم الامامة له بمحضر من خواص الدعاة البالغين في الدين ، وعندهم علم من الكتاب ، فقام محمد عليه السلام [بالامر] ، وأمر الامام ابن ميمون القداح أن يقوم مقامه ، ويأخذ العهد لنفسه كفعل أبيه ميمون القداح ، ولم يـزل قائما بالامر عن اذن الامام عليه السلام الى أن حضرت محمد النقلة ، فعند ذلـك أحضر ولده أحمد عليه السلام، وأكابر الدعاة، وخواص الحجج ، وسلم اليه بمحضر منهم كفعل من تقدم من آبائه عليهم السلام .

فأمر الامام أحمد أخاه أن يقوم مقام ولده ، ويأخذ العهـد لنفسـه ، وحجابا لولده ، محمد المهدي عليه السلام ، وأنه اذا حضرته النقلة يسلم الامر اليه بمحضر من الدعاة والحجج ويعلمهم أنه كان خليفة الامام مستودعا لا مستقرا ، فقام محمد المهدي عليه السـلام بالامامة ، وقام عمه بالخلافة ، وانتسب محمد المهدي عليه السلام بالبنوة لعمه كما جرى ذلك فيما تقدم ، كيما تثبت فضيلته ويتم أمره ، وأن هـذا الخليفة كان له عشرة أولاد ذكور ، فطمع في الامر، وأراد أن يكون في عقبه ،ويخرج ابن أخيه منه ، فلما قام ذلك في وهمه أحضر بعض أولاده ممن ارتضاه لذلك الامر ،

---

(١) اي محمد بن اسماعيـل .
(٢) أضيف ما بين الحاصرتين ليمكن استقامة تأويل السـياق .
(٣) اسم الامام الرضي عند الداعي ادريس ص٣٥٧«عبد الله بن محمد بن اسماعيل» .

وأضاف مقاليد الدعوة ليده ، فما كان الا قليلا حتى مات ذلك الولد الذي سلم اليه الامـر ، ولـم يزل يسلم الى ولد بعد ولد وهو يموت حتى مات جميـع أولاده ، وانبتر الامر من يده ، فلما أيس ، رجع بالامر الى مستحقه ، وهو محمد المهدي ابن أخيه أحمد عليهما السلام ، وهو القائل هذين البيتين شعرا في حقه :

الله أعطـاك التي لا فوقهـا لـمـا أرادوا منعهـا وعوقهـا
عنك ويأبى الله الا سوقهـا اليك حتى طوقك في طوقهـا

فكان هذا من كلام المهدي له هذين البيتين ، وبحمد الله يا عم ليس بحمدك[١] فقام المهدي بالامامة ، واشتهر بها ، وكان أمر الظهور قد اقترب بأوان طلوع الشمس من مغربها ، فحضرته النقلة دون الظهور الكلي ، فعندها أحضر المهدي ولده القائم ، وسلم اليه بمحضر من خواص الدعاة ، وأكابر الحجج ، وأمر أخاه عبد الله أيضا بأن يقوم مقامه ــ أي، الامام محمد المهدي أبو القائم ــ وينوب منابه ، ويتسمى باسمه، وينعت نفسه بنعته ، وينسب القائم عليه السلام أنه ولده كيما تعلو كلمته وتثبت دعوته ، لانه صاحب الكشف ، على يده يكون الظهور والفرج ، وبروز كل أمـر من الدين مستور .

وقام القائم عليه السلام بصورة الجود الكلي ، والفيض الالهي ، وقام عمـه عبد الله بالخلافة والنيابة ، وتلقب بالمهدي كما أمره الامام على ذكره السلام ، ودعا لنفسه ، وبسط الدعاة والحجج في الجزائر والاقاليم من قبله والدعاء له والطاعـة لأمره ، وأنه الامام المقصود الذي دلت الحدود على طاعته، وعلى يده يكون الظهور، وبروز كلام من الدين المستور ، فلم يزل كذلك حتى ظهرت الدعوة باليمن على يد بعض دعاته ، وهو الملقب بمنصور اليمن، فظهرت الدعوة بالغرب على يد أبي عبد الله

(١) من المرجح أن هذه القصة برواياتها المتباينة هي ترداد لصدى الانشقاق الكبير الذي أصاب بيت الامامة الاسماعيلي في فترة استقراره في السلمية ، ومع بداية نشاط القرامطة في الشام، وربما يجد الباحث فيها تعليلا أو مخرجا لادعاء زعماء القرامطة في الشام النسب الاسماعيلي ، هذا وهناك خلاف في المصادر حول رواية البيتين وقائلهما. انظر عيون الاخبار ــ السبع الرابع ــ ص ٤٠٢ ــ ٤٠٣. ثم انظر نص استتار الامام السابق من نصوص كتابنا هذا .

الشيعي، واستقام أمره ، وتم المراد ، وظهر بالامامة والملك ، وخطب لـه على المنابر في جميع الامصار ، وسائر الاقطار ، وشد عند ذلك ما كان ضعف من شريعة جـده محمد ﷺ ، وبتر ما كان من غيرها ، وأقام أركانها ، وشد بنيانها ، وكشف علم التأويل ، وأبان حقائق التنزيل ، وجاهد في الله حق جهاده ، ولم يزل كذلك الى أوان نقلته وحضور أجله، فعند ذلك أحضر حججه وحدود دعوته، وسلم الامر الى صاحبه وهو القائم محمد بن المهدي ، والامام الحقيقي بمحضر منهم ، فأشهدهم على نفسه أنه أدى ما وجب عليه من الخدمة والخلافة ، وسلم الامر لصاحب الامر[1] .

وكان المهدي أبو القائم [هو أخو] المنتقل الى سجلماسة ، وكـان المهدي صاحب الكشف هو المولود بسلمية ، المنتقل بالمهدية كما جاء بالتواريخ[2] ، ومن هذه الجهة أنكر أبو العباس أخو أبي عبـد الله الشيعي امامة المهدي الظاهر مـن سجلماسة ، لأنه عارف بالمهدي أبي القائم ، فلما رأى الامر وسوس لأخيه أبـي عبد الله الشيعي ، وقال : ان هذا الذي يدعي بأنه الامام ، وسلمت مقاليد الملك الذي بيدك اليه ، وقلت أنه المهدي المنتظر ، ما هو كما قلت ولا الامر كما توهمت، ولا هو صاحب الامر ، ولقد كنت أنت أحق بالخلافة منه ، وأولى بالنيابة .

وكان من أمر أبي عبد الله الشيعي ، وأخيه أبي العباس ما هو مسطور[3] ...

★ ★ ★

---

(١) جهدت المصادر الاسماعيلية الفاطمية في العمل على طمس هذه الواقعة ، والقول بأن القائم هو ابن المهدي: لكن على الرغم من ذلك يمكن استخلاص الحقيقة بشكل غير مباشر ، فقد أشار القاضي النعمان في كتابه المجالس والمسايرات ـ ط . تونس، ص ٥٤٢ ـ ٥٤٣ ، وعنه نقل الداعي المطلق ادريس في عيون الاخبار ـ السبع الرابع ـ ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣ ، السبع الخامس ص ١٦٦ ـ ١٦٧ . بان المهدي ولد له بالمهدية غلام ذكر دعاه بأبي الحسن ، ففكر بجعله وليا لعهده ، لكن هذا الغلام جدر فذهب بصره ، وهكذا بقيت ولاية العهد للقائم ، وكانت ام الوليد المجدور تقول دائما: «والله لقد خرج هذا الامر من هذا القصر ـ تعني قصر المهدي بالله ﷺ ـ فلا يعود اليه ابدا ، وصار الى ذلك القصر ـ تعني قصر القائم بامر الله ـ فلا يزال في ذرية صاحبه ما بقيت الدنيا» وكانت فيما بعد اذا رات احدى نساء قصر القائم تقول لها : « قد ولدت اماما » .

(٢) في الاصل : اجابت التواريخ وهو تصحيف لعل صوابه ما اثبتنا .

(٣) قتلهما المهدي بتهمة التآمر عليه .

كتــاب

تثبيت دلائل نبــوة سيدنــا محمــد

صلى الله عليــه وسلــم

[في احوال الباطنية في زمن صاحب الكتاب](*) :

... ألا ترى أن من بالاحساء من القرامطة والباطنية ، لما غلبوا شتموا الانبياء، وعطلوا الشرائع وقتلوا الحجاج والمسلمين حتى أفنوهم ، واستنجوا بالمصاحف والتوراة والانجيل ، وجاءوا بذكيرة الاصفهاني المجوسي[1] ، وقالوا : هذا هو الاله في الحقيقة ؛ وعبدوه ، وكان لهم معه ما هو مذكور معروف .

ومثل هذا صنع أبو القاسم الحسن بن حوشب بن زاذان الكوفي النجار حين ظهر بجبال لاعة من أرض اليمن ، وكذا صنع من كان معهم بالجَنَد وعدن من أرض اليمن ، وسبوا العلويات ، وكل هؤلاء كانوا في أول أمرهم يخدعون الناس بأنهم شيعة ، وأن المهدي أرسلهم[2]

وكذا صنع من كان منهم برقادة[3] والقيروان من أرض المغرب ، الى أن قام أبو يزيد مخلد بن كيداد[4] بمن معه ، وحاربهم خمس سنين وضيق عليهم كما صنع الاصفر[5] بأهل الاحساء فلما انكشف أمر أبي يزيد عمن بالمغرب ، كفوا عن المكاشفة للعامة بشتم الانبياء وتعطيل الشرائع ، وصاروا يخدعون الناس سرا ، وينقلونهم عن الاسلام بالحيل والايمان من حيث لا يشعرون شيئا شيئا ، وانبثوا

---

* أضيف هذا العنوان للايضاح .

(١) لقد سلف وذكر خروج ذكرويه في نص ثابت بن سنان وسيرد ذكره ايضا فيما يلي في النصوص المقبلة .

(٢) انظر ما تقدم ثم ما يلي من نصوص، خاصة ما اورده الحمادي والخزرجي .

(٣) تبعد خرائب رقادة ــ عاصمة الاغالبة ــ عن القيروان قرابة عشرة اميال .

(٤) هو من الخوارج الاباضية النكارة ــ الذين انكروا امامة عبد الوهاب بن رستم صاحب تاهرت ــ وثورته مشهورة اشتدت ايام القائم واخمدت ايام المنصور ، ومع انها كانت خارجية كانت ذات ارتباطات سياسية مهمة بقرطبة .

(٥) من زعماء قبيلة المنتفق حاصر الاحساء سنة ٣٧٨ هـ . انظر المنتظم : ١٧٠/٧ . الكامل لابن الاثير ــ ط. القاهرة ١٣٥٣ هـ : ١٣٦/٧ . وانظر ايضا ما ذكره المقريزي في آخر نصه المقبل عن القرامطة .

وانبسطوا ، وبثوا ذلك في ممالكهم ، ويقصدون بدعوتهم الديلم والاعراب ، وكل من يقل بحثه ونظره ، وله رغبة بالدنيا ، وشغل بها ، ثم يقطعونهم عن البحث والنظر بالعهود والأيمان المغلظة، ومن دخل بلدانهم وشاهد عساكرهم، وتأمل سيرتهم يعرف ذلك من قصدهم، بل من سأل واستبحث يعلم ذلك، وان لم يصر اليهم ، وقد صاروا حرما للملاحدة والزنادقة والدهرية ، وجميع أعداء الاسلام ، فمن هاجر اليهم أمن في إلحاده ، وقال ما شاء كيف شاء ، فيالها مصيبة بذهاب الاسلام ، وموت أهله ، وقلة العارفين به وبحقوقه ، فان من بقي ممن يظن أنه من أهله ، فمنهم من يشبه الله بخلقه، ومنهم [٥١ ــ و] من يجوره في حكمه(١) ، والى غير ذلك ..

★ ★ ★

(١) مرد هذا الى كون القاضي عبد الجبار كان من أهل الاعتزال .

في ابتداء ظهور الباطنية وهم القرامطة (١) :

وتأمل أحوال هؤلاء الباطنية الذين قد تستروا بالاسلام ، وبقراءة القرآن وبالصلاة والصيام والحج ، واظهار الالتحاق بأهل البيت ، وقد أوثقوا أمورهم بالكتمان، وبأخذ الأيمان والعهود على من أجابهم، وتجنبوا استدعاء الادباء والعلماء والفقهاء ، وسلكوا الواسطة ، وقصدوا الاطراف البعيدة التي قد استولى على أهلها الغفلة والجهل والقوة ، وقصدوا أهل الترفه والعجب والشغل بالدنيا والملك ، وتسموا بالاسم الحسن ، من أنهم الشيعة ، وغروا المسلمين ، فانظر الى فضائحهم مع هذه الامور كلها[٢] .

فان أبا القاسم بن الفرج بن حوشب بن زاذان الكوفي النجار ، عرف أهل عدن لاعة وجبال من أرض اليمن ، وأنهم شيعة ، فصار اليهم مع أبي الحسين محمد بن علي بن الفضل من أهل جيشان والجَنَد والمذيخرة من أرض اليمن[٣] . وكان هذا أحد المياسر والرؤساء من الشيعة من أهل تلك البلاد فمكن لابن حوشب ، وتساعدا على الدعوة ، وكل واحد منهما بمكانه ، وتسمى ابن حوشب بالمنصور من آل أحمد[٤] ، وتسمى الاخر بالولي . ومكثا مدة يتستران باقامة الشريعة ، ثم ظهر

---

(١) نقل هذا العنوان من حاشية الاصل .

(٢) على الرغم من ان القاضي عبد الجبار اعتبر هذا منقصة ، لا شك أنه يدل على عبقرية دعوية ، حيث سايرت الحركات الاسماعيلية العقائد الشعبية الرائجة ، ولبت رغبات الطبقات العليا .

(٣) كذا والصحيح علي بن الفضل ، انظر خبره وترجمته فيما يلي في نص الخزرجي صاحب العسجد المسبوك .

(٤) كذا في الاصل،ولعل الاصح «منصور آل محمد» هذا وتصر المصادر الاسماعيلية على انه دعي بهذا اللقب على الرغم من كراهيته لذلك،ومعروف ان لقب المنصور له معان مهدوية ، وهو مرتبط باليمن ، اي ان حامله اما يماني الاصل او له صلة ما باليمن ، ولمزيد من المعلومات يراجع ما كتبه الامام نعيم بن حماد ــ ت ٢٢٨ هـ ــ في كتابه الملاحم والفتن،وهو كتاب حققته وسادفعه الى المطبعة قريبا ان شاء الله .

منهما الاباحة،وليلة الافاضة،وأولاد الصفوة،ونكاح الامهات والاخوات والبنات[١] والمشاركة في الزوجات ، وتعطيل الشرائع ، وشتم الانبياء عند التمكن والقدرة ، ثم ظهر بين ابن حوشب وبين ابن الفضل من المشاتمة وبرىء كل واحد من صاحبه ، ودعا كل واحد منهما الى نفسه ، بأنه إله ورب ، وغزا ، وقصد العلويين بالمكاره والقتل وسبي الذريـة .

وقد كان نصب هذين ، الحسين بن أحمـد بن عبد الله بن ميمون القداح[٢] الذي زعم أنه الامام ، وهو خليفة محمد بن اسماعيل بن جعفر ، وقال لهذين وغيرهما ممن خرج معهما الى اليمن : اذا ملكتم وغلبتم خرجت اليكم ، وجعلنا الملك باليمن ، والمهدي يظهر باليمن ، وهكذا روينا عن أهل البيت ، فلما تمكنوا باليمن ، أخرج اليهم ابن ميمون القـداح الحسين الاهوازي الداعيـة من قبله ، فطلب منهم مالا يحملونه اليه ، فأعطوه مرة بعد مرة ، ثم رجع اليهم ، وعرفهم أن الحجة خليفة محمد ابن اسماعيل يخرج اليهم لينصروه ، فشتموه وردوه ، فقالوا : قد عرفنا أن هذا كله مخرقة ، وهو عرفنا بهذا فلم نسلم الملك اليه ، فقال لهم : على كل حال هو عرفكم هذا ، وخلصكم من الشرائع والاسلام ، فاشكروا له وأطيعوه ، فشتموه وشتموا من وجهه به . فرجع الرسول الى الحسين بن أحمد وعرفه أن القوم قد أظهروا الباطن، وعملوا به وفطنوا له ، وتشاتموا وتفاضحوا بينهم ، ثم صمد يحيى بن الحسـين العلوي[٣] رضي الله عنه لجهادهم ، وقد كان ابن حوشب هلك وبقي الفضل ، فهلك

---

(١) هـذه تهمـة الصقت بجميع الحركات ذات المضامـين الاجتماعية والاهـداف الاقتصادية في الاسلام ، وقد ورثها الكتاب المسلمون من التراث الساساني حول المزدكية ، وتم الترويج لها بسبب ربط الاخـلاق في الشرق بالجنس ، وتثبت الابحاث الحيادية الموثقة بطلان هذه التهمة .

(٢) من اجل دور آل القداح في الحركة الاسماعيلية ينصح القارىء الكريم بالعودة الى كتاب أصول الاسماعيلية لبرنارد لويس ص١٣٣ـ١٦٤ من الترجمة العربية، منشورات مكتبة المثنى بغداد .

(٣) هو الهادي الى الحق ، وقد سبق لي نشر سيرته ، وهي تحوي في ثناياها اخبار صراعه مع القرامطة وقد اوردنا ذلك من قبل بين نصوص كتابنا هذا .

هو وابنه أمام يحيى بن الحسين العلوي كما هو مذكور ، وفضائحهم مشهورة عند أهـل العلـم .

ومن عند ابن حوشب انبثت دعوتهم باليمن والمغرب[١] .

ثم تأمل فضيحتهم بالبحرين ، فان داعية لهم خرج الى من بها من الشيعة وقال: أنا رسول المهدي اليكم ، وقد قرب خروجه ، فأعدوا واستعدوا ، واحملوا اليـه زكواتكم وأعشاركم ، وفضول أموالكم ، فاجتمعوا وكانوا نحو ثمانمائة ، وأعطوه ما طلب ، وغاب عنهم ورجع اليهم وأخبرهم عن المهدي : أن للاشياء كلها بواطن ، وأن خاصة المهدي لا يحرم عليهم شيء ، وأن المهدي قد أحل لكم كل شيء ، وأنـه يحل للمؤمن أن يشارك أخاه في ماله وأهله ، وأن علامة ايمانه أن تطيب نفسه بذلك كله . وكان فيمن أجابهم : أبو سعيد الحسين بن بهرام الجنابي ، وكان يبيع الطعام والدقيق بالزارة[٢] من أرض البحرين ، وكان شريرا فاسقا جاهلا لا يعرف من كتاب الله شيئا ، ولا من سنة نبيه ، ولا شيئا من الادب ، ولا شغل له الا بالمعاش .

وكان له صديق منهم يعرف بابراهيم الصائغ داعية لهم ، قد وجهوه غير مـرة الى ناحية فارس والاهواز ، وكان يظنهم شيعة ، فجاء يوما الى أبي زكريا يحيى بن نبهان ، فقال له : اعلم أن هؤلاء القوم على ضلال ، كنت مع أبي سعيد الجنابي وقد جاءه رجل من أهل جنابة[٣] يقال له يحيى بن علي ، فأكلنا عنده فلما فرغنا قام فأخرج امرأته ثم أدخلها مع يحيى هذا في بيت وقال لها : ان أرادك هذا الولي فلا تمنعيه نفسك ، فانه أحق بك مني . فمضى يحيى بن نبهان بابراهيم الصائغ هذا الى الامير علي بن مسـمار فأخبره بما وقف عليه ، فرصده علي بن مسمار لذلك وتعرفه ، فأخذ الرجل فضربه بالسوط وحلق رأسه ولحيته ، ثم خلى سبيله ، وطلب أبا سعيد فهرب الى جنابة ، وبحث عنهم وعن أحوالهم فاذا هم يتسترون بالتشيع ويعطلون الشريعة ، وبقي أولاد أبي سعيد وأصهاره في البحرين ، فبحث الناس عن أحوالهم وأحوال بني سنبر[٤] وأمثالهم فاذا هم على هذه الحال .

---

(١) يقصد بهذا توجيه مركز الدعوة في اليمن لابي عبد الله الداعي الى المغرب .

(٢) عين الزارة ، قرية كبيرة من قرى البحرين . انظرها في معجم البلدان .

(٣) بلدة صغيرة كانت قائمة على الجانب الايراني من الخليج . انظرها عند ياقوت .

(٤) وزراء دولة قرامطة الاحساء ، وسيرد ذكرهم فيما يلي كثيرا .

ثم تمكنوا وعاد أبو سعيد بعد أن صار الى النيل[1] وسواد الكوفة ، ومعه الدعوة ورجالها ، مثل حمدان بن الاشعث ، وهو المعروف بقرمط ، واليه ينسب القرامطة، وخال ابن أبي المليح القرني وخال عبدان.وقد كان بالبحرين يحيى الطمامي داعية لهم : فلما تمكن أفسد وغدر وأظهر الاباحة ، وكان شريك أبي سعيد الجنابي في الدعوة ، فوثب عليه أبو سعيد وغدر به وقتله واستولى على الامر وغرر بالناس لما ملكهم ، وأظهر من الاباحة وتعطيل الشرائع ما هو مذكور ، وقال انه رسول الامين الامام حجة الله على خلقه ، وهو محمد بن عبد الله بن الحنفية[2] ، وهو مقيم في بعض هذه الجبال ، وهو المهدي في سنة ثلاثمائة للهجرة يخرج ويملك الأرض كلها. وكان هذا القول والوعد من أبي سعيد في سني ليف وثمانين ومائتين للهجرة ، وكان يقسم قصور بغداد على أصحابه ، ويحلف لهم أنه يدخل بهم اليها ، ويملكها ، فلما كان في سنة ثلاثمائة ، قتل أبا سعيد خادم كان لأبي الفضل العباس بن عمرو الغنوي في الحمام[3] ، وكذبت أخباره ، وظهرت فضائحه ، فخجلوا لذلك خجلة يا لهـا من خجلة ، وتحيروا .

وقد كان علي بن عيسى بن داود بن الجراح[4] وزير المقتدر بالله كاتب أبا سعيد يقول له : « زعمت أنك رسول المهدي ، وقـد قتلت العلويين وسبيت آل الأخيضر العلويين ، ومن باليمامة ، واسترققت العلويات ، وغدرت بأهل البحرين » ، وقد كان حاصر أهل هجر[5] أربع سنين ومنعهم الاقوات ، وحبس عنهم الماء ، ثم وصل اليهم

(۱) بلدة في سواد الكوفة قرب حلة بني مزيد ، انظرها في معجم البلدان .

(۲) كذا ، وهو خطأ اساسه احدى روايات الطبري ، ومن المؤكد ان الاسماعيلية غير الكيسانية .

(۳) العباس بن عمرو الغنوي واحد من قادة الجيش العباسي ، ولاه المعتضد اليمامة والبحرين وامره بقتال القرامطة ، توفي سنة ۳۰٥ هـ ، يرد ذكره في كتابنا هذا اكثر من مرة ــ الاعلام للزركلي .

(٤) علي بن عيسى بن داود بن الجراح ابو الحسن البغدادي وزير المقتدر العباسي والقاهر ، توفي ببغداد سنة ۳۳٤ ، له كتب ورسائل متعددة ، كما تمتع بشهرة كبيرة ووصف بالزهد والاستقامة ــ انظره ومصادر حياته في اعلام الزركلي .

(٥) الهجر بلغة حمير : القرية ، وفي بلاد العرب اكثر من هجر ، وهجر البحرين قاعدتها ــ معجم البلدان .

وما بهم رمق فأتى عليهم ، وقتلهم عن آخرهم ، وقد كان صنع بأهل القطيف شبيها بذلك ، وغدر بهم أقبح غدر .

فأجاب ولد أبي سعيد علي بن عيسى عن كتابه بأن أهل البحرين بغوا علينا ، وغدروا بنا ، ورمونا ، وقالوا : انا نشترك في أزواجنا ، ونرى الاباحة وتعطيل الشريعة ، وقد كذبوا علينا ، ونحن قوم مسلمون، وما نحل من اتهمنا بغير الاسلام.

فكتب اليهم علي بن عيسى : « ان كنتم صادقين فأطلقوا من في أيديكم من أسارى المسلمين » فأطلقوا منهم نحو ثلاثين ألفا ، وأظهروا الاسلام والصلاة وقراءة القرآن ، وخجلوا من الفضيحة[1] .

ومما كانوا يقولونه ويقوله أبو سعيد عن خروج المهدي في سنة ثلاثمائة لحقهم الخجل والفضيحة . وكان بنو بسطام ، وبنو القاسم بن عبد الله ، وآل الفرات وأمثالهم يستولون على دولة المقتدر بالله[2] ، وكانوا يتشيعون فراسلوا أولاد أبي سعيد وقالوا لهم: أنتم خرجتم أيام المعتضد والمكتفي فلما صار الامر الى هذا الصبي المقتدر بالله قعدتم ، قوموا فنحن كتابه وأصحابه ، والدولة لكم ، ولا يوحشنكم قتل أبي سعيد وما كان منه ، فان الناس قد تناسوا ذلك . فقالوا : هذا الرجل علي ابن عيسى رجل صالح ، وما دام هو الناظر فما نختار مخالفته ، فلما قبض السلطان على علي بن عيسى أطلق من ببغداد والكوفة من الشيعة الطيور الى البحرين بذلك ، فغزوا البصرة على غفلة وغدروا بهم أقبح غدرة ، ثم غزوا الكوفة ، وسر بهم الشيعة وقالوا : أبو طاهر بن أبي سعيد ، ولي الله وحجة الله ، والمهدي بالبحرين ، يخرج عن قرب ، وأبو طاهر خليفته ، وهو الذي يأخذ الارض له ، ويكون ملكه بالبحرين . فبادر من أهل الكوفة وسوادها خلق كثير ، وقالوا : نهاجر الى بلد المهدي قبل ظهوره ، فنقلوا أموالهم وعيالهم ومن منهم ببغداد والكوفة وسوادها يراعون أمر المقتدر ، وينقلون أخباره الى أبي طاهر بن أبي سعيد .

---

(1) في هذا اشارة الى التقارب بين قرامطة البحرين وبغداد ، اثر قيام الخلافة الفاطمية وما سبق ذلك ولحقه من انشقاقات داخل الحركات الاسماعيلية .

(2) هو جعفر بن المعتضد بن ابي احمد المتوكل ، وهو اخو المكتفي ، وقد قتل سنة ٣٢٠ هـ . اما المكتفي فقد توفي سنة ٢٩٥ ، بينما توفي أبوهما سنة ٢٨٨ هـ ، ومن اجل عصره انظر الكامل لابن الاثير ط . القاهرة ١٣٥٣ : ٦/١١٨ — ٢٢٠ .

وقد كان حصل لأبي طاهر من أموال الحجاج والخراسانية والكوفة والبصرة بيوت كثيرة ، وأطمعه الشيعة ببغداد في السلطان ، وعرّفوه ضعفه ، وأن النجوم تدل على أن أبا طاهر يغلب السلطان ، وأنه يدخل بغداد ويستولي على الملك ، فتجمل أبو طاهر ، وحمل أهله وعياله ، وسار يريد بغداد ، وقال : أنا أدخلها وأدخل دار الخلافة على هذا الحمار ، وأشار الى حمار أسود كان في كراعه • وسار ونزل ظهرا بالكوفة ، ولقيه ابن أبي الساج فهزمه ، ونادى مناديه انه سيكون لنا وقعة مع مؤنس الخصي برصافة الكوفة ونهزمه ويستغني أهل الكوفة من ذلك النهب ، وأسير فأدخل بغداد في يوم الثلاثاء ، وفي يوم طش[١] ، واستكتب علي بن عيسى ، واستعمل على الشرطة أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان • وجلس بظهر الكوفة يقسم قصور بغداد ونزل بطباطبا[٢] ، وهي من بغداد على فراسخ يسيرة •

وطال انتظار أبي طاهر له ، وكان من ببغداد من الشيعة قد راسلوا أبا طاهر أنه ما بقي عند السلطان الا مؤنس الخصي ، وهو الذي يلقاك وهو أضعف من ابن أبي الساج بألف طبقة ، وأنت تهزمه وتدخل بغداد ، فصبر مؤنس ولم يبرح من طباطبا ، وأبو طاهر يراسله : ما انتظارك ؟ وان كنت رجلا فابرز ، ومؤنس لا يبرح • فسار أبو طاهر وعبر الفرات ، وجاء فنزل بالقرب من مؤنس ، فانقلبت بغداد ، وعبر الكثير من أهل الجانب الغربي الى الجانب الشرقي ، الا من كان من الشيعة ، وانحدر كثير منهم وأحدروا عيالهم الى البصرة ، وخرج الى أبي طاهر من أهل بغداد [جماعات] من الشيعة وغيرهم من الكتاب سرا ، وبشروه بضعف السلطان ، وأنهم قد قلبوا له بغداد بالاراجيف ، وقالوا له : بغداد بلد عظيم ، وان لم ترهب أهله بالقتل لم تملكه، فقال : نبيح المؤمنين القتل فيه ثلاثة أيام ، قالوا : لا تصنع هذا ، ولكن سبعة أيام ، وتنظم جانبي دجلة بالطالبيين من بني هاشم ، والقراء ، والفقهاء ــ الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ــ فقال : كذا نفعل •

وأظهر من بالكوفة لعن بني العباس والسلف ، وخرج أبو الغيث بن عبيدة العجلي في ثلاثين ألفا ، وأقام أبو القاسم عيسى بن موسى ختن عيدان في البقية من

---

(١) يوم طش : يوم ممطر مطرا خفيفا ــ اللسان .

(٢) انظر الكامل لابن الاثير : ١٨٦/٦ ــ ١٨٨ .

أصحابه ، وأظهروا الخلاف ، وقالوا : ظهر الحق وقام المهدي ، وانقضت دولة بني العباس والفقهاء والقراء وأصحاب الحديث ، وقال قائلهم: ما بقي شيء ينتظر وماجئنا لاقامة دولة ، ولكن لازالة شريعة ، فقيل لهم : ان الخصي[1] قد قطع قنطرة نهر طياطبا ، فقالوا : قد عبر أبو طاهر الفرات أفلا يعبر نهر طياطبا ، وانما هو كالساقية بالاضافة الى الفرات .

فسار أبو اسحاق ابراهيم بن ورقاء الشيباني الامير ، وكان رجلا صالحا لايعين السلطان الا فيما يحل ويحسن ، فسار الى الفرات في السماريات[2] ومنع القرامطة من العبور ومن ورود الماء ، فضاق صدر أبي طاهر من تأخرهم عنه ، فرحل عن مؤنس ورجع الى الفرات ، وصاعد نحو الرقة يقتل وينهب من ظفر به ، وقد ظن بعض الناس أنه كان يتوقع من بالمغرب[3] من القرامطة أن يوافيه لوعد بينهم ، فما جاءه أحد ، فرجع الى الاحساء،وكذبت أخباره تلك كلها،وكانت لهم من الفضائح مالايكاد يحصى.

وكان أصحابه ومن بالكوفة وسوادها له على أحسن طاعة ، لا يشكون أنه ولي الله وحجة الله ، فلما رجع بتلك الخيبة ، وقد كذبت أخباره واقاويله ، أخذ خواصه يلقون الى من معه من البوادي اذا قالوا لهم : قتلنا عيالنا ، واقتسمنا قصور بغداد ، ثم رجعنا خائبين ، وقد قتل ابن أبي الساج صناديدنا وعيون من بقي منا ، فيقولون مرة : لهذا القول وهذه المواعيد باطن . ومرة يقولون: ان في كتب الحدثان والملاحم أنا نرجع ، ومرة يقولون : سرنا بأمر ، وأمثال هذا من الحيل والمخاريق .

ثم سار من البحرين الى مكة ، فوصل اليها في عشر ذي الحجة ، وبها الحجاج من أهل الدنيا كلها ، والاسلام أكثر ما كان ، فمنعه من بمكة من الحجاج وغيرهم من دخولها ، ونقلوا صناديق البيت الى ناحية دار ابن داوود وحاربوه أياما ، فلما لم يطقهم ، أظهر أنه جاء حاجا ومتقربا الى الله ، وأنه لا يحل لهم أن يمنعوه من بيت الله ، وانه أخوهم في الاسلام ، وأظهروا أنهم محرمون ، ونادوا بالتلبية ، واستدعى من قريش من أهل مكة من راسلهم بها ، هو أبو الامام بها والقاضي في يومنا هذا ،

---

(١) اي مؤنس .

(٢) نوع من انواع السفن .

(٣) اي من في الشام فكل بلد وقع غربي الفرات مغرب .

فقالوا : كيف تكون حاجا وأنت في عشية ورودك الحرم قد قتلت المسلمين ؟ فقال : هذا كان بغير أمري ولا رضاي ، وقد يكون مثل هذا من الاتباع ، ومن معرة العساكر ، ووجه اليه بخاتمه وسوطه ليؤمنهم ، وحلف لهذا القرشي بالايمان الغليظة أنه قد آمنهم على دمائهم وأموالهم وحرمهم ، وأنه لا يؤذي أحدا منهم وأنه ما جاء الا ليحج ، الا أصحاب الجند والسلطان فانه لا يؤمنهم وقال : أنا لا أغدر ولا أغر من نفسي ، ولو أردت ذلك لأمنت أصحاب السلطان ثم غدرت بهم ، لكن لا أؤمنهم، لأنهم يشربون الخمر ، ويلبسون الحرير ، ويعينون السلطان الذي يحجب عنه الرعية، ويظلم اليتيم والارملة ، ويشرب الخمر • ويسمع القيان • فازداد الناس به اغترارا، وقبلوا أمانه ، وأفرجوا له حتى دخل ، ووضعوا السلاح •

فلما دخل وتمكن وسكن الناس ، وثب بهم أغر ما كانوا، وقال لأصحابه ضعوا السيف واقتلوا من لقيتم ، ولا تشتغلوا الا بالقتل ، فلم يزل كذلك ثلاثة أيام ، ولاذ المسلمون بالبيت وتعلقوا بأستار الكعبة ، فما نفعهم ذلك وقتلوهم في المسجد الحرام وفي البيت ، وما زالوا يقتلونهم ويقولون لهم : « ومن دخله كان آمنا »[1] أفآمنون أنتم يا حمير ، أما ترون كذب صاحبكم ، وأمروا من يصعد لقلع الميزاب ، فصعد وهو يقول مستهزئا : هو في السماء وبيته في الارض ، وسلب البيت وقلع الحجر الاسود ، وأبو حفص عمر بن زرقان صهر أبي سعيد واقف حذاء البيت والسيف يأخذ الناس ، وهو على فرسه يضحك ويتلو : « لايلاف قريش » حتى [وصل][2] الى قوله : « وآمنهم من خوف » قال : ما آمنهم من خوفنا ، ظهر الباطن يا أهل مكة، حجوا الى البحرين ، وهاجروا الى الاحساء من قبل أن نطمس وجوها ، فنردها على أدبارهـا •

ثم أمر أصحابه بالنهب ، فجمع شيئا عظيما من العين[3] والورق والجوهر والطيب ، ومن متاع مصر واليمن والعراق وخراسان وفارس وبلدان الاسلام كلها ، وحمل مقدار مائة ألف جمل وأحرق الباقي • وسبى من العلويات والهاشميات وسائر الناس نحو عشرين ألف رأس ، وسار الى الاحساء، فكانت حادثة في الاسلام لم يكن

(1) آل عمران : ٩٧ .

(2) زيد ما بين الحاصرتين كيما يستقيم السياق .

(3) العين : الذهب ، والورق : الفضة .

مثلها قط، وأحصوا القتلى عند الدفن فكانوا عشرين ألف وثمانمائة، ولعلك تستكثر مائة ألف جمل لما ترى في زمانك من سوء حال الاسلام والمسلمين. واذا تأملت الحال في ذلك الزمان استقللتها ، فان الاسلام اذ ذاك قد كان من السعة ما كان ، مستوليا على الدنيا الا القليل ، وكان يسار أهله على حال عظيمة ، واذا تصورته استقللت ذلك ، واذا تأملت خراسان وحدها ، والمسلمون يصلون من نواحي الصين ، ثم من نواحي الهند ، وكابل ثم عمان ، وشحر عمان[1] ، ثم اليمن وجزيرة العرب وهي أوسع من بلاد الروم ، ثم المغرب من الاندلس والقيروان ، والمغرب تشبه لكثرة رجالها وجمالها وبلدانها بخراسان. وأما أذربيجان فتشبه من السعة بما يقارب فارس أو العراق . وانما ذكرت ذلك لأننا أردنا ألا نخلي ما نقوله من حجة ، وان كان الناس قد ذكروه .

فلما صار أبو طاهر الى البحرين ، سلم الامر الى ذكيرة الاصفهاني المجوسي[2] وجمع الناس بالبحرين وقال : معشر الناس انا كنا ندخل عليكم بحسب أهوائكم ، مرة بمحمد ومرة بعلي ، ومرة باسماعيل بن جعفر ، ومرة بمحمد بن اسماعيل ، وبالمهدي . وهذا الهنا والهكم ، وربنا وربكم ، يعني ذكيرة الاصفهاني ، فان عاقب فبحق ، وان عفا فبفضل ، أظهروا اللعن على الكذابين : آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد معشر الاجمعين يعني بالاجمعين مسلمين وذمة[3]،وعرج على من كان عندهم بالبحرين من سواد الكوفة وأهل الكوفة . وقال : معشر الدعاة والخاصة ، اذكروا ما عندكم ، فذكروا معنى ما جرى بين عبد الله بن ميمون بن ديصان بن سعيد الغضبان وبين محمد بن الحسين بن جهار بختار المعروف ببندار[4] من أعمال الحيلة على المسلمين والتستر بالتشيع والدعاء الى المهدي ، فاذا وقع التمكن وصاروا في

---

(١) الشحر : الشط ، خاصة الضيق منه ــ معجم البلدان .

(٢) انظر أصول الاسماعيلية : ١٨٥ ــ ١٨٧ حيث عالج لويس هذه القضية ووازن بين مختلف الروايات حولها .

(٣) العبارة في الاصل غير واضحة ، لعل وجه الصواب ما اثبتناه ؟

(٤) كذا في الاصل ؛ وفي المصادر المتوفرة « محمد بن الحسين المعروف بدندان او بزيدان » انظر الفهرس للنديم ــ ط . طهران : ٢٣٨ ــ ٢٣٩ . اصول الاسماعيلية : ١٣٤ ــ ١٣٦ ، ١٥٧ ــ ١٦٠ .

ملك وسيف أظهروا تكذيب الانبياء وتعطيل الشرائع ، وقتلوا المسلمين ، مما هو مذكور في كتاب ابن زرام ، وكتاب عطية ، وغيرهما من العلماء[1] .

فأخذهم ذكيرة بلعن الانبياء جهارا في الاسواق،وتقدم باحراق المصاحف وبراءة الذمة ممن ترك عنده شيئا من المصاحف أو التوراة والانجيل وجمع هذا كله . وأمر بطرحه في الحوش ، والاستنجاء به ، ونادى بنكاح الامهات والبنات والاخوات وذوات المحارم ، وبإباحة اللواط ، وبأن تطعن البهائم في خواصرها الى أن تموت ثم تموت ، وبأشياء كثيرة يطول شرحها ، وهي مذكورة في كتب العلماء ، وقال لهم : تأهبوا فاني سائر الى العراق لاستئصال دين محمد وقتل أتباعه ، فقد انقضت دولته وقد أحييته ثلاث مرات واستتبته من اضلال الناس فما تاب . فالعنوه والعنوا الكذابين ـ يعني الانبياء ـ فكانت الاصوات ترتفع بذلك في الاسواق وقتل بني زرقان وبني سلمان ، ومن وجوه عسكره في مدة ثمانين يوما سبعمائة رجل ، وأمرهم بأن يعرضوا عليه نساءهم من بيت أبي سعيد وغيره فعرضوهن فاختار منهن من أراد، فكان فيمن اختار زينب بنت أبي سعيد امرأة عمر بن زرقان وقد كان قتل زوجها ، وكان له منها ابن ، فأمر ذكيرة أبا طاهر بذبحه فأخذه أبو طاهر خاله فذبحه .

ثم بعد مدة ، قال أبو دلف لأم أبي طاهر : ان ذكيرة الاصبهاني قد عزم على قتل ابنك واخوتك ، وكان لأبي طاهر خمسة اخوة . وهم ولد أبي سعيد . فاتفق قتلهم له نهارا . فماج القصر لذلك . فقال لهم الحسن بن سنبر : أغلقوا باب القصر، فأغلق ، وأشرف على الناس ، فقال : مالكم اجتمعتم ؟ قالوا : بلغنا أنكم قتلتم الاله ، قال : قد فعلنا ذلك ، قالوا له : ولم قتلتموه ، قال : ما نريد أن نذكر لكم السبب في ذلك فأمسكوا ، وقال لهم ابن سنبر : ان شئتم أن تذهبوا فاذهبوا ، فما نعرفكم السبب ، ثم قال لهم : يا قوم لا تفضحونا وأنفسكم ، ولا تشمتوا بنا المسلمين وبكم، وارجعوا عن جميع ما قاله لكم أبو طاهر الى ما كنتم عليه وكنا من قبل ذلك ، من أنا أصحاب المهدي ، والدعاة الى المهدي ، والمؤمنون الشيعة ، فانه كنا نحدث أن ستكون للمؤمنين زلة ، وهي هذه ، فالله الله في أنفسنا وأنفسكم ، فما أدخلناكم في

(1) ابن رزام هو أبو عبد الله ، عاش تخمينا في أوائل القرن الرابع للهجرة ، ولعل عطية قد عاصر المعز لدين الله الفاطمي، ونقل عن ابن رزام، انظر الفهرس للنديم: ٢٣٨ . اصول الاسماعيلية : ٥٦ ـ ٥٩ .

شيء الا بعد أن دخلنا فيه . قالوا : نريد أن نراه مقتولا ، وخافوا أن لا تكون حيلة من جملة حيلهم وكذبهم الذي كان لأبي طاهر ، ففتحوا الباب وأدخلوهم ، فرأوا ذكيرة مقتولا ، وجاءت زينب بنت أبي سعيد امرأة ابن زرقان ، فشقت جوفه . واستخرجت كبده فأكلتها ، وكانت فضيحة عظيمة ، فقال ابن سنبر لأبي طاهر : فرق المال في الرؤساء وأرضهم ، فان هذه سقطة عظيمة سقطناها ، فوجه أبو طاهر في الليل الى الرؤساء وتلافاهم ، وخضع لهم ، ولم تكن عادته .

ثم انه غزا بعد قتل ذكيرة ونهب ، وجاء الى الكوفة ، فصار أصحابه لا يمتثلون أمره كما كان ، وقد كانوا لا يخالفونه في شيء البتة ، وكان أي شيء نهبوه أو غنموه يسلموه اليه ولا يخونونه في شيء منه ، لأنه حجة الله ، وأن المال يجبيه للمهدي ، فصار بعد قصة ذكيرة لا يعطونه ما ينهبونه ، وصاروا يشربون ، ويسمعون القيان ، ويطلبون المواخير ، واذا جاءهم العرفاء ، وقالوا لهم : هاتوا ما غنمتم ، لم يعطوهم ، واذا قالوا لهم : السيد يأمركم بكذا ، قالوا : ناك السيد آمه ، وفي است أم السيد فرحل بهم راجعا الى البحرين، فقال العويمل العقيلي وغيره لبني عمهم[1] : ياويحكم اعتزلوا هذا الكذاب بن الكذاب فانه يصير بكم الى البحرين ويسترهن عيالاتكم ، ويطالبكم بما غنمتم ، ويأخذه منكم ويستعبدكم ، فبلغه قوله ، فأخذه وقيده ، ورجع الى الاحساء ، فقتل من أصحابه وثقاته نحو أربعمائة ، وأقام بالاحساء وقال : قد نهيت عن الغزو ، وأمرت بعمارة الاحساء ، فأخذ المسلمين الذين أسرهم واستعبدهم بالعمارة ، وأقام مدة ، ثم غزا وأقام ناحية من الكوفة ، ووكل بالعسكر من يراعيه لئلا يدخل اليه غريب ، وطمع أن يعود أصحابه كما كانوا ، فما فعلوا ، ودخل على أهل السواد من الكوفة ، ومن كان يلتجيء اليه من المتشيعين من الحزن والفضيحة، وشماتة الأعداء ما قتلهم حزنا .

وكان مثل عيسى بن موسى ختن عبدان وأصحابه وأمثاله ، يعاتبون أبا طاهر وأصحابه بينهم سرا ، فيقول لهم : ما الحيلة ، ما اخترنا هذا لأنفسنا ، وقولوا لنا من كان من أهل هذه الدعوة لم تكن له سقطة وفضيحة .

---

(١) يلاحظ ان قرامطة البحرين وسواهم اعتمدوا على القبائل العربية، وكان لحركاتهم الاثر الكبير في هجرة العديد من القبائل الى الشام والعراق والجزيرة ، وكانت قبائل عامر بن صعصعة من كلاب وعقيل ونمير وقشير على راس القبائل المهاجرة. ولا شك ان طباع القبائل ومفاهيمها كان بعيد الاثر على خطط القرامطة .

ألـم يفتضح المنصور بن حوشب بعدن لاعة ، ألم يفتضح علـي بن الفضل بجيشـان[1] ، ألم يفتضح سعيد[2] بسجلماسة ، حتى شيخ المشايخ أبو موسى هرون وهو شيخ الشيعة[3] ، قال لسعيد في وجهه : ويلك ، أنت الغاوي لا المهدي ، تزني ، وتلوط ، وتشرب الخمر ، وتكذب ، وتغدر ، وتسفك الدم ، ويلك ، آي شيء أنت ، وابن من أنت ؟ قال : قد قال لكم أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الكوفي[4] الداعية أني أنا المهدي ، فجاؤوا بأبي عبد الله ، فقالوا له:هذا هو المهدي؟ فقال : لا ، فقال له سعيد : ألم تقل لأهل العسكر بسجلماسة : هذا هو المهدي الذي كنت أدعو اليه ، فأقبل أبو عبد الله على أبي موسى والجماعة فقال : يا هؤلاء غلطت كما يغلط الناس ، أنا رجل من أهل الكوفة من الشـيعة ، وكنا نذهب الى امامه موسى ابن جعفر وولده ، فرجع ابن حوشب ورجعنا لما مات الحسن العسكري[5] ، ووقع علينا من دعانا الى امامة محمد بن اسماعيل بن جعفر ، ولقيت الامام من قبل محمدبن اسماعيل بالكوفة ، وودعته وخرجت الى ابن حوشب باليمن ، وبين يدي الامـام بالكوفة غلامان، فقال لي حين ودعته : يا أبا عبد الله ، هذان اماماك، فمن دعاك منهما فأجبه ، فخرجت الى اليمن ، ومنها الى مكة ، ومنها اليكم الى المغرب .

وبلغنا أن الامام قد مات وخلفه ولده ، وكانت الكتب تأتيني من هذين ، وفيها بعض العلامات التي كانت بيني وبين الامام ، فظننته المهدي وما هو بالمهدي ، ولكنه رجل سوء ، كذاب ، شرير ، عدو الله ، وعدو رسوله ، وعدو أهل بيته ، وعـدو

---

(١) سنأتي على ذكرهما في النصوص المقبلة .

(٢) يريد به المهدي عبد الله اول خلفاء الفاطميين .

(٣) المشهور ان هذه الحادثة وقعت للمعز لدين الله ، بعد انتقاله الى مصر ، ثم ان الحديث عن شيخ مشايخ للشيعة في المغرب هو ضرب من الوهم . انظر نهاية الارب للنويري قسم اخبار الخلافة الفاطمية نسخة مصورة لدي : ٤٢ . اخبار الدول المنقطعة لعلي بن ظافر الازدي ــ نسخة مصورة لدي : ٤٨ .

(٤) كذا وهو مشهور بالصنعاني اكثر من الكوفي . انظر رسالة افتتاح الدعوة ط . بيروت : ٥٩ ــ ٦٣ . عيون الاخبار للداعي ادريس: ٥/٤٤ ــ ٤٦ . اتعاظ الحنفا : ١/٥٥ .

(٥) الامام الحادي عشر لـدى الشـيعة الامامية الاثني عشرية وكانت وفاتـه سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م .

الشيعة ، وعدو المهدي ، فواقف سعيد أبا عبد الله على غدراته وأكاذيبه وما كان له في كتامة ، وتشاتما وانفرد سعيد ومعه الاموال ، وأعمل الحيلة . وقتل أبا عبد الله وشيخ المشايخ .

وقام أبو العباس زكريا محمد بن أحمد بن زكريا أخو أبي عبد الله ، وكان أجل منه وأخص بسعيد وأعلم بالدعوة ، فنادى على سعيد بأنه كذاب عدو لرسول الله ﷺ وأهل بيته ، وواقفه وتشاتما ، وما زال ينادي عليه برقادة وأرض المغرب الى أن دس عليه من قتلـه .

وقام أبو زاكي تمام بن معارك[1] ، وكان أخص الناس بسعيد وأوثقهم عنده ووجها في الشيعة ، فما زال ينادي : احذروا هذا المشرقي الكذاب فانه لا دين لـه الى أن بذل سعيد الاموال في العبيد والجهال الى أن قتل أبا زاكي وأصحابه .

أو ليس حين مات سعيد وقام ابنه[2] قد رجع عنه خاصته ، وقالوا هذا أكفر من أبيه ، أو ليس قد أظهروا بأرض المغرب شتم نبي العرب وأصحابه فقالوا : العنوا الغار ومن حوله ، العنوا عائشة وبعلها ، ولعنوا جميع الانبياء وأظهروا الباطن كله ، وبعثوا الدعاة ، فدعوا الى سعيد أنه اله حق ، وأنه خالق رازق ، وأنه هو الذي فتق ورتق وأمات وأحيا ونكحوا البنات ، حتى كان مثل أبي الاسود وأبو طلحة من الدعاة قد نكحوا بناتهم ، حتى ذهبت الشيعة الى أبي يزيد مخلد بن كيداد ، وهو من الشراة[3] وشكوا اليه ذهاب الاسلام بهؤلاء المشارقة[4] ، وقالوا : هـذا وان كان من الشراة فليس ينكر الربوبية ولا يكذب الرسل ولا يلعن الانبياء ومعه حفظ الاموال ، فساروا معه الى ابن سعيد بعد موت أبيه فأنفذ اليه ابن سعيد عسكرا بعد عسكر ، فما زال يهزمهم الى أن وافى باب المهدية فأغلق بابه دونه ، فأخذ الحلقة

---

(1) كذا وهو يتعارض مع الروايات المتداولة من اسماعيلية وغير اسماعيلية . انظر رسالة افتتاح الدعوة : ٢٥٩ – ٢٦٥ . عيون الاخبار : ١١٦/٥ – ١٢٤ اتعاظ الحنفا : ١ / ٦٧ – ٧٠ .

(2) المقصود هنا القائم ، انظر ما سلف وذكرناه عن العلاقة بين القائم والمهدي .

(3) من اسماء الخوارج ، وسبق ان ذكرنا انه كان من اباضية إفريقية النكاريين .

(4) عرف ابو عبد الله الداعي ، والمهدي وآله ومن انضم الى الفاطميين من المشرق باسم المشارقـة .

بيده وهو شيخ كبير لا يمكنه لعجزه وكبره أن يركب فرسا ، فكان يركب حمارا[1]. فحاصر ابن سعيد في المهدية مع عساكره فمات في حصاره فرقا منه .

وقام اسماعيل ابنه من بعده ، وحاصرهم صاحب الحمار حتى أكلوا براذينهم وحتى ذلوا وخضعوا ، وقد دوخهم خمس سنين ، واستولى مع عجزه وضعفه على أكثر ممالكهم ، الى أن تمت حيلته عليه .

وأعان أبو الحسين بن عمار اسماعيل[2] ــ القائم الثالث منهم ــ على أبي يزيد حتى ظهر عليه ، فلما خرج أظهر اسماعيل الرجوع الى الاسلام وقتل الدعاة ، ونفى بعضهم الى أرض الاندلس وغيرها . فقال للعامة : من سمعتموه يلعن الانبياء فاقتلوه وأنا من ورائكم ، وأذن للفقهاء والمحدثين ، وخضع للعامة ، وزعم أن الذي كان من الدعوة ومن النائحة[3] والمنشدين كان بغير علم أبي ولا علم جدي ، وخفف الخراج، وأظهر الشغل بالفقه .

فسقطات غيرنا من أهل هذه الدعوة أكثر من سقطاتنا ، أم تظنون أنا بالبحرين لا نعرف أخبار اخواننا وأهــل دعوتنا بالمغرب واليمن والعراق ، فكانوا يحتجون بمثل هذا على من عذلهم من اخوانهم في اظهار الباطن ، وكان الدعاة مثل أبي القاسم عيسى بن موسى ، وأبي مسلم بن حماد الموصلي وأبي بكر أخيه ، وأبي حاتم أحمد ابن حمدان الرازي الكلابي[4] وغيرهم يحدثون أسفا وحسرة بما أتاه أبو طاهر من كشف الدعوة ، حتى سقطت هيبته واستخفت العرب به بعد ذلك التعظيم ، وحتى كان أبو طالب بن عيسى بن موسى وأمثاله يقولون اذا ذكروا هتيكة أبي طاهر : لعنك الله ويلك ، لم سلمت الامر الى ذكيرة الاصبهاني . ويلك ، ألا مضيت علــى غرتك ــ وقد ظن الناس أنك المهدي ، وفيهم من ظن أنك فوق المهدي ، ويلك ــ الى بخارى قدما ما يردك أحد . لعنك الله ، وصلى الله عليك يا محمد .

---

(١) كذا وفيــه ما فيــه .

(٢) كذا في الاصل ، وعرف اسماعيل بلقب المنصور وهو ابن القائم وآل عمار امــراء صقليــة .

(٣) النوح والانشاد يتم في مناسبات شيعية كثيرة مثل ذكرى كربلاء وسواهــا ، هذا وفي روايــة القاضي عما كــان من المنصور مــا لا يمكن تصديقــه . انظر أصول الاســماعيلية : ١٨٤ .

(٤) توفي حوالي سنة ٣٢٢ هـ « وهو صاحب كتاب الزينة ، منشور » .

لا يلعنون أبا طاهر براءة منه ، ولا يصلون على النبي ﷺ موالاة له وتصديقا بنبوته ؛ ولكن يذهبون الى أنه وان كان كذابا محتالا مثل أبي طاهر والذين بالمغرب ــ وحاشاه ﷺ من قولهم ــ فما افتضح مثــل فضائحهم ، ولقــد رجع أبو الغيث العجيلي عنهم ، وكان نابا من أنيابهم ، ومطاعا في عشيرته ، وكانوا نحو ثلاثين ألفا ، وكتب في ذلك كتابا بين فيه أنه تموه أمرهم عليه ، وظنهم شيعة وأصحاب المهدي ، ورجع غيره من رؤسائهم ممن قد ذكره ابن رزام من المراتب الخمس ، وفي الكتاب الكبير ، وذكرهم غيره .

ولقد بلغ الامر بأبي طاهر أنه كان بعد ذكيرة يغير على الحاج ، وعلى بلدان المسلمين ، ثم يجهد بالعرب أن يعطوه شيئا مما يأخذونه ، كما كانوا يفعلون من قبل ، ويقول : هذا مال المهدي ، فان لم تعطونا كله ، كما كنتم ، فهاتوا بعضه ، فيقولون له : أتأمنا ان أعطيناك مغانمنا وقد عرفناك ؟ فلما رأى استخفافهم به ، بعد الكرامة ، قال : لا وجه لما أنا فيه ، أقتل المسلمين وأنهبهم ويذهب هؤلاء بالمال ، فجاء الــى الكوفة وآمن الناس ، ووجه الى الراضي بعد المقتدر وبعد القاهر[1] ، وكان هذا الراضي من الضعف وحجر بجكم والاعاجم عليه على حال قبيحة[2] ، وقد تفرقت الجنود عنه ، وأخذت الاموال منه ، فوجه اليه يطلب منه مالا يعطيه ليخدمه ويبذرق الحاج[3] ؛ ففعل الراضي ذلك ، وأعطاه مالا معلوما وقال أبو طاهر هذا أربح لي ، آخذ هذا المال وأعطي بعض أصحابي وأعواني وأفوز ببعض . وكان العقلاء يعجبون ويعتبرون ، ويقولون عظم أمر أبي طاهر حتى ادعى قوم أنه اله ، وادعى آخرون له أنه نبي ، وادعى قوم أنه المهدي ، وأقل ما ادعى له أنه ثقة المهدي ، وسيف المهدي ، واستقلوا له ملك الارض ، وما شك الشيعة أنه يملكها ، وأظهروا الروايات له بذلك ، وأنه مذكور في الملاحم ، وفي كتاب الحدثان وأنه حجة الله وصاحب حجة الله والمهدي المنتظر الذي يملك الارض كلها ، وطمع في ذلك أشد الطمع ، وكان السلطان في زمانه

---

(١) بويع للراضي بالخلافة بعد خلع القاهر في ٥ جمادى الاول سنة ٣٢٢ هـ/٩٣٤ م ولم يزل خليفة الى ان توفي في ربيع الاول سنة ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م

(٢) بجكم الديلمي من امراء الجند أيام الراضي ، ومن كبار الذين تحكموا بالخلفاء .

(٣) البذرقة : فارسي معرب ، بمعنى الخفارة ؛ يقال : بعث السلطان بذرقة مــع القافلــة ــ اللسان .

مقصرا لا يعرف من التدبير قليلا ولا كثيرا ، وقد قلد الخلافة وله اثنتا عشرة سنة مختليا بالنساء ، كتابه وعماله وخاصته تغلب عليهم التشيع يظنون أبا طاهر من الشيعة ، فكانوا أعوانه على السلطان فخذله الله حتى صنع مع ذكيرة ما صنع ففضحه الله بلسانه ، ثم عاد فقتل ذكيرة ورجع عما كان عليه ، ثم لم يزل خذلان الله به حتى جاء الى الراضي وتلك حاله يطلب بذرقة الحاج منه ، وسأله أن يستخدمه في ذلك ، وضمن كل ما يجري على الحاج ، وخرج اليه الى الكوفة ابن مقاتل[1] صاحب ابن رائق[2] ووافقه على بذرقة الحاج بعد أن وبخه على ما كان منه ، فأنكر أن يكون ما جرى باختياره ، وأن البوادي كانت تفتات عليه ولا تعطيه ، وان السلطان قصر في أمره ، وقد كان ينبغي له أن يعرف مكانه ويعطيه ما يرضي البوادي ، ويستخدمه ويجعله أحد صنائعه ، فقال الحجاج : لا نسير معه ولا نثق به ولا كرامة له . فأقام السلطان أبا علي عمر بن يحيى العلوي أميرا عليهم ، يسير أبو طاهر مع أصحابه بسيره وينزل بنزوله ، ولا يكون له على أحد من الحاج أمر ولا نهي . واذا تصورت حال أبي طاهر وكيف كانت وإلى أي شيء صارت ، حتى يرغب الى الراضي — وهو أول من زالت دولة بني العباس على يده ، وأخذت الاموال منه ، وأجرى له مقدار الكفاية ، وزال أمره عن تدبير الجند وعن الولايات ، وهو أول من حجر عليه منهم — في أن يستخدمه في بذرقة الحاج بشيء يعطيه، علمت أن ذلك آية من آيات الله العظام، فقد كان أثخن في الاسلام ، وأخرب منازل الحاج ، وقد كانت في الامن والعمارة كالاسواق القائمة ، ولعل قتلاه أكثر من قتلي بابك[3] وصاحب الزنج [4] ، وكانت

---

(١) هو محمد بن علي بن مقاتل ، وقد اعطى القرامطة المال سنة ٣٢٧ . انظر اخبار الراضي من اوراق الصولي : ١١٩ .

(٢) هو محمد بن رائق ، أبو بكر ، ولاه الراضي امرة الامراء والخراج سنة ٣٢٤ هـ وتوجه الى الشام فحارب الاخشيديين ثم عاد الى بغداد فشارك في الصراع السياسي ، ثم اضطر الى الهرب فالتجأ الى ناصر الدولة الحمداني صاحب الموصل ، وقد قام ناصر الدولة بقتله غيلة . انظر كتابي تاريخ العرب والاسلام: ٣٦١ .

(٣) بابك الخرمي ، خرج في اواخر عهد المأمون وقضي على حركته في ايام المعتصم . انظر تاريخ العرب والاسلام : ٣٠٨ — ٣١٠ .

(٤) من أجل ثورة صاحب الزنج انظر تاريخ العرب والاسلام : ٣٠٨ — ٣١٠ .

هيبته قد ملأت القلوب حتى كتب ملك الروم الى السلطان كتابا يظهر له الشماتة بأن أبا طاهر القرمطي قد أبادكم وأفناكم وشغلكم عن غزونا وأراحنا منكم ، وقصد بيت عبادتكم فقتل زواره ومن يعظمه ، وأنزل بدينكم كل هوان ، وكان العامة ومن ليس هو من الدعوة اذا سألوا أصحاب أبي طاهر عما أتاه في باب ذكيرة لا يجيبون بل يقولون انما سلم الامر اليه ليمكر به ولينظر ما عنده ، وصبر عليه وعلى ما أتاه ليعرف آخر أمره ، فكان لتسليمه باطن غير ما ظهر للناس ، وهذا أعجب ما يكون من فضائح المبطلين وبهتهم ، وهذا ما لا يعجز عن ادعائه أحد ، فانه قد افتضحوا وتقطعوا ندما ، وانصرفت عنهم عقيل لهذه الفضائح ، وهانوا على جندهم بعد الكرامة ، وسقطت أقدارهم البتة ، ثم يبهتون هذا البهت .

وهذا كقولهم لو قالوا : ان خادم العباس بن عمرو الغنوي ما وثقنا به ولاسكنا اليه ولا وثق به أبو سعيد ، ولا ائتمنه ولا سكن اليه وانما تركناه وقتل أبي سعيد وتلك الجماعة الذين قتلهم في الحمام لننظر ما عنده وليظهر آخر أمره[1] على علم منا بما سيأتيه ويفعله ، وأن ما أتاه الاصفر[2] من قتل رجالنا ومنعنا من التصرف في البلاد والخروج لأخذ ضريبة الحاج وحصاره ايانا في الاحساء ليس عن عجز منا ولا لجهل منا بما كان منه قبل أن يكون وانما تركناه على علم وقدرة ليظهر كل ما عنده ولكل أمر باطن .

أو كمن قال : ان الاصفر لم يصنع بهم هذا الصنيع عداوة لهم ، فكذا ماصنعه ابن أبي الساج ، وانما أراد الاصفر أن يمتحنهم بذلك ، ولهذا باطن وهذا خلق لأهل الدعوة حيث كانوا من مشرق الارض ومغربها ، فانهم متى افتضحوا ومتى بان كذبهم قالوا : لهذا باطن .

فقد كان سعيد أنفذ الجيوش في سنة اثنتين وثلاثمائة الى مصر وقال : تفتحونها وأنا في اثركم ، وكانت خالية ليس فيها الا القاسم بن الاخشيد الفرغاني في سبعة

---

(١) في هذا اشارة الى احدى الروايات عن مقتل ابي سعيد الجنابي . انظر أيضا الكامل لابن الاثير : ٦/١٧٤ ـ حوادث سنة ٣٠١ هـ .

(٢) سلفت الاشارة الى ان الاصفر كان من زعماء المنتفق وقد حاصر القرامطة سنة ٣٧٨ هـ ، وجدير بالملاحظة ان الاصفر نعت وليس باسم ، والمنعوت بهذا الاسم هو نوع من انواع المهديين في الاسلام .

آلاف ، وعسكر ابن سعيد الذي ورد به الى مصر في نحو مائتي ألف فهزمهم القاسم وردهم ، فرجعوا في سنة سبع وثلاثمائة في ثلاثمائة ألف ، وقال : تفتحونها ، فرجعوا منهزمين وكان ابن سعيد رئيس الجند ، وغزويه بن يوسف الكبير المدبر، وهو يعجب من رجوعهم وقد قال تفتحون فقال:لهذا القول باطن فأخذ ابن يوسف هذا وقتله[1].

وقد كان الرابع منهم لما ملك مصر والشام قال : الآن أملك الدنيا كلها وكان له برذون أشهب يقال له عين الفضة ، فقال : على هذا أدخل قسطنطينة وقال : أنا لا أعطي أهل الاحساء عن الحاج ضريبة ، كما كان كافور الخصي الاسود قبلي يعطيهم ، فان خالفوني وجهت بكتامة فشدوا براذينهم على أبوابهم بالاحساء، وساوم صاحبه وصاحب جيشه في ثياب بياض ، ثم قال : وهذه تجلب من نيسابور ، والى هناك نصير ، فنشتريه من معدنه ، فجاءه ولد أبي سعيد[2] ، وأخذوا الرايات السود من بغداد ، وعليها الامام المطيع لله أمير المؤمنين ، وكانوا في جيش قايل ، وأخذوا الشام منه ، وقتلوا ابن فلاح صاحبه[3] ، وقالوا لـه : ما تحتاج أن تنفذ بكتامة الى الاحساء فقد جئناك ، فراسلهم وداراهم ، وقال لهم : لم رضيتم لأنفسكم أن تسيروا تحت الرايات السود وتقيموا الدعوة لبني العباس ؟ قالوا له : قد كان ينبغي ألا تمخرق علينا ولا تتكلم فينا ، ونحن نعرفك ونعرف أباءك ، فما زال يراسلهم ويتضرع اليهم ويقول : الدعوة واحدة وهذا البيت وبيت أبي سعيد سواء ، فساروا اليه الي مصر وضيقوا عليه ، فخندق على نفسه وبذل الاموال ، وبذل المال للبوادي، فأخذوا سوادهم وانهزموا من باب مصر ، وأسر ابن المنجا[4] وجماعة منهم ، فأكرمهم وصانهم وخلع عليهم وردهم الى الاحساء وأعطاهم أكثر مما كان يعطيهم كافور ، وقتل من كان في عسكرهم من السوقة والباعة وهم ألوف كثيرة ، وقال لولد أبي سعيد : أنا ما منعتكم انما منعكم هذا العبد جوهر ، وتقرب اليهم ، وذكرهم أن الدعوة واحدة وما ينبغي أن نختلف فيشمت بنا المسلمون ، وما زال هو ومن بعده

---

(١) انظر اتعاظ الحنفا : ١/٦٩ .

(٢) أي الحسن الاعصم واصحابه ، وقد سلف ذكره وسيلي كثيرا .

(٣) أي جعفر بن فلاح ، وقد سلف حديث مقتله .

(٤) من أعوان الاعصم المقربين انظر ترجمته فيما يلي من نصوص .

يحمل اليهم المال الكثير ، والبر الكثير الى أن حاصرهم الاصفر ومنعهم ، ووافى ملك الروم لعنه الله فنزل الشام[1] .

واتفق موت البرذون عين الفضة ، ونما الخبر الى ابن الزيات[2] وهو بالشام فكتب اليه : قلت انك تدخل القسطنطينة على عين الفضة ، وقد مات وبينك وبين القسطنطينة مسيرة ستة أشهر ، وملك الروم فقد نزل بالشام وبينك وبينه مسيرة عشرين يوما ، وقد قرب الامر عليك فالحق ، فترك الجواب عن هذا وكتب الى ابن الزيات · أنت رجل فاضل كامل ، أضعتك وأسأت اليك ، وأنكرت فضلك ، وماأدري كيف أعتذر اليك ، وأنا من أحوج الناس اليك ، وما هذا سبيله من الملاطفة . واذا طالبت خاصته والدعاة لـه بتلك الاقوال وبينت لهم كذبها وخلفها قالوا : تلك الاقوال لهـا باطن .

وعند الخامس[3] منهم من أهل خوارزم والمولتان[4] وغيرهما زوار كثير قد جاءوا بالأموال والهدايا ، وهم محجور عليهم وموكل بهم ، ومع هذا فقد تبلغهم ما هناك من الفواحش والاباحات ، فربما استفهم الواحد بعد الواحد من هؤلاء الزوار ، فيقال له : لهذا باطن ، وربما قيل لبعضهم : انما يفعل هذا مولاكم عمدا ليريكم ويمتحن صبركم ، فأمسكوا ولا تتكلموا ثم لا يؤذن بالرجوع لأهل الفطنة منهم .

وقد كان سعيد وهو بالمغرب ، قد جعل الرصد على من يرد ويصدر بباب البلد فيعرف أخبارهم ، فمن كان من الرسل والدعاة الذين يريدهم فلا يدخلهم الا ليلا ملثمين في هوادج وان كانوا جماعة، فرق بينهم ، وأنزلهم ووكل بهم ثقاته، وأخرجهم

---

(١) في هذا اشارة الى حملة الامبراطور البيزنطي يوحنا تزيكمس (ابن الشمشقيق) على الشام سنة ٣٦٣ هـ ، والتي وصل بها الى أحواز دمشق . انظر ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي : ١٢ ـ ١٣ .

(٢) ابو بكر بن الزيات زعيم مدينة طرسوس الثغرية ، وقد صالح الامبراطور البيزنطي وسار معه الى الشام . ابن القلانسي : ١٢ .

(٣) اي العزيز حكم ما بين : ٣٦٥ هـ/٩٧٥ م ـ ٣٨٦/٩٩٦ .

(٤) المولتان بلد في بلاد الهند على سمت غزنة ـ معجم البلدان .

كذلك ، لئلا يقفوا على شيء من أمره ، ويدس اليهم من يحدثهم من أخباره بما يرد، ويبرهم ويصلهم ويخلفهم ويخرجهم في الاستخفاء كما دخلوا ، ويردهم الى النسفي وأبي حاتم الرازي وابن حماد[1] ، فتأمل حال هؤلاء وهم في الاطراف : وقد تستروا بدين الاسلام وأقاموا المؤذنين ، فكل من يستدعونه في أول أمره يقولون له : لسنا كالامامية أصحاب موسى بن جعفر الذين يقولون : الصلاة احدى وخمسين ركعة ، الذي يجب عليك عافاك الله ثلاث وسبعون ركعة في اليوم والليلة . وتؤدي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، وتؤدي الامانة ، وتحصن فرجك ، وما تحل لك المتعة كما تحله الرافضة ، وتجتنب الكذب والزنا والربا واللواط ، ولا تشرب شيئا من المنكر ، ومالك في شيء من هذا رخصة البتة ، واذا كان عند الداعية أحد من المريدين ممن لا يعرف حقيقة الدعوة يصلي الداعية بحذاءه الليل والنهار . ومع هذا فقد عرف أهل العلم حقيقة الدعوة فكيف بأمر النبوة وهو من الامور المكشوفة . ولو أخذت تحصي فضائح هؤلاء في كل زمان مع هذا التحفظ لطال ، وينبغي أن تعنى بأمورهم ، فليس ها هنا من يطعن في النبوات سواهم كما تقدم لك ودعاتهم اليوم مثل جابر المنوفي ، وابن جبلة ، وابن الكميت ، والحسن بن محمد الميمذي[2]، يقولون لمن قد بلغوا به أما ترون أتباع هذا الفاعل الصانع ـ يعنون رسول الله ﷺ ـ اليوم أربعمائة سنة ، قد أقاموا على شريعته ما يفارقونها ، ماذا يرون فيها الحمير ، وقد كدهم بالصلاة والصوم والحج والجهاد ، أما يتفطنون أما يفيقون[3] .

والعجب ممن ذهب عنه ﷺ مع ظهور أعلامه وانكشاف براهينه ، ولو كان لهؤلاء فطنة ، ومعهم تدبر لكفتهم أنفسهم وأحوالهم في معرفة صدقه ، فانهم مع اعتصامهم به وتسترهم باقامة شريعته ، والانتساب الى أهل بيته ، ومع الايمان والمواثيق ، يفتضحون في كل طرفة عين ، وهو ﷺ قد جاء ذلك المجيء وأعداؤه منذ

---

(1) انظرهم في الفهرس للنديم : ٢٤٠ ـ ٢٤١ .

(2) لا نملك في المصادر المتوفرة معلومات عن هؤلاء الدعاة ، ولاشارة القاضي لهم اهمية كبيرة بسبب المعاصرة .

(3) يمكن أن نرى في هذا مقدمات ما حصل في ايام الحاكم بأمر الله من اعلان قيامه عظمى ـ اي الغاء الشرائع القائمة ـ لاستبدالها بديانة جديدة هي التي ستعرف باسم الدرزية . انظر الحاكم بامر الله في كتابي مائة اوائل من تراثنا ص: ٤٦١ .

أربعمائة سنة يطلبون عثرة له وزلة فلا يجدونها ، وهو كما يقال : قد كان ينبغي أن يكون أصحاب الطب من أخشى خلق الله وأعرفهم به لكثرة ما يرون من الشدائد النازلة بالناس وبأنفسهم ثم قل ما يغني طبهم عن أنفسهم وأعزتهم ، ولكن قد سبقوا الى الاعتقادات الباطلة والتقليد للرجال ، فتركوا النظر ، وقلت عبرتهم فتبلدوا وتحيروا، فتاهت عقولهم ، وماتت فطنهم، فنعوذ بالله من طول الغفلة وموت على غرة، وقدوم على حسرة ...

★ ★ ★

[في ذكر كبار ائمة الشيعة في زمان صاحب الكتاب] (*)

وفي هذا الزمان منهم مثل أبي جبلة ابراهيم بن غسان ؛ ومثل جابر المنوفي ، وأبي الفوارس الحسن بن محمد الميمذي وأبي الحسين أحمد بن غسان بن الكميت، وأبي محمد الطبري ، وأبي الحسن الحلبي ، وأبـي يتيم الرلباي ، وأبـي القاسم النجاري ، وأبو الوفا الديلمي ، وابن أبي الديس ، وخزيمة ، وأبي خزيمة ، وأبـي عبد الله بن محمد بن النعمان ، فهؤلاء بمصر وبالرملة وبصور وبعكا ، وبعسقلان ، وبدمشق ،وببغداد ، وبجبل السماق . وكل هؤلاء بهذه النواحي يدعون التشيع ومحبة رسول الله ﷺ وأهل بيته ، فيبكون على فاطمة وعلى ابنها المحسن الـذي زعموا أن عمر قتله[1] ، ويذكرون لهم تبديل القرآن والفرائض ، ويذكرون ما قد تقدم ذكره ، وما دعواتهم في التشيع ومحبة الرسول ﷺ وأهل بيته وما قولهم : من أن خلافهم له وقتالهم انما هو لعدواله ﷺ وللشك في نبوته ، ويقيمون المنشدين والمناحات في ذلك ، ويأخذون على الناس العهود ، ويحلفونهم بالايمان الغليظة ، فاذا حصلوا كذلك قالوا لهم : اياكم ومجالسة الفقهاء ، واستماع الحديث من أصحاب الحديث ، واستماع القرآن من العامة ، وعليكم برواية الخاصة ، فقد قال جعفر بن محمد كتابة : حديث العامة يعمي القلب، واياكم وفقه أبي حنيفة ، ومالك، والثوري،

---

* استعير هذا العنوان من حاشية الاصل .

(1) تذهب المصادر الشيعية ، خاصة الاسماعيلية منها ، الى ان فاطمة الزهراء كانت حاملا حين استخلف أبي بكر ، وأنها حرضت زوجها على الامتناع عن البيعة ، لهذا جاء عمر بن الخطاب مع عدد من أعوانه واقتحم بيتها ، وضربها مما سبب اجهاضها ؛ ثم كان ذلك سببا لوفاتها ، وفي هذا يقول القاضي النعمان في الارجوزة المختارة ط . مونتريال ــ ٧٩ :

فجـاءهـم عمـر في جماعـــة	إذ لـم يـروا لمن اقـام طاعـة
حتى اتـوا باب البتول فاطمـة	وهـي لهـم قاليـة مصارمـة
فوقفت عـن دونـه تعـذلهـم	فكسـر البـاب لهـم أولهـم
فاقتحمـوا حجابهـا فعـولت	فضربوهـا بينهـم فاسقطت

والحسن البصري ، وأمثالهم فانهم كفرة وأعداء أهل البيت ، والرشد كله في خلافهم، واذا عمي على أحدكم الصواب فلينظر ماعليه الفقهاء،فيعمل بخلافه فانه يصيب الحق .

ثم يأخذونهم في مجلس يسمى مجلس التغذية بأن لكل شيء باطنا علمه عند مولاكم العزيز بالله ، يظهره لكم اذا ترقيتم الدرجات في طاعته ، ثم يأخذونهم بأن يقولوا لهم : لم صلاة الصبح يجهر بها والظهر لا يجهر فيها ، ولم خوصة سعفة النخلة طويلة ، وورقة الكرم مستديرة ، وورقة الموز طويلة عريضة ؟ فاذا سألوهم الجواب قالوا لهم : أنتم من غير المجربين ومن المبتدئين ، والمبتدىء كالطفل يغذى باللبن ، ثم بعد اللبن بما هو أقوى منه ، ويقولون لهم : أليس قد قال الله : « حرمت عليكم الميتة »[1] ونحن وأنتم لا نأكل الذبيحة حتى تموت ، ولا نأكل السمك حتى يموت وانما معنى هذا أن النبي ﷺ قد مات وحرام أن تقام شريعته ، وينبغي أن يمتثل أمر العزيز مولانا الذي هو حجة الله ، وهذا علم الخاصة ، ولكن الفقهاء الحمير وأهل الظاهر لا يعرفون هذا ، لذهابهم على امامهم ولي الله وحجة الله على خلقه .

ويقولون لطائفة أخرى : ما عليكم صلاة ما دام في الدنيا لكم عدو يمنعكم من التمكن في الارض ، فان الله يقول : « الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر »[2] ويقولون لآخرين : الصلاة شخص، والصلاة عذاب على أهل الظاهر، ويرقون بالناس بحسب طبقاتهم واحتمالهم للشك والحيرة ، وهذه مجالس الترقية كما هو مذكور لهم ، ومرسوم في البلاغ السابع والناموس الاعظم ثم يرقون بمن يثقون به : بأنه لا يحرم عليه أمه ولا بنته ولا أخته ، ولا خمر ، ولا خنزير ، ولا زنا ، ولا لواط ، ولا شيء البتة ، وأنه لا يحل لك أن تمنع أخاك ، ومن هو مثلك في البلاغ السابع والعلم الباطن من زوجتك فانها تحل له كما تحل لك ، والاشتراك في الزوجات كالاشتراك في الطعام والكريم هو

---

(١) المائدة : ٣ .

(٢) الحج : ٤١ .

الذي[1] تنكح زوجته بحضرته كما يؤكل طعامه بحضرته[2] ، وقد قال أفلاطن : الغيرة شح في الطبيعة .

فيقال لهؤلاء الدعاة : قد ادعيتم على رسول الله ﷺ وعلى اخوانه من الانبياء أنهم كذابون محتالون طلاب دنيا ورئاسة ، ونحن فقد ذكرنا لكم مجيئه وسيرته وطرفا من آياته وأعلامه ، وأن أهل الارض بأسرهم قد خاصموه وطلبوا عثرة تكون له فما وجدوا ، ولو كان كما قد ادعيتم لكانت سبيله سبيل أئمتكم ، فقد علمتم حال سعيد[3] ، الذي زعم أنه ابن الحسين بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان بن سعيد الغضبان الخرمي ، وأبو القاسم بن الابيض العلوي ، وغيره من أهل هذه الدعوة يزعمون أن سعيدا هذا ليس هو ابن الحسين ، وانما هو ابن امرأة الحسين هذا ، وأبوه يهودي حداد من أهل سلمية من أرض الشام وأن الحسين لما تزوج بأمه حظيت عنده ، فأحب ولدها سعيدا هذا ، وانما رغب فيها لفرط جمالها وكمالها .

وكان سعيد ابنها هذا يشبهها في الجمال ، وكان له ذكاء وفطنة ، فتولى الحسين زوج أمه تربيته وتعليمه ، وتخريجه على ما يحب ويختار ، فقبل منه وأخذ عنه، فعرفه حال هذه الدعوة ورجالها وأسرارها ودعاتها ، وأين هم وكم هم ، وكيف كان أولها وابتداؤها ، وزوجه الحسين ــ زوج أمه ــ بنت أبي الشلعلع ، وأبو الشلعلع هذا من ولد عبد الله بن ميمون القداح ، وكان ذلك ، فولدت لسعيد ابن فسماه عبد الرحمن[4] .

---

(1) جاء في الاصل بعد كلمة الذي « هو » وقد حذفناها لانها زائدة .

(2) وصلنا عدد لا بأس به من كتب التأويل وعلم الباطن ، فيها نذر يسير مما ذكره القاضي عبد الجبار هنا ، لكن قطعا ليس فيها ما قاله من شتائم وحملات على النبي كما انها خلوة من أمور تحليل الزوجات والاصول وغير ذلك ، مما لا شك فيه أنها تهم باطلة ، حمل القاضي على قولها شدة تعصبه، فالتعصب يلغي العقل، ويزيل المنطق ، ويعمي البصر والبصيرة . .

(3) جاء في حاشية الاصل : « ابتداء ظهور الفاطميين في المغرب بدعوى التشيع » .

(4) عالج أكثر السلف مشكلة نسب الفاطميين ، وتميل الابحاث الحديثة الى التسليم بصحة هذه الانساب او تعليل المسألة تعليلا قائما على عقيدة الابوة الروحانية لدى الاسماعيلية . انظر اصول الاسماعيلية : ١١٧ ــ ١٣٣ .

ثم صار سعيد الى سجلماسة من أرض المغرب ، وتسمى بعبيد الله[1] واكتنى بأبي محمد، وادعى أنه من نواحي الاهواز ومن تنائها ورؤسائها وأنه هرب هو وأبوه من جور عمرو بن الليث[2] ، وان ضياعهم بكور الاهواز كثيرة ولهم بها [وكلاء][3] وان المواد تأتيه منها ، وكان يقول لمن يثق به ويأنس به في ابنه عبد الرحمن[4] أنــه يتيم في حجره ، وأنه وصي أبيه ، وأن أباه من أهل البيت ، وكان يحتال على اليسع ابن مدرار أمير سجلماسة وعلى أهل بيته بالدعاوى •

فلما تمكن وأمكنته الحيلة بأبي عبد الله الحسين بن أحمد بن زكريا الكوفي الداعية غدر ببني مدرار ، وقد كانوا أجاروه وأحسنوا اليه ، فغدر بهم ذلك الغدر الفاحش ، فقال له أبو عبد الله : قد كانت كتبك ورسائلك تأتيني بأنك مع بني مدرار بكل خير ، وأنك ما نزلت بأكرم منهم ، وقد قتلتهم فما أبقيت منهم رجلا ، حتى قتلت صبيا من صبيانهم واستبحت أموالهم ونساءهم ؟! فقال له : هو كما كتبت اليك ، ولكن اليسع ما ألعقني لعقة عسل الا ومعها لعقة صبر ، وأما هذا الصبي ، فانه جاءني برسالة من عمه، أحمد بن مدرار جافية،فكانت هذه أول فضائحه ولها تفصيل طويل•

وسمى ابنه عبد الرحمن الحسن ، ثم لما تمكن وملك قال : هو ابني ، وسماه محمدا ، وكناه بأبي القاسم •

ولما أراد الرحيل من سجلماسة الى القيروان في إفريقية من أرض المغرب دخل المغاربة أصحاب أبي عبد الله لاخراج رحله، فوجدوا ملابس الحرير والديباج وأواني الذهب والفضة وخصيان رومة وآثار الانبذة ، فأنكروا ذلك في أنفسهم مع بلادة البربر ، وسألوا أبا عبد الله الداعية عن ذلك ، وانما أنكروا ذلك ، لان أبا عبد الله هذا كان مقيما سنين كثيرة في كتامة يدعوهم الى المهدي ، الذي هو حجة الله ويزعم

---

(١) في الحقيقة تسمى بعبد الله ، لكن الدعاية العباسية المضادة سمته عبيد الله لان في التصغير تحقير .

(٢) الصفاري ، انظر من اجل حركة الصفارين كتابي تاريخ العرب والاسلام : ٣٤٥ ـ ٣٤٦ .

(٣) زيد ما بين الحاصرتين كيما يستقيم السياق .

(٤) يقصد به القائم ، وسلف لنا البحث في العلاقة بين المهدي والقائم .

(٥) أمير سجلماسة اوان تفجر الحركة الاسماعيلية في إفريقية ، ودولة بني مدرار كانت احدى دول الخوارج في المغرب .

أنه صاحبه ، وكان أبو عبد الله يتقشف ويلبس الخشن ويأكل العشب ويعدهم عن المهدي بمثل ذلك ، فلهذا أنكروا وسألوا ، فقال لهم أبو عبد الله هذه الاثار لاصحابه وأتباعه ، وكان معه أتباع كثير .

ثم ان عبيد الله بعد قتل أبي موسى هرون بن يونس شيخ المشايخ وأبي عبد الله الحسين بن أحمد بن زكريا الداعية ، وأخيه أبي العباس محمد بن أحمد بن زكريا ، وأبي زاكي تمام بن معارك وكان من كبار الشيعة ، بعد قتله لهؤلاء وتمكنه بالمغرب ، استصفى أهل الثروة وأخذ أموالهم كلها ، وأرسل ابنه وجعله ولي العهد بعده والخليفة ، وسماه القائم ، فكان ينزل في العساكر على بلد فيستصفي أمواله ، ويهدم حصونه وقلاعه ، ويأخذ ما فيه من الاسلحة والامتعة ، ويقتل الرؤساء والوجوه والفقهاء وأصحاب الحديث، ويتخذ جهالهم ويجعل لهم الاحوال والاموال، ويسلطهم على أهل الفضل ، ويضع المكوس والضرائب ، ويتوصل الى ازالة النعم ، والتضييق على المسلمين بكل ما يقدر عليه وما يطول شرحه .

وكان يرسل على الفقهاء والعلماء فيذبحون في فرشهم ، وأرسل الى الروم وسلطهم على المسلمين . وكان الشيعة ببغداد ، مثل بني بسطام ، وبني أبي البغل ، وآل الفرات[1] ، يرجفون أن المهدي قد ظهر بالمغرب وهو هناك يحيي الموتى ، ويقف على المقبرة فينادي الموتى فيقومون من قبورهم ، وكان أبو الحسن محمد بن أحمد النسفي صاحبهم بخراسان ، فذكر لنصر بن أحمد مثل ذلك[2] وأبو حاتم أحمد بن حمدان يذكر مثل ذلك بالري لاسفار بن شيرويه[3] .

وكثرت الروايات عن رسول الله ﷺ وأهل بيته في أن المهدي يظهر بالمغرب ويملك الارض كلها من أولها الى آخرها ، وينفذ أمره فيها ، وأحكامه على أهلها في

---

(١) ابرز اسر الوزارة والادارة العباسية في اواخر القرن الثالث وبداية الرابع ، انظر تحفة الامراء في تاريخ الوزراء لهلال بن المحسن الصابيء ـ ط . القاهرة ١٩٥٨ ص : ١٨ ـ ٢٤٥ ، ٢٨٥ ـ ٣٠٤ .

(٢) الساماني : ٣٠١ هـ/٩١٤ م ـ ٣٣١ هـ/٩٤٣ م . انظر كتابي تاريخ العرب والاسلام : ٣٤٧ ـ ٣٤٨ .

(٣) من زعماء الديلم الاوائل ، واعماله هي مقدمة اولى لظهور اسرة بني بويه قتل سنة ٣١٤ هـ . انظر تجارب الامم لمسكويه : ١/١٦١ ـ ١٦٢ ـ العيون والحدائق ـ ط . دمشق ١٩٧٢ : ٢/٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

سنة ثلاثمائة للهجرة ، وهو معنى ما جاء في الحديث من طلوع الشمس من مغربها ، وكم كان لهم من الخطب المنسوبة الى أمير المؤمنين بأن ولده المهدي يظهر من المغرب، ويملك الارض في سنة ثلاثمائة للهجرة ، وان هذا موجود في الملاحم •

وصدرت رسل بني بسطام وغيرهم من الشيعة الى المغرب : بادر فان الارض كلها لك والخليفة ببغداد يومئذ جعفر المقتدر[1] ، وهو صبي ونحن أجلسناه ، وله اثنتا عشرة سنة ، وأولياؤه ومن حوله شيعته ، من آل الفرات وآل بسطام وآل القاسم بن عبدالله وآل أبي البغل والكرخيين وآل نوبخت، فسير ابنه في سنة ثلاثمائة في عساكر عظيمة في البر والبحر وعنده انه يظهر على الارض كلها بسبب ما تقدم ذكره ، ولاجل من بخراسان والبحرين من أهل هذه الدعوة •

فقدم مصر ونزل عليها في سنة اثنتين وثلاثمائة ، واذا أبو سعيد الجنابي قد قتل بالبحرين ، وقد ظهرت الفضيحة بها ، ولقيه بظاهر مصر القاسم بن سيماء الفرغاني في سبعة آلاف فرد تلك العساكر كلها ورجع ابن عبيد الله الى أبيه بالمغرب بالخيبة والهزيمة ، وذهبت تلك الاموال ، وجاءت جواسيسه الى الشيعة المقدم ذكرهم بالعراق تعنفهم فيما كان من اطماعهم له ، وما كان من القاسم بن سيماء الفرغاني • فاعتذروا اليه وقالوا له : ارجع • فرد ابنه في سنة سبع وثلاثمائة بأكثر من تلك الجيوش في البر والبحر ، فنزل على مصر سنين متوالية ، ونزل على عسكره في الماء ثمل الخادم من طرسوس في ثمانية عشر مركبا فهزمهم ، فرجع الى أبيه بالخيبة والهزيمة ، ثم رد العسكر الى مصر ، وقد قتل المقتدر ، فرجع بالخيبة والهزيمة • وكان مع هذه الحال يشتد على أهل القيروان وما يملكه من أرض المغرب بالجور وقتل الرجال واستصفاء الاموال ، وقصد الفقهاء والعلماء ، وقد كان بث دعاته يدعون الناس اليه والى طاعته ، ويأخذون عليهم العهود ، ويلقون الى الناس من أمره بحسب عقولهم واحتمال كل طبقة منهم ، فمنهم من يلقون اليهم أنه المهدي ابن رسول الله ، وحجة الله على خلقه ، ومنهم من يلقي انه رسول الله وحجة الله ، ومنهم من يلقي انه الله الخالق الرازق ، فكان اذا ضج الناس من هذا ، وظهر منهم الانكار، يأخذ الدعاة فمرة يحبس بعضهم ومرة يقتلهم ، ويقول : ما آمرت بهذا ، ويقول الدعاة : هو أمرنا وبأمره فعلنا ، وله أن يمتحننا • وكان من جوره وكذبه وفضائحه ما يطول فانه مكث في ملكه نيفا وعشرين سنة •

---

(1) بدات خلافته سنة ٢٩٥ هـ / ٨٠٨ وانتهت سنة ٣٢٠ هـ/٩٣٢ م •

ولما هلك ، قام ابنه الذي قد تقدم ذكره مقامه ، وتسمى بالقائم أمير المؤمنين، وزاد شره على شر أبيـه أضعافا مضاعفة ، وجاهر بشتم الانبياء ، فكان ينادي في أسواق إفريقية والمهدية ، وهي مدينة كان بناها أبوه وحصنها ، فكان يقال : العنوا عائشة وبعلها، العنوا الغار ومن حوى، وقتل الفقهاء والعلماء القتل الذريع، واستولى من بلدان المغرب على أكثر ما استولى عليه أبوه ، فان بلدان المغرب واسعة عظيمة وهي تشبه بخراسان في السعة وكثرة الرجال وهي في يد عدة من الملوك ، وكان يقول في هذا أنه هو الذي يظهر ويملك الارض ، وأنه هو الحجة والمهدي ، وكتب الى أبي طاهر القرمطي المقيم بالبحرين البلاغ السابع ، والناموس الاعظم ، وهو سر الدعوة وحقيقتها ، وحثه على قتل المسلمين ، واحراق المساجد والمصاحف ، وكان قد كتب هذا الكتاب في حياة أبيه ، وكان أبوه في أول أمره يقول : ان هـذا يتيم في حجري وهو علوي من ولد اسماعيل بن جعفر بن محمد ، وكان في أول أمره يظن أنه لا يتم له أمر الملك ، فلما تمكن وفعل هذا قال : هذا ابني وهو علوي ، وشرح ظلم هذا القائم وقسوته وفجوره يطول ، وهو أكثر مما أتى أبوه .

وكان لهذا الذي يسمى بأمير المؤمنين القائم بن المهدي ، ابن يقال له القاسم ، وكان قد تأدب وقال الشعر ، وكان فارسا ، فاستخلفه ونص عليه ، وقال : هـذا القائم الامام الذي آمر باستخلافه عليكم ، وهو القائم بعدي ، فاسمعوا له وأطيعوا، فمات هذا القاسم في حياة أبيه ، فكان يقال بالقيروان ما أكثر كذب هؤلاء المشارقة.

ولكثرة ما كان من جور هذا وقتله للناس واستصفائه الاموال ، اجتمع قوم من أهل الجبل بالمغرب على رجل من الاباضية يقال له أبو يزيد مخلـد بن كيداد فبايعوه ، وكان شيخا كبيرا ضعيفا لا يمكنه لضعفه أن يستمسك على فرس ، فكان يركب حمارا ، وكان له وزيره يستشيره أعمى فأنفذ اليه هذا الذي تسمى بالقائم بن المهدي بعسكر فكسره ورده ، وتسامع به الناس ، وأنه ينكر المنكر ، فاجتمعوا اليه وأتوه ، وسار من الجبل الى الامصار، ولقيته العساكر فكسرها كلها، ودخل إفريقية، وأزال الظلم والمكوس ، وملك كل ما كان في أيدي هؤلاء القرامطة من أرض المغرب الا المهدية ، فانه حاصرهم فيها ، والا صقلية وطرابلس من أرض المغرب ، ومات هذا المسمى بالقائم بن المهدي في الحصار ، وعرض له وسواس ، وزال عقله مما نزل به من الذل ، وقتل الرجال ، وزوال الملك ، وجوع من بقي معه بالمهدية بالحصار .

وقام بعده ابنه أبو طاهر اسماعيل ، وضمن للناس تغيير سيرة أبيه وجده ، وأنه لا يتعرض لدياناتهم ، وحلف على ذلك ، وأكد واشهد ، واستعان بأبي الحسين بن عمار ، فأشار عليه بهذه الأمور • وقد كان أبو يزيد مخلد بن كيداد ملك خمس سنين ، وكثرت عساكره ، فانتشر عليه أمره ، وأظهر أصحابه دين الاباضية ، فكرهه الناس، وخرج أبو طاهر اسماعيل وحاربه وكبسه في صحراء، وأخذه وسلخه وصلبه؛ ووفى للناس بما وعد ، وعدل وأنصف وأخذ الدعاة الذين كانوا لهم فحلق لحاهم ، ونفاهم ، وقال لاهل القيروان : من سمعتموه ينال من أصحاب رسول الله ﷺ فاقتلوه فاني معكم ومن ورائكم ، وأطلق المحدثين في الحديث ، والناس في اقامة التراويح ، وأطلق الناس في غزو الروم وأذلوهم ، وأعز المسلمين والثغور على يدي أبي القاسم ابن أبي الحسين بن عمار ، والثغور في يد أولاده الى هذه الغاية ؛ وهم قوم مسلمون فيهم خير كثير ، والشرك مقموع بهم هناك ، ولهم سيرة حسنة طويلة مذكورة •

واشتغل اسماعيل بأهل الجبال يقتلهم ويشردهم ، خوفا من أن يثور عليه ثائر مثل أبي يزيد مخلد بن كيداد ، وتقدم اسماعيل الى الفقهاء بأن يتركوا له حلقة في الجامع خاصة له يقعد فيها أصحابه تكون حلقة لجعفر بن محمد ، فجلس فيها جماعة لا يختلطون بالفقهاء ، وكانوا يتذاكرون في حلقهم ذكر أفلاطن وبطليموس وأرسطو، فقال الناس : هؤلاء ملحدة وزنادقة وأعداء الانبياء ، فكيف تكون هذه الحلقة حلقة جعفر بن محمد ؟! واذا نية اسماعيل غير صافية في الاسلام ، وانما أظهر الرجوع عن سيرة أبيه وجده خوفا مما جرى •

وكان لاسماعيل أخ يقال له يوسف ، وكان ينظر في الكتب ويسأل العلماء ، وكان فيه فضل ، وكان يقول : انا أولاد النبي ، ولا نعظم الا أعداء الانبياء من الفلاسفة ، ودعاتنا كل سفلة كذاب ، ركاب لكل فاحشة ، ولو كنا من أولاد الانبياء، ونحب الانبياء ، ما كانت هذه حالنا ، ثم يسمي الدعاة واحدا واحدا ويذكرهم بما فيهم ، فقد كان فيهم أبو الاسود وكان ينكح بنته • وقصة يوسف هذا معروفة ومات بأجدابية[١] في مصيره الى مصر ، وفيما أظن أن ولده بمصر الى هذه الغاية • ثم ان اسماعيل استخلف ابنه أبا تميم معدا وجعله ولي عهده ، وسماه بالمعز لدين [الله][٢] •

---

(١) بلد بين برقة وطرابلس الغرب ـ معجم البلدان .

(٢) زيادة اقتضاها السياق .

ومات اسماعيل في سنة احدى وأربعين وثلاثمائة وقام أبو تميم بعده ، وسار سيرته، ورفق بالناس وتمكن ، وصفت له المغرب فما تحرك عليه أحد ، واتسع ملكه وجبى الاموال • ثم تغير وقرب الدعاة : فقالوا : هذا هو المهدي ، وهو الذي يملك ، وهو الشمس التي تطلع من مغربها • واتفق أن الروم أخذت ثغور المسلمين من طرسوس وأذنة والمصيصة وعين زربة وغيرها في أيامه ، واحتوت فاشتد طمعه في الاسلام ، وسره المصائب التي نزلت بالمسلمين ، وبلغه أنه قد كتب على المساجد ببغداد لعن خلفاء رسول الله ﷺ ، فطار سرورا بهذا وطغى وتجبر ، وهمّ بغزو مصر لأن فيها شيعة كثرا ، وانما سلطانها خصي أسود(١) مولى لموالي بني العباس وقال : عقله عقل امرأة والذين معه من الجند أسوأ حالا منه ، وقد اعتادوا الترفه والاكل والشرب ، وليست لهم بالحرب عادة ، ومن بها من الشيعة يكاتبنا ويهون أمر هذا الخصي ، والثغور فقد ذهبت ، وما بقي للاسلام سلطان ولا ملك ، والديلم الذين بالعراق والجبال شيعة لنا ومن قبلنا • فكان يقول له من حوله مثل ولد أبي الحسين بن عمار وجعفر بن فلاح بن مرزوق ، ومحمد بن سليمان : يا أمير المؤمنين ، مصر قد أفنت رجالكم وفرغت بيوت أموالكم ، وقد طمع فيها آباؤك مرة بعد مرة فما تم ما أرادوا، وكان الدعاة يقولون : اذا زال الحجر الاسود ملك مولانا المعز لدين الله الارض كلها ، وبيننا وبينكم الحجر الاسود وليس هذا كغيره ، فان لم نملك هذه الارض كلها فكلما نقول لكم باطل، يعنون بالحجر الاسود كافورا الخصي الاسود، أمير مصر •

فمات كافور في سنة ست وخمسين وثلاثمائة ، واختلف العسكر بمصر وكان أميرهم ابن عبد الله بن الاخشيد وكان شيعيا قد دخل في الدعوة ، وكان رخوا مخنثا، فقال له أبو جعفر بن نصر : أيها الامير ، أمير المؤمنين أبو تميم المعز لدين الله هو لك كالوالد ، والجند قد طمعوا فيك فان شئت أن تدع الامر له حتى يدبره لك ، فانه أبصر بتدبير الجند وأقدر ، فقال : إي والله أريد الراحة منهم ، وأقبل على أبي يعقوب ابن الازرق الكاتب الانباري(٢) فقال له : يا أبا يعقوب ، قد جعل هؤلاء الجند في فؤادي كل دودة مثل هذه ، وأشار الى اصبعه ، وأخذ ابن نصر كتابه الى أبي تميم بذلك •

---

(١) المقصود هو كافور الاخشيدي كما سيأتي •

(٢) لعله الذي ذكره ابن ميسر في تاريخه في حوادث سنة ٣٥٧ هـ : ٢/٦١ •

فأرسل أبو تميم صاحبه ، وهو عبد كان لهم من الروم ، يقال له جوهر ، فخرج في مائة ألف ، فوافى مصر ودخلها بلا حرب ولا قتال ، ولا خلاف ، في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، واستولى على الكنوز وبيوت الاموال، وخرج أميرها أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن الاخشيد فأقام بالرملة ، فخرج اليه جعفر بن فلاح في عسكره فكبسه وأنفذه الى جوهر ، فأنفذه الى المغرب ، الى أبي تميم ، فلما حصل عنده أظهر له البشر والبشاشة وقال له ، أنت ولدي ومن لحمي ودمي ، وانما أنفذت جوهرا لنصرتك وطاعتك ، والله يا بني ما حصل جوهر بقلشانة[1] حتى لزمني عليه أربعة آلاف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار،وقلشانة هو منزل بالقرب من إفريقية . فظن ابن عبيد الله أن الامر كما قال ، فقعد يسعى بجوهر والقواد الذين استأمنوا اليه من المصريين ، مثل نحرير الازغلي ، ونحرير شويزان ، وشمول ، وغيرهم من القواد والامراء وكان كل واحد منهم كقارون في الغنى ، فكتب المعز الى جوهر فقبض عليهم وغدر بهم أجمعين ، وحملهم الى المغرب وقبض نعمهم وكنوزهم ، وحصلوا بالمغرب مع ابن عبيد الله بن الاخشيد فما يعرف لهم خبر الى هذه الغاية ، ووافى أبو تميم معد بن اسماعيل مصر في سنة اثنتين وستين وثلاثمائة[2] .

وقد كان للقرامطة الذين بالاحساء عليه أتاوة وجزية يأخذونها منه عن أعماله وما في يده ، فأخرها عنهم واستطال عليهم وعلى الناس كلهم بملكه مصر ، وقال جوهر ، وقد ذكرت له قرامطة الاحساء والجزية التي لهم عليهم فقال : من هؤلاء الكلاب ، الان أنفذ كتامة الى الاحساء فيشدون براذينهم على أبوابهم ويسبونهم .

واحتجب المعز بمصر ، فكان لا يصل اليه الا الواحد بعد الواحد من خواصه من الجند والعامة ، ويأتون بها ، ويلقون من الاراجيف في الناس ما يوصيهم بـه . وبث جواسيسه وعيونه وثقاته من الرجال والنساء في الناس يتعرفون له أخبارهم ، وطال استتاره حتى أرجف الناس بموته ، وهو متوفر على التنعم والاغذية التـي تشحم وتسمن ، والاطلية التي تنقي البشرة ، وتحسن اللون والصورة ، ثم ظهـر

---

(١) من مدن تونس ـ إفريقية ـ معجم البلدان .

(٢) ترجم المقريزي في كتابه المقفى ترجمة وافية لجوهر ، واورد تفاصيل اخذه مصر وحوادثها حتى ما بعد قدوم المعز اليها ، وقد نشرت هذه الترجمة في ملاحـق كتابي : مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ـ ط . دمشق : ٣٢١ ـ ٣٢٤ . وانظر ايضا ترجمة جعفر بن فلاح في الكتاب نفسـه : ٣١٣ ـ ٣٢٠ .

للناس بعد مدة طويلة[1] ، وجلس لهم في حرير فائق رائق أخضر مذهب وعمامته منه ، وعلى وجهه الجواهر واليواقيت ، وهي تلمع كالكواكب ، وأوهم أنه كان غائبا في السماء ، وأن الله رفعه اليه، وكان يتحدث بما كان يأتيه به أصحاب أخباره في حال استتاره ، ويوهم أن الله أطلعه على تلك الغيوب ، ويعرض بالجمل دون التفصيل ، ويقول: قوم قالوا : كذا، وقوم قالوا : كذا، وقوم عزموا على كذا، وبث الجواسيس بالاراجيف ، بأنه كان في السماء ، وأن الله استزاره ورفعه اليه ، فامتلأت قلوب العامة والجهال منه ، وظنوا ذلك ، وان كل ما يتوعد به ويعد به من تلك الأرض كلها حق .

ووافى العراق أبو علي الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الجنابي من الاحساء في عسكر ، والسلطان ببغداد أبو منصور بختيار بن معز الدولة ، فسأله أبو علي ــ هذا القرمطي ــ ان يأخذ له عهدا ولواءا من الخليفة المطيع لله وولاية على مصر والشام ، وقال لهم : أنا أعرف بهذا الممخرق أبي تميم منكم ، وأعرف أصله وأبوته ، ومخاريق عبد الله بن ميمون القداح وأولاده ، وأنا أبلغ به أقصى المغرب وأرده من حيث جاء فقال الخليفة المطيع لله لبختيار ، وقد سأله ذلك : لا أفعل هذا ،هؤلاء كلهم قرامطة ، وهؤلاء قتلوا الحجاج بمكة ، فان تابوا من ذلك وبرئوا ممن فعله وتركوا التسمي بالسادة[2] وليتهم ، والا لم أفعل . فثقل على أبي علي هذا ، وكان يعرف بالقصير[3] وبريء من فعل اخوته وبني عمه ، ومن أبي سعيد وأبي طاهر وغيرهما من آبائه ، وأخذ يعتذر لما صنعوا بمعاذير طويلة ، وانهم مافعلوا ذلك عداوة للاسلام ولا خروجا عن طاعة الخلفاء من بني العباس ، فما قبل ذلك المطيع ، وأقام على منعهم ، وطال خضوع أبي علي هذا، فما أجابهم المطيع، فأشار عليه بختيار وغيره بأن يذهب ويدعي أن المطيع قد ولاه ، وقيل له : العسكر الذين معك جندك وأهلك وأصحابك ومن مالك تنفق عليهم،ولست تطمع في أن يعطيك المطيع شيئا من مال ولا جند،فقبل ذلك[4].

---

(١) هذه غيبة صغرى ، وفي العقيدة الاسماعيلية هناك انواع من الغيبة منها ما يكون لشهور ومنها ما يمتد عبر دهور ، ولعل أصل الفكرة استعير مما جاء في القرآن وغيره من الكتب الدينية عن غيبة النبي موسى ، وتطور الامر مع تطور عقيدة الامامة ومسالة المهدي المنتظر .

(٢) كان كل واحد من زعماء قرامطة الاحساء من آل الجنابي ينادي بلقب « سيد » .

(٣) شهر بالاعصم ، والاعضم هو القصير .

(٤) كذا وقد مر معنا ، وسيتكرر بشيء اكبر من التفاصيل بانه احيل على ابي تغلب الغضنفر الامير الحمداني للموصل ، فأخذ منه مالا ورجالا .

وما كان رغبته في تقليد المطيع الا لتقبله العامة بالشام ومصر ، فلما لم يجبه المطيع الى ذلك اتخذ هو لنفسه أعلاما سودا ورايات ، وكتب عليها المطيع لله أمير المؤمنين ، وتحته : « السادة الراجعين الى الحق » ، ثم سار الى الشام . فلقي عساكر أبي تميم وواقعهم وقتلهم ، وقتل أميرهم ابن فلاح ، وقتل أصحابه ، واستولى على الشام ، وأقام الدعوة للمطيع ولخلفاء بني العباس ، وأظهر تعظيمهم ووجوب طاعتهم، وأخذ في لعن أبي تميم ، وذكر آبائه واحدا واحدا ، وأنهم ولد القداح ، وأنهم ما كانوا قط الا كذابين ممخرقين أعداء الاسلام ، يذهبون مذاهب الزنادقة ، وأبو تميم قد انحجز مع عساكره بمصر ، ومع هذا فيبذل له من الجزية والاتاوة أكثر مما كان يأخذ قبل هذا ، والحسن هذا يقرأ كتبه على الناس ويبين فيه عيه ومخاويفه ، وبلغ بأبي تميم الخوف منه الى أن حصن مدينته بمصر، وهي التي يسمونها بالقاهرة، وشيد سورها وأوثقه وحفر خندقها وعمقه ، والحسن يبلغه ما ينادي به أبو تميم من فضائحهم تحريضا للناس عليه ، فيقوم بالشام وينادي بفضائحهم وعداوتهم للاسلام، كما هو مذكور في كتبه وأشعاره فيهم .

ولكثرة ما قال وبين ، قال أبو بكر النابلسي[1] رئيس الفقهاء بالشام : جهاد هؤلاء أولى من جهاد الروم ، وغزو هؤلاء أولى من جهاد الروم ، اذ الروم أهل كتاب ، وهؤلاء كفار مشركون ، ليسوا أهل كتاب ، بل هم أعداء جميع الانبياء وجميع الكتب التي أنزلها الله ، والروم لا تكتم دينها بل تضج بما تدعو اليه ، وهؤلاء يضمرون الشرك ويخدعون الناس باظهار التشيع .

وسار الحسن هذا حتى نزل على خندق القاهرة وحاصر أبا تميم ، وأشرف على أخذه ، فبذل أبو تميم الاموال لابن الجراح[2] الطائي هذا الذي هو حي، وهو كثير العشيرة ، فغدر بالحسن هذا ، وأخذ سواده من ورائه وشغله بنفسه ، وأفسد تدبيره ، فانصرف عن الخندق ، وانهزم بمن معه ، ولحق أبو تميم المنهزمين من أصحاب الحسن ، فأخذهم وأخذ أتباع العسكر، وأهل التسوق في العسكر، وأرسل الى الشام وأخذ أبا بكر النابلسي الفقيه، وسأله عما بلغه عنه ، وما أفتى فيه ، فاعترف به وقال له ما هو أغلظ منه ، فأمر بسلخه حيا فسلخ، وهذه عادة لهم في سلخ المسلمين

---

(١) اعتقل فيما بعد وتم قتله بصورة وحشية للغاية ، كما سيرد بعد قليل .
(٢) سيرد ذكر هذا فيما بعد في ترجمة الاعصم .

أحياء[1] ، قد فعل ذلك سعيد وغيره ، وأخذ من ظفر به من قرامطة الاحساء فأكرمهم ووصلهم وخلع عليهم وعاتبهم وردهم مكرمين الى الاحساء .

وضمن أبو تميم لابن المنجا القرمطي ، صاحب الحسن ، الاموال له خاصة الى أن أصلح بينه وبين الحسن وبين أهل الاحساء ، فضمن ابن المنجا ذلك كله ، وكان من المأسورين فأطلقه وأطلق غيره من الاسارى فذهبوا وأصلحوا بينهم ، وقبلوا الاموال والاتاوة من أبي تميم وأجراها لهم في كل سنة ، فكفوا عنه ، وأخذوها منه في حياته الى أن مات وأخذوها من ابنه هذا المتسمي بالعزيز ، وهو نزار أبو المنصور ابن معد الى أن حاصر الاصفر العقيلي القرامطة بالاحساء ، وقتل من يخرج منهم فهم الى هذه الغاية ما تخرج لهم سرية خوفا من الاصفر[2] .

وبادر نزار[3] بن أبي تميم هذا فهادى الاصفر بهدايا كثيرة نفيسة ، وحمل اليه أموالا عظيمة ، وسأله أن يرسل اليه ثقة له ، فأرسل الاصفر ابن أخته ، فأكرمه نزار الكرامة التامة ، وحمل على سرج من ذهب ، وقاد بين يديه الخيول ، وأعطاه الاموال على أن يدعو خاله للدخول في دعوتهم على أن يقطعه البلدان العظيمة من أرض الشام ، فمنع الاصفر من ذلك رجل معه من أصحاب أبي حنيفة يقال له أبو بكر محمد بن محمد النيسابوري ، فقال له : لا تغتر بما يظهر نزار من أنه من المسلمين وأنه يدعو الى الاسلام والى الحق ، فانه شر من هؤلاء القرامطة الذين بالاحساء وهم الاصل في الفساد الذي وقع في الاسلام ، وخذ الاموال التي أعطوك فانما هي هدايا أهدوها لك ، وابتداؤك بها ، فأرسل الاصفر الى نزار في جواب الرسالة : اني لست أجيبك الى قبول ما بذلت من الاقطاع بالشام الى أن أفرغ من الاحساء وأهلها وأعرفك ما عندي ...

---

(1) هذا صحيح ، وحفظ لنا التاريخ اخبار عدة احداث من هذا القبيل ، من اشهرها نهاية علاقة الملاح الصوري حيث اعتقل وحمل « واصحابه الى مصر ، فسلخ حيا ، وصلب بظاهر المنظر بعد أن حشي جلده تبنا ، وقتل اصحابه » . ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي : ٥٠ ــ ٥١ .

(2) سبقت الاشارة الى ان هذا كان سنة ٣٧٨ هـ ، وان الاصفر كان من المنتفق ، وهم وعقيل يعودون الى جد واحد ، والمفيد هنا ملاحظته هو تاريخ تصنيف القاضي لكتابه ، وانه كان شاهد عيان يصور لنا انفعالات اهل عصره .

(3) هو العزيز : ٣٦٥ هـ/٩٧٥ م ــ ٣٨٦ هـ/٩٩٦ م .

کتـــاب سفـــرنامـــه

وصف الاحساء

والحسا مدينة في الصحراء ، ولبلوغها ، عن أي طريق ، ينبغي اجتياز صحراء واسعة ، والبصرة أقرب البلاد الاسلامية التي بها سلطنة الى الحساء وبينهما خمسون فرسخ ، ولم يقصد سلطان من البصرة الحسا قط .

والحسا مدينة وربض أيضا ، وبها قلعة ، ويحيط بها أربعة أسوار قوية متعاقبة من اللبن المحكم البناء ، بين كل اثنتين منها ما يقرب من فرسخ ، وفي المدينة عيون ماء عظيمة ، تكفي كل منها لادارة خمس سواق ، ويستهلك كل هذا الماء بها ، فلا يخرج منها ، ووسط الحصن ، مدينة جميلة بها كل وسائل الحياة التي في المدن الكبيرة ، وفيها أكثر من عشرين ألف محارب ، وقيل ان سلطانهم كان شريفا ، وقد ردهم عن الاسلام ، وقال اني أعفيتكم من الصلاة والصوم ، ودعاهم الى أن مرجعهم لا يكون الا اليه ، واسمه أبو سعيد ، وحين يسألون عن مذهبهم يقولون : إنا أبو سعيديون ، وهم لا يصلون ولا يصومون ، ولكنهم يقرون بمحمد ﷺ وبرسالته ، وقد قال لهم أبو سعيد : اني أرجع اليكم ، يعني بعد الوفاة ، وقبره داخل المدينة وقد بنوا عنده قبرا جميلا ، وقد أوصى أبناءه قائلا : « يرعى الملك ويحافظ عليه ستة من أبنائي يحكمون الناس بالعدل والقسطاس ، ولا يختلفون فيما بينهم ، حتى أعود » ، ولهؤلاء الحكام الآن قصر منيف ، هو دار ملكهم(1) ، وبه تخت يجلسون هم الستة عليه ويصدرون أوامرهم بالاتفاق ، وكذلك يحكمون ، ولهم ستة وزراء(2)، فيجلس الملوك على تخت والوزراء على تخت آخر ، ويتداولون في كل أمر وكان لهم في ذلك الوقت ثلاثون ألف عبد زنجي وحبشي ، يشتغلون بالزراعة وفلاحة البساتين ، وهم لا يأخذون عشورا من الرعية ، واذا افتقر انسان أو استدان يتعهدونه حتى يتيسر عمله ، واذا كان لأحدهم دين على آخر لا يطالبه بأكثر من رأس المال الذي له ، وكل غريب ينزل في هذه المدينة وله صناعة ، يعطى ما يكفيه من المال حتى يشتري ما يلزم

---

(1) تهدم هذا القصر ، وبقي منه آثار ، ويسميه أهل تلك الجهة « قصر قريمط »

(2) وزراء القرامطة كانوا من آل سنبر

صناعته من عدد وآلات ، ويرد الي الحكام ما أخذ حين يشاء ، واذا تخرب بيت أو طاحون أحد الملاك ، ولم تكن لديه القدرة على الاصلاح ، أمروا جماعة من عبيدهم بأن يذهبوا اليه ويصلحوا المنزل أو الطاحون ، ولا يطلبون من المالك شيئا .

وفي الحسا مطاحن مملوكة للسلطان ، تطحن الحبوب للرعية مجانا ، ويدفع فيها السلطان نفقات اصلاحها وأجور الطحانين ، وهؤلاء السلاطين الستة يسمون السادات ، ويسمي وزراؤهم الشائرة ، وليس في مدينة الحسا مسجد جمعة ، ولاتقام بها صلاة أو خطبة ، الا أن رجلا فارسيا اسمه علي بن أحمد بنى مسجدا ، وهو مسلم حاج غني كان يتعهد الحجاج الذين يبلغون الحسا ، والبيع والشراء والعطاء، والاخذ يتم هناك بواسطة رصاص في زبيل يزن كل منها ستة آلاف درهم ، فيدفع الثمن عددا من الزنابيل ، وهذه العملة لا تسري في الخارج ، وينسجون هناك فوطا جميلة ، ويصدرونها للبصرة وغيرها .

واذا صلى أحد فانه لا يمنع ، ولكنهم أنفسهم لا يصلون ، ويجيب السلاطين من يحدثهم من الرعية برقة وتواضع، ولا يشربون[1] مطلقا، وعلى باب قبر أبي سعيد حصان مهيأ بعناية ، عليه طوق ولجام ، يقف بالنوبة ليلا ونهارا ، يعنون بذلك أن أبا سعيد يركبه حين يرجع الى الدنيا ، ويقال انه قال لأبنائه: « حين أعود ولاتعرفونني اضربوا رقبتي بسيفي فاذا كنت أنا حييت في الحال » ، وقد وضعت هذه الدلالة حتى لا يدعي أحد أنه أبو سعيد .

وقد ذهب أحد هؤلاء السلاطين بجيش الى مكة أيام خلفاء بغداد ، فاستولى عليها ، وقتل من كان يطوف بالكعبة ، وانتزع الحجر الاسود من مكانه ونقله الى الحسا ، وقد زعموا أن هذا الحجر مغناطيس يجذب الناس اليه من أطراف العالم ، ولم يفقهوا أن شرف المصطفى ﷺ وجلاله هما اللذان يجذبان الناس ، فقد لبث الحجر الاسود في الحسا سنين عديدة ، ولم يذهب اليها أحد ، وأخيرا اشتري منهم الحجر الاسود ، وأعيد الى مكانه .

وفي الحسا تباع لحوم الحيوانات كلها : من قطط ، وكلاب ، وحمير ، وبقر ، وخراف ، وغيرها ، ويوضع رأس الحيوان وجلده بقرب لحمه ، ليعرف المشتري ماذا

---

(١) اي الخمور

يشتري ، وهم يسمنون الكلاب هناك كما تعلف الخراف حتى لا تستطيع الحركة من سمنها ، ثم يذبحونها ويبيعون لحمها •

والبحر على مسيرة سبعة فراسخ من الحسا الى ناحية الشرق ، فاذا اجتازه المسافر وجد البحرين ، وهي جزيرة طولها خمسة عشر فرسخا ، والبحرين مدينة كبيرة أيضا ، بها نخل كثير ، ويستخرجون من هذا البحر اللؤلؤ ، ولسلاطين الحسا نصف ما يستخرجه الغواصون منه ، واذا سار المسافر جنوب الحسا يبلغ عمان ، وهي في بلاد العرب ، وثلاثة جوانب منها صحراء لا يمكن اجتيازها ، وولاية عمان ثمانون فرسخا في مثلها ، وهي حارة الجو، ويكثر بها الجوز الهندي المسمى نارجيل، واذا أبحر المسافر من عمان نحو الشرق يبلغ شاطىء كيش ومكران ، واذا سار جنوبا يبلغ عدن ، فاذا سار في الجانب الاخر يبلغ فارس •

وفي الحسا تمر كثير ، حتى أنهم يسمنون به المواشي ، ويأتي وقت يباع فيه أكثر من ألف من[1] بدينار واحد ، وحين يسير المسافر من الحسا الى الشمال سبعة فراسخ يبلغ جهة القطيف ، وهي مدينة كبيرة بها نخل كثيرة ، وقد ذهب أمير عربي الى أبواب الحسا ، ورابط هناك سنة ، واستولى على سور من أسوارها الاربعة ، وشن عليها غارات كثيرة ، ولكنه لم ينل من أهلها شيئا ، وقد سألني حين رآني عما تنبيء به النجوم ، قال : أريد أن أستولي على الحسا فهل أستطيع أم لا ، فان أهلها قوم لا دين لهم ؟ فأجبته بما طيب خاطره •

وعندي أن كل البدو يشبهون أهل الحسا ، فلا دين لهم ، ومنهم أناس لم يمس الماء أيديهم مدة سنة ، أقول هذا عن بصيرة ، لا شيء فيه من المغالاة ، فقد عشت في وسطهم تسعة أشهر دفعة واحدة لا انقطاع بينها ، ولم أكن أستطيع أن أشرب اللبن الذي كانوا يقدمونه الي كلما طلبت ماء لأشرب ، فحين أرفضه وأطلب الماء يقولون : اطلبه حيثما تراه ، ولكن عند من تراه ؟ وهم لم يروا الحمامات أو الماء الجاري في حياتهم[2] •

---

(١) المن وزن مائتين وسبعة وخمسين درهما وسبعة دراهم مفاتيح العلوم للخوارزمي ط القاهرة ١٣٤٢ هـ ص : ١١

(٢) انظر سفرنامة ط. بيروت ١٩٧٠ ترجمة يحيى الخشاب ـ ص : ١٤٢ـ١٤٥ .